

نسيب الحسيني



الغرب المتخيل

رؤية الآخر
في الوجدان السياسي العربي
ترجمة : غازي برو



تضرب المواجهة بين «الشرق» و«الغرب» جذورها فى التاريخ. فى هذا الكتاب، يعاين نسيب سمير الحسينى كيف توصل «الشرق» و«الغرب»، فى الوجدان السياسى العربى، إلى تكوين كتلتين متراصتين وتشكيل المدارك الحسية والمواقف وردود الأفعال. ويستكشف فيه أقدم الأساطير كتلك التى تروى اختطاف «ف» لعربية وكذلك صيغ التعبير الأكثر عصرية عن رفع الغرب إلى مرتبة المثال أو رفضه، والأثر الذى تركته فى الذاكرة الحملات الصليبية أو حملة نابليون. كما يتناول الجرح الأحدث الذى تسبب به إنشاء دولة إسرائيل. عوضًا عن المواجهة بين «غرب» و«شرق»، سعى المؤلف إلى تقديم صورة أكثر تعقيدًا، حيث يبرز فيها أخذ الشيات والمعاكسات فى الحسبان بمثابة شرط لاستئناف أى حوار.

نسيب سمير الحسينى مولود فى لبنان، درس فى الجامعة الأمريكية ببيروت، وحاز على شهادة الدكتوراه من جامعة كيبك بمونتريال. وإلى جانب كونه رئيسًا للقنطرة، شركة استشارات مهمتها نسج علاقات اقتصادية وثقافية مع العالم العربى، فهو باحث مشارك فى كرسى Téléglobe-Raoul-Dandurand للدراسات الإستراتيجية والدبلوماسية فى جامعة كيبك بمونتريال (UQAM).

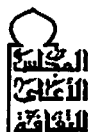
المشروع القومي للترجمة

الغرب المتخيل

رؤية الأخر في الوجدان السياسي العربي

تأليف : نسيب سمير الحسینی

ترجمة : غازي برو



٢٠٠٥

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٧٦٧

– الغرب المتخيل (رؤية الآخر في الوجدان السياسى العربى)

– نسيب سمير الحسينى

– غازى برّو

– الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

L'OCCIDENT IMAGINAIRE

La vision de l'Autre dans la conscience politique arabe

De Nassib Samir El-Husseini

(Presses de l'Université du Québec, 1998)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة ودار الفارابى

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7 زهرة المدائن
13 توطئة وشكر
17	تصدير للطبعة العربية بعد ثمانى سنوات: الغرب المتشظى
21 مقدمة، فى المصطلحات والاستدلالات
39 ١ - الغرب فى الأسطورة
79 ٢ - الغرب التاريخى
137 ٣ - الغرب المثال
203 ٤ - الغرب المرفوض
277 ٥ - تمرُّقٌ ولبلة
355 الخاتمة ، حوار وأحكام مسبقة
371 ملحق، مقابلة مع سماحة السيّد محمد حسين فضل الله ...
387 المراجع

زهرة المدائن (*)

(كلمات الأخوين رحباني - مهرجان الأرز ١٩٦٧)

لأَجْلِكَ يا مَدِينَةَ الصَّلَاةِ أَصْلَى
لأَجْلِكَ يا بَهِيَّةَ الْمَسَاكِينِ يا زَهْرَةَ الْمَدَائِنِ
يا قَدْسُ يا مَدِينَةَ الصَّلَاةِ أَصْلَى
عَيَّوْنَا إِلَيْكَ تَرْحَلُ كُلَّ يَوْمٍ
تَدُورُ فِي أَرْوَاقِ الْمَعَابِدِ
تُعَانِقُ الْكَنَائِسَ الْقَدِيمَةَ
وَتَمْسَحُ الْحُزْنَ عَنِ الْمَسَاجِدِ
يا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ يا دَرْبَ مَنْ مَرُّوا إِلَى السَّمَاءِ
عَيَّوْنَا إِلَيْكَ تَرْحَلُ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي أَصْلَى

(*) شكراً لمختصر الرحباني على سماحه بنشر نص هذه القصيدة .

الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان

يبكيان لأجل من تشردوا

لأجل أطفال بلا منازل

لأجل من دافع واستشهد فى الداخل

واستشهد السلام فى وطن السلام

ونقط العدل على الداخل

حين هوت مدينة القدس تراجع الحب

وفى قلوب الدنيا استوطنت الحرب

الطفل فى المغارة وأمه مريم

وجهان يبكيان وإننى أصلى

الغضب الساطع آت وأنا كلى إيمان

الغضب الساطع آت سامر على الأحران

من كل طريق آت بجماد الرهبة آت

وكوجه الله الغامر آت آت آت

لن يقفل باب مدينتنا فأنا ذاهبة لأصلى

سأدق على الأبواب سأفتحها الأبواب

وَسَتَغْسِلُ يَا نَهْرَ الْأُرْدُنِ وَجْهِي بِمِيَاهِ قُدْسِيَّةٍ
وَسَتَمَحُوْ يَا نَهْرَ الْأُرْدُنِ آثَارَ الْقَدَمِ الْهَمِجِيَّةِ
الْفَضْبِ السَّاطِعِ آتٍ بِجِيَادِ الرِّهْبَةِ آتٍ
وَسَيُهْزِمُ وَجْهَ الْقُوَّةِ
الْبَيْتُ لَنَا وَالْقُدْسُ لَنَا
وَبِأَيْدِينَا مَنُوعِدُ بَهَاءِ الْقُدْسِ
بِأَيْدِينَا لِلْقُدْسِ سَلَامٌ آتٍ آتٍ آتٍ

* * *

إلى الآخر، ذلك الذي ليس سراى. توطئة وشكر

توطئة وشكر

سعت في هذا الكتاب أن أستبر في الوجدان السياسي العربي رؤيته للغرب، سائحاً في عقول العرب، في أمصارهم وأفئدتهم. تحدوني في هذا المشروع الرغبة في معرفة أرقى للذات وذلك عبر دراسة الصورة التي نكوّنها عن الآخر: وهذا الآخر هو الغرب. وأسارع إلى توضيح أننا نقصد بمصطلح الغرب ما درجنا عليه: الإحالة إلى مفهوم تحديده غير واضح تماماً، وتعميمي، وهي مسألة سنسعى في الصفحات اللاحقة إلى مناقشة مدى دقتها وملاءمتها، شأنها في ذلك شأن نقيضتها المتمثلة في مصطلح الشرق^(*).

ما هو هذا الغرب المُتَخَيَّل، ومن نحن؟ سوف نلمس في المقدمة التعقيدات التي تعترضنا ما إن سعينا إلى وسم هذا المجهول الذي

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف عندما استعمل هو نفسه هذين اللفظين إنما فعل ذلك بكل تحفظ ولم يقصد الإقرار بهما كواقعين ، اللهم إلا كواقعين في المخيال العربي . وهو بالتالي لا يقر بهما ككيانين واقعيين حِسِّيَّين . فوجب على القارئ أخذ هذه الملاحظة بعين الاعتبار وقراءة اللفظين وكأنهما موضوعين بين مزبوجين كلما وردا في سياق تفكير المؤلف نفسه . أما ورودهما على لسان من يشير إليهم أو يتناولهم في بحثه من كُتَّاب أو باحثين فلا يخضع لنفس الملاحظة والتحفظ المذكور أعلاه .

نكون. وليست مسألة الغرب المتخيل بمسألة تكتنفها إشكالية أدنى شأنًا، إذ إننا نعلم مسبقاً أننا متعددون في نظرتنا، ولدى كل منا غربه المتخيل. قد تتراوح خصائص رؤانا (*) إليه من الافتتان الكامل به إلى رفضه القاطع، مروراً باستحسانه - أو الارتياب منه - تبعاً للعواقب العملية. ويقودنا ذلك إلى طرح سؤال آخر: هل أن الغرب واحد وفريد في "حقيقته"؟ أليس تنوع رؤانا قرينة لتعدد الغرب في وجوهه؟

لعله كان لهذه التعقيدات أن تحبط من عزيمتى، غير أن إدراكى لأهمية التحدى حال دون تقاعسى فالاستسلام: إذ كيف لى العدول عن هاجس البحث عن الذات، وهو هاجس طالما لازمى وسيبقى كذلك؟ فى وسعنا تجاهل من نحن طالما لم نشعر بالحاجة إلى تناول مسألة كهذه. ولكن ما إن يظهر هذا المجهول الذى نكون، عندما أحرزت إسرائيل انتصارها على مصر ، على سبيل المثال، حتى يصبح متعذراً علينا أن نُشيع بوجهنا عن هويتنا الحقّة. فى حالات مثل هذه، يتبدى قلق واحد يوحد الجماهير العربية فيما يتعدى الحدود. وبالعكس، عندما يلحق بإسرائيل هزيمة نادرة من مثل تلك التى ألحقت بها لدى انهيار خط بارليف؟ ، يتناثر ثقل رازح على القلوب متبدداً فيحل مكانه حبور يعطى نفحاً جديداً لأغاني مثل زهرة المدائن، تسحب من الأذراج للمناسبة، حيثما يُنطق بالعربية، مجلجلة: "القدس لنا". ليست المجابهة مع

(*) جمع رؤية وليس رؤيا .

إسرائيل، بكل تأكيد، المجال الوحيد الذى يتجسد فيه هذا الخيط الجامع؛ لقد شعرنا به عندما انتفض الشعب الجزائرى مطالباً بالاستقلال، وكلما كانت تطل علينا أم كلثوم بأغنية جديدة، ويقدم لنا كاتب عملاً مثيراً، أو حتى فى لعبة كرة القدم حينما تسجل الفرق الجزائرية والمصرية والسعودية، أو أى فريق عربى آخر، هدفاً فى إطار كأس العالم.

ومن جهة أخرى، ثمة إلحاح فى قيام حوارات بين الثقافات. فالمواجهة الوهمية بين الغرب و الشرق تجد تعبيراً عنيفاً عنها على أرض العراق وفلسطين ولبنان ومصر وفى العالم العربى أو حتى فى فرنسا حيث ملف الهجرة العربية - الإسلامية وأثارها. لقد بات غياب التفاهم أمراً بدهياً. ومن أجل التصدى له، يبدو الحوار بين الأفراد إسهاماً متواضعاً، لكننا ضرورى بلا شك. فى هذا السياق، فى وسعنا مشاركة تييرى هنتش ما ذهب إليه فى قوله: "يمر فهمنا لذاتنا عبر فهمنا للآخر". إنه فى سلوكه لهذه الدرب بكتابه الشرق المتخيل ، قد تجاوز هذا الهدف الرئيسى المتمثل فى تعميق فهم الذات عبر الآخر ، وتمكّن من أن يطال هذا الآخر فى صميم القلب. ولا تقتصر هذه السيورة على مجال العاطفة، إذ إنها تحث، عن طريق تحليل نظرة كل طرف من الأطراف إلى الآخر ، على التعارف عن كُتُب والتعرض إلى عدد من الأفكار المسبقة. من شأن تعريف الآخر بذاتنا ودعوته لمبادلتنا الشيء ذاته أن يؤلّد حركة جديدة بتنقية أجواء العلاقات المسمومة. لقد شكل كتاب

تييرى هنتش مصدر إلهام لى، وكانت معرفتى بالمؤلف معرفة شخصية بمثابة دعوة لا تقاوم لرد التحدى.

قد يكون عسيراً توجيه الشكر لجميع الذين مدّوا إلى يد العون من أجل رد هذا التحدى. ففضلاً عن إسهام تييرى هنتش أقرُّ بفائدة التعليقات الثمينة التى جاءت من چان - پيار بو، چان - غى بريغو، چان - مارك پيوت، مارسيل رافيه، سارة فرهود، ديزيريه عزيز، وليد سكرية، إيليا سابا، إميل منعم، لين ترميتس، چوهان قارى، برونو تاسيه، الشيخ مصطفى عسّاف، عدنان عياش، وآخرين كثر. كما وإنى مدين بالفضل للقنصلية العامة للبنان (مونتريال) ولحكومة كيبك لمنحة كان لا غنى عنها لتمكينى من المضى فى مشروعى. وسيكون متعزراً علىّ أيضاً أن أتذكر الظروف كافة التى سمحت لى بالانخراط فى هذه المغامرة، من مثل التفاتة محبة من صديق، غير أن ما لا يسعنى نكرانه هو إسهام عائلتى فى لبنان، فأخصها بكلمات تعجز عن إيفائهم قدر حقهم: والدى سمير، ووالدتى روز وشقيقاى چوى ورونى وكذلك خالى إيليا. أما تانيا فأود أن أقول لها: إن كل ذلك كان غير ممكن لولا صداقتها ولولا كرم ضيافة أهل مون - سانت إيلير.

تصدير للطبعة العربية

بعد ثماني سنوات : الغرب المتشظى

لقد سقطت الأقنعة سقوطاً جلياً وأكثر من أى وقت مضى. فهكذا انضم ملايين من الأشخاص عبر العالم إلى أولئك الذين كانوا يشيرون بإصبعهم إلى لعبة لىّ الذراع القاسية التى تنور رعاها على مستوى الكرة الأرضية بين مصالح مهيمنة، سياسية، تجارية، مالية وصناعية، (واشنطن وتل أبيب ولندن وشركات النفط وشركات الهندسة والمجمع الصناعى الحربى، الذين لهم مداخلهم اليوم فى هذه العواصم منضماً إليهم شركائهم عبر العالم) بين هؤلاء من جهة، والآخرين من جهة أخرى - أولئك الذين يصارعون للمحافظة على مرتبتهم كقوى وسطى أو صغرى (باريس أو بون أو أوروبا القديمة لنستخدم عبارة عزيزة على السيد رامسفيلد؛ وكذلك على سبيل المثال الصين والهند وأستراليا والبرازيل)، وأولئك الذين يكافحون من الرجال والنساء للبقاء على قيد الحياة داخل مخيماتهم الفلسطينية وفى العواصم العربية، أنظمة وشعوباً، فضلاً عن أولئك الآخرين فى أرجاء أخرى من العالم.

قيل لى فى تونس إن الغورى لفظ لا يزال مَسْتَحْدَمًا اليوم لذكر المحارب أى المحارب الأجنبى قديمًا والأوروبى والفرنسى والمالطى أو الإسبانى أيضًا، الذى شن عليه الحرب فيما مضى. و"السورى" هو اللسان الفرنسى، لأن الجنود الفرنسيين كان يرافقهم مترجمون سوريون، فيما لفظ عَرَبِي (Arbi) تعنى عَرَبِي.

من هو المحارب اليوم يا ترى؟ ومن هو السورى اليوم؟

إذ أطرح هذا السؤال فليس من وجهة نظر تونسية صرف أو عربية وإنما كونية تمامًا ، لأن عملية لى الذراع القاسية تجرى على المستوى العالمى فعلاً.

يجرى هذا "الكباش" على حساب الجنس البشرى، والعلاقات البيثقافية ونوعية حياة البشر فى أرجاء المعمورة كافة بما فيها الولايات المتحدة هذه المرة، حيث فقدان الحقوق والحريات والاستمتاع بحياة لا تعيقها الإجراءات الأمنية المتخذة على سبيل إنشاء درع جوى وبرى اتقاءً لأى ضربة مسبقة لصواريخ، أو بقنابل أخرى منفذة جراء اليأس البشرى. عالم تنصدر فيه الأولوية الأمنية على حساب أولويات التنمية والازدهار وتنصدر فيه الأجهزة الأمنية مسرح الأحداث ولم تعد تتدخل متخفية وراء واجهات أخرى.

ما المستجد؟ هذه المرة ظهرت فى معسكر المنتفضين مصالح جديدة اصطلت إلى جانب المناضلين التقليديين. سُمعت أصوات چاك

شيراك وچان كريتيان وجرهرد شرودر وآخرين غيرهم تنحاز إلى معسكر المتظاهرين والمُحتَجِّين، أحكوميين كانوا أم لا، وإلى البيئيين وأنصار العولة البديلة وغيرهم من الأطراف. أصبحت القضية قضية "كباش" لا مكان فيها "لغرب" متكثل (*) من جهة، يعتدى على "شرق" متكثل من الجهة المقابلة. اختلطت الأوراق واصطدمت المصالح فالتفَّ حول كل من الخيارين تحالف ضمَّ خليطاً من القوى.

على أية حال، أيّا كان المعسكر الذى انضمنا إليه، إذا كان ثمة من انضمنا، فإن الهواء الذى تنتشّق تفوح منه رائحة التلاعب والسيطرة، والعنف منتصر على التسامح والسلم. المجابهة والرفض يفرضان نفسيهما عوضاً عن التلاقى.

يتعمق التمزق وينتشر كبقعة الزيت ليلبغ أفاقاً جديدة ويصيب مجتمعات جديدة؛ لكن السذاجة بدورها تتراجع أيضاً.

مزيداً من الناس لم يعودوا مخدوعين، وهم يُعبّرون عن أنفسهم أينما كان، فى مونتريال كما فى بيروت. وفى القاهرة كما فى واشنطن وبغداد. نرى فى مونتريال ٢٠٠٤ كيف أن الناطقين الرسميين من كل الأجناس يتبارزون مع جيرانهم من أصول عربية لفضح هذا "الكباش". ولتحرك والفعل أيضاً. أصبح فى حيازة الشببية من رواد الإنترنت وسائل اتصال ضئيلة الكلفة فعالة تمكنهم من التواصل فى القرية الكونية أكثر مما مضى.

(*) بمعنى غرب واحد مبهم .

مات چون لينون وكذلك چيفارا، ماتت عصبة الأمم وكذلك الأمم المتحدة. من يا ترى سيحلّ محلهم ومن سيجسد الأمل في نظر شبيبة اليوم؟ هل هي الشبيبة نفسها هذه المرة، من دون وسيط؟ أهو تجمّعها عبر المبادرات الخلاقّة التي طرحها سعياً لإعلاء القيم من نوع الجمال والهاجس البيئوي والتعبير الفنّي وتجاوز الذات والتلاقى مع الآخر. كل آخر من هنا ومن مكان آخر.

النجاة لمن استطاع والمقاومة لمن أراد.

لكل طريقته، أقرُّ بذلك، إنما أمنيته أن تكون الطريقة متسامحة، سلمية، مستنيرة، متنوعة لكن حازمة.

شكراً على قراءتكم لى

النجاة لمن استطاع والمقاومة لمن أراد.

مقدمة

فى المصطلحات والاستدلالات

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]

خط التوجيه

إن ما يهدى بحثى هو الغرب، أو، بدقة أكثر، كيفية النظر إليه. لكن هذا الخط لم يكن معطى لى مسبقاً كما هو حال خيط أريان^(١) فى دهلينز المينوتور. وعلى عاتقى، وقع أمر كره. أولاً بأول، عنيت القول إن ما كان يعوزنى هو نقاط إرساء أو، بتعبير آخر، معالم ومنهج.

كيف أجريت اختيار المعالم الرئيسية للتصور الذى يحتله الغرب فى الوجدان السياسى العربى؟ إنه لأمر بدهى أن جهودى لم ترق إلى درجة استبطن الأعمال الأدبية كافة، كل المواقف السياسية، كل الأغانى، كل الأشعار أو كل الوسائط التى يتم التعبير بها

عن مختلف ضروب الغرب المتخيل - ولعلنا نتخيل مدى اتساع هذه المهمة! بيد أنني عيّنت علامات تاريخية واتجاهات كبرى وتيارات فكرية تخترق وعى الجماعة. وقد تبينَ كم أن هذا العمل مُعَقَّد، لا سيَّما أنه يتعذر تصنيف النصوص والكتّاب الذين تناولتهم بالتحليل ضمن فئات حصرية بحالها. ولدى إجراء تحليل الاتجاهات الكبرى، كالأمثلة والرفض، انصب اهتمامنا على تسليط الضوء على التمييز المتوجب في العادة عندما نُصنّفُ واقعة بارزة أو موقفًا لمفكر.

أما في شأن المنهج فإن ميولى الأولى قد نحت بى إلى الانحياز تلقائيًا إلى التراث العربى الإسلامى المتأثر بنفيه لعصمة الكائن البشرى. وغالبًا ما اعتُبرت الحدود، أو فكرة محدودية قدرة العقل البشرى على تفسير سر الله و الخلق، عامل ركود وتخلف يطبع الإسلام. مع ذلك فليس الإقرار بما يحدُّ القدرة البشرية على الفهم بأمر منتقص. كما وأنه، خلافًا للتقليد اليهودى-المسيحى، لا يصور الإنسان فى الإسلام على أنه سيّد الطبيعة، بل هو عنصر من عناصرها. لذلك ففى أغلب الأحيان يتم التذكير بالتواضع ^(٢) كبحاً لادعاء بعض العلوم وبعض الباحثين. إن إقرار مفكرى الإسلام بكونهم غير معصومين لهو إقرار علانى حقًا، كما فعل الماوردى (٩٧٤ - ١٠٥٨)، فيما أن هاجس الدقة والنقد الذاتى لواضح تمامًا عند عالمين شهيرين مثل ابن الأثير ^(٣) (١١٦٠ - ١٢٣٢) وابن خلدون ^(٤) (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وأدرك كلاهما ما للذاتية من نور فى ما أنجزاه من أعمال.

بصفتي مُراقِباً ومُراقِباً فى آن، فإن ميولى تنحوى إلى الانحياز
لكريشنا مورتى، وداثيد بوم، وإدموند هوسرل، وإدغار مورين، أو كذلك
لروبرت پيرسينغ، الذين وضعوا جميعاً، كل على طريقته، الباحث والبحث
ومادة الدراسة فى إطار وحدة حركية لا تنقسم (٥).

الحقل

أى صورة، أى رؤية للغرب نريد التقاطها؟

أهى رؤية شرقية؟ لكن أليس الشرق "جرباب" (*) خيالاتنا (٦)؟ هذا
المكان الذى تضيع فيه المخيلات الجماعية وتعود للظهور من جديد، هذا
المكان الذى نستطيع أن نكون فيه عرباً أو لا، مسلمين أو لا، شرق
متوسطين أو لا. وكم هو يسير الخلط بين ما نحن عليه وما يسمنا به
الآخر، لا سيما حينما ينجح الآخر فى فرض مفرداته على ألدّ
معارضيه. ومصطلح الشرق الجغرافى (الجهة التى تبرز منها الشمس)
المستخدم للدلالة على فكرة الشرق الحضارى متداول اليوم بحرية عند
العرب الذين يستخدمونه على نحو مشوب بالخفة والالتباس، وبالطريقة
المبهمة إياها التى يستخدمها الآخر منذ أن أفضى عليها هذا الأخير
مدلولها "الحديث". والذين يقاومون الغرب، من أمثال قطب والبنا وآية الله

(*) جرباب الراعى : كيس يحتوى كل ما يحتاج إليه المرء .

فضل الله، إنما يأخذون به باليسر ذاته الذي يأخذ به المدافعون عنه،
أو رجل الشارع. باتت تفصلنا مسافة بعيدة عن سنة ١٥١٧ التي كان
فى وسعنا فيها سماع الرد التالى المقتبس من كتاب ليون الأفريقى :

لا يحق لك أن تتردد. إن إمبراطورية
إسلامية تولد فى المشرق [الشرق] ،
ونحن فى المغرب [الغرب] علينا أن نمد
لها يدنا (٧).

لم يجر هذا النقاش فى أوروبا إنما بالفعل فيما يعرف اليوم
بتونس. يتعلق الأمر برد هارون الحذق على ليون الأفريقى حيث مصطلح
الشرق يحيل إلى القسطنطينية وسوريا والعراق... فيما يحيل مصطلح
الغرب بالطبع إلى الجزائر وطرابلس ووهران وغرناطة. بالرغم من أن
الأمر يتعلق بمقتطف من سيرة ليون الأفريقى الخيالية بقلم أمين معلوف،
فإن استخدام هاتين المفردتين لهو استخدام نموذجى تميّز به القرن
السادس عشر. إنها لازمة يستعيدها أمين معلوف فى كتاب حدائق
النور، وهاكم استشهادين إثباتاً لذلك أولهما يخص مرفأ دُبْ:

لم يكن رعايا هذه الإمبراطوريات
يتخالطون فى أى ثغر تخالطهم الحميم فى
(دُبْ)؛ كان ذلك الثغر بالنسبة إلى الخيزرانيات
الشراعية القادمة من (كانتون) المحطة

الأخيرة قبل (جزيرة العرب)؛ وكان بوابة
(الهند) للقادمين من "الغرب"؛ على أن تؤخذ
هذه الكلمة الأخيرة بالمعنى الذى استخدمها
به "مانى" نفسه، أى شاملة (إيطاليا)
(اليونان) و(قرطاجة)، ومعها أيضاً
(مصر)، و(فينيقية) وجميع أراضى (آرام)،
هذه الأراضى التى جعلنا انزلاق فى "التاريخ"
ندعوها الآن "الشرق الأدنى" (٨).

ويتحدث الثانى عن المقر الصيفى الذى كان عازماً على تشييده
الملك شاهبور، ملك ملوك الإمبراطورية الساسانية:

لا ريب فى أنه كان يرجو أن يستفيد
من موقعها الممتاز بين (بلاد ما بين النهرين)
(بلاد فارس) ومن هذا الواقع بين شقئى
"الإمبراطورية" الساسانية، (الغرب) غرب
الساميين و(الشرق) ذى اللغة الآرية (٩).

ولكم هو عسير اليوم، لكننا كم هو ملجأ أيضاً، أن نتجنب فخ الأخذ
بالمصطلحات التى تعكس هيمنة البعض على البعض الآخر: فطالما
لم ندرك اتساع تغلغل الآخر ومداه داخل أعماقنا، وصولاً إلى صميم لغتنا
وطريقة تفكيرنا، فإننا لن نفلح قط فى الانخراط فى حوار معه من الند

للند. لذا فإن استخدام مصطلح الشرق خطر لأن الآخر قد أعدّه تلبيةً لاحتياجاته (وبهذا المنطق لم لا نكون نحن غرب الصين؟). وسنرى فى نهاية هذه الدراسة أن ثمة أسباباً أخرى تقضى بعدم الأخذ بهذه المصطلحات. إذ إننا باعتمادنا لها إنما نكون قد ثبتنا على أن هذه الرؤية الخارجية عنا نظرة صحيحة، وأبقينا معرفتنا بأنفسنا سارحة فى مجال الخيال. وثمة خطورة إضافية فى الأمر تتمثل فى أن مخيالنا ليس موطناً أصيلاً، إنما هو فى قسطه الأكبر مخيال الآخر !

هل ما فى هذه الرؤية له شأن مع الإسلام؟ لم يعرف الإسلام الأول^(١٠) طبعاً مفهوم الغرب. فهو، فى أعلى تقدير، قد دخل فى تفاعل مع عناصر سوف تُربط لاحقاً بشكل تعسفى بهذا المفهوم، هذا من دون إغفال ما أثير من جدل حول الديانة المسيحية والعالم المسيحى (شعوبه وكنائسه المختلفة)، وربما كذلك، وبصورة مبكرة، حول بعض الآثار المنقولة من اليونان القديمة فضلاً عن صورة مضطربة، لا بل غير متعاطفة، مع الشعوب التى تقطن ما يسمى اليوم بأوروبا الجغرافية. ومع تكثيف هذا التفاعل وتعدد أشكاله مع مضى الوقت، فإن هذه السيرورة قد وفرت المجال لقيام محطات تاريخية سابقة على الغرب، سوف تطبع العلاقات فيما بين مخيالى كل من الغرب والشرق. وفى مراحل لاحقة، مع تبلور مفهومي الغرب والشرق، دخل المسلمون فى علاقة مباشرة مع مفهوم الغرب هذا. وشكّلت دراسة الرؤية السياسية إلى الغرب الخاصة بمثل هؤلاء اللاعبين المسلمين، قسماً محورياً من البحث الذى قمت به. وفيما يتعلق بالبعد

الدينى للصورة التى أسعى للإحاطة بها من خلال هذا الكتاب، فقد أخذت فى الحسبان أى تأويل إسلامى يحظى بوقع أكيد على رؤية الغرب فى الوجدان السياسى العربى، وذلك بقطع النظر عما إذا كانت متطابقة حقاً مع الإسلام الأول. وقد تركّزَ اهتمامى أيضاً على الخطاب عن الغرب التابع من شخصيات عربية غير مسلمة، أى مسيحية ويهودية وملحدة أو سوى ذلك.

لم أهدف إذن التركيز على الرؤية السياسية الإسلامية الصرف إلى الغرب، إذ ثمة جدل حول ما إذا كانت هذه الرؤية "إسلامية" أم لا، وهى تحتاج منا بالتالى أن نجد لها نعتاً آخر.

وهل تكون هذه الرؤية شرق متوسطة؟ لقد استخدم المصطلح، من بين من استخدموه ^(١١)، تيرى هنتش دالاً على المنطقة التى تشمل العالم العربى وإيران وإسرائيل. والإغراء شديد، للوهلة الأولى، فى اعتماد هذا المصطلح والفضاء الملزم له. إذ إنه يلامس صلب دائرة اهتمامى، أى العالم العربى، مع ما يتيح من ضم للعناصر غير العربية التى طبعت مخياله الجماعى، مثل الخمينى وأتاتورك. لكن سرعان ما أدركت أن هذا الحل الظاهرى لم يكن حلاً وذلك لأسباب عدة. وأهمها نابع من كون العالم العربى مُدرج فى الخانة ذاتها مع إيران وتركيا. إنه لمغرى اختيار مثل هذا التقطيع مكتفين بطابعه الموشورى. بالمقابل، لا يتلاءم ذلك على الإطلاق مع نهجى لأسباب أحصرها فى الآتى:

إن إيران وتركيا، اليوم، لا تشاطران العالم العربى لغته إلا فى حدود ما يمليه الدين الإسلامى. الإرث التاريخى الخاص بهذه المناطق موسوم بلاريب بالمجابهة بين المشاعر العربية والإيرانية أو التركية. ثمة أمور كثيرة تجمع هذه المناطق بكل تأكيد، علاوة على الإسلام: المطبخ، الموسيقى، وقرون من تفاعلات شتى قادت إلى شد أو اصر تقارب لا جدال فيه، ولكنها أفضت أيضاً إلى خصومات وأحقاد وتشككات لا تقل عنها تجذراً، وذلك منذ عهد الشعوبية^(١٢) وصولاً إلى الحرب الأخيرة بين إيران والعراق. هذا علماً بأن هاتين الدولتين متقاربتان من الناحية الدينية (شعباهما، بغالبيتهما، من المسلمين الشيعة) والسياسية. إن مختلف العناصر المكوّنة للعالم العربى تفوق هذه الروابط متانة. فهناك اللغة العربية الفصحى المعتمدة فى جميع بلدانه إلى جانب اللهجات المحكية الخاصة، وهى (أى البلدان) تنتمى جميعها إلى جامعة للدول العربية (الجامعة العربية)، وشعوبها تستسيغ أغانى أم كلثوم على نحو مختلف عن شعوب إيران وتركيا أو غيرهما من مناطق العالم. وقادتني هذه التباينات إلى استنتاج مفاده أن المخيال الجماعى الذى أرغب فى الإحاطة به لا يتطابق مع السمة الشرق متوسطة إن لم تضم المخيالات الجماعية لكل من إيران وتركيا. لذا صار متوجّباً على أخذ ما لهذين البلدين من وقع على المخيال، موضوع اهتمامى.

لعل مثّل إسرائيل يقدم مزيداً من التوضيح لما أرمى إليه. إن هذا العنصر جزء من منطقة شرق المتوسط الجغرافية بحكم الواقع. وهو

يلعب دوراً من الطراز الأول فى تأثيره على المخيال الذى أريد إخضاعه للتفحص. ومع ذلك فهو لا ينتمى إليه (بالرغم من وجود عرب يهود أو آخرين يتماثلون اليوم مع إسرائيل). وليس لدى لا الادعاء ولا الرغبة فى سبر أغوار الغرب، غرب إسرائيل المتخيل.

ثمة سببان وجيهان يقفان وراء استبعادى لهذا الخيار: فهو من جهة واسع بمكان لدرجة تضمينه فى المخيال الجماعى الذى أريد استكشافه، وهو من جهة أخرى بالغ الضيق، إذ إنه يقصى من دائرته أولئك الذين يستمدون مخيالهم الخاص بهم من هذه المنطقة من غير أن ينتموا إليها. وينحو تفكيرى فى هذا الصدد نحو مسلمى العالم بأسره الذين عمدوا إلى هذا الخيار، وأسطع مثال على ذلك مثل جمال الدين الأفغانى؛ كما وإننى أفكر بأفراد الشتات من العرب، الذين يشاطرون المخيال الجمعى موضوع بحثنا. وهذه النقطة يمكن تحييدها، إذا ما أوضحنا أن هؤلاء الأنفى الذكر يشملهم التعريف المقدم لشرق المتوسط، نظراً لانتماهم إلى عائلات^(١٣) ضاربة جنورها فى هذه المنطقة.

فهل تكون هذه الرؤية عربية إذن؟ بكل تأكيد، إذا ما اعتمدت اللغة العربية معياراً وحيداً، الأمر الذى من شأنه توفير قاسم مشترك جلى. إلا أنه من ناحية العناصر التى تلعب دوراً غير مباشر فى حقل السياسة الأيديولوجيا العربيتين نرى أن اللغة العربية ليست حتى لا اللغة الأم ولا هى الوحيدة المتداولة (فى بالى هنا مثل آية الله روح الله الخمينى وكذلك جمال الدين الأفغانى). وبالنسبة لآخرين ممن تُشكّل اللغة العربية لغتهم

الأم فقد أثروا اعتماد لغة أخرى للتعبير، وأحياناً بصورة حصرية (مثل إيوارد سعيد، جواد بولس، أمين معلوف، سمير أمين، عبد الله العروى...). يضاف إلى هذا أنني، حتى لو أردت أن أقتصر في اهتمامي على الرقعة الجغرافية والسكانية التي تشتمل عليها الجامعة العربية، لن يكون في مقدوري الإحاطة، وبالأسلوب نفسه، بالموروثات والمدارك والانفعالات الموجودة في مناطق باللغة التنوع، مثل اليمن والعراق، ومتباعدة كل التباعد عن مسقط رأسى لبنان مثل المغرب أو جيبوتي. ويصبح مُتَعَذِّراً علىَّ التحدث باسمها. فإذن ليس المطروح الانحصار ضمن مجال جغرافي مقفل إقفالاً مُحْكَمًا.

لم يعد في وسعى عندئذٍ وصف الرؤية السياسية المقصودة بأنها الرؤية العربية (حصراً)، لأنها ليست كذلك، علاوة على أن بعض من تركوا بصماتهم عليها ليسوا عرباً.

ولئن كانت هذه الرؤية ليست بإسلامية ولا بعربية ولا بمتوسطية شرقية، ألا يفترض ذلك عندئذٍ أنها مجرد رؤية محض شخصية، أى متعلقة بالرؤية السياسية لهذا البيروتى المولد الذى أُمْتُل؟ ولئن كان الأمر كذلك، يصبح متوجّباً علىَّ الشروع في تحليل عناصر حياتي في أدق تفاصيلها، توضيحاً لنهجي. والحال، فإن وجود عدد مدهش من المعالم المحددة تؤثر بالمثل على أشخاص آخرين يثبت أن الأمر غير ذى شأن. لا أستطيع، مثلاً، تجاهل العامل الإسلامى بحُرِّية، حتى وإن نشأت داخل عائلة مسيحية لا تحمل من الإسلام سوى اسمها؛ لا يسعني،

عمداً، استبعاد خطاب الإخوان المسلمين أو خطاب محمد عبده، ولا يسعنى من باب أولى عدم الاكتراث بوعده بلفور وتداعياته. يتعلق الأمر هنا بعناصر ثابتة ينفصل وجودها عن مشيئتي. هذا هو إذن المخيال الجمعي الذي رغبت في سبر أغواره.

ما إن فرغت من وضع ملاءمة هذه الخصائص الأربع التي نظرنا إليها لتوًّا موضع الشك، كان لا بد لي من إيجاد المصطلح القادر على تجاوزها دونما استبعاد لها ولا اشتغال لها بالكامل: إن الوجدان السياسى العربى يعكس بالدقة والمرونة المرغوب بهما المخيال^(١٤) الجمعى هذا الذى وددت البحث فيه. إنه مفهوم واسع بعض الشيء ويصلح لاشتغال العوامل غير العربية التى لها وقعها على هذا الوجدان وهى على قدر كاف من الدقة بحيث يتوافر لهذا البحث إطار واضح المعالم وضوحاً كافياً.

إن الإحاطة برؤية الغرب فى الوجدان السياسى العربى هى بمثابة محاولة إلقاء نظرة نسعى من خلالها إلى معرفة بذاتنا معرفة أفضل. لا يتعلق الأمر بالتالى بمقياس جغرافى وإنما بالحرى بمقياس يحيل إلى حالة فكرية يقبع فيها أولئك الذين يتماثلون مع الوجدان العربى وإلى ما لهذا الأخير من تأثير بفعل انتشاره. وهذا الوعى لا يعنينا فى كامل أبعاده، وإنما حقيقةً فى جهده المتمثل فى صياغة تصور عن الآخر، هذا الآخر المتمثل فى الغرب، بل فى صورة له على وجه الدقة، يكون فى الآن نفسه النقيض والمكمل، الجار والغريب، العدو والصديق، الغازى والمغزو^(١٥).

المكروه والمحسود... باختصار، هذا الجراب يحتوى كل شىء، بما فيه هذه المرة المخيال خاصتنا ، ومن ضمنه المخيال خاصتى على وجه التحديد. إن مجمل الوقائع البارزة التى طبعت، دونما أى التباس، وعيى الخاص فى تشكيل رؤيتى السياسية حول الغرب ليست عديمة الرابط بأبحاث الذين تركوا بصماتهم على الوجدان العربى. ونظراً لجنورى العربية فإن الاحتمال كبير أن يكون أولئك الذين أثروا فى مناسبين لهذه الدراسة. ولكن كيف الوصول إلى الاستنتاج القائل بصلاحه هذه المعالم بالنسبة للوجدان العربى ويطابعها المتقصى؟ هل بالإمكان نقل هذه العوامل فى ميدان الغرب المتخيل الشخصى إلى ذاك الأوسع المتمثل بالوجدان العربى؟ الإجابة بالطبع إجابة سالبة: يستحيل علينا تعميم حالة صيغت عبر تجربة فردية وفريدة، بكل ما تتضمنه مثل هذه العملية من تعقيد. مع ذلك، ليس مطروحاً أيضاً الاستسلام لوهم إمكان طرح الذاتية جانباً بظاهر اليد. ويجب اعتبار ما أوجت به ذاتيتنا حدسياً بمثابة قرائن تستدعى إثبات صلاحتها، واستكمالها. فآية واقعة بارزة اقتصر تأثيرها على فقط لا يسع الدراسة استنسائها. أما واقعة قد استثارت مواقف سياسية وجدت تعبيراتها فى حياة الشعوب الاجتماعية، وجرى تدوينها فى أعمال المؤرخين والشعراء والمغنين والروائيين أو مؤلفين من مختلف الولاءات، فإنها تكف عن أن تكون ممثلة لغرب وهمى يخص فرداً بعينه.

الوجدان العربى حقل اهتمامى؛ والغرب خيطى الهادى. الوجدان العربى و الغرب سيحددان مشروعى ويهديانة إذن عبر المخيلات. وسأسعى لعزل ما انطبع به الوجدان العربى خلال تشييده لهذا الغرب المتخيل. ومن شأن هذه العملية أن تكون مُبَيَّنَّة بالنسبة إلينا، نحن الرازحين تحت تأثير المخيال الجمعى هذا، أو بالنسبة إلى أولئك الذين يتوزعون فى العالم ويشاطروننا الموقف ذاته فى بعض من وجوه التصادم بالغرب. وذلك دونما إغفال الذين بادعائهم الانتماء للغرب إنما يطرحون على أنفسهم قضايا تتصل بما يجول فى إدراك الآخر للغرب ويرغبون فى اقتباس ما يتغذى به تفكيرهم الذى يتناول إدراكهم لذاتهم. إنها لعبة مرايا قد تكون مُبَيَّنَّة بقدر ما تكون معمية للأبصار.

وبالفعل فالعديد من الأحكام المسبقة التى نسوقها جميعاً بحق الآخر ، ويحق أنفسنا، ومهما بدا ذلك مفاجئاً لنا، إنما تنهددُ أى محاولة من هذا القبيل؛ إننى مدرك تماماً لهذه المخاطر وسوف تنصبُّ جهودى طيلة هذا المؤلف لتلافيها.

أمكننى الاعتماد، أثناء استقصائى، على ملاحظات إدوارد سعيد وحسن حنفى وأدونيس وصادق جلال العظم ومحمود حسين والطبيب صالح وخالد زيادة وفاطمة الرئيسى ونازك يارد وهشام شرابى الذين فكروا، مع آخرين غيرهم، العلاقات شرق وغرب على طريقتهم. فإلى جانب إدوارد سعيد واشتهاره بنقده للاستشراق، وحسن حنفى المدافع عن علم الاستغراب نجد الطبيب صالح الذى خُلدَ بصورة بارعة مبحث

التمزق المتولد عن الاصطدام بالغرب. كما لجأتُ إلى أعمال خالد زيادة المتعلقة بالرحالة السوريين والمصريين ممن زاروا الغرب فى مطلع القرن التاسع عشر، والذين تميزت كتاباتهم بوقع ذى شأن على مجتمعاتهم الخاصة. أما هشام شرابى فقد قام من ناحيته بالتعمق فى قضية المثقفين العرب وموقفهم من الغرب فى نهاية القرن العشرين هذا، فيما أدلى أنونيس وصانق العظم بدلوهما بلا مجاملات حول المسائل المتعلقة بالاستشراق والاستشراق المعكوس. لقد استزاد تفكيرى من أعمال هؤلاء المفكرين وسأبئين وجه التمايز بين نظرتى ونهجهم. إلا أن فى وسعى القول منذ الآن أن إرادة الإلمام بكيفية معرفة الذات لذاتها معرفة أفضل، من خلال تفحص الصورة التى نحملها عن الآخر، ليست إرادة صريحة لدى الذين سبقونى من رجال ونساء فى سلوك هذه الدرب.

يضطلع الفصل الأول بمهمة رسم الأحداث التاريخية من جديد، تلك الأحداث التى كان لها، رغم كونها سابقة لظهور مفهوم الغرب، وقع حاسم على كيفية رؤيتنا للغرب اليوم. توفر لنا أحداث الحملات الصليبية وغزو الأندلس أمثلة ملائمة عن هذه اللحظات المفصلية. وسعيت فى درجة ثانية إلى الإحاطة باللحظة التاريخية التى تمت فيها يقظة الوعى بالغرب. إن انحطاط الإمبراطورية العثمانية وإحاطة أوروبا للعالم العربى وحملة نابليون ونفوذ الإرساليات مثَّلت كلها علامات تشكُّل للرؤية إلى الغرب.

يتناول الفصل الثالث ظاهرة الرفع إلى مرتبة المثال، الواعية واللاواعية، داخل المجتمعات العربية، فيما الفصل الرابع خُصصَ لحركة

رفض الغرب. وسيتبين لنا بدءاً بطله حسين إلى آية الله محمد حسين فضل الله، مروراً بحسن البنا وأنور السادات وجبران خليل جبران ومحمد عبده وآخرين غيرهم، كيف أن الاتجاهين (الرفع إلى مرتبة المثال والرفض) لا يفصل بينهما حاجز محكم.

وفى الختام، يتطرق الفصل الخامس إلى حالة التمزق والبلبلة التي أَلَمَّتْ بالعرب إزاء مغاربهم المتعددة التي ليست، فى النهاية، سوى من نسج مخيالهم. ويفيدنا عدد لا بأس به من معاصرنا من أمثال إدوارد سعيد والطيب صالح وعبد الله العروى ومارسيل خليفة، بالكثير مما بلغه النقاش القائم من اتساع. وتُشدّد الصفحات الأخيرة على الرغبة فى الحوار المُعَبَّر عنها بأشكال مختلفة، وهى رغبة تظهر رفضاً لتأييد المجابهة بين مخيالائنا، الشرقية منها والغربية.

حواشى المقدمة

- (١) ابنة مينوس، ملك كريت، ابن زفسس وأوروبا (عُرباً)، ابنة أجيئور الفينيقي، ملك صور. راجع الصيغتين المتباينتين بعض الشيء فى كتاب تاريخ لبنان لفيليب حتّى، ط ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، ص ١٤٤ .
- (٢) راجع سورة ١٧، آية ٨٥ .
- (٣) ابن الأثير (٥٥٦ - ٦٣٠ هجرية، ١١٦٠ - ١٢٣٢ ميلادية)، الكامل فى التاريخ ، بيروت، دار صادر - دار بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٦، ١٣ مجلد.
- (٤) ابن خلدون، المقدمة .
- (٥) لمناقشة المنهج. راجع نسيب الحسينى، الغرب فى رؤية الوجدان السياسى العربى: طيف الغرب ، أطروحة دكتوراه رقم D 384 ، جامعة كيبك فى مونتريال، ١٩٩٦، ص ١١ - ٢٢ أو الاتصال على العنوان الإلكتروني التالى: . farabi@inco.com.lb
كما تراجع لائحة المصادر المثبتة فى نهاية هذا الكتاب فى ما يختص بيوم وكريشنامورتى وهوسرل ومورين وپيرسينخ.
- (٦) التعبير مستعار من تييرى هنتش، الشرق المتخيل ، دار الفارابى ٢٠٠٤، ص ٩ . راجع أيضاً ص ١٢، حول "حدود شرقنا المتخيل [نحن الغربيون] الجغرافية".
- (٧) أمين معلوف، ليون الأفريقى ، بيروت، دار الفارابى، ١٩٨٧، ص ٢٧٨ .
- (٨) أمين معلوف، حدائق النور ، بيروت، دار الفارابى، ٢٠٠١، ص ١٣١ .
- (٩) م ن، ص ١٨٤ .
- (١٠) الإسلام فى مطلعته الأول أى فى حياة النبى وحتى أقول عصر خلافة المدينة مع مصرع على (٦٦١ ميلادية).

(١١) يستخدمه عبد الرحمن منيف أيضاً في كتاب شرق المتوسط ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١ (ط ٤). باستثناء العنوان بحد ذاته، راجع ص ٩٧، ١٣٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧ و ١٦٠ حيث نعتّر على مصطلحات مثل: شاطئ المتوسط الشرقي، الضفة الأخرى من المتوسط. راجع أيضاً للكاتب نفسه: الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، قبرص، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، ١٩٩١ .

(١٢) حركة سياسية وأدبية تعود جذورها إلى القرن السابع الميلادي. وقد استهدفت، في حقبة التوسع العربي - الإسلامي، الاستهزاء بكل ما هو عربي والظعن بقيادة العرب. وتكونت من عناصر غير عربية الأصل (بعضها كان من المسلمين وبعضها الآخر من غير المسلمين). وكان التنافس بين العنصر الفارسي في الإمبراطورية والعنصر العربي مولد هذه الحركة.

(١٣) جميع هذه الأسباب المذكورة تفسيراً لاستبعاد مصطلح "شرق المتوسط" تنطبق أيضاً في شأن مصطلح "المشرق".

(١٤) يقدم لاروس تعريفاً للكلمة وعى (وجدان) فيقول: "إدراك ومعرفة واضحين تقريباً يتمتع بهما الإنسان اتصالاً بالعالم المحيط وبذاته". راجع في شأن المراجع الدلالية التاريخية للمخيل هذا مسعى مالك شبيل الذي يقول: "[...] إن المخيال العربي ضارب بعمق في عدم التجانس. وفضلاً عن ذلك فهو متنوع في أشكال ظهوره. ومع هذا لا يعود السبب إلى غياب تصور متماسك للعالم، أخاذ، منسّق الحركة ومطلق أحياناً". في (Malek Chebel, L'imaginaire arabo-musulman, Paris, Press- es universitaires de France, 1993, p. 21). راجع أيضاً ص ١٦ حيث يحدثنا شبيل عن المقايضة في الثقافة ، التي رافقت التوسع الإسلامي خارج إطاره الجغرافي الأصلي. ومن خارج السياق العربي راجع: Didier Anzieu, Le Groupe et l'inconsient: L'imaginaire groupal , Paris, Dunod, 1984 [1ère éd. 1975].

(١٥) لا يهم إن كان احتلال الأندلس واختراق الأراضي التابعة لفرنسا الراهنة من قبل القوات العربية - الإسلامية، سابقين لمفهوم الغرب والصورة عنه وعن غزوه وهما ماثلان في الوجدان العربي المعاصر.

الفصل الأول

الغرب فى الأسطورة

الفكر زمن ، والفكر متولد من التجربة
والمعرفة غير المنفصلتين عن الزمن. والزمن
عدو الإنسان النفسى. إن عملنا قائم على
المعرفة وبالتالي على الزمن، فهكذا يجد
الإنسان نفسه دائماً عبداً للماضى.

ج. كريشنا مورتى

إنه لدهش أن نرى كيف أن أحداثاً قد مضى عليها قرون، بل ألوف
من السنين، ما زالت تحتل حيزاً فى رؤانا المعاصرة إلى الآخر.
سنتطرق هنا إلى كيفية إسهام صور مرتبطة بالحضارات الكبرى
الغابرة، بفتح العرب للأندلس، أو بالحملات الصليبية، فى تشكُّل
التمثيلات التى يتغذى منها الوجدان السياسى العربى.

أمجاد الماضى

ثمة فى الوجدان العربى الإسلامى عديد من سير الأنساب. فصيغتها الآشورية - البابلية، على سبيل المثال، تبرز مزايا الحضارة السومرية - الأكادية التى ينسب إليها أقدم نص تم اكتشافه، ملحمة جلجامش (القرن الثامن والعشرون ق. م)، أو كذلك شريعة حمورابى، الوثيقة المؤسسة للقانون (القرن الثامن عشر - القرن التاسع عشر ق. م). أما الصيغة المصرية من جهتها، فتركز على مآثر الشعوب والحضارات التى انتشرت على ضفتى النيل والتى يعود الفضل لها فى بناء الأهرامات على وجه التحديد. وأخيراً، الصيغة الفينيقية التى تعلمنا، حسب الإغريق أنفسهم، إن الإله زفس - الذى استحال إلى ثور - اختطف "عُرباً" ابنة الملك الفينيقى أغنور من مرج قريب من الشاطئ وحملها إلى جزيرة كريت. (...) وعندما استقرَّ به المقام فى كريت عاد إلى شكله الإنسانى مرة أخرى وتزوجها. وقد رزق منها ابناً هو الملك مينوس الملك الكريتى المشتزع الشهير الذى وصلت الجزيرة فى عهد ملكه الذروة فى الرقى والعمران. (...) وقدموس هذا كان قد بعث به أبوه ليفتش عن أخت له، تسمى "عُرباً" خطفها إله إغريقى. وهذا الاسم عُرباً - الذى يعنى الغرب - أطلق فيما بعد على القارة بأجمعها (...) [تعزو الأسطورة إلى قدموس] شرف إدخال حروف الهجاء [عامل رمزى رفيع] إلى بلاد الإغريق وبناء مدينة طيبة (...) وتتابع الأسطورة [أن] البلاد المعروفة الآن بالبلانيا، إنما سميت باسم ابن قدموس الصورى أليوريوس^(١).

تترك هذه الروايات الثلاث (وغيرها كذلك بلا ريب) تأثيراتها على رؤياتنا الحالية إلى الغرب، فهي تتمتع بميزة إظهار نور الصدارة الذي سبق لهذا الطرف من حوض البحر المتوسط أن لعبه في تفتح الآخر الذي سيصبح معروفاً بأوروبا، وبالعرب توسعاً. وحسب الحالة فإن الرسالة المنقولة قد تكون متسامحة وقد تكون معادية. فهكذا، إن الرئيس المصرى أنور السادات، بإحيائه للصورة المجيدة لحضارات النيل الغابرة، إنما كان فى موقفه يسعى للابتعاد مسافة عن الحضارة العربية المهزومة وأن يحيط نفسه بمجد طاعن فى القِدَم ينتمى إلى النيل^(٢). وهذه المناورة إنما كانت تسهم فى تبرير الحوار الذى عملت مصر - المعزولة عن العالم العربى - على تكثيفه مع شركائها - الموصين الجدد الغربيين. وقد ظهر المنطق ذاته ظهوراً بيئاً، ومنذ وقت طويل، لدى العديد من المؤرخين والمفكرين ولدى مقاتلين وسياسيين لبنانيين (المسيحيين منهم خاصة، بيد أن الأسطورة جاوزت الدين) ممن يسترجعون غالباً أسطورة قدموس وأبجديته، لمد جسور مع الغرب والأم الحنون فرنسا" على صعيد يكفل الحفاظ على الكرامة والعنفوان المُميّزين لكل شعب^(٣). ومن جهة أخرى، يلفت جواد بولس نظرنا إلى أن: " [...] اسم عربى وكذلك عرب وأعراب، وهى الأسماء التى أوجدها الآشوريون فى القرن التاسع قبل الميلاد، كانت تعنى فى الأصل "غرب" و"غربيين"^(٤). وبالتالي فنحن جميعاً حيثما كنا على وجه البسيطة غريبو أو شرقيو طرف ما.

ومع ذلك فإننا نجد عدداً من ممثلى الوجدان العربى الذين يدلون
بخطاب أقرب إلى العدائية حول الغدر الذى تعرضت له عرباً، التى كانت
عملية الاختطاف التى تعرضت لها على يد زفس إنذاراً بسلسلة من
الاغتصابات القادمة ويمرتكبيها بدءاً بإسكندر الأكبر وصولاً إلى
إسرائيل مروراً بالرومان والصليبيين والاستعمار الأوروبى أو الإمبريالية
الحديثة التى دشنها نابليون بحملته على مصر. والذين يساندون هذا
الخطاب يستخدمون صورة ماضٍ مجيد (بابلى، فينيقى أو نيلى)
لاسترجاع العنفوان وتعزيز آمال الذين يقاومون النفوذ الغربى. وعلى
وجه التخصيص، سنلاحظ هنا تشابه مبحث أوروبا المغتصبة للأنوار
الفينيقية (عبر الإغريق) مع المبحث اللاحق لأوروبا المغتصبة للأنوار
العربية - الإسلامية. وهكذا يرى محمد عبده فى الإسلام مدى التطابق
بين مثل البروتستانت الإصلاحية، التى نسب إليها إحداث القفزة النوعية
نحو الحداثة والتطور، وبين مثل الإسلام التى قد تثقف بها "الغرب"
وكانت سبقت الإصلاحية البروتستانتية^(٥). ولكن هذا الموضوع نجده
أيضاً عند كتّاب أقل تسامحاً، من أمثال حسن البنا وسيد قطب.

الغزاة

لقد جرت استعادة صور الغزو الزاحفة إلينا من الألفيات السابقة
دعماً لرؤية معينة إلى الغرب، متسامحة أو عدوانية، وذلك تماماً كما هو

الحال بالنسبة إلى الأمجاد الماضية. ونذكر مثلاً على هذه الظاهرة ما ذهب إليه فيليب حتى عندما قال: "إن الانتصار البحري الحاسم الذى أحرزه الإغريق على الفرس، وتضييق الرقعة الجغرافية أمام التجارة الفينيقية فى غربى المتوسط، [فى القرنين الخامس والرابع ق. م] كانا من الحوافز التى دفعت بالتجارة الإغريقية إلى التوسع والازدهار فى شرقى المتوسط. كانت تلك الحروب بداية عهد احتكاك عسكرى بين الشرق والغرب. وليست فتوحات الإسكندر المقدونى وحروبه فى الشرق، ومن بعده حروب القائد الرومانى بومبى، ثم معاوية الأموى، وصلاح الدين، وريكاردوس قلب الأسد أيام الصليبيين، حتى الأزمنة الحديثة عندما ظهر نابليون فى جيوشه فى مصر، والقائد الإنكليزى النابى فى الحرب العالمية الأولى، نقول، لم تكن هذه الحروب سوى تتمة لهذا الاحتكاك العسكرى السياسى بين الشرق والغرب" ^(٦). إنه من الواضح تماماً كيف أن من شأن إدراج مجموعة من الأحداث والشخصيات فى سياق تتابعى معين أن يضع مؤرخنا الشهير على قاب قوسين أو أدنى من أن يجد فيه أصل هذا الاحتكاك، لا سيما عندما يقول: "الحروب الصليبية (...) تتمة لسلسلة من الصراع طويل الأمد بين الشرق والغرب" ^(٧).

إن مثل هذا النموذج من تمثيل التاريخ يودى بنا إلى الخطأ، إذ إننا فى تأكيدنا على وجود شرخ ألقى بين الشرق والغرب إنما نُشَرِّعُ الأبواب أمام تداعيات خطيرة وخاطئة على حد سواء: فلا يصح وضع

بيزنطية، وهى عنصر داخلى، فى السلّة نفسها مع الصليبيين؛ ولا يمكن المماثلة بين الإسكندر الأكبر، الشخصية الفريدة فى التاريخ، وبين خصوم أتوا بعده من مكان آخر. إن وصف مواجهات مختلفة على أنها سلسلة من الحوادث تدرج فى مجابهة واحدة تخترق التاريخ من شأنه أن يلقى بأثقال كبيرة على الرؤية إلى ورثة هؤلاء الخصوم الغابرين.

ويستعيد جواد بولس هذا التأويل استعادة شبه حرفية، عندما يكتب قائلاً:

[...] ابتداء من العام ١١٠٠ فإن
الأغارقة - الرومان البيزنطيين، الذين أصابهم
الضنى وأضحوا خارج نطاق القتال، قد أخذوا
مكانهم إلى جنس غربى آخر، أى فرنكى
أوروبا الذين سوف يجعلون من أنفسهم،
خلال ما يقارب القرنين، العاملين باسم
المسيحية وباسم أوروبا، ضد إمبريالية
الإسلام وآسيا المنبعثة^(٨).

ما الذى يجعل ممكناً اعتبار بيزنطية بمثابة "عرق غربى"،
هذا ما لا يوضحه بولس. فهو يغفل توضيح أن هؤلاء الفرقاء المنتمين
إلى "المسيحية وأوروبا" قاتلوا البيزنطيين، وارتكبوا المجازر بحق
المسيحيين المحليين وقد تحالفوا مع أمراء مسلمين ضد فريق آخر من
الصليبيين قدموا حديثاً من أوروبا هذه نفسها، وذلك فى أوقات مختلفة

من تاريخ الحملات الصليبية. صحيح أن بولس يُذكر بهذه الوقائع التاريخية في مكان آخر، غير أن صورة الاستمرارية والتجانس ظلت على حالها وبقي وقعها بالغاً، طالما أنها تحركت بحرية عبر وجداننا الجماعي بمجرد أن تشكلت.

وفي أيامنا، يعتمد بعض الكتاب المشهورين إلى تضمين كتاباتهم هذه الصورة السلبية، ويصفون بذلك صدقية على الفكرة القائلة بأن مثل هذا الانشطار قديم قدم التاريخ. ويكتب جورج قرم في كتابه انفجار المشرق العربي الذي أصبح مرجعاً في العالم الناطق بالفرنسية، فيقول:

... تقوم بين الشرق والغرب منذ
القديم، وعلى جميع المستويات والأصعدة،
علاقة تجاذب - تنافر يمر خط توترها
العالى بالشرق الأدنى أولاً بأول^(٩).

ويقول في مكان آخر:

وَتَمَزَّقُ لبنان هذا في القرن الماضي
يشبه إلى حد بعيد تَمَزُّقَهُ الحالي، مما يدل
على دوام بعض المعطيات، وبخاصة منها
الطابع الفاشل لعلاقات الشرق والغرب
التي تأخذ أكثر أشكالها تبلوراً في المنطقة
التي يتلاقى عندها العالمان^(١٠).

ويعطينا أمين معلوف من جهته مثلاً آخر يُبين ما درجنا عليه في استخدام مصطلحات مثل الغرب والغربيين:

وقد جعلت الأسرة العباسية التي ينتمى المستظهر إليها من بغداد مدينة ألف ليلة وليلة الأسطورية. وفي بداية القرن التاسع (الميلادي)، أى فى عهد جده هارون الرشيد، كانت بلاد الخلافة العباسية أغنى وأقوى دولة فى الأرض، وكانت عاصمتها مركز أرقى الحضارات. ففيها: ألف طبيب مُجاز، ومستشفى كبير مَجَّانى، ومصلحة بريد منتظم، وعدة مصارف لبعضها فروع فى الصين، وشبكة مياه ممتازة، وأخرى متصلة بمنتفعات المنازل لتصريف مياه الخدمة، ومصنع للورق - ولسوف يتعلم الغربيون الذين لم يكونوا يستعملون غير الرقّ للكتابة قبل دخولهم بلاد الشام، سوف يتعلمون فن صناعة الورق من تبن القمح^(١١).

فمصطلح "الغربيون" هنا مستخدم فى الفقرة أعلاه للدلالة على الصليبيين. فلا يبقى سوى خطوة واحدة يخطيها القارئ العربى فى مخياله حتى ينشط الكليشيهات المرتبطة بحضارت (نا) بالتعارض مع

تلك، المتأخرة، خاصة غرب يتم تعيينه كتلة واحدة وخارج الزمن. ومما يجدر ذكره أنه، حتى إيوارد سعيد، الذي كان في العادة يتخذ موقفاً مُتَشَدِّداً في نقده لهذه التصنيفات، قد أعطى بطريقة غير مباشرة صدقية لهذا التفرع الثنائي رغم تركيزه على طابعه الوهمي وغير الصحيح^(١٢). وماذا يمثل حقاً مفهوم الغرب عند هوميروس؟

إن صور الأحداث التاريخية البارزة التي اتخذ منها مثلاً تسكن وجداننا العربى ويمكن تعبئتها تعبئة يسيرة عند الحاجة: فبين الأمثلة القديمة عن البطولة والمقاومة يرد ذكر مثل صور وغزوة في مواجهة الإسكندر. ومن العسير بمكان عدم الانسياق وراء إغراء ربط صور الماضي وصور المقاومة الراهنة التي تظهرها هذه المدن ذاتها في تصديها للتهديدات الإسرائيلية. وبالعكس فإن التناقض مع الصورة التي تقدمها مصر، كبلد لم يُبدِ أى مقاومة في وجه الغازي، مسلمةً باستبدال محتل فارسي بآخر، إغريقى، يمكن أن يستعاد في الخيال للتشديد على "تخاذل" السادات في كامب دافيد أو "جن" الجنود المصريين أثناء هزيمة ١٩٦٧ (وتمثلهم إحدى الشعيرات المستهلكة الشائعة في الأوساط الشعبية، وهم ينزعون نعالهم تسريعاً لفرارهم). لكن الصور ليست دائماً قاسية ولا حتى معادية: حيث أن المؤرخ حتى ذاته يؤكد قيام علاقات تجارية ومبادلات حضارية وثقافية، فيقول: "... لم يكن [الاحتكاك] احتكاكاً يقتصر على الحروب وحسب، بل كان اتصالاً مادياً حضارياً أيضاً. فإن بلاد الإغريق، التي كانت في القرن السابع قبل الميلاد تقتبس

عن الحضارة اللبنانية وتتعلم منها الصنائع والفنون، أصبحت الآن (فى الخامس والرابع) بلد الحضارة الراقية التى يقتبس الغير عنها، وأصبح الإغريق ينشرون الحضارة بعد أن كانوا يقتبسونها عن الغير، حتى إنه فى القرن السادس قبل الميلاد بدأت جاليات إغريقية تجد لنفسها مستوطناً على طول الشاطئ السورى-اللبنانى. وقبل فتوحات الإسكندر بقرن من الزمن كانت جماعات وجاليات إغريقية من تجار وصناع قد استقرت فى المدن الساحلية^(١٣). وفى قسم بعنوان «الشرق والغرب يلتقيان»^(١٤) يتحدث حتى عن نتائج غزوات الإسكندر الأكبر والظروف التى أحاطت بها، لا سيما تعاون الفينيقيين والتشجيع على الزيجات المختلطة. فالإسكندر نفسه تزوج من ابنة داريوش وحَفَر، فى الاتجاهين، مختلف ضروب التبادل بين الشرق والغرب (ثقافات، عادات، أساطير، زيجات، تقنيات، حِرَف، معارف). وظهر التلاحم والانسجام على أروع صورة لهما. فهنا، اختلفت الصورة التى نقلها حتى اختلافاً جذرياً عن تلك التى قدمتها مقاومة صور البطولية، وحملة القمع الدامية التى أعقبت استسلامها فى منتصف تموز/يوليو من العام ٣٣٢ (ق. م). إن التاريخ (أو ما نحن صانعون به) يتيح لنا إمكانية أن نختار من الأحداث، بعضها ما يتسم بالتكافل والتعاون، وبعضها ما يتسم بالتصادم والعنف. وما زال هذا الاتجاه مستمراً حتى أيامنا هذه. وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تشارك فى حملة عسكرية على العراق كان الرئيس ميتران يُدشّن جامعة ناطقة بالفرنسية فى الإسكندرية مستغنياً باسم الإسكندر^(١٥).

فيبقى إذن التآلف والتعاون عاملين أساسيين فى تشكيل رؤانا إلى الغرب، طالما أن إمكانية تزييف التاريخ متوافرة بالتركيز على هذا البعد تارة أو على ذاك تارة أخرى.

كما فى وسعنا تعزيز هذه الصورة بسهولة مضيفين إليها صورة أخرى: ففى حالة الإسكندر، يستطيع حامل رسالة تسامح (أحد الأشخاص الذين يدشنون جامعة الإسكندرية الناطقة بالفرنسية، مثلاً) أن يستبعد حوادث مقاومة صور أو غزة البطولية، والمجازر التى تلتها، لكى تعزز كلشبهات التعايش والانفتاح (كزواج الإسكندر من ابنة داريوش)، مركزين النظر، على سبيل المثال، إلى مدح القرآن لذى القرنين، كما درج على تسميته باللسان العربى. ويمثل القرنان، فى أحد التؤيلات الأكثر رواجاً على الصعيد الشعبى، الطرفين الجغرافيين للأراضى المحتلة فى جهتى حوض المتوسط. صحيح أن تفاسير القرآن جميعها لا تنسب صفة ذى القرنين للإسكندر المقدونى على نحو قطعى، لكن الأمر يكفى لتغذية شعيرة مستهلكة ما^(١٦). كتب الجليل عبد الله يوسف على يقول بهذا الصدد:

يعترف عموم العالم الإسلامى الآن أن
الإسكندر الأكبر هو الإسكندر ذلك الذى
كنى بذى القرنين.

لا تساورنى شخصياً ذرة من شك
بأن المقصود بذى القرنين هو الإسكندر
الأكبر، الإسكندر التاريخى وليس الإسكندر
الأسطورى [...]^(١٧).

إنها لصور قوية وقد استخدمت بألف طريقة وطريقة من قبل المعنيين. فسمير أمين الذى يختلف أفقه عن أفق حتى وبولس، يعطى، هو أيضاً، مثلاً عن احتفاظ هذه العلامات ما قبل الغربية المعروضة أعلاه براهنتها. وذلك فى تحليل يعود إلى العام ١٩٨٨ مقتبس من إسهامه فى كتاب "البحر المتوسط فى العالم وإشكاليات تجاوز القوميات"، حيث يستخدم الاقتصادى المصرى بأسلوبه الخاص الاستدلالات ذاتها:

منذ أقدم العصور القديمة وصولاً إلى
مرحلة متأخرة من العصر الوسيط وإلى
عصر النهضة، كانت الوجهة الرئيسة
للحركة قد حددها تعميقاً للعلاقات داخل
حوض البحر الأبيض المتوسط التى زادت،
وإن كانت مشوبة بالنزاعات، من علامات
وحدة المنطقة. فالحضارة التى بدأت هنا
فى وقت مبكر، بداية فى مكان مُميّز، على
ضفاف النيل، راحت تنشر فى حوض
البحر الشرقى ومن ثمة فى جل محيطه -
أو تكاد. فاتجهت الحضارة من كونها قارية
وإقليمية - مصرية عقب ذلك نحو البحر
واكتسبت بفضل الفينيقيين والإغريق طابعاً
بحرياً خلق شروط وحدة المنطقة. فأصبحت

هذه تدريجياً مركز العالم القديم غربى الهند (لأن مراكز أخرى، أبعد إلى الشرق، فى الهند والصين، تشكلت ولم تكن تقيم سوى علاقات بسيطة مع العالم المتوسطى، عالم غربى بالقوة). أصبحت المنطقة حينئذ مركزية ولم تعد تتهددها مخاطر خارجية. فإن أوروبا فى شمال شواطئها المتوسطية وأفريقيا جنوبى الصحراء لا تشكلان تحدياً - هذه المناطق كانت فى حينه شديدة التخلف - مقارنة بالمجال المتوسطى - ولا تهديداً، بربرياً حتى.

إلا أن البحر المتوسط، حتى حدوث التجاوز، ابتداءً من القرن السادس عشر، كان حقاً مركز هذه البقعة من العالم. فآنذاك قلماً كان اتكالها على مبادلاتها مع الخارج بل كثيراً ما كان اتكالها على العلاقات فيما بين أقسامها المكوّنة. فالهيمنات فى المنطقة وجدت ركانزها فى التالى: هناك عوالم المتوسط المتعاقبة، الفينيقي، اليونانى، متوسط الإمبراطورية

الرومانية، العرب فى عظمتهم الأولى
(القرون الهجرية الثلاثة الأولى)، المدن
الإيطالية والإمبراطورية العثمانية.

[...] تبحث أوروبا، كواقع جديد،
عن جذورها المزعومة وتبريراتها الأيديولوجية
فى العالم المتوسطى القديم الذى نهلت منه
ونفذت: لا تعوزنا الأمثلة على هذا البحث
عن الجذور، من عصر النهضة الذى اكتشف
من جديد اليونان وروما، إلى الخطاب
المعاصر لأوروبا السوق الأوروبية المشتركة
الذى يجعل من أثينا عاصمة أوروبا الثقافية.
غير أنه لمفيد أن نُدوّن هنا أن البحث جارٍ
عن هذه الجذور المزعومة حصراً فى مناطق
المجال المتوسطى التى كانت ماتزال
مسيحية. إن أمر الاعتراف بدور مصر
والإسلام متروك للاختصاصيين المرموقين؛
فالاستنجا بالمشاعر الشعبية قد يعتبر هنا
بمثابة أمر غير لائق أو يكاد^(١٨).

يجدر بنا تسجيل استعادة سمير أمين للعلامات المستخدمة من قِبَل
المؤرخ حتّى وفى الوقت نفسه تفضيل الأول للصيغة المصرية،

والثانى للفينيقية. فأمين يستعيد سلوك الدرب الموجب من خلال العلامات القديمة للوصول إلى الخاتمة القائلة بأن الحِقْبَة الأولى وُلّت، إذ انتقل المركز باتجاه عالم الأطراف الغابر المتمثل بأوروبا الشمالية (البرابرة السابقون بنظر العالم المتوسطى الغابر)، ثم فى وقت لاحق باتجاه الغرب الأبعد لتشكيل مركز جديد أوروبى - أميركى شمالى. وهو إذ يحاكى إنما يحاكى بذلك أولئك الذين يلومون أوروبا لإناطتها القيم الحضارية القديمة بنفسها وخصوصاً لإناطتها هذه القيم بالحضارة الإغريقية وصولاً إلى استرجاعها، وتبنيها فيما بعد باعتبارها خاصة بها، لأنها أوروبية تعريفاً.

الأندلس

تنطبع رؤانا الراهنة إلى الغرب انطباعاً راسخاً بفتح إسبانيا. فالأمر يتعلق بالفعل بنقطة التغلغل الأبعد للعرب فى عمق أوروبا (كما هى مُعرِّفة جغرافياً اليوم) وذلك فى عظمتهم الأولى (القرون الثلاثة الأولى للهجرة). وثمة نقاط تغلغل أخرى (صقلية، قبرص والبلقان فى فترة لاحقة)، لكن الأندلس تبقى أنسب مثال، نظراً لاتساع مدى العملية وإشعاعها على أوروبا فيما بعد. علينا أن نتذكر أيضاً الغزوات العربية، انطلاقاً من الأندلس، فى الأراضى المعتبرة اليوم فرنسية. وبينما عدد كبير من العرب ينظر بصعوبة إلى قبرص على أنها أوروبية، وبصعوبة

أكبر على أنها جزء من الغرب، فإن الاتصال بفرنسا، من ناحيته، لبالغ الرمزية: أليست فرنسا الأم المستقبلية للثورة ومصدراً مُمَيَّزاً لأنوار "الحداثة"؟ وواقع أن مفهوم الغرب قد شاع بيننا إلى حد كبير من خلال فرنسا والفرنسيين يعطى بعداً خاصاً للحدث الأندلسي، وصورة شارل مارتيل وهو يقاتل العرب في پواتييه (٧٣٢) مشحونة برمزية لا يتوانى جان - ماري لوبيين وجبهته الوطنية عن تذكيرنا بها.

وكما سبق ورأينا، "فإن أوروبا في شمال شواطئها المتوسطية، وأفريقيا جنوبى الصحراء لا تشكلان تحدياً - هذه المناطق كانت في حينه شديدة التخلف مقارنة بالمجال المتوسطى - ولا تهديداً، بربرياً حتى" (١٩). ولا يقتصر هذا الإدراك على التاريخ الغابر: عندما أرسل النبي محمد على التوالى ثلاث رسائل داعياً إلى الإسلام القادة الأقباط والفرس والبيزنطيين، إنما حدد في الواقع الحضارات ذات الوقع والإشعاع المباشرين على المنطقة (٢٠). فيما بعد، حينما تخطى التمدد الإسلامى أراضي هذه الحضارات الثلاث، وصولاً إلى شواطئ ما يشكل راهناً طرفاً من أوروبا (مستتباً أراضي متضمنة اليوم في إسبانيا وفرنسا)، فإنه قد قدم إلينا على أنه عامل تمدن وتفتح. إن الروائع المعمارية، فى طليعتها قصر الحمراء، ومعارف ابن رشد، ثم تأثيره على الفكر الأوروبى، تقدم عموماً الأمثلة التى غالباً ما تُستخدم للدلالة على الإسهام الإيجابى الذى جاءت به الحضارة العربية - الإسلامية على "البرابرة". وما يهمنا هنا، بالطبع، هو واقع أن هذه الحادثة التاريخية يغذى صورة

تخترق الوجدان العربى الراهن. هذه الصورة، شأنها شأن غيرها من الصور، قابلة للاسترجاع بطرق متنوعة. إن المثل المُشجّع لأندلس مُتَّفَحَةٌ وعلى وئام مع أقلياتها ^(٢١)، ومُتَّفَقَةٌ لأوروبا، لمفيد فى عملية تبرير أطروحة أولئك الذين يريدون ثانيةً بسط نظام إسلامى، ويعلّلون النفس بلعب هذا الدور من جديد. وتفيد هذه الصورة أيضاً فى تقديم مثل دال لصالح مبحث أوروبا الغاصبة للأنوار العربية. من جهة أخرى، فإن نهاية الحضارة المشرقة التى قامت فى الأندلس هى وجه مهم من وجوه تراجع الحضارة العربية - الإسلامية التى باتت متأثرة بتعدد الاحتكاكات الداخلية بالغة الذروة مع التمزق الشامل. وثبتت هذه الصورة أطروحة أولئك الذين ندّدوا بتقهقر الحضارة العربية المضاعف بصعود أوروبا.

يعطى هذا الحادث، إذن، صوراً عديدة للذين يتحسرون على هذا الماضى المجيد ويرغبون فى إنتاجه من جديد، وكذلك للذين يشاركون فى هذا التحسر لكنما اختاروا فى ذلك تطبيق "النموذج الغربى" كعلاج لآلامهم ^(٢٢). وتجد هذه الصور ما يبعثها فى تداعيات من نوع حرب الاسترداد الإسبانية/أوروبا/الغرب أو المجتمع الإسلامى الأندلسى/المجتمع العربى المعاصر. هكذا فإن موت رودريك الشهير، آخر ملوك القوطيين. فى العام ٧١١، نذيراً لفتح الأندلس، تحول إلى انتصار على أوروبا بأسرها وفى النهاية على الغرب؛ أو كذلك استعادة غرناطة فى العام ١٤٩٢ صارت انتصاراً لأوروبا بكاملها ولهذا الغرب ذاته توسعاً. إن هذه القضايا، من بين غيرها المشاكلة لها، تعود إلى المخیال،

إذ إن ما يبدو لنا على أنه أسلوب تداعٍ عبثى هو مع ذلك واقع ماثل في الأزمان، وواقع لا بد من إيلائه الاعتبار. لقد وُضِعَتْ أمام هذا الواقع بصورة غير متوقعة، عندما كنت في زيارة لقبيلة الفوّاز في صبحى في الأردن، حيث أعلمنى مضيفنا أن الحطّة والعقال اللذين يعتمرها بعض العرب من البدو كانا في الأصل قطعة من قماش أسود اللون يرفعها الأسلاف حداداً على خسارة الأندلس!

الحملة الصليبية

ما لبثت الحملات الصليبية، التي اعتُبرَتْ في البداية بمثابة امتداد للحملات البيزنطية، أن اكتست طابعاً تاريخياً فريداً في نظر السكان المحليين. في الواقع، مع المسافة، بات بديهياً أن تخرج المنطقة بأسرها مقلوبة رأساً على عقب بفعل هذا الزلزال النفسى، مُعَقِّد الأبعاد، المتصل بالسياسة والثقافة والتجارة، وصولاً حتى إلى تركيب السكان. مختصر القول إن الحملات الصليبية لم تكن مجرد حملات عابرة. وما زالت أصداء تلك الحقبة تدوى فينا حتى يومنا هذا، ودويّاً مؤثراً أحياناً، مثلها في ذلك مثل ما رأيناه في ذروة أزمة الخليج عندما اختُطَّ اسم صلاح الدين على الطائرة التي أقلت الوفد العراقى إلى آخر قمة عربية في القاهرة^(٢٣). وسنعيد، أدناه، رسم عناصر هذه الحادثة التي تلعب دوراً أساسياً في تشكيل رؤانا الراهنة إلى الغرب.

الحلف/ الندبة

بينما كان البيزنطيون يشكلون عنصراً داخلياً ينتمى إلى تاريخ المنطقة، كان الصليبيون حين مجيئهم عنصراً غريباً. وهكذا، تبدلت الحروب والنزاعات والتعايش والتجارة، سواء تلك التى تضع البيزنطيين فى مواجهة مع جيرانهم أم تلك التى تربطهم ببعضهم البعض، حسب الحالات، تبدلت تبديلاً نوعياً مذهباً وجه الإمبراطور ألكسيس الأول كومنين نداه للبابا. فى النهاية، كرس تجاوب أوربان الثانى، محرك أول حملة صليبية فى مجمع كليرمون (مدينة واجهت المسلمين القادمين من الأندلس)، الصلة بين مسيحيى بيزنطية (الروم) والمسيحيين نوى الأصول الجرمانية واللاتينية. ولم يلبث السكان المحليون أن ميزوا بين الاثنين: ففى مقابل الروم، هناك الغرباء المُسمَّون الإفرنج أو الفرنج؛ ثم غالباً ما سيستخدم هذا المصطلح بعد ذلك ليُدل، دونما فرق، على مختلف ألوان الصليبيين (برغم أن المسعودى وابن الأثير، من بين آخرين، قصدوا به فى الأصل شعوب الإمبراطورية الكارولينجية القديمة). فى معمعة الأحداث سرعان ما حل اللَّبس محل هذا التمييز؛ فالخلافت بين الروم والفرنجة، وسلب القسطنطينية فى العام ١٢٠٤ من قبل الحملة الصليبية الرابعة ومقتل الإمبراطور ألكسيس الخامس نوكاس من قبل الصليبيين، كل ذلك لم يكن كافياً لمحو أثر الجرح الذى تسبَّب به التحالف بين المسيحيين المحليين والمسيحيين الغرباء. لاحظ إمانويل سيلفان ملاحظة ثاقبة فيما يخص صاحب مؤلف الجهاد الدمشقى،

المكتوب فى العام ١١٠٥: الكاتب، (السلمى)، يدل على الصليبيين بتسميتهم الفرنج؛ غير أنه يجرى فوراً الربط بين هزيمتهم، التى يدعو إليها جمهوره، وبين غزو القسطنطينية الذى طالما حلموا به منذ قرون^(٢٤). عقب انقضاء ثلاثة قرون ونصف القرن رُبط سقوط هذه المدينة بين أيدي العثمانيين، فى العام ١٤٥٣، مباشرة، من الناحية النفسية وفى الوقائع، بهذا الحلف/الندبة. وعندما أراد السلطان محمد الثانى الإجهاز على الإمبراطورية البيزنطية باحتلال آخر معلم لها، القسطنطينية، فقد تحركت ثانية الجراح التى تسبب بها التحالف المسيحى فى زمن الصليبيين. يذكر جواد بولس فى هذا الصدد:

وأملأ بمساعدة أوروبا قبل إمبراطورها
قسطنطين بقرار مجمع فلورنسا (١٤٣٩)
الذى يقضى باتحاد كنائس الشرق
والغرب. لكن شعب القسطنطينية وجمهور
الكهنة والرهبان كانوا يعارضون بقوة هذا
الاتحاد ويبدون كائهم يفضلون الأتراك على
اللاتين. ذلك أن اليونان لم ينسوا أنه
وخلال الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢)،
كيف أن الصليبيين احتلوا القسطنطينية
ونهبوها وحولوها طوال أكثر من نصف
قرن إلى عاصمة إمبراطورية لاتينية.

وبعدما صلى في آيا صوفيا استدعى
[محمد الثانى] جنادىوس سكولاريوس،
وهو أبرز معارضى اتحاد الكنائس، وعيَّنه
بطريركاً في مكان البطريرك السابق
غريغوريوس الداعى إلى الوحدة^(٢٥).

بالطبع، فإن ما قام به محمد الثانى من مبادرات رمزية رفيعة ليس
كافياً لمحو الآثار النفسية للحلف التاريخى المقصود: اليوم، وبعد انقضاء
خمسمائة عام على سقوط القسطنطينية، يذكرنا زعماء مسيحيون موارنة
من لبنان طالبوا أو أملوا بحماية فرنسا أو الولايات المتحدة أو الفاتيكان
(المثل الأحدث فى هذا الصدد يتمثل فى طلب الجنرال عون، مرغماً،
بحماية من السفارة الفرنسية فمنحت له) بالكسيس كومنين؛ ثمة آخرون
(المثل الأحدث متمثل بتحالف الموارنة مع سوريا) تذكروا، وغالباً بغير علم،
البيزنطيين الذين فضلوا الأتراك على اللاتين رغماً عما فى المقارنة من عبثية.
أما وليد جنبلاط والشيخ سعيد شعبان فلم يترددا من جهتهما فى ربط
الحملة الصليبية بالتدخلات الفرنسية (العسكرية أو السياسية) لصالح
المسيحيين فى لبنان. الطائفة المسيحية القبطية فى مصر، وهى واحدة
من أقدم الطوائف فى المنطقة، تدفع إلى يومنا هذا ثمن حلف/ندبة هى
منه براء. يفيد ألكساندر بوشيانتى فى مقال حول أعمال العنف المنفذة
ضد الأقباط بعنوان: مصر بين إسلاميين ، أن السبب ما زال هو هو:
إشاعات تقول بأن "الصليبيين اغتصبوا أو ضاجعوا مسلمات"^(٢٦).

الجرح حقيقى والنَّدْبَة صامدة أمام الزمن صموداً على قدرٍ كافٍ من الصلابة، تحديداً لكى يفسح له فى المجال لنكته ثانية. ذاك إذن استدلال يطبع علاقة المسيحيين^(٢٧) المقيمين على طرف المتوسط الشرقى بالغرب الذى ورث ما كان مسيحيو أوروبا يحتلونه فى المخيال الجمعى باعتبارهم أرباب الحملات الصليبية: عمد بعضهم إلى طلب مساعدة الأوروبيين ودعمهم، من أمثال بيار الجميل (زعيم حزب الكتائب اللبنانية)، وظهر آخرون بمظهر القلقين، من أمثال أنطون سعادة (زعيم الحزب القومى السورى الاجتماعى التاريخى) أو طارق عزيز (وزير الخارجية العراقى أثناء حرب الخليج). فى وسع هذه الشخصيات المسيحية أن تتزوّد على مرادها من الصور التى نسترجعها فى ذاكرتنا الجمعية تبريراً لأمل بمساعدة غربية أو تنديداً بها. ينطبق الأمر ذاته على كل من يتماهى مع الوجدان العربى: فهو يعانى من جرح نفسى تسبّب به الحلف التاريخى ويغريه فى الآن نفسه إمكان الاستزادة بما تبقى لدينا من صورٍ تتصل بالحملات الصليبية. ما يؤسف له بالطبع أن قراءة انتقائية للتاريخ غالباً ما تستخدم كوسيلة لإبراز هذا الاستدلال أو ذاك من الاستدلالات على حساب ما يتوجب من تمييز، إذ إنه لا بد من عدم نسيان أن مسيحيين محليين قد رفضوا فى الحالة الخاصة تلك التعاون مع الصليبيين أو التحالف معهم، فيما بعض المسلمين قد استجاب (تواترت الحالات التى تشابه تشكيلات من نوع تشكيلة رضوان صاحب حلب حليف تانكريد صاحب أنطاكية تصديداً لهجوم جوالى، أمير

الموصل المتحالف مع بوبوان صاحب إيديسه)، وأن المسيحيين المحليين الذين يختلفون في طقوسهم عن طقس الغزاة تعرضوا للاضطهاد، بينما كانوا يتمتعون في ظل صلاح الدين، أو مباشرة قبيل الفترة الصليبية، بامتيازات وفيرة. مع ذلك علينا الاعتراف بأن بعض الاستدلالات لها من التأثير على تشكيل رؤانا إلى الغرب ما ليس لبعضها الآخر. إن الحلف/النّبة استدلال بلغ من القوة مبلغاً خاصاً بحيث نشأ عنه في المخيلة علاقة تضامنية بين المسيحيين المقيمين على طرفي المتوسط، وانبعثت للشكوك لدى أولئك الذين اختاروا، وبمعزل عما يؤمنون به، أن ينظروا إلى الوقائع التاريخية من زاوية مغايرة لا يقل فيها تأثيرها الرمزي قوة. باختصار، تثبت حالة الحملات الصليبية إثباتاً قاطعاً كيف أننا نستمد من صور ورسوم موروثة من الماضي ما يلبي راهن حاجتنا، ويستجيب لحاضر واقعنا ويتناسب مع عصرية مواقفنا السياسية.

الاغتصاب من قبل الغرب عن المنطقة

إن صورة الاغتصاب من قبل عنصر خارجي هي بكل أحقية الصورة الأقوى من بين الاستدلالات المتصلة بمشهد الحملات الصليبية، وهي بكل تأكيد واحدة من أكثرها فعالية في استثارة الغرائز والتشجيع على التداعيات بين الوقائع، التاريخية منها والحاضرة. ووقع هذه الصورة وقع بالغ الشأن على رؤانا إلى الغرب.

لقد رأينا أعلاه ما لدخول عنصر غريب متمثل بالفرنج من وقع نوعى على معنى الاجتياح فى مقابل عنصر داخلى متمثل بالروم. وكان من شأن ما أبداه الروم أنفسهم من أسف على استنجادهم بالغريب - وقد دفعوا ثمناً غالياً جداً لهذا الإثم - أن يوفر مزيداً من التبرير لسخط وثورة من عانى من السكان معاناة مباشرة من الغزو. الحق أن تعبئة حازمة ضد الصليبيين قد تأخر قيامها (قرابة نصف قرن عقب سقوط القدس عام ١٠٩٩، وتوجت هذه التعبئة باستعادة إيديسه عام ١١٤٤ من قبل الأتابك عماد الدين زنكى)؛ والحق أيضاً أن أمراء مسلمين قد حالفوا، مستسهلين الأمر، أمراء صليبيين، وأن المسيحيين المحليين كانوا ضحايا الغزو مثلهم فى ذلك مثل المسلمين واليهود وسواهم. ورغماً عن جميع المعطيات تلك، فإن الصورة الأقوى، المنقولة على مر القرون، هى صورة ذاك العدوان المحموم على الإسلام الذى شنه مسيحيون متعصبون قدموا بحراً من الطرف الآخر لحوض المتوسط، مترجلين، من خلف القسطنطينية. فى وسعنا تفهّم أن تكون تلك الصورة هى الأقوى، طالما أن الإسلام كان سائداً منذ أربعة قرون فى المنطقة المغزوة، وأن الغزاة أفصحوا عن عزمهم على تحرير كنيسة القيامة من براثن المسلمين. وبما أن الغزو يزعم النظام القائم الناظم لحياة المسيحيين واليهود فهو إلى ذلك يسدد ضربة للتعايش السائد فى القدس فى ظل الإسلام، منذ الانتصار على الروم عام ٦٣٨، هذا الانتصار الذى تحقق دونما مجازر ومعارك والذى رفض الخليفة عمر عقبه الصلاة فى كنيسة

القيامة حيث وقف بصحبة بطريرك المدينة المقدسة الرومى خشية أن
يبرر بذلك مطالبة المسلمين لاحقاً بتملك الكنيسة. كتب أمين معلوف بهذا
الصدد فقال:

”وحمل بساطه وسجد خارج الكنيسة.
وكانت نظرتة ثاقبية، فسوف يُشاد فى
المكان الذى صُلّي فيه بالذات المسجد الذى
يحمل اسمه. ولا يملك الزعماء الفرنج مع
الأسف هذه الأريحية، فقد احتفلوا
بانتصارهم بارتكاب مجزرة تعزُّ على
الوصف ثم خربوا بوحشية المدينة التى
يزعمون إجلالها.

وحتى إخوانهم فى الدين أنفسهم
لم يوفِّروهم، وكان من أول ما اتخذوه من تدابير
أنهم طردوا من كنيسة القيامة جميع الكهنة
من الطقس الشرقى - رومًا وچيورجيين
وأرمنين وأقباطًا وسريانًا” (٢٨).

الاغتصاب إذن هو اغتصاب للمنطقة بأسرها بتنوعاتها المختلفة،
حتى لو كان العنصر المسلم السائد هو الذى يستطيع الرد على ذاك
الاغتصاب باسم الإسلام. وذلك ما عبَّرَ عنه خير تعبير نور الدين محمود

بن زنكى، كبير الموحدين وعميد أركان صلاح الدين، فى صرخته التى تحدث فيها معبراً عن الحضارة المحلية بكل تعقيداتها قائلاً: "اللهم أت النصر للإسلام لا لمحمود، فمن الكلب محمود ليستحق النصر؟" (٢٩). عندما أتحدث عن تعبير الإسلام عن الحضارة المحلية، وذلك دونما تمييز بين الأديان، إنما أنظر إلى أمور بنظرة إجمالية؛ لا أغفل الضرر الذى ألحقه ببعض المسيحيين المحليين، بعض شركائهم من المسلمين ولا ما اتسم به الصراع من طابع دينى مُركّز على نحو ما وصفه ابن الأثير وصفاً مُتحيّزاً. لا يسعنا تجاهل وصف ذلك الكاتب لمعركة القدس ولما تميّزت به من ضراوة لدى كلا الطرفين، نظراً لأهمية الدافع الدينى، وكذلك وصفه للمشهد المأساوى لدخول المسلمين إلى القدس يوم الجمعة، الثانى من تشرين الأول/أكتوبر ١١٨٧م، الموافق للسابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣هـ، حينما "دوى فى المدينة ضجيج مُصمّ منبعه أصوات المسلمين المتصاعدة فرحاً وصرخات الفرنجة المرتعبين عقب الإطاحة أرضاً بالصليب الذى كان يشرف على المدينة من على "الصخرة المقدسة" (٣٠).

إن استحضار هذه الصورة لأمر جذّاب لما تتمتع به من رمزية قوية. وما يجرى اليوم من استخدام لها على نطاق واسع لفعّال فى استثارة الغرائز والتأثير على المناخ النفسى فى سياق من الأزمة. ثمة مثل يزودنا به الرئيس عرفات بمناسبة أزمة الخليج حيث ذكرت وكالة "وفا" الفلسطينية "أن حجة عرفات بسيطة: تقف منظمة التحرير الفلسطينية فى المعسكر المعادى لإسرائيل التى تحتل ساحات مساجد

القدس"، ولحلفائها الإمبرياليين"، ولا سيما منهم الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الغربية الأخرى". ووصف تدخل القوات الأميركية بـ "الحملة الصليبية"، وقواتها بـ "الإمبريالية"، وانتقد بشدة ما أسماه "ازنواجية وخداع" فى موقف الولايات المتحدة والبلدان الغربية^(٢١). ليست هى المرة الأولى التى يجمع فيها عرفات بين مصطلحى حملة صليبية، وإمبريالية، الحاضرين فى الوجدان العربى حضوراً راسخاً، حتى ولو أنهما يحيلان إلى حقبتين مختلفتين اختلافاً كبيراً.

ويقدم تحليل أمين معلوف تعميقاً فعّالاً لما يختزنه الربط بين صور الماضى والحاضر من إمكانيات:

وإذا كان العالم العربى معجباً
ومرتاعاً معاً من هؤلاء الفرنج الذين عرفهم
برابرة وانتصر عليهم، وإن كانوا قد نجحوا
مُذَّكاً فى الهيمنة على الدنيا، فإنه
لا يستطيع أن يُصمَّم على اعتبار الحروب
الصليبية مُجرَّد فصل من ماضٍ انتهى.
وكثيراً ما يدهش المرء عندما يكتشف إلى
أى مدى ظل موقف العرب، والمسلمين
بعمامة، متأثراً، إلى اليوم أيضاً، بأحداث
يفترض أنه انتهى أجلها منذ سبعة قرون.

ومن جهة أخرى فإن المسئولين السياسيين والدينيين فى العالم العربى لا يزالون، عشية الألف الثالث، يستشهدون بصلاح الدين وسقوط القدس واستعادتها. وتُشبَّه إسرائيل فى المفهوم الشعبى كما فى بعض الخطب الرسمية بدولة صليبية جديدة. ومن فصائل جيش التحرير الفلسطينى الثلاث يحمل واحد اسم "حطين" وآخر اسم "عين جالوت". وكان الرئيس عبد الناصر فى إبَّان مجده يُقارَنُ بصلاح الدين الذى كان - مثله - قد وَحَّدَ الشام ومصر، وحتى اليمن! وأما حملة السويس فى عام ١٩٥٦م فقد نظر إليها - على قدم المساواة مع حملة ١١٩١م - على أنها حملة صليبية بقيادة الفرنسيين والإنكليز.

والحق أن التشبيهات مثيرة. فكيف لا يذكر المرء الرئيس السادات وهو يسمع سبط ابن الجوزى يفضح أمام أهل الشام "خيانة" الكامل صاحب القاهرة الذى تجرأ على الاعتراف بسيادة العدو على المدينة

المقدسة؟ وكيف يُمَيِّزُ الماضي من الحاضر
حين يكون الصراع دائراً بين دمشق
والقدس حول السيطرة على الجولان
أو البقاع؟ وكيف لا يبقى الإنسان مُتَفَكِّراً
وهو يقرأ ملاحظات "أسامة" عن تفوق
الغزاة العسكري؟ * (٢٢).

تَفُوقُ حضارتنا

الأمثلة كثيرة، في كتب التاريخ خاصتنا، على بربرية الفرنج، وقلة
نظافتهم، وتعصبهم، وفظاظة عاداتهم وجهل أطبائهم. فَمِمَّا لا شك فيه
أن ريكاردوس قلب الأسد عرف كيف يكسب احترام بعض مؤرخينا
باعتباره عدوًّا شجاعاً ومحاوراً يستحق الاحترام. إلا أن ما حظى به
ريكاردوس من شعبية كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهالة خصمه المهيّب،
صلاح الدين، الذي تمتع بتفوق بالغ بنظر مؤرخينا، على غرار ما كانت
تتمتع به حضارتنا. هكذا، عندما عرض ريكاردوس على العادل، شقيق
صلاح الدين، الزواج من شقيقته، أدرك صلاح الدين أن رفضه لهذا
الأمر قد يفضي به إلى خسارة أخيه المغروم. وبقبوله ذلك، إنما كان
يرمى إلى إفشال مناورة ملك إنجلترا، مشككاً بالتالي بعرضه غير
الصادق وغير الواقعي. يقول لنا ابن الأثير في هذا الصدد: "ولكن

الإنكليزي الملعون قال له إن أخته غضبت غضباً شديداً عندما عرض عليها الاقتراح؛ وقد أقسمت ألا تُبيح نفسها لمسلم أبداً^(٣٣). الصورة المنقولة صورة تفوق بطلنا صلاح الدين الذي عرف كيف يفشل مناورة بطلهم ريكاردوس^(٣٤). يجدر بنا التشديد على استخدامنا لاسم الضمير "نا" الذي يحيل إلى وجدان العرب السياسى بسائر مكوناتها، بما فيها المسيحية منها.

تعكس المزايا التى يتحلّى بها صلاح الدين إياه مزايا حضارت "نا". كتب جواد بولس مستشهداً بالمؤرخ الفرنسى رنيه غروسيه (يشكل اعتراف الحضارة المنافسة بهذه المزايا عنصراً مهماً فى الصورة المنقولة) فقال:

وسمح صلاح الدين لسكان المدينة المقدسة بمغادرتها بحرية كما سمح للسجناء بأن يشتروا حريتهم بالمال. إن شرف الفارس لديه ناهيك بشعوره الإنسانى فى هذه المناسبة كانا على مستوى انتصاره. وقد رفض الطلب الذى وجهه بعض المتعصبين بمنع الحج المسيحى إلى القدس وهدم القبر المقدس وإزالة مبنى الصليب. وقد رد عليهم صلاح الدين بقوله: فلتتقيد بالفاتحين المسلمين الأولين الذين احترموا تلك الكنائس^(٣٥) (غروسيه).

ويقول مستشهداً مرة أخرى بغروسيه:

"وإن سليل أسرة بلانتاچينى الفائز
الحماسة، وبعد كل هذه المعارك الخارقة،
استعاض فى النهاية بالتقارب الفرنجى -
الإسلامى بدل الحرب المقدسة. كما أن
خصمه الفارس الشجاع السلطان
صلاح الدين، الذى جمع بدوره إضافة
إلى مجد السيف الفضل بأنه شجّع
(ومنذ زمن أقدم) هذا الانتفراج، اضطر كذلك
للاكتفاء بنصف نصر" (٣٦).

على الرغم من تحفظات ابن الأثير وكثيرين غيره حيال رجاحة عقل
صلاح الدين، من الناحية العسكرية، وحيال ترؤفه بالفرنج الذين
استطاعوا فى قسم منهم أن يتجمعوا فى صور، انتقلت بفضل بادراته
صورة تسامح حضارت "نا" وكرمها بزخم شديد عبر القرون. كان من
شأن هذه الصورة إزعاج مختطفى المواطنين "الغربيين" فى لبنان، الذين
غالباً ما قدموا ضحاياهم بمثابة جواسيس لحساب إسرائيل أو الـ "سى
إى إيه"، كتبرير لأفعالهم.

يقول معلوف فى معرض حديثه عن الأمير أسامة بن منقذ: [...]
فقد عرف شخصياً نور الدين وصلاح الدين ومعين الدين أنر والملك فلك

وكثيرين غيرهم. [...] وقد نُشر كتاب أسامة الرئيسي، وهو سيرة حياته الذاتية في باريس عام ١٨٩٢ بعناية H. Derenbourg^(٣٧)، ويؤكد:

”وإن لم يتردد الأمير أسامة في تسمية
الداوية ”أصدقائي“ فلأنه يُقدَّر أن عاداتهم
البربرية قد تهذبت باحتكاكهم بالشرق.
ويشرح لنا ذلك فيقول^(٣٨): ”ومن الإفرنج
قوم قد تبنُّوا وعاشروا المسلمين فهم
أصلح من قريبي العهد ببلادهم“^(٣٩).

يستعيد معلوف في الصفحات التالية حوادث عدة نقلها أسامة
تثبت جميعها تخلف حضارة الفرنج، أكان في مجال القانون والفقه
والعادات والطب، أو في التسامح إزاء الأديان الأخرى. ولعلَّ ذروة
بربريتهم كامنة في أنهم لم يتوانوا عن أكل لحم البشر. وقد حصل ذلك
لما استولوا على المعرَّة أواخر عام ١٠٩٨، عقب حصار طويل، وعلى
الرغم مما تعهد به بوهيموند، صاحب أنطاكية الجديد، بضمان أرواح
السكان مقابل استسلامهم. إن اعتراف مُؤنِّ الأخبار الفرنجي راوول دو
كانُ بالأمر، يتضمن وصفاً دقيقاً للحالة:

”كانت جماعتنا في المعرَّة تُغلِّ وثنيين
بالغين في القدر، وتَشْكُ الأولاد في سفاقيد
وتلتهم مشويين“^(٤٠).

تشرذم وانقسامات

لقد أعطت الحملات الصليبية معنى جديداً لنقاط الضعف ولهشاشة الوضع الذي كان العالم العربي - الإسلامى يعانى منه، وتبينت كم هى مهمة، فى كل الأزمنة، وحدة قوى المنطقة وكم كانت وخيمة نتائج الانقسامات التى أصابتها. وظهر هذا الأمر بصورة أجلي وأعمق مما ظهر عليه فى حرب الاسترداد الإسبانية. لئن كانت الوحدة العربية ما تزال اليوم مسألة تنتمى إلى عالم الأوهام، فإن صورة عالم عربى موحد مستخدمة فى المقابل استخداماً حقيقياً صارماً من قِبل الرئيسين حافظ الأسد وصدّام حسين، وهى ما تزال راسخة فى ذاكرتنا الجمعية. وابتعثت الهزيمة أمام إسرائيل صورة الوحدة ابتعاًتاً قوياً وشحنتها بمشروعيتها الراهنة. كلما ذكر اسم صلاح الدين، فإن ما يستحضر، فى الواقع، هو توحيد قوى المنطقة (بالقوة إذا لزم الأمر) من أجل تحريرها من وزر الهزيمة المؤلم. فلشدة ما هى جلية عدالة قضيتنا ولشدة ما هى خرقاء هزيمتنا، غدا التحرر حليف القدر بحيث بدا تحقيقه محتملاً بقدر ما كان فى العام ١١٨٧. والموعود مع القدر محدد من جهة أخرى فى القرآن، وهذا ما لم يغب عن بال صلاح الدين تذكير ريكاردوس قلب الأسد به، حينما ضَمَّنَ رده على انفتاح هذا الأخير الدبلوماسية إصراره على التمسك بالقدس فقال له: "[...] وإليها تحشر أمتنا يوم القيامة" (٤١).

وأخيراً، فيما يتعلق بالحملات الصليبية، فلنضيف أن التفحص فى جرائد مثل النهار و القبس و الأهرام و الأوريان لوجور العائدة أعدادهما

إلى الفترات التي سُجلت فيها أزمات فى العلاقة بين الشرق والغرب، إنما يبين أن التجليات الكاشفة عمّا لصورة الحملات الصليبية من وقع على إدراكنا ليست غائبة. فنعثر عليها فى أفواه المسؤولين السياسيين والدينيين كما نعثر عليها لدى الجماهير وهى تتظاهر فى الشارع بمناسبة كل استعراض غربى للقوة على الساحة الإقليمية. يكاد تشبيه هذه التدخلات بالحملات الصليبية لا يقاوم؛ إن حصل عدوان جوى على ليبيا أو أرسلت قطع حربية لتقف فى عرض البحر مقابل الساحل اللبناى، لا تلبث ردة الفعل أن تحدث فوراً أو تكاد، لكنما اتساعها مرتبط بصورة رئيسية بحجم هذا التدخل وانعكاساته. والتصريحات من نمط تلك التى سجلناها أعلاه عند عرفات هى القاعدة لا الاستثناء (٤٢).

فى هذا الفصل، حاولنا إبراز أكثر الاستدلالات الماقبل غربية رسوخاً وكذلك الصور أو الرسوم المرافقة لها. التاريخ غنى جداً بالتمثيلات التى يسعنا استحضارها إرادياً لتشكيل رؤانا إلى الغرب أو التى تؤثر فى هذه الرؤى لمجرد أنها موجودة. هكذا، استنجد الرئيس المصرى أنور السادات فى خطابه أمام الكنيست بتاريخ ٢٠ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٧٧، بالماضى المجيد والحملات الصليبية والخيانة المتمثلة بوعد بلفور (٤٣). إن من شأن تنضيد صور تنتمى إلى لحظات مختلفة أن يبعث برمزية قوية إلى الظهور، يتمثل موضوعها المركزى بالصدام بين حضارتين، الغربية منها والشرقية، هذا رغماً عن نوايا السادات المتساهلة.

حواشي الفصل الأول

- (١) حسب فيليب حتّى، تاريخ لبنان، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، ص ١٤٤، وحسب New Larousse Encyclopedia of Mythology, Toronto, Prometheus Press, 1968, p. 105. فإن أوروبا (عُرباً) بعد إنجابها لثلاثة أطفال من زفس هم مينوس رادامانتيس وسريدون، تزوجت من أستيريوس، ملك كريت.
- (٢) لا يمكن إغفال دور القوتين الاستعماريّتين (الإنجليزية والفرنسية) في الترويج للطروحات التي تربط المصريين المعاصرين بالماضي الفرعوني أو اللبنانيين المعاصرين بالحضارة الفينيقية. غير أن هذه المسألة تتعدى ما أُصِبو إليه.
- (٣) غالباً ما عمّد بيار الجميل، مؤسس حزب الكتائب (اللبنانية)، وابنه بشير، الرئيس المنتخب للجمهورية اللبنانية والذي اغتيل فيما بعد، إلى اقتباس هذه الأسطورة. ونذكر، من بين المؤرخين الذين يستشهد بهم في هذا السياق، أسماء جواد بولس وفيليب حتّى وفؤاد أفرام البستاني.
- (٤) جواد بولس، الموسوعة التاريخية، شعوب الشرق الأدنى وحضاراته، تاريخ مقارن منذ الأصول حتى يومنا، الجزء الرابع، تعريب وتحقيق سيمون عواد بمعاونه ماري عواد، الناشر دار عواد للطباعة والنشر - إشراف مؤسسة جواد بولس، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٢.
- (٥) محمد عبده، الإسلام، دار الهلال [بدون ذكر البلد والتاريخ]، ص ١٥٤ و ١٦٦. وسنستعرض أطروحة عبده استعراضاً مطولاً في الفصل الرابع.
- (٦) فيليب حتّى، م. س، ص ١٩٢.
- (٧) م. ن، ص ٢٤٤.
- (٨) جواد بولس، م. س، ص ٥٠٩.

(٩) جورج قرقم، انفجار المشرق العربي، بيروت، دار الطليعة، ص ٧.

(١٠) م ن، ص ١٢٥، راجع أيضاً ص ٢٩ و١٢٨-١٣٠.

(١١) أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٨١.

(١٢) راجع أدناه: إدوارد سعيد ونقد الاستشراق. فيما يتعلق بالجغرافيا والتاريخ المتخيلين،

راجع: إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، بيروت، مؤسسة الأبحاث

العربية، ط ٤، ١٩٩٥، ص ٨٥ إلى ٨٧، وبخصوص الطابع الخلاسي لليونان القديمة

مثلاً راجع: إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٨، ص ٨٦-

٩٨ و١٧٤-١٧٥.

(١٣) فيليب حتى، م س، ص ١٩٢.

(١٤) م ن، ص ٢٠١.

(١٥) راجع مقال جان- بيير برونسيل- هوغون، الجامعة الناطقة بالفرنسية في

الإسكندرية يديشنها أربعة رؤساء دول، من بينهم السيد ميتران، في جريدة لوموند،

عدد الأحد - الاثنين ٤ و٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، ص ٣، يجدر ذكر الرقـص

الذي أبداه الشيخ محمد الغزالي، المذكور في هذا المقال: "نحن نرفض هذه الجامعة

لأنها ستكون منبراً للفكر والثقافة الفرنسيين على حساب الفكر والثقافة الإسلاميين".

(١٦) يتعلق الأمر بسورة الكهف وبالأخص الآية ٨٣ و٩٨.

(١٧) عبد الله يوسف على، القرآن الكريم (إمارة قطر، مطابع قطر الوطنية، ١٩٤٦

[١٩٣٤])، ص ٧٦٠ و٧٦٣ على التوالي. تتضمن هذه الطبعة النص العربي وترجمة

إنجليزية له وشروحات. بنظر عبد الله يوسف على، ليست مسألة تحديد هوية شخصية

نحو القرنين على أي جانب من الأمية طالما أن قول الله قول مجازي؛ إلا أن المسألة قد

أثارت لدى المسلمين مقداراً من الاهتمام حداً به ليخصها بملحقه السابع، ص ٧٦٠.

راجع أيضاً ملاحظاته في الحواشي ٢٤٢٨، ٢٤٢٠ و٢٤٢٣.

(١٨) سمير أمين وفيصل ياشير، المتوسط في العالم: إشكاليات تجاوز القوميات (باريس،

جامعة الأمم المتحدة، لا ديكوثيرت/طويقال، ١٩٨٨)، ص ٩، ١٠، ١٢ و١٣. راجع

أيضاً: سمير أمين، موقع العرب والمسلمين في النظام الخراجي العالمي - الجنور

التاريخية لعداء الغرب، المستقبل العربي (١٥٠، آب/أغسطس ١٩٩٤)، ص ١٩.

(١٩) م ن، ص ١٠٠

(٢٠) جواد بولس، م س، ص ١٠٦، يروى أنه في العام ٦٢٩ أرسل محمد (صلعم) وفوداً إلى الإمبراطور هيراقليوس ونجاشي الحبشة وإلى مصر القبطي (المقوقس) وكسرى الثاني ملك الفرس وأمراء عساف واليمامة العرب داعياً إياهم إلى اعتناق الدين الجديد.

(٢١) إن التعايش الرائع مع المكوّنة اليهودية ما زال ماثلاً في الأذهان، ولا سيما أن قسماً كبيراً منهم فروا من حرب الاسترداد الإسبانية وسياسة الاضطهاد التي مورست ضدهم فوجدوا في المدن العربية - الإسلامية ملجأً آمناً.

(٢٢) صور الأندلس المجيدة والمتفتحة ماثلة أيضاً في النصوص النثرية والشعرية المعاصرة (راجع مثلاً: قصيدة بيروت (١٩٨١) لمحمود درويش؛ وغادة السمان، القبطة المتصلة، الحوادث ١٢ تموز/يوليو ١٩٩١، ص ٧٠، من ناحية ثانية، يجدر بنا ذكر الأندلس، رمز الخصوبة والوفرة، تغير اسمها لمخاين عربية يملكها لبنانيون في كندا. وفي أبو ظبي، وجدنا هذا الاسم يطلق على معرض للسيارات (معرض الأندلس للسيارات).

(٢٣) نلقت النظر إلى مصادفة غريبة: لم يكن صلاح الدين محرر القدس من الصليبيين ومعروفاً كداعية وحدة عن طريق القوة وحسب، وهما صفتان من الواضح أن الرئيس العراقي صدام حسين يرغب في الاشتراك بهما، بل أكثر من ذلك فإن ابن الأثير يذكر أن مسقط رأس صلاح الدين هو تكريت، أي بالضبط مسقط رأس صدام. جدير بالملاحظة أن صلاح الدين من أصل كردي، غير أن متاعب صدام مع الأكراد كانت لتهمز صلاح الدين على الأرجح، إذ كان، على غرار ما فعل صدام، من أنصار توحيد قوى المنطقة بأى ثمن تحت رايته.

Emanuel Sivan, L'Islam et la Croisade, Idéologie et propagande (٢٤) dans les réactions musulmanes aux Croisades, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, 1968, pp. 25-26.

(٢٥) جواد بولس، م س، ص ٥٧ - ٥٩ .

(٢٦) لوموند، ١٣ - ١٤ أيار/مايو ١٩٩٠، ص ١ و٢ .

(٢٧) المقصود بالطبع مسيحيين بمعنى الانتماء إلى طائفة بالولادة من غير أن يكونوا بالضرورة مؤمنين أو ممارسين لواجباتهم الدينية. هذه الملاحظة تصلح لجميع الألفاظ المستخدمة على هذا المنوال.

(٢٨) أمين معلوف، م س، ص ٧٨ .

(٢٩) أمين معلوف، م ن، ص ١٨١ .

(٣٠) ابن الأثير، م س، مجلد ١١، ص ٥٤٧ و ٥٥١ .

(٣١) إ إف پ، لو دوقوار (Le Devoir)، الثلاثاء ١٩٩٠/٩/٤، ص ٥ .

(٣٢) أمين معلوف، م س، ص ٢٢٧، ٢٢٨ .

(٣٣) ابن الأثير مذكور في أمين معلوف، م ن، ص ٢٦٦ .

(٣٤) نلاحظ أن العلاقة بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد مقدمة على أنها علاقة بين رجلين شرفيين أو نعتين أصليين للفروسية. الجوانب الإيجابية للصورة التي نحملها عنهما لا تعمق النّبة؛ بالعكس، فإن الرسم المُميّز يبدو لنا سائراً بتيار معاكس لما ترسمه الصورة المقولية السلبية. إذًا، ليس هناك وجود لصور سلبية فقط نستمدّها من تاريخ الحملات الصليبية.

(٣٥) جواد بولس، م س، ص ٥٥٥-٥٥٦ .

(٣٦) رنيه غروسيه، L'opée des Croisades ، ص ٢٥١ و ٢٥٢ - مذكور في جواد بولس، م س، ص ٥٥٨ .

(٣٧) أمين معلوف الحملات الصليبية، م س، ص ٢٣٤ .

(٣٨) م ن، ص ١٦٨ . تجدر الملاحظة أن معلوف لم يقع في مطب ربط الفرنج بالمسيحية في خطاب أسامة، الأمر الذي لم ينجُ برنارد لويّس منه.

(٣٩) كتاب الاعتبار ، حرّره فيليب حتّى، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠، ص ١٤٠. مذكور في أمين معلوف، م ن، ص ١٦٨ .

(٤٠) ابن الأثير، م س، ص ١٨٧، مذكور في أمين معلوف، م ن، ص ٦٣ .

(٤١) م ن، ص ٢٦٥، ثمة واقعة مثيرة للاهتمام: تحدد الآية ٦١ من السورة ٤٣ أن عودة المسيح الثانية (وليس مجيء النبي محمد ﷺ) هي من العلامات المنذرة بيوم القيامة؛ راجع بهذا الموضوع شروح عبد الله يوسف على، م س.

(٤٢) مثال آخر يزودنا به تصريح للإخوان المسلمين المصريين فى لوريان لوجور بتاريخ ١٩٩١/١/٢١، ص ١: "إن أطماع التحالف الصليبي الصهيوني متينة وجليئة [...] يريدون السيطرة على النفط وأسعاره وإنتاجه، ويثبت ذلك أن تحرير الكويت لم يكن سوى ذريعة كاذبة".

(٤٣) "عوضاً عن إيقاظ أحقاد من نمط الأحقاد التى رافقت الحملات الصليبية يجدر بنا أن نبعث روحية عمر بن الخطاب وصلاح الدين، وكلام آخر روحية التسامح واحترام الحق [...] سوف لن أسترسل فى استعراض حوادث الماضى منذ وعد بلفور لستين سنة خلت. إن الوقائع تلمون بها إماماً جيداً". ذكره جورج قزم فى Le Proche-Orient éclaté, Paris, La Découverte, 1988, p.398-399.

الفصل الثانى

الغرب التاريخى

نحن لا نسعى إلى تحديد ما إذا كانت الحضارة الغربية فى حد ذاتها جيدة، أم لا، لأن الحضارة الغربية مثلت فى ١٩١٤ أمام الحاكم السماوى وما زالت ماثلة مُذًاك. لو ترك أمر الحكم لى، لما ترددت عن إدانتها، وبذلك أكون منسجماً مع غالبية المفكرين الغربيين انسجماً كلياً.

جبران خليل جبران

يتعين علينا، فى نفس الوقت الذى نتجنب فيه الأخذ بعلامات الاستدلال المتسمة ببداية مفرطة، أن نحاول تحديد اللحظة (لا ، بل اللحظات) التى يتخذ فيها الغرب تعريفه فى الوجدان السياسى العربى

تحديداً جلياً بقدر ما أمكن. إنه لضرب من التبسيط مثلاً إن قلنا إن كل شيء قد بدأ في العام ١٧٩٨، تاريخ احتلال نابليون للشاطئ المصري. في الواقع، وإن كان متعذراً علينا تعيين اللحظة الدقيقة للتواصل فإن محطات اللقاء مع الغرب هي حقيقية تماماً، بحيث يمكن وصف هذا التلاقى بكونه كناية عن لحظات تاريخية متراكمة ومتزامنة مع انحسار وهج الإمبراطورية العثمانية تأثرت بواسطتها بعض النواثر بقوة الآخر قبل أن يشيع هذا التأثير في الوجدان الشعبي. ويتوافق إدراك الآخر مع كمٍّ من الأحداث والتصورات انجبلت بصور الغرب الميتولوجي لتُنتسل عنصراً جديداً. إن هذا العنصر الجديد هو "غرب التحديث"^(١)، أي "الغرب بمعناه الحقيقي"، أو بالأحرى ذاك الغرب الذي نحيل إليه فيما درجنا عليه في الخطاب السائد المعاصر. الوعي بالغرب لا يحصل دفعة واحدة، شأننا في ذلك شأن إدراكنا لسقوط الإمبراطورية. يتعلق الأمر بسيرورة حركية تقطعها حوادث عديدة لا وقع موحداً لها على جميع العرب، غير أن من شأنها تشكيل رؤية الغرب في الوجدان السياسي العربي.

تقودنا هذه السيرورة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، من معركة ليبانت (Lépante) (١٥٧١) إلى معاهدة سيفر (Sèvres) (١٩٢٠)؛ هاتين اللحظتين الرمزييتين الممتلئتين لبداية نهاية حقبة هزائم منيت بها الإمبراطورية أمام القوى الغربية. تسمح لنا هذه المرحلة بإمكانية تعيين موقع العناصر التي أثرت بالإدراك التدريجي

لوجود "غرب التحديث". كما أنها شهدت أيضاً حضور الموضوع المركزى الذى سوف يصبح ملازماً لنظرة العرب للغرب فى القرن العشرين: عينا به المؤامرة، تلك المؤامرة التى تعود جذورها إلى اتفاقيات سايكس - بيكو لعام ١٩١٦ وإلى وعد بلفور.

أولى أمارات الانهيار العثمانى

حدثان رئيسيان يحلّان بالأولوية فى أعماق ذاكرتنا إزاء جميع ما حققه العثمانيون فى مواجهة الغرب. يتعلق الأمر باحتلال القسطنطينية فى العام ١٤٥٣، وبالحصارين اللذين تعرضت لهما قيينا، وهما يرمزان إلى أبعد ما بلغه التغلغل من مدى فى عمق الغرب. علاوة على هذين الحدثين يتعيّن عدم الاستهانة بواقعة السيطرة على مناطق أوروبية مثل البلقان والمجر^(٢)، وضم الإمبراطورية لها.

لكن الأمر يستدعى منا الحذر واستدراك بعض دقائق الأمور. فمن جهة، فى المخيال العربى، لا يتم تحديد العثمانيين كعرب وبالتالي فإن انتصاراتهم ليست بالضرورة انتصاراتنا، أو على الأقل بمثل ذلك الوضوح الذى كان عليه فتح الأندلس. إلى ذلك فإن حصارى قيينا ما قادا قط إلى انتصارات ساحقة ولا إلى ازدهار لاحق على غرار ما كان عليه الحال فى الأندلس. ومن جهة أخرى، حتى وإن كانت بيزنطية والقسطنطينية تنتميان إلى "المسيحية"، فإن ربطهما بالغرب أمر ليس من المُسلّمات بالنسبة

إلى المخيال العربى. ومما له القدر ذاته من الدلالة أن القسطنطينية شكلت عنصراً داخلياً فى المنطقة ومتميزاً عن الغرب تميزاً بيئياً. نرى إذن أن غزو الغرب وإن كان متاحاً له حضور قوى فى مخيال بعض العرب، لا سيما فى أوساط الذين يرون فى العثمانيين استمرارية للخلافة، فلا ينفى ذلك أن هذا الحدث لم يتمتع بالقوة ذاتها التى تمتع بها فتح الأندلس.

أولى الهزائم وإعادة مركزه العالم التجارى

دشنت واقعة ليبانت البحرية وانتصار النمسا بقيادة بون يونيو، سلسلة سوداء بالنسبة إلى العثمانيين، حتى وإن كان أول تراجع فى اليابسة، قد تطلب انقضاء أكثر من قرن، وذلك عندما فقدوا المجر وسلوفاكيا وترانسيلفانيا وكرواتيا فى العام ١٦٩٩ (معاهدة كارلوفيتس). فيرى خالد زيادة (٢) أن هزيمة ١٦٩٩ كانت محدّدة لجهة ما استثارته من شعور لدى الحكام العثمانيين بأنه بات محتملاً الاستفادة مستقبلاً مما طرأ فى أوروبا من تطورات تقنية. فى هذا الصدد يوفر المثل الروسى لبطرس الأكبر حجة دامغة، إذ عزيت انتصاراته العسكرية إلى ما أبداه من انفتاح إزاء تأثيرات أوروبا التحديثية. إن معاهدة پاساروفيتس، التى تم التخلّى فيها عن بلجراد وأراضٍ أخرى فى محيط الدانوب لمصلحة النمسا، سوف ترسخ بعيد سنوات (١٧١٨) ميل الإمبراطورية العثمانية إلى التقلص.

لقد شهد القرن الخامس عشر اكتشاف طريق الهند الجديدة فضلاً
عن استكشاف الأوروبيين لأميركا. بنظرة مراجعة، يلاحظ سمير أمين فيقول:

إلا أن المتوسط بقى فعلاً مركز هذا
القسم من العالم، إلى أن تم هذا التجاوز -
ابتداءً من القرن السادس عشر. فهو يدين
بالفضل آنذاك إلى العلاقات بين أجزائه
المكونة أكثر منه إلى المبادلات الخارجية.
وأنوار الهيمنة في المنطقة وجدت أسسها
من داخل هذه الأخيرة: ثمة العوالم المتعاقبة
للمتوسط الفينيقي واليوناني، وللإمبراطورية
الرومانية والعرب في عظمتهم الأولى
(القرون الثلاثة الأولى للهجرة)، وللمدن
الإيطالية، وللإمبراطورية العثمانية^(٤).

ويوضّح أمين أن تلك الحقبة ولّت إلى غير رجعة، إذ انتقل المركز
إلى بلاد الأطراف القديمة المتمثلة بأوروبا الشمالية، مُشكّلاً عند
الاقتضاء مركزاً جديداً أوروبياً - أميركياً شمالياً. فمنذ ذلك الحين،
ما عادت المنطقة البحرمتوسطية تشكل منطقة وسطى لا محيد عنها على
طريق الهند. وفي المدى الأبعد، ستفقد من أهميتها في ميزان المبادلات
التجارية. باختصار، ما عاد البحر المتوسط بمركز العالم^(٥)، وبالتالي فقد
جرى تهميش قطبه الشرقي. ضمن منطق تحليل أمين، كان لنتائج ذلك

الانتقال الاقتصادية بعيدة المدى بالغ التأثير على المالية العثمانية، إذ شكلت نقطة تحول في اقتصاد المنطقة برمتها. إلا أن وقعها على الصعيد المالى لم يكن مباشراً. وقد رأى البعض أن مسعى الطواف البحرى كان بمثابة مؤشر على قوة العثمانيين ما دفع القوى الأوروبية لتجنب مجابهة تكون فى صالح العثمانيين^(٦).

مهما يكن من أمر لقد وجدت الإمبراطورية نفسها مضطرة إلى استخدام نظام الامتيازات الأجنبية الآيل إلى ضبط وضع الأجانب على الأراضى العثمانية، ليس كتعبير عن قدرتها المطلقة وعلى أريحيته وإنما كوسيلة تواجه بها ضغوط القوى الأوروبية، الاقتصادية والعسكرية، وذلك عن طريق منح امتيازات لرعاياها العاملين فى التجارة على الأراضى العثمانية وبالمثل لمحاسبيها المحليين من المسيحيين أو المسلمين أو اليهود^(٧). وسوف يقدم ضعف المالىات المحلية الدليل على هشاشة أوضاع الإمبراطورية المالية: ففي العام ١٨٧٦ حدث المديونية المصرية الخرافية بالخدوى إسماعيل باشا أن يعهد بالإشراف على مالية البلاد إلى فرنسا وإنجلترا.

صورة الميزان

كثيراً ما درج على استخدام صورة الميزان للربط ربطاً تقريبياً بين الانحطاط العثماني وتعاظم القوة الأوروبية. وهكذا، كتب جواد بولس

يقول: "يعود انحطاط الإمبراطورية العثمانية واندثارها إلى أسباب عدة، أهمها، اختلال النظام في صفوف الجيش والتقهر في المجالين الفكري والعلمي فضلاً عن السبب الخارجى المرتبط بنهضة أوروبا"^(٨). هذه الرسوم، التى طالما حبّذا المؤرخون، تضع الغرب والشرق فى كفى ميزان حيث يقابل هبوط أحدهما صعود الآخر، وهى تندرج فى استمرارية الأسطورة المتعلقة بسلسلة المصادمات التى بدأت بالنزاع الناشب بين داريوش وقدماء اليونان أو كذلك باختطاف عُرباً. ففى نظر البعض ممن يتمسكون بتلك الصورة، إنه يتعين، استتباعاً، توقع انقلاب الميزان، سواء خشينا ذلك أم تمنيناها بفارغ صبر.

تطور العلاقات الثنائية

لقد كشف عدد من الباحثين من أمثال ألبيرت حورانى وجواد بولس وكثيرين غيرهم النقاب عن عدد لا يستهان به من الأمثلة التى توضح علاقة التفاعل مع الغرب فى تلك الحقبة. وحسبما يقوله خالد زيادة، صاحب كتاب "اكتشاف التقدم الأوروبى: دراسة فى المؤثرات الأوروبية على العثمانيين فى القرن الثامن عشر"، فإن العثمانيين ما كانوا ليولوا اهتماماً بما طرأ من تطورات على أوروبا إلا ابتداءً من مطلع القرن السابع عشر. كلنا يعلم أن السلاطين كانوا طوال ذلك القرن منشغلين بضرورة إجراء إصلاحات والاقتباس عن التجربة الأوروبية اكتشافاتها

فى ميادين التنظيم العسكرى والعلوم^(٩). كان للعلاقات الطيبة القائمة بين بعض القادة شأن فى تشجيع المبادلات وتحسين شروط معرفة الآخر. وعند هذه النقطة يعود بنا خالد زيادة إلى تحالف فرانسوا الأول (١٤٩٤ - ١٥٤٧) والسلطان سليمان القانونى الذى أعقبته تفاهمات تسمح لفرنسا بالاحتفاظ بمصالح تجارية تفضيلية فى المنطقة^(١٠). وهو يذكر أيضاً تجربة فخر الدين الثانى مع أوروبا (حوالى ١٥٧٢ - ١٦٣٥): "فقط قامت تجربة اتصال مع بلد أوروبى فى مطلع القرن السابع عشر بعد إقامة للأمير فخر الدين المعنى الثانى فى إيطاليا (١٥٧٢-١٦٣١)، تمكن خلالها من ملاحظة التنظيم العسكرى المتبع فى إيطاليا وتقديم صناعة الأسلحة والأساليب المتبعة فى الزراعة وفى العمارة. وبعد عودة الأمير إلى لبنان حاول أن يستفيد من مشاهداته فعمل على بناء القصور وتنظيم الزراعة وزيادة إنتاجها من خلال الاستعانة بخبراء أوروبيين"^(١١).

السفارات

حسب زيادة، بما أن أوروبا لا تقع، بنظر المسلمين، على طريق الإيمان، أى مكة، ولا على طريق التجارة التقليدية، أى طريق الهند، فما كانت لتستثير أعمالاً من نمط أدب الرحلات. لقد تعينَ انتظار القرن السابع عشر كى تتوافر عبر السفارات (إذ اتخذت شكل بعثات جولة) ما يفيد منه قراء العالم العثمانى من معلومات تتعلق بالمجتمعات الأوروبية.

فمن أولى السفارات المهمة، كانت تلك التي رُسِّمها كارا محمد باشا إلى قُيُننا عام ١٦٦٤ إذ ضمت ١٥٠ شخصاً^(١٢). وبعيد ذلك (عام ١٦٩٠) سوف يقدم الوزير الغسَّاني تقريراً مسهباً عن رحلته وعن مشاهداته في إسبانيا بصفته موفداً من قِبَل مولاي إسماعيل، سلطان فاس ومراكش. يعتبر زيادة هذا التقرير بمثابة أول محاولة لتجديد رؤيتنا إلى بلد أوروبى. وأعقب هذا التقرير تقرير آخر أعده عبد الله بن عائشة يسهم فى كشف أحوال فرنسا السائدة فى زمن أيام لويس الرابع عشر^(١٣).

فى الاتجاه الآخر، شكَّلَ السفراء الأوروبيون عاملاً لا يستهان به. ففى عهد السلطان عبد الحميد الأول (١٧٢٥ - ١٧٨٩)، كان شوازل جوفُييه (Choiseul Gouffier) الذى خلف دالامبير (D'Alembert) قد وصل فى العام ١٧٨٤ على رأس بعثة مؤلفة من ضباط وطوبوغرافيين وجغرافيين وشعراء وجلاوزة، فلعب دوراً من الطراز الأول بجانب الوزير خليل حميد باشا حتى مقتل هذا الأخير برصاص المعارضين لسياسته الإصلاحية. ويقول زيادة إن هذه البعثة تذكر بالبعثة التى رافقت نابليون فى حملته على مصر بعد أربعة أعوام^(١٤).

فرنسا، لغتها وثورتها

إن استخدام رجال من دعاة الإصلاح اللغة الفرنسية، أمثال محمود رثيف وسيد مصطفى، وهما قد أعدمهما الإنكشاريون أثناء

حركتهم ضد سليم الثالث عام ١٨٠٧، لشاهد بالغ الدلالة على مقدار ما تأثرت به شريحة من النخبة المثقفة باللغة الفرنسية. لا سيما رثيف الذى كتب باللغة الفرنسية - اللغة العالمية فى ذلك الزمن^(١٥) - طيلة السنوات الخمس التى عمل فيها سفيراً فى لندن. كما وأنه لأمر بالغ الدلالة أن يكون من أولى نتاجات المطبعة العثمانية، التى أسست عام ١٧٢٤، قاموس تركى - فرنسى وكتاب آخر من تأليف مسئول المطبعة بالذات، إبراهيم متفرقة. وكتاب أصول الحكم فى نظام الأمم (١٧٣١) هذا إنما شكّل بحسب خالد زيادة أول محاولة نظرية من نوعها تطرح مسألة الاستفادة من علوم أوروبا العسكرية والإدارية وضرورة اكتساب النفعاى المكتشفة حديثاً^(١٦).

لقد ارتدى إدخال مفاهيم جديدة، بواسطة اللغة الفرنسية، أهمية خاصة. هكذا، دخل مفهوم الوطن إلى حيث كان التداول محصوراً بمفهوم "الأمة" الإسلامى، أى جماعة المؤمنين^(١٧). إن مفهوم الثورة ليس له مقابل باللغة العربية إلا ما يدل دلالة سلبية تحيلنا إما إلى معانى الفتنة أو البلبلة العظيمة، حسبما جاء عند ترك، وإما أيضاً إلى معنى الاختلال، حسب استخدام سيد وحيد أفندى السفير فى باريس. أما لفظ الإصلاح فحمل من معنى المفهوم بعده الإيجابى. وثمة مصطلحات ثلاثة بالعربية ستعرف حياة جديدة بفعل وهج الثورة الفرنسية، هى: الاستقلال، الجمهورية، الحرية^(١٨). من جهتهما، فإن مصطلحى الأخوة والمساواة ما كانا ليطرحا أى مشكلة إذ يؤكد الإسلام على التعاضد

الأخوى بين المؤمنين: "إنما المؤمنون أخوة" والمساواة أيضاً كانت داخلة فى صميم التفكير الإسلامى: "لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى"^(١٩).

الفن العسكرى الأوروبى

كان قد سبق للعثمانيين أن استخدموا منذ أوائل القرن السادس عشر البارود والأسلحة النارية، الأمر الذى سهّل عليهم توسيع إمبراطوريتهم إلى سورية ومصر. منذ ذلك الحين ما انفك الإعجاب بالفن العسكرى الأوروبى يتغلغل فى أذهان بعض رعايا السلطنة وبعض سلاطينها، مثل سليم الثالث ومحمود. كان هذا الإعجاب مرتبطاً بالطبع بإخفاقات السلطنة أمام قوة الأوروبيين العسكـرية. والإصلاحات التى أعقبتها (منها التنظيمات) قد أثارت، كما كان متوقّعا، معارضة الانكشاريين والعلماء (الذين نجحوا فى خلع السلطان سليم الثالث - الذى حكم من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٧). إلاّ أنها قد أتاحت، مع الوقت، لبعض الرعايا فى السلطنة أن تنتشر فى أوساطهم التربية الفرنسية والإنجليزية والألمانية أو الإيطالية. وبالاقتـران مع فهم لغات أوروبا وسياستها، فقد نتج عن ضرورة التدريب على الفن العسكرى الأوروبى تشكيل أول نخبة "متأثرة بالغرب" فى المنطقة^(٢٠). وبالتالى فقد أعقب إيفاد عناصر شابة للدراسة فى أوروبا فتح مدارس للضباط بعهدة مدرسين فرنسيين وألمان وإنجليز علاوة على المُنشَقِّين الأوروبيين ومن رعايا الباب العالى ممن يجيدون استعمال المراجع الأوروبية ويستطيعون ترجمتها.

نذكر على سبيل المثال الكونت دو بونفال (Comte de Bonneval) أو أحمد باشا، باسمه المسلم، الذى لعب دوراً هاماً فى تكوين قسم جديد للمدفعية، سيتولى هو قيادته، وفى إدخال قسم خاص بالطب فى الجيش العثمانى، وفى تأسيس مدرسة جديدة للهندسة. وكان هذا الضابط السابق فى الجيش الفرنسى (خدم كذلك فى الجيش النمساوى) قد أوصى الباب العالى بتحديث الجيش العثمانى وبضرورة قيام تحالف تركى - فرنسى لمواجهة الخطر الروسى^(٢١). وبوسعنا كذلك ذكر البارون دو توت (Baron de Tott) الذى شارك فى تأسيس المدرسة البحرية وكان أول أوروبى مسيحي يسهم فى ميدان على هذه الدرجة من الحساسية دونما إحراج للإسلام^(٢٢).

إن أفكار الإصلاح المستوحاة من النماذج الأوروبية بدأت إذن تنمو بذورها فى الأذهان، بيد أن ثمة نخبة متعلمة بدأت تتكون وتقتنع بضرورة انحيائها إلى المناهج والتقنيات الأوروبية الأرقى. وأخذ مفهوم الحكم المركزى القوى وفكرة المساواة بين جميع المواطنين فى السلطنة، بغض النظر عن دينهم، يكتسبان مزيداً من الجاذبية. يتعين أن نرى فى ذلك جذور الإصلاحات التى قلبت أوضاع السلطنة من تنظيمات القرن التاسع عشر وحركة تركيا الفتاة حتى التغييرات الجذرية التى فرضها أتاتورك.

لا شك أن هذا التيار الجاذب كان قوياً وشمل بتأثيراته جبهات عدة. وما كان لحمد على أن يشذ عن هذا المسار. فأرسل هو أيضاً

بعثات إلى باريس وشجّع قدوم مدرسين أوروبيين إلى مصر. ولعل ترؤس الإمام الطهطاوى أول بعثة تعليمية مصرية إلى فرنسا فى العام ١٨٢٦ خير تجسيد لتلك الفترة. ولا يتوانى أنور عبد الملك عن وصف عمله على أنه يستهدف "دمج ما قدمه عصر الثورات الليبرالية فى أوروبا، ثقافياً، بنهضة الوطن المصرى" ليعود فيؤكد أنه : "مع الطهطاوى انتهت القرون الوسطى فى مصر، كما فى مجموع العالم العربى" (٢٣) .

خلاصة القول، إذا ما أردنا اكتساب مهارة التقنيات العسكرية لا بد من اكتساب مهارة لغات أوروبا، وتلقّى تربية أوروبية، أو من الطراز الأوروبى، وأتباع دروس فى الإعداد التقنى. إن المنحى القاضى بإضفاء صورة مثالية على الغرب الذى اخترق الوجدان العربى، ولا يزال، يجد هنا جنوره، وهذه الجذور متصلة بمبدأ الحداثة. إن هذه المبادئ التى اعتمدتها إدارة محمد على، حسب ما يفيد حورانى، تحت تأثير الأيديولوجيا الثورية الفرنسية إنما هى مبادئ المركزية وضرورة إيجاد جيش كفؤ ومنضبط، واستغلال الموارد الطبيعية استغلالاً علمياً، والمساواة بين المواطنين ومختلف الطوائف الدينية (٢٤). ونظراً لأن التفاعل مع الثقافات الأجنبية يستثير الإعجاب والمقاومة فى آن واحد، فإن أنماط السلوك الجديدة صار لها بعد ذلك أبطالها ومناوئها .

الإصلاحات

يتعينُ إذًا النظر إلى الإصلاحات في ضوء ما سبقها، لأن كل العناصر المتمثلة في الانجذاب إلى الفن العسكرى وإلى فرنسا وثورتها، ومن خلال السفارات خصوصاً، وفي العلاقات البيئية عمومًا، إنما تشكل اللوحة الخلفية التي أتاحت لفكرة الإصلاح أن تتبلور.

فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) انفتحت آفاق جليلة أمام منحنى إجراء إصلاح تام على المنوال الأوروبى. فتراجع دور السفارات الجوالّة، نظيرة تلك التى قادها محمد أفندى، لتحل محلها سفارات دائمة أُنشئت فى أوروبا. وفتحت الأبواب على مصاريعها أمام استقدام الخبرات الأوروبية، ولا سيما الفرنسية منها. وقد انتهى أمر المقاومة التى أبداها الإنكشاريون وشيخ الإسلام محمد منيب، وقاضى إسطنبول مراد زادة، وغيرهم من العلماء والمحافظين من أمثال خالد أفندى (السفير فى باريس عام ١٨٠٢)، إلى الانتصار على السلطان سليم الثالث فى العام ١٨٠٧. مع ذلك فإن عهد السلطان سليم الثالث عبّر، حسب خالد زادة، عن نهاية الحذر الذى كان يبديه "الشرق إزاء الغرب" وفتحت الأبواب أمام تنظيمات ١٨٣٩ - ١٨٧٦^(٢٥). ويختم زادة قائلاً: "أدى اكتشاف الآخر، أى اتصال المسلمين بأوروبا إلى تبدّل فى نظرة المسلمين إلى أنفسهم... ولا يزالون يسعون إلى تحديد هذه النظرة"^(٢٦).

إن الوعي بوجود الآخر والانجذاب إلى نموذج جديد أخذ ينتشر في الأذهان. وفي لحظة يتعذر تعيينها فقد تم تخطي التفريق بين فرنسي وألماني وإنجليزي باعتماد مفهوم الغرب. واليوم، باتت الفكرة المرتبطة بهذا الغرب فكرة راسخة تماماً: ما عادت بنا حاجة للمرور عبر الفرنسيين أو الألمان للتعبير عن الإعجاب أو الرفض أو المقاومة أو الرغبة في التقليد . علماً بأنه يجدر بنا توضيح أن هذا التبنى التدريجي للمفردة لا يستتبعه خلطٌ بين القوى ذات الصلة بهذا الغرب^(٢٧). إنه لمفيد للغاية أن نلاحظ على سبيل المثال كيف يجرى التمييز، في إدراكنا الحسّي الراهن، بين الغرب الذي يهاجم العراق وبين فرنسا التي تهبُّ في محاولة إنقاذية أخيرة، لتقترح مبادرة تحول دون وقوع الحرب، لكنها سرعان ما انضمت من جديد إلى صفوف الغرب في الهجوم الذي تلا. ومرد ذلك أن الجنور التاريخية للتلاقى تحيل، بصورة مباشرة، إلى التفاعل مع القوى الأوروبية الناشطة في المنطقة وليس مع الغرب باعتباره كياناً مُتَراصّاً، حتى ولو كان معنى الغرب الراهن نابعاً من هذا الاتصال.

نشاط الإرساليات

لسنا هنا في وارد استعادة النقاش حول حسنات نشاط الإرساليين ومساوئهم، بل إن ما يعنينا هو مجرد طرح لشروطه وقياس وقعه بعض الشيء. ففيما يدور النقاش بين العرب حول الإطار التاريخي للتلاقى مع

الغرب، يُرجع بعض المؤلفين وجود الإرساليين إلى ما أطلقنا عليه تسمية "الغرب الخرافى". على سبيل المثال، وضع حتى لائحة يرجع فيها إلى عام ١٢١٩، تاريخ وصول أتباع القديس فرنسيس الأسيزى إلى عكا، وحتى إلى العام ١١٥٤، تاريخ تأسيس أحد الصليبيين للرهبانية الكرملية (٢٨).

من الواضح، فى نظرنا، أن الصورة السلبية، التى تربط دون تمييز بين "المسيحيين العرب" وتآمر الإرساليين على مصلحة المسلمين "يُكذِّبها وجود أشخاص مثل عفلق وجرجس ومسيحيين آخرين بالولادة ممن انتقدوا بشدة الإرساليين وتصدوا لنفوذهم (٢٩). حتى الإسلامى محمود محمد شاكر، لم يسعه، فى كتابه "أباطيل وأسمار"، إلا أن يُقرَّ بتبصُّر جرجس سلامة حين قال بأن طريقة التربية الغربية غدت تُشكِّل فى مصر دولة داخل الدولة (٣٠). وبالمقابل، فقد جاء تكذيب هذه الصورة السلبية، عبر ما ظهر من افتتان بالغرب عند الطهطاوى وطه حسين وسواهما من المسلمين بالولادة ممن كانوا أتباعاً للإرساليين ومن أشرس المدافعين عنهم.

لكنه لا بد من توضيح أن العنصر العربى المسيحى قد لعب دوراً مهماً فى نشاط الإرساليين وتأييده (لكن علينا عدم إغفال المسلمين والملحدين واليهود واليونانيين والأرمن، عرباً كانوا أم لا، ممن ارتادوا، هم أيضاً، فى عدد يذكر من الحالات، مدارس الإرساليات). لقد لعب العنصر المسيحى دوراً جاوز فيه كثيراً وزنه العددي، لا سيما عبر

الصحافيين اللبنانيين والسوريين المقيمين في مصر محمد على (غادر أتباع بطرس البستاني بيروت، هرباً من عبد الحميد، ليحلوا في القاهرة، من بينهم يعقوب صرُوف وفارس نمر مصطحبين معهما مجلة "المقتطف" التي تأسست في بيروت العام ١٨٧٦) ^(٢١)، وذلك سواء أثناء حملات محمد على أم من خلال مسيحيي لبنان الذين تخرجوا من المؤسسات الإرسالية المقيمة في لبنان أو القاتيكان (المعهد الماروني في روما) ^(٢٢) أو فرنسا. إنه يتعين عدم السقوط في التبسيط والتوقف عند حدود تأثير هذه المجموعة أو تلك فحسب؛ بالتالي، لئن كان، على سبيل المثال، ثمة صحافيون مسيحيون لبنانيون قد أسهموا بصورة غير مباشرة أو مباشرة في الترويج للإعجاب بالغرب، فإنما فعلوا ذلك بالعربية وأسهموا بالتالي في استيقاظ وجدان عربي مُتميّز عن العنصر التركي. فنذكر في هذا الصدد بتبحر أديب مثل اليازجي الذي شارك مشاركة فعّالة في النهضة الأدبية العربية التي توافقت مع انحطاط السلطنة العثمانية.

خلاصة القول، إن ما يهمنا هنا، فيما يتعدى المباحكات حول الأهمية الخاصة بالعنصر المسلم والمسيحي، القاهري أو البيروتى، في عملية استيراد "الفكر" من أوروبا، وفي "النهضة العربية" التي لطالما جرى التغنى بها، هو مدى شمولية الظاهرة وريود الأفعال المتناقضة التي أثارته. فعلاً، فقد انتشر في جميع أرجاء السلطنة تقريباً فضول إزاء أوروبا ونماذجها. ولئن احتلت إسطنبول والقاهرة مرتبة الريادة، ولئن شكلت بيروت مركزاً احتياطياً مهماً في عملية تكوين الأتباع

وتصديرهم، فإن مناطق السلطنة الأخرى لم تبق بمنأى عن تأثير الأفكار الجديدة، وذلك على الرغم من أن دور الإرساليين المباشر كان معدوماً، أو أقل وضوحاً. وهنا أيضاً، علينا عدم التقليل من شأن التأثير المماثل الذى تمتعت به مدارس مثل مدرسة العلوم العسكرية فى تونس (أسسها أحمد بك، وكان معظم مدرسيها من الأوروبيين)، وهو تأثير كان جلياً قبل الاستعمار المباشر.

أما اليوم، مع ابتعاد الزمن وبسبب ما تركته العملية الاستعمارية المباشرة من نتائج تحملها العالم العربى فإن التدخلات والتأثيرات السالفة ارتدت أهمية مغايرة. فبدت تلك المماحكات سطحية بإزاء اتساع مجال تدخل القوى الأوروبية فى شأن الشعوب المستعمرة التربوى. إن ما تحظى به التربية على الطريقة الأوروبية، أو الأميركية الشمالية، من اعتبار ونفوذ فى العالم العربى لم يعد يقبل الجدل اليوم. والجامعات الأميركية الشمالية والأوروبية تتمتع اليوم بجاذبية قوية فى العالم العربى. حتى بنظر أولئك الذين يرفضون التغريب، فإن التعليم الذى توفره الجامعات "الغربية" (٣٣) غالباً ما يكون مرغوباً فيه، أقله بغية امتلاك مفاتيح التكنولوجيا "العصرية".

فيما عدا ذلك، تختلط التفاصيل ببعضها البعض ويلتحم الماضى بالحاضر فى الصورة السلبية التالية: "الإرساليات والإرساليون: أحصنة طروادة أم نعمة ربانية؟". حقاً، إنه لجلي أن العرب جميعهم لا ينظرون إلى الأمر بالعين ذاتها، بدءاً من أشرس النقد مثل محمود محمد شاكر

انتهاءً بأصلب المدافعين مثل طه حسين، عبر كتابه الشهير "مستقبل الثقافة في مصر".

لئن كان هذا الأخير قد ربط الحداثة بأوروبا وقبل بكل ما تستطيع أن توفره في مجال التربية ، ودعا إلى تواصل عميق معها، فإن الأول قد أكد أن "أكثر الطرق غير المكشوفة المفتوحة أمام الإرساليين، المدعومة من سياسة المحتلين الأوروبيين، هي طريق التربية". وفي حين يستشهد طه حسين بأنوار النهضة الفرنسية، يستشهد محمود محمد شاكر بالأب زويمر في الدرس التالي الذي كان يُلْقَنه لتلامذته الإرساليين قائلاً: "يجب التبشير في أوساط المسلمين بلسان موفد نشأ في صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها" (٢٤).

وسوف يدمج أنور عبد الملك بطريقة أكثر براجماتية الوجهين، الشيطاني منه والملائكي. فبعد تعداده لحسنات الإرساليات وإرساء نظام تربوي عصري في مصر، وبعد توقفه، بوجه خاص، عند إسهام الطهاوي وأتباعه، يخلص مع ذلك إلى القول: "إن نشاط الإمبريالية في حقل التعليم والثقافة يتجلى بصفته أكثر نشاطاتها خبثاً" (٢٥).

خطاب المستشرقين

لا يمكننا اعتبار تأثير كتابات المستشرقين على التلاقى عاملاً منفصلاً عن تأثير الإرساليين. فبالفعل، لم يلبث الطلاب القادمون من العالم العربي،

أمثال الطهطاوى ، وجواد بولس ، وألبرت حورانى ، وطه حسين، أن نهلوا مباشرة، فى أوروبا ثم فى الولايات المتحدة لاحقاً، من كتب وفكر المستشرقين. واليوم، لم تعد أعمال المستشرقين بحاجة للإرسالين حتى يتم تداولها فى العالم العربى، إذ إن انتشار الترجمات والكتب الأصلية تسير على ما يرام وللإعلاميات قسطها فى الأمر. والصور التى تتناقلها هذه الكتابات شهدت انتشاراً، بعد إقدام التلاميذ والخلّص المحليين، على استردادها وتبنيها.

دعونا نأخذ مثل برنارد لويس. إنه لظاهر لعيان القارئ العربى أن هذا المستشرق الشهير لا يقيم فارقاً بين "المسيحية" و"الغرب". وهو إنما يسهم بذلك من علياء نفوذه فى تصوير العرب والمسلمين كأعداء للمسيحية. وهكذا، فإن اختياره للعديد من مقتطفات أدب الرحلات التى عبّر فيها الرحالة العرب المسلمون عن ازدرائهم لعادات المسيحيين، لسبب أو لآخر، من شأنه أن يثير عند القارئ غير المُطّلع تماماً على دقائق الأمور، الشعور بأن العرب والمسلمين يُكْنُون للمسيحيين الحقد والكراهية العميقين. ويدل الاستشهاد التالى على الالتباس الذى يسهم فى زرعه من خلال الفصل بين المسيحية والعرب ودمج الأولى بالغرب.

"تتمتع رواية أسامة بكل مواصفات
الحكاية الإثنية؛ إلا أنه يصور فيها تصويراً
مثيراً الانطباع الذى كانت تتركه تقاليد
الزواج المسيحية على مراقبى ذلك العصر
المسلمين" (٣٦).

وفى حين يتحدث أسامة، فى الاستشهاد المذكور، عن الفرنج وليس عن المسيحيين! ^(٢٧) يتابع لويس فيقول:

مع ذلك لم يكن مشهد تلك المسيحيات
داعياً لعدم الرضا. لقد تسنى للمسلم
الأندلسى، ابن جبير، الذى كان قد زار
سوريا وفلسطين فى زمن الصليبيين، أن
يشاهد أحد الأعراس المسيحية ^(٢٨).

هذا وكأن الأندلس كانت خالية من المسيحيين! ليست المسألة،
بالطبع، معرفة ما إذا كان المؤرخ الأندلسى قد شاهد فى الأندلس عرساً
مسيحياً أم لا؛ بل إن ما يهمنا من تأكيد لويس يكمن فى أنه يروج لفكرة
ترجح عدم إمكانية حصول مثل هذه التجربة. هكذا، فقد حجب
المستشرق صورة التسامح الذى ساد فى الأندلس مستبدلاً إياها
بصورة توحى بتأويل معاكس تماماً.

إن مثل هذه الحذاقات تعمل، غالباً، ومن حيث لا يدري صاحبها
والقارئ معاً، على ترسيخ الصورة السلبية فى الأذهان، والتي يظهر
فيها العرب على أنهم ليس فى وسعهم أن يكونوا مسيحيين، ويظهر فيها
الإسلام على أنه لا يندرج فى استمرارية الكتاب المقدس فى حين أن
الصورة المضادة تفيد بأن المسيحية ليست نتاجاً "للغرب"، إنما هو قد
استوردتها فى واقع الحال من "الشرق".

لم يعد عالم المثقفين العرب اليوم بحاجة حقاً إلى المستشرقين ولا إلى الإرساليين لترويج مثل هذه الصور السلبية، لأن الوجدان العربى قد تملكها الآن وهى قد تغلغلت فى أعماقه. ومن ناحية أخرى، سيوجد على الدوام ما يكفى من العرب لينوبوا عن الإرساليين فى عملهم فيعفونهم عناء الانتقال.

لكنّ ثمة توضيحاً لا بد منه، وهو أن دراسة المستشرقين للتلاقى مع الغرب ليست ظاهرة سكونية. لقد استثار إدوارد سعيد^(٣٩)، مؤخراً، فى نقده للاستشراق، رد برنارد لويس فى "قضية الاستشراق"^(٤٠). كتب تييرى هنتش بصدد هذا الجدل فقال:

"لقد قام 'موضوع' الاستشراق برد فعل
- رداً ذاتياً - على المعالجة العلمية التى أخضع
لها. لكن لويس، المطل من علياء تفقّقه، لا يريد
أو لا يستطيع أن يرى الآخر على أنه ذات"^(٤١).

ويقترح فى مقابل هذا الموقف، إقامة حوار يرتكز على اكتشاف الذات من خلال دراسة النظرة التى نلقياها على الآخر. فقد سررنا، منذ عهد أقرب، باكتشاف ما سعى إليه بومينيك شوقالييه وعز الدين قلوز وأندره ميكال لتقويم مختلف وجوه التلاقى مع الغرب على شكل حوار بين كُتّاب من أفاق مختلفة. وهم بذلك يعرضون على القارئ. فى كتابهم - العرب والإسلام وأوروبا ، نقاشاً يتواجه فيه "مستشرقان" و"مستغرب" وهو أمر غير مسبوق^(٤٢).

الاحتلال المباشر

كما هو واضح عند محمود شاكر، فإن العديد من الكتاب يربطون بين نشاط الإرساليين وعملية إخضاع العالم العربى للاستعمار: لقد اعتُبرَ أتباعهم عملاء مشاركين فى هذه المؤامرة، سواء عن إدراك منهم أم عن غير إدراك. يضاف إلى هذا العمل الهدّام ما يقوم به المستشرقون ومنافسوه العرب، ذلك أنه غالباً ما نُظِرَ إلى جهود الإرساليين والمستشرقين على أنها مناورات تمهد للاحتلال العسكرى والاستغلال الاقتصادى.

بيد أن الاحتلال هو الذى يُؤشّرُ بأكثر الأشكال محسوسية على التفوق العسكرى الأوروبى. ولتكوين صورة شاملة عنه، دعونا نستعرض بعض الأحداث التاريخية: بادئ ذى بدء، ومن الجانب الفرنسى، هناك نابليون وحملته على مصر (١٧٩٩ - ١٨٠١)، ثم فتح الجزائر وتونس (على التوالي، عام ١٨٣٠ و ١٨٨١). أما الإنجليز من جهتهم، فقد استقروا فى مصر منذ عام ١٨٨٢، وتعاقبت الغزوات فى بلاد المغرب؛ حيث أن الأراضى الممتدة من مراكش إلى ليبيا غدت فى العام ١٩١٢ تحت سيطرة الفرنسيين والإسبان والإيطاليين. وفى لبنان، حيث تقيم قنصليات الدول الأوروبية الكبرى علاقات مُميّزة مع هذه أو تلك من الطوائف، فقد تخلل القرن التاسع عشر عمليات إنزال بحرية على شواطئه، منها إنزال العام ١٨٤٠ فى جونية الذى ترافق مع قصف

بيروت بمدافع السفن الإنجليزية والنمساوية (تحت إمرة الكومودور نابييه أثناء المجابهة العسكرية مع قوات محمد علي)، أو إنزال السادس عشر من آب/أغسطس ١٨٦٠، أى اليوم الذى نزل فيه الجنرال دويوفور دوتبول إلى اليااسة وأقام معسكره فى بيروت (بذريعة رسمية تقضى بمساعدة الباب العالى على استعادة الأمن إثر المصادمات الدامية بين الطوائف المحلية). وما قبول فؤاد باشا، موفد الباب العالى، بترؤس لجنة دولية مكلفة بإعادة ترتيب الأوضاع فى لبنان إلا مؤشراً ذا دلالة على تراجع النفوذ العثماني فى المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى بزمان طويل؛ فقد مثلت هذه اللجنة بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وروسيا (٤٣). وسوف تأتى الانتدابات، بتغطية من جمعية الأمم حديثة العهد، لتضفى الشرعية على احتلال المشرق العربى من قبل فرنسا (سورية ولبنان إضافة إلى نفوذ على غرب العراق)، وبريطانيا (العراق وفلسطين وشرق الأردن). وبالتالي فإن مجموع العالم العربى الذى نعرفه اليوم كان قد انتقل ليرزح تحت السيطرة العسكرية للقوى الأوروبية الكبرى (٤٤).

حملة مصر

ينطوى إنزال نابليون فى مصر، من بين سائر الإنزالات، على دلالة بالغة الأهمية. إذ إن الأمر يتعلق بأول احتلال واسع النطاق طاول قلب العالم العربى ودام من سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٨٠١ (نابليون نفسه غادر

مصر فى عام ١٧٩٩). ولا تخلو قصة هذه الحملة من بعض الالتباس. لقد أكد نابليون أنه قدم لمقاتلة المماليك بموافقة السلطان. وفى رسائله إلى المصريين وقف قاب قوسين أو أدنى من اعتناقه الإسلام! من ناحية أخرى، لم تكن المقاومة ضد نابليون بمنأى عن تأثير أفكار الثورة الفرنسية وتفوق تقنية المحتل العسكرية ومجموعة الاكتشافات العلمية التى حملها معه. ويرجع الكُتّاب العرب جميعهم دون تمييز إلى عبد الرحمن الجبرتي^(٤٥) ونقولا ناصيف الترك^(٤٦)، المعاصرين كليهما لتلك الحملة. كان الأول مريباً ملتحقاً بجامعة الأزهر الشهيرة، وقد قدّم عن الحملة صورة معادية. أما الثانى فكان مسيحياً ملتحقاً بالأمير الدرزي، بشير، المعادى لوالى عكا الذى قاوم نابليون، وقد اتهمه باحثون عديدون من أمثال ناشريّ الجبرتي وخالد زيادة بالتواطؤ. وقد انتقد هذا الأخير نقولا الترك ودونَ تناقضاته عندما فضح فى مكان مُعيّن استخدام الفرنسيين لوسائل غير شريفة مثل التنكّر للمسيحية وانتمائهم الظاهري للإسلام، بينما كتب فى مكان آخر يقول إن الفرنسيين يتميزون عن الشعوب الأخرى بسلوكهم السليم وطيبتهم وترويجهم للمساواة^(٤٧). وفيما يتعلق بالجبرتي، يذكر زيادة أن النقطة الإيجابية الوحيدة التى وجدها هذا الأخير لدى الفرنسيين تتعلق بتفقههم، وبمعرفتهم للغة العربية، وباهتمامهم بالرياضيات واللغات، وبالعلوم^(٤٨).

وبحسب زيادة، فقد شكلت حملة مصر كابحاً للعلاقات الطيبة بين العثمانيين وفرنسا وانعكست سلباً على حُسن سير الإصلاحات. ويشير

إلى الدور البارز الذى لعبه الفرنسيون (مع بعض الإيطاليين والنمساويين) فى تسريع الإصلاحات فى إسطنبول حتى حملة نابليون، التى وضعت الفرنسيين والعثمانيين فى حالة حرب، بالرغم من أن الطرفين كانا حتى ذلك الحين حليفين ضد الإنجليز والروس. ولم يحل تأكيد نابليون أنه قدم باسم السلطان لمقاتلة المماليك دون وضع القنصل الفرنسى بالذات تحت الإقامة الجبرية. وانتهى النزاع بتوقيع معاهدة السلام عام ١٨٠٢ (٤٩).

لا يسعنا إخفاء دهشتنا أمام السرعة التى زالت فيها العدوانية. حقاً، فإنه لم يبق سوى القليل من الأحقاد عقب انتهاء الحملة، إذا ما قارناها بأحداث كالحملات الصليبية أو استعمار الجزائر واستيطانها أو، لنقل، بالاحتلال المتستر بالانتداب، فى نهاية الحرب العالمية الأولى. هل يعنى ذلك أن ثمة انجذاباً عاماً إلى شخصية بوناپرت أم أن الأمر يعود إلى تأثير الثورة الفرنسية وما رافقها من تحديث؟ لقد حاول نابليون إثارة إعجاب الشعب المصرى فلم ينزل إلى البر إلا برفقة ثلاثين ألف جندي (وهو عدد متواضع للغاية) وعدد كبير من العلماء والإداريين، وقد حاول مراعاة الحساسية الإسلامية. بيد أن الجبرتي يروى لنا قصة أخرى هى قصة مقاومة غازي.

باستثناء ما جاء فى بعض التقويمات الإيجابية كتلك التى يذكرها زيادة أعلاه، أطلق الجبرتي صرخته تعبيراً عن سخطه. فهو يُمكننا من كشف النقاب بجلاء عن صورتين على الأقل لا يمكن تخطيهما:

صورة المقاومة وصورة الغرب المتفلتة أخلاقه، إذ يصف في -
مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، الإنزال في الإسكندرية على
الوجه التالي:

رمت دولة الكفار بثقلها على هذا
المحور. لقد تفرقوا في أرجائه الأربع
كالسم في الجسم المعافى. [...]
كانت مقاومة الإسكندرية لإنزال نابليون
مقاومة دامية. تُقدَّرُ خسائر الفرنسيين
بحوالى ثلاثمائة جريح وقتيل، ومن جهة
أهل الاسكندرية فقد بلغ العدد سبعماية
أو ثمانماية. الجنرال كليبر أصيب إصابة
خطيرة في جبهته ونابليون نفسه نجا
بأعجوبة من رصاصة أطلقت من إحدى
النوافذ؛ والزوجان المسئولان عن المحاولة
قتلتهما المحتلون. [...] الأسباب الوحيدة
وراء استسلام الإسكندرية كانت قلة
الاستعدادات من طرف المدافعين^(٥٠).

فإذن، كانت أول ردة فعل دفاعية، حيث الحذر التام لا يفسح المجال
لأية مساومة. والرفض في تلك المرحلة كان رفضاً شاملاً.

لا يرى الجبرتي أية روح وفاقية فى رسالة نابليون إلى المصريين، فهو ينتقدها انتقاداً شديداً ويفندها نقطة نقطة. ويفضح سوء نية أولئك الذين صاغوها، محذراً من نواياهم المبيّنة. وفى رده على الرسالة، يصف الجبرتي قلة نظافة الفرنسيين (يتمخطون ويبصقون على التخت)، وقلة حيائهم، وخفة أخلاقهم، وعدم احترامهم للقرآن (استخدم بعض الفرنسيين أوراق القرآن، يمسحون بها ويرمونها متسخة فى الشارع وفى المهملات) ^(٥١). لم يرَ الجبرتي فيما ذهب إليه نابليون فى رسالته، عندما أحال متباهياً إلى تهجمه على البابا، أى دفاع عن المسلمين، إنما رأى إشارة إلى أن الفرنسيين الكفرة السفلة معادون للمسلمين والمسيحيين فى آن. وفى رسالة أخرى للمصريين أراد نابليون تثبيت عزيمة المقاومة بتصريحه أن الله أراد خسارة أعداء الإسلام، وأن قنوم نابليون ورد فى القرآن، وأن كل من يعترض على حكم القدر سيدفع غالباً ثمن خسارته. لكن عبثاً حاول نابليون تسويق نفسه، فقد رفضه الجبرتي وفنّد كل حججه.

والمشاعر نفسها، نعثر عليها ثانية فى كتاب آخر، للكاتب نفسه، بعنوان من التاريخ المسمى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المجلدان ٣ و ٤ ، وبدا فيهما مغتاضاً من سلوك الفرنسيين والفرنسيات، وكذلك من سلوك بعض النساء العربيات عديمات الذوق، اللواتى يتبنين عادات الفرنسيات أو يتزوجن من فرنسيين. كان كل شئ يثير غضب الجبرتي: خفة الأخلاق، تسلط النساء وطريقة زيّهن ومواقفهن المتعارضة

مع التقاليد (ممازحة السائس والضحك بصوت عالٍ في الشارع). لكن، كيف لنا أن نفسر، في الحالة هذه، بلوغ افتتاح محمد على بنابليون، بعد عدة سنوات، حداً دفعه لتمويل أول بعثة طلابية مصرية إلى فرنسا (١٨٢٦)؟ لعل التفسير يكمن في أن وجهة نظر الجبرتي تمثل الاتجاه المحافظ، ورؤية مؤمن مستاء من تمتع الأقباط بامتيازات منحهم إيّاها الفرنسيون. من الجائز افتراض أن رواية الجبرتي هي أقرب ما تكون إلى الشعور الشعبي، فيما بعض النخب تعيش لقاءها الأول مع التحديث. منذ ذلك الحين، نتعرف على ملامح هذا التناقض في أعمال طه حسين وحسن البنا، الأول بصفته نصيراً بلا مدافع ولا منازغ للتغريب والثاني بصفته أحد أشرس المناهضين له (٥٢).

في جميع الأحوال، فإن حملة مصر، مهما بلغت من أهمية رمزية، ليست أول احتلال مباشر يتعرض له العالم العربي. لقد أخذت الاحتلالات الأخرى على عاتقها إثارة التجاذبات، داخل المجتمعات المحتلة، بين رافض للمحتل وبين مبهور بالحادثة.

صورة المؤامرة ونشأة إسرائيل

لقد شكل التحالف الإنجليزي - العربي، أثناء الحرب العالمية الأولى، ضد الحكم العثماني، لحظة حاسمة في تكوين رؤيتنا إلى الغرب. ومثل هذا التحالف بين الشريف حسين والبريطانيين الأمل والثقة الموضوعين

فى علاقات الصداقة. غير أن ثمة خيانة بعيدة الغور قد وقعت، إذ إننا نعثر، من جهة، على بيانات تُعبّرُ عن الصداقة والتحالف (تفاهمات حسين - ماكماهون) ^(٥٣)، ومن جهة أخرى، على اتفاقيات سرّية تنقضها. وبالفعل، فقد كُشِفَ، عقب اندلاع الثورة العربية ضد العثمانيين فى الخامس عشر من حزيران/يونيو ١٩١٦، أن فرنسا وبريطانيا وروسيا قد اتفقت، قبيل شهر، أى فى السادس عشر من أيار/مايو على خطة للتقسيم (اتفاقيات سايكس - بيكو) مناقضة للتعهدات التى تضمنها تفاهم حسين - ماكماهون ^(٥٤). وبدلاً من أن يفضى التحالف الجديد إلى ولادة أمة عربية موحدة وذات سيادة، نتج عنه احتلال وتجزئة، بل ولّدَ كياناً مُشوَّهاً ^(٥٥).

إنه لعمير للغاية التعبير عن عمق الجرح الذى تَسَبَّبَتْ به هذه الخيانة فى قلوب العرب. فقد ترسَّخَ فى وجداننا إلى الأبد ذلك المثلث الذى يربط بين تفاهمات حسين - ماكماهون ووعد بلفور (١٩١٧) واتفاقيات سايكس - بيكو (١٩١٦) ^(٥٦). وقد انعكست الماراة المتولّدة عن هذه الخيانة ونتائجها فى أعمال مغنين وشعراء ومؤرخين، مثل فيروز ومحمود درويش وچورچ أنطونيوس ^(٥٧).

ومن بين الزعماء، هناك بالطبع الموالون للغرب، الذين احتفظوا حتى اليوم بالأمال المعلقة على الصداقة رغم الإسفين الإسرائيلي الذى يُبقى الجرح ساخناً (المثل على هذه الحالة نجده فى ملوك الأردن وهم من سلالة الشريف حسين نفسه). أما فى الجهة المقابلة فهناك الذين

رفضوا تقطيع أوصال السلطنة ورفضوا الحدود المصطنعة التي وضعت للفصل بين العرب وثروات المنطقة الطبيعية (البعث مثلاً).

وباعتبار أن إنشاء دولة إسرائيل جاء نتيجة مباشرة لوعد بلفور، واتفاقيات سايكس - بيكو، فقد شكّل ذلك نقطة تقاطع الخيانة.

يعكس النص التالي المقتبس من الخطاب التاريخي الذي ألقاه ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، على خير وجه الشعور السائد الذي يخترق الوجدان العربى:

● وعمدت الحركة الصهيونية إلى تهجير

حوالى خمسين ألف يهودى أوروبى بين

عامى ١٨٨٢ و١٩١٧، لاجئة إلى شتى

أساليب الاحتىال لتغرسهم فى أرضنا.

ونجحت فى الحصول على تصريح بلفور

من بريطانيا، فجسّدَ التصريح حقيقة

التحالف الصهيونى الاستعمارى. وعبرَ هذا

التصريح عن مدى ظلم الاستعمار للشعوب

حيث أعطت بريطانيا، وهى لا تملك، وعداً

للحركة الصهيونية، وهى لا تستحق. وخذلت

عصبة الأمم بتركيبها القديم شعبنا العربى،

وتبخرت وعود ومبادئ ويلسون فى الهواء،

وفرضت علينا، قسراً، الاستعمار البريطاني بصورة الانتداب. وتعهد صك الانتداب الذى أصدرته عصبة الأمم المتحدة، صراحة، بالتمكين للغزوة الصهيونية من أرضنا.

• وعلى مدى ثلاثين عاماً بعد صدور تصريح بلفور، نجحت الحركة الصهيونية مع حليفها الاستعماري، فى تهجير مزيد من يهود أوروبا، واغتصاب أراضى عرب فلسطين.

• وبفعل تواطؤ الدولة المنتدبة مع الحركة الصهيونية، ودعم الولايات المتحدة لهما، صدرت عن هذه الجمعية، وهى فى بداية عهدها، التوصية بتقسيم وطننا فلسطين فى ٢٩ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٤٧، وسط تحركات مريبة وضغوط شديدة، فقسمت ما لا يجوز لها أن تقسم، أرض الوطن الواحد (٥٨).

تجدر الإشارة، فى عرضه لمجرى المناهضة، إلى انتقاله من المسئولية الفرنسية - البريطانية، فى حالة اتفاقيات سايكس - بيكو، إلى مسئولية بريطانيا الصرف، مع وعد بلفور (٥٩)، وانتقاله فى لحظة تالية إلى مسئولية

المجتمع الدولي، مع هيئة الأمم وانتداباتها، ثم لاحقاً، مع خطة التقسيم التي أقرتها منظمة الأمم المتحدة. إن الاعتراف بدولة إسرائيل والمساعدة المكثفة التي قدمتها لها الولايات المتحدة قد حملاً هذا البلد الأخير قسماً كبيراً من المسؤولية عن اكتمال المأساة. وهذا إن دل على شيء فيدل على أن خيانات أخرى أضيفت إلى "الخيانة الأصلية" (خيانة اتفاقيات سايكس - بيكو)، واندرجت في سياقها وأجبت نازها.

وصورة الغرب المتآمر هذه، نجدها ماثلة في أذهان القوميين العرب على اختلاف نزعاتهم، ويتم استرجاعها لاستخدامها في حالات خاصة جداً، مثل مؤامرة اغتيال عبد الناصر^(٦٠)، واستهداف خلق الانتفاضة من وراء فصل حرب الخليج، وحروب لبنان الصغيرة، أو وضع عراقيل لمنع المساعدات الإنسانية عن السودان البشير (المتعاطف مع صدام). مرة أخرى، تطول اللائحة. وثمة ظاهرة خاصة ملفتة هي وجود شخص يحتل موقعاً مركزياً في صورة المؤامرة: هذا الشخص هو هنري كيسنجر الذي يبرز اسمه عند منعطف مؤامرات لا تعد ولا تحصى (أو مؤامرة واحدة باعتبار أن الأمر يتعلق، كما يراه البعض، بمؤامرة واحدة وحيدة تمتد على عدة عقود). ولنكون دقيقين أكثر نقول إن صورة كيسنجر مرتبطة في الوجدان اللبناني بصورة مشاريع تقسيم لبنان؛ حتى أن الأمور بلغت حد تحميلة نية تفتيت المنطقة برمتها - وصولاً إلى بغداد - إلى دويلات طائفية (مارونية، سنية، شيعية، علوية، درزية، كردية، إلخ)، لتبرير طائفية دولة إسرائيل المرتكزة على الديانة اليهودية ولنع ظهور أي

خطر قد ينجم عن احتمال تكوُّن قطبٍ عريبى^(٦١). عجباً أو عرضاً،
ها هو ذا كيسنجر نفسه متورط فى أحداث ١٩٩٠ - ١٩٩١، لكونه أحد
أكثر المتحمسين للخيار العسكرى ومطالباً بصورة قاطعة بتدمير القدرة
العراقية^(٦٢).

وفى سجل آخر، انتشرت، إثر الإعلان عن موت "ليدى دايانا"
وزوجها المصرى "دودى الفايد" فى حادث مُروِّع ومذهل، إشاعات
وتحليلات كيفية فى المقاهى وعلى صفحات الجرائد الأولى. فقد
استرجعت صحيفة الشارع هذا الحدث، وقليلون هم الذين تقبَّلوا فرضية
الحادث الصرف. ففى حين وجَّهَ الزعيم القذافى التهمة إلى لندن بتصفية
دايانا بالتعاون مع الاستخبارات الفرنسية لدوافع تمييزية عنصرية
ودينية، فإن الصحف المصرية راحت تُوجَّهُ أصابع الاتهام إلى الأمير
تشارلز، وتساءلت عما إذا كانت دايانا قد اهتدت إلى الإسلام، أو كانت
حاملاً بجنين مصرى ومسلم وأخ غير شقيق لولى العرش البريطانى. فى
الأيام التى أعقبت وفاة الزوجين الشهيرين فقد طرحت مئات من المقالات
الصحفية وعدد هائل من نشرات الأخبار، وكتبَ عدَّةٌ أيضاً عدداً وافراً
من النظريات تُعبِّرُ فيها عن حالة الانزعاج. ولم تكن ردة الفعل محصورة
زمنياً، إذ إن العديد من الأشخاص قد عبَّروا عن رغبتهم فى إنتاج أفلام
تخليداً لذكرى اللقاء بين "دودى" ودايانا؛ دعونا نذكر هنا المخرج
المصرى عاطف سالم الذى اقترح اسم الشهير عمر الشريف لتمثيل دور
"دودى" تاركاً دور دايانا لممثلة غير عربية^(٦٣).

التواطؤ بين إسرائيل والغرب

إن التواطؤ بين إسرائيل والغرب فكرة حيّة للغاية في الوجدان السياسي العربي. وقد ضاعفت الحروب الخاسرة والنكسات المتكررة للجيش العربي أكثر من أى وقت مضى الشعور بالمرارة في هذا الوجدان، لأن عدداً كبيراً من العرب وجدوا فيها دليلاً على عجز عالم عربي يفوق عدد سكانه المئة مليون في مقابل بضعة ملايين من الإسرائيليين^(٦٤).

بالتأكيد، فإن الوضع أكثر تعقيداً في الأذهان، وإن للعلاقة بين الغرب وإسرائيل انعكاسات أخرى على رؤيتنا للطرف الأول فيها. هناك بالطبع فكرة أن العرب قد يسعهم استغلال هذه العلاقة لدفع الأول إلى إخضاع الثاني. كان الملك فيصل أول من استكشف هذا الطريق. وكثيرون هم الذين يرون أنه دفع حياته ثمناً لجسارته هذه. ومؤخراً، وُجّهت رسائل للغرب، عبر عمليات احتجاز رهائن، بأن عليه استخدام نفوذه حيال إسرائيل لحملها على الإفراج عن الرهائن اللبنانيين المحتجزين لدى هذه الأخيرة. لكن إذا كنا نتحدث عن تواطؤ، فكيف لنا أن نتوقع أن تتمكن قوة ما إلزام فرد من العائلة تربطها به درجة عالية من صلة القربى؟

في الواقع، ثمة بيننا من يرى أن إسرائيل والصهيونية هما اللتان تمسكان بزمام السلطة، سواء في إسرائيل نفسها أم في الغرب

(وبخاصة في واشنطن ولندن). ولا تعرف هذه السلطة حدوداً حيث أن مجساتها تمتد من انفجار مركز التجارة العالمي في نيويورك^(٦٥) إلى أفلام الصور المتحركة: إن هذه الفكرة تجد تأكيداً لها على سبيل المثال في حذف المشهد الذي يظهر فيه الإرهابيون الصهاينة في مجموعة "تانتان" في بلاد الذهب الأسود^(٦٦). وبالفعل، ما عادت الطبقات الجديدة لهذه المجموعة تشير إلى منظمة الإرغون، وغدت الصور السلبية المحقّرة تلصق بالـ "إرهابيين" العرب.

وهناك آخرون يقرون بأن الصهاينة نافذون في الغرب، لكن نفوذهم غير مطلق؛ ودليلهم على ذلك التجاذبات بين إسرائيل وديجول أو الضغط الذي مارسه إيزنهاور إبان العدوان الثلاثي الذي تعرضت له مصر عبد الناصر. وثمة آخرون أيضاً ما زالوا على اقتناع بإمكانية حمل الغرب على ممارسة الضغط على إسرائيل، لا بواسطة المقاطعة واحتجاز الرهائن، إنما عبر توطّد علاقاته بالعرب الذين يقبلون بإقامة صلح مع إسرائيل عن طريق التفاوض. هكذا فقد راهن الملك عبد الله، وحفيده الملك حسين، طويلاً على أن إقامة تحالف بين العرب/المسلمين و"العالم الحر" من شأنه حمل الغرب على دعوة إسرائيل إلى التعقل. ومنذ زمن ليس ببعيد، راهن السادات المراهنة ذاتها لمّا اعترف بحق إسرائيل في الوجود وبالسّلام: كان يأمل في أن يتيح هذا التحالف تحسين أوضاع مصر الاقتصادية من جهة، وتغذية الآمال بقدرة الغرب على دفع إسرائيل لإقامة سلام مُشرّف ودائم. واليوم أيضاً، عقب "عاصفة الصحراء"، غدا البعض مقتنعاً أكثر

من أى وقت مضى بأن ضغوط دبلوماسية جيمس بيكر أو وارن كريستوفر ما هى إلا انعكاس لضغط الجنرال شوارتزكوف، وبأن الولايات المتحدة أصبحت، بعد تحررها من العقبة السوقية، قادرة على ممارسة ضغط حقيقى على إسرائيل ومختلف الحكومات العربية على حد سواء. وجاءت المواجهة التى تسود منذ انتخاب بيل كلينتون ثانية وإيكال وزارة الخارجية لمادلين أولبرايت، التى يُنظر إليها على أنها متعاطفة تعاطفًا مفرطًا مع إسرائيل لتكبح حماسة تلك الحكومات. وبالمقابل، فكثيرون هم الذين يعتبرون فى أوساطنا أن مؤتمر مدريد (والآلية المنبثقة عنه) هو مجرد عملية تجميلية تلبى حاجات واشنطن السياسية فى المنطقة، إضافة إلى حاجات أقرب صديقتين للولايات المتحدة الأميركية، مصر والمملكة العربية السعودية، المخرجتين إزاء سياسة "الكليل بمكيالين" التى تمنع حلّيفتهما فى فرضها، رغم أنف الجميع، ضمانًا لأمن إسرائيل. وقلة هم الذين يؤمنون بأن العملية تتعلق بترجمة الرغبة فى إيجاد حل للقضية الفلسطينية يتوفر فيه الاحترام الدقيق لقرارات الأمم المتحدة. منذ ذلك الوقت، جاء استخدام الولايات المتحدة حق النقض فى عام ١٩٩٥ وفى عام ١٩٩٧ لصالح إسرائيل ليزيد من حرجة موقف حلفائها المحليين المتمثلين بالحكومة المغربية (التي ترأس لجنة القدس) والحكومة العمانية (المنسوب العربى الوحيد فى مجلس الأمن عام ١٩٩٥) والحكومة الأردنية (التي كانت وقّعت منذ عهد قريب اتفاقية سلام مع إسرائيل). لقد أدان الناطقون باسم هذه الحكومات الموقف "الأميركى" بعبارات قاسية ثم ما لبثوا أن عانوا مجددًا إلى متابعة الأعمال كالعادة (٦٧).

هناك إذن، لدى البعض، إمكانية للحفاظ، بل للاعتراض، على فكرة وجود تواطؤ بين الغرب وإسرائيل. إلا أن الكتاب الموالين للول يقرأون الأوضاع في العالم العربي بعيون الثانية. إنه لواقع لا يجادل فيه إلا القلة من العرب^(٦٨). من الجانب العربي، تتم قراءة تاريخ علاقاتنا بالغرب، بقسطها الأهم عبر الواقع المرّ المتمثل بوجود إسرائيل. فطالما أن النظر إلى "الغرب" يمر عبر الموشور الإسرائيلي^(٦٩)، لا بد أن نتوقع قيام الوجدان السياسى العربى ليربط إسرائيل بعدد وافر من الصور تترك تأثيراً على رؤيته إلى الغرب. ويشغل الموشور فى الاتجاهين.

ولا يمكن لاغتصاب فلسطين أن يمر مرور الكرام لأنه يختلف اختلافاً جذرياً عن الاغتصابات الأخرى (بدءاً بما ارتكبه زفس أو إسكندر الأكبر وصولاً إلى ما ارتكبه نابليون) لجهة إنجابه مخلوقاً غريباً يتمتع اليوم بحيوية فائقة. لا يستبعد أن يأتى يوم، بعيد جداً، ينضم فيه هذا المخلوق إلى ممالك الفرنجة القابعة فى دهاليز الذاكرة الجمعية للمنطقة؛ لكن نلمس وجوده اليوم، لا فى المخيلة ولا فى ذاكرة النضالات الماضية، إنما فى رائحة قنابل النابالم التى تُقَصَفُ بها المخيمات الفلسطينية فى لبنان، وفى رائحة الولائم التى تمتع بها أفراد الموساد على شواطئ لبنان وفى جباله، وأخيراً، فى الشعور بالإذلال الذى يختلج فى صدر كل أب وأم فلسطينيين أو لبنانيين أمام أولادهما والعكس بالعكس. (أقول بوضوح، أمام الأولاد والعكس بالعكس، وليس أمام عدسات المصورين العالميين، لأنه لا وجود لوجه مقارنة فى هذا الشأن

بالنسبة إلى الذين عاشوا جنون العنف فى لبنان ورحلوا، و بالنسبة للذين استمروا على قيد الحياة).

المقاومة والكفاح فى سبيل التحرر الوطنى

استكمالاً لمقاومة الاحتلال المباشر كالذى وصفه الجبرتى فيما سبق، يوجد اليوم أيضاً رد على الغرب باعتباره عائقاً وإمبرياليةً واستعماراً. يرمى هذا النضال استعادة زمام شئون الأمة. وفى هذا المجال نجد أولئك الذين يوافقون، تبعاً لدرس الطهطاوى، على إجراء "تمييز نظرى بين الأمة والوطن" (٧٠) ويرغبون فى خوض النضال ضمن إطار الوطن، مستلهمين بقوة نموذج الدولة الأمة على الطريقة الأوروبية، ثم الآخرين الذين يتعلقون بالأمة، ويدرجون كل نضال فى إطاره الإسلامى الرامى إلى إعطاء هذه الأمة بعدها التاريخى ووحدتها على قاعدة الدين، وعلى قاعدة إخضاع السياسة والاجتماع لكلمة الله (سيد قطب، آية الله الخمينى ومناضلون إسلاميون آخرون فى العراق والجزائر ولبنان وأقطار أخرى). لكن هناك أيضاً من يريد الكفاح من أجل وطن يشمل العالم العربى: الثورة العربية فى فترة الحرب العالمية الأولى بمشروعها الرامى إلى إنشاء المملكة العربية بقيادة الشريف حسين، شريف مكة، والحركات القومية العربية العلمانية (البعثية والناصرية)، وأولئك الذين يقفون عند حدود الهلال الخصيب (أنطون سعادة)، وأولئك الذين يقفون عند حدود لبنان أو المغرب أو أى بلد عربى آخر.

إن ما يجمع هذه الاتجاهات كلها هو الرغبة في التحرر من القبضة الغربية. إلا أن ما يجدر قوله هو أنه لئن كان التاريخ ساعد جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر، فلا يسعنا تجاهل وجود الحركيين وأولئك الذين صوتوا بـ "لا" لاستقلال الجزائر، كما لا يمكن تجاهل أولئك اللبنانيين الذين يعتبرون فرنسا "أمهم الحنون" أو أولئك العراقيين الذين فضلوا الإنجليز على الهاشميين. يبقى أننا نرى حالياً فى معجم الرفضيين، إلى جانب مفردتى "استعمار" و"إمبريالية"، لفظتى "هيمنة" و"سيطرة" المرافقتين للمواضيع المتعلقة بالغزو الثقافى بواسطة السلع الاستهلاكية، والإعلاميات، وبالأضرار فى النظام الاقتصادى العالمى، وبالتواطؤ بين مجموعات المصالح المحلية والأجنبية (وبخاصة "الغربية" فى النظرة الشعبية)، وبالتبعية فى شأن ضمان أمن الأنظمة الملكية النفطية وبالتأكيد، بالكارثة المتمثلة بالعملية التى تُوِّجَتْ "بعاصفة الصحراء".

الشراكة بين الغرب والزعامة المحلية

وثمة موضوع آخر مسيطر فى الوجدان السياسى العربى وهو شراكة الزعامة المحلية مع الغرب والتحاقها به. ليس لهذا المبحث سابقة مباشرة، سوى اشتراك بعض العرب فى الأجهزة الإدارية لمختلف المحتلين. بل إن هذا المبحث يتجلى أكثر ما يتجلى كردة فعل على مدى

اتساع هزيمتنا وعلى عجز زعمائنا عن الرد على تحديات الغرب. إلا أنه مبحث يتكرر استخدامه بألف طريقة وطريقة في المخيلة، إلى درجة يندر معها الزعماء الذين ينجون من وصمتها. من عمالة الأنظمة الملكية النفطية ^(٧١) إلى عمالة شمعون في لبنان، إلى أكثر التداعيات ظلمة، والتي يزعم أنها صدامٌ بـ "السى أى إيه" داخل مؤامرة واحدة ترمى إلى تدمير بنية العراق التحتية وإلى إضعاف هذه الأنظمة الملكية أمام الجبروت الأميركي، كلها فرضيات شائعة التداول ^(٧٢). إن هاجس هذه الشراكة مترسخ في وجداننا: لعلنا نجد في مثل الملك فاروق الأول، في مصر، المتهم بتزويد القوات العربية المقاتلة في فلسطين بأسلحة فاسدة، عقب إنشاء دولة إسرائيل، أوضح صورة مُعبِّرة في هذا الصدد. وغالباً ما تصاغ أطروحات معقولة حول تهمة بالعمالة يتم إطلاقها وتقدم بعض الأدلة لتعزيز مصداقيتها؛ فعلى سبيل المثال نجد على قفا كتاب مملكة العبيد صورة مستنسخة عن مخطوطة منسوبة لعبد العزيز آل سعود يعلن فيها:

"أنا السلطان عبد العزيز آل سعود
أقر وأعترف ألف مرة للسير پرسى كوكس،
مندوب بريطانيا العظمى، بأننى لا أمانع
بمنح فلسطين لليهود المساكين أو لآخرين
تبعاً لمشينة بريطانيا العظمى التى سوف
أحترم حتى مماتى" ^(٧٣).

والتصريح مُذِلُّ بما افترض أنه بصمة المعنى، على سبيل التوقيع. وفى موازاة ذلك فقد استغل كذلك، وبالقدر نفسه إن لم يكن أكثر، توقيع فيصل بن الحسين المفترض: نجدها فى ذيل وثيقة تتضمن إقراراً باستعداداته للتخلى عن فلسطين لمصلحة الصهاينة والتسليم بوعده بلفور، ولكن ذلك مقابل قيام دولة عربية مستقلة. هذا هو النص كما أورده جورج أنطونيوس فى كتابه.

يجب أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه:

بشرط أن يحصل العرب على استقلالهم
كما طلبت بمذكرتى المؤرخة فى الرابع من
شهر كانون الثانى/يناير سنة ١٩١٩ الرسالة
إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى. لكن إذا
وقع أقل تعديل أو تحويل (يقصد بما يتعلق
بالمطالب الواردة بالذاكرة) فيجب ألا أكون
عندها مقيداً بأى كلمة وردت فى هذه
الاتفاقية التى يجب اعتبارها ملغاة لا شأن
لها ولا قيمة قانونية لها ويجب ألا أكون
مسئولاً بأية طريقة مهما كانت (٧٤).

فيصل بن حسين

حاييم وايزمن

إنه لمن البديهيات القول بأن الاتفاق صار لاغياً وكأنه لم يكن بنظر فيصل، طالما أن الصهاينة والحكومة البريطانية لم يحترموه. غير أن هذا الاتفاق التاريخي يبقى شاهداً على استعداد فيصل للتفريط بفلسطين. وأن تكون الحكومة البريطانية قد خانت الأخير فذلك لا يغفر له الخطأ الذي ارتكبه وانطبع في وجداننا الجمعي^(٧٥).

كما وأن بعض أصحاب الآراء الكيفية ذهبوا، في مسعى منهم لإثبات توافق صدّام مع الولايات المتحدة، إلى القول بأن "الغربيين" أحاطوه برعايتهم وأن الملك فهد قرر عشية أزمة الخليج الحصول على صواريخ "سيلكوورم" الصينية، والطلب من الفرنسيين أن يبنوا له قاعدة بحرية، بعد أن لقي معاملة غير لائقة أثناء طلبه شراء معدات عسكرية من الولايات المتحدة. تجدر الإشارة إلى أن الوجدان العربي متأثر بالغ التأثير بما أشيع عن علاقة اغتيال أخيه فيصل برفضه الانصياع إلى مشيئة الـ "سى آى إيه". بالطبع، كثيرة هي الآراء الكيفية؛ وما ذكرناه هنا يثبت تماماً المدى الذى يمكن لتداعيات الأفكار أن تبلغه بنا. قد يكون من العسير علينا أن نقدم الدليل الذى لا يرقى إليه الشك على عمالة أحد زعمائنا، ولكن من شأن سيل الوقائع الحسّية المعطوفة على التفوق العسكرى والسياسى الإسرائيلى الذى يثير استياءنا من الزعامة المدانة أن يشجع على هذه التداعيات ويعطيها شيئاً من المصداقية. وجو الريبة هذا تعزز حالات تخرج عن الإطار العربى البحت، لكنها تربطها به علاقة تفاعل. نفكر هنا بالاتهامات التى أطلقها آية الله حسين منتظرى ضد مرشد الجمهورية على خامنئى معتبراً إياه عميلاً لكـ "سى آى إيه"^(٧٦).

فى مخيالنا، جميع زعمائنا، من مبارك إلى صدام والملك حسين وعرفات
وبشير الجميل، إلخ، كلهم شركاء بالقوة، بل عملاء محتملون له "سى أى إيه"
أو لشبكة استخبارات أخرى^(٧٧). ليس مهمًا هنا ما هو الصحيح فى
الأمور، وما هم إن تغير رأينا مع الأحداث (هكذا رأينا الملك حسين،
أقرب أصدقاء الغرب، واقفًا فى المعسكر المعادى أثناء تدمير العراق
والكويت)، يبقى أن المبحث حاضر بقوة فى الإشاعات الشعبية^(٧٨).
تصف لنا فاطمة المرينسى المزاج الشعبى كما تابعت أثناء حرب الخليج:

"وإذا كان السيد بوش قد حصل على
امتياز أن يقارن بفرعون. فينبغى على
الزعماء العرب أن يوصفوا بمقارنات أقل
تملقًا بكثير ما داموا لا يملكون السلطة،
مثل لقب الحمار الذى يتناغم مع الدولار"^(٧٩).

بصرف النظر عن الأشخاص المستهدفين بالإشاعات تبقى الشبهة
حائمة فوق جميع الزعماء وقد تثار فى أى وقت، تبعًا للظروف. ولا يهمنا
هنا ما إذا كانت الشراكة، فى كل الحالات المذكورة هنا، شراكة حقيقية
أم لا^(٨٠).

* * *

مع انحطاط السلطنة العثمانية راحت تكتسى الرؤية إلى الغرب
أهميتها بنظر العرب وينظر رعاياها الآخرين. لكن اختفاء المرشح

العثماني ما كان ليزيدن بالضرورة الرؤية إلى الغرب وضوحاً. وما كان في وسع البعض أن يميّزوا في نظرتهم للغرب من جراء انبهارهم. هذه كانت، على سبيل المثال، حالة أتاتورك الذي وصل به الأمر إلى حد تفكيك اللغة وفرض الأبجدية اللاتينية والقُبْعَة وريطة العنق. وفي المقابل فقد سعى فريق آخر لرفض هذا النموذج الوافد من الخارج. لقد خصصنا الفصلين التاليين لهذين النمطين من ردات الفعل الرفع إلى مرتبة المثال، والرفض.

حواشى الفصل الثانى

- (١) نتبنى فى هذا النص التمييز الذى يجريه هابرماس بين مشروع الحداثة وواقع التحديث. راجع الخطاب الفلسفى للحداثة ، باريس، غاليمار، ١٩٨٨
- (٢) عند وفاة سليمان الأول (١٥٦٦)، كانت الإمبراطورية تضم مدن الإسلام المقدسة (مكة والمدينة والقدس)، والعواصم العربية التاريخية (القاهرة ودمشق وبغداد)، والبلقان والمجر، ومناطق المغرب العربى البعيدة عن إسطنبول كل البعد مثل الجزائر.
- (٣) خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوروبى: دراسة فى المؤثرات الأوروبية على العثمانيين فى القرن الثامن عشر ، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ٨ .
- (٤) سمير أمين وفيصل ياشير، المتوسط فى العالم: إشكاليات تجاوز القوميات ، باريس، (Samir Amin et Fayçal Yachir, La Méditerranée dans le monde: Les enjeux de la transnationalisation , Paris, L'Université des Nations Unies, La Découverte/Toubkal, 1988, p. 12).
- (٥) م ن.
- (٦) راجع مثلاً كتاب محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار ، (القاهرة: مطبعة المدنى، ١٩٧٢)، ص ص ١٨٢ - ١٨٣ .
- (٧) يقول لنا ألبرت حوراني "فمنذ القرن السادس عشر، كانت الامتيازات" قد منحت فرنسا حق حماية الكاثوليك الأوروبيين بكنائسهم وكهنتهم فى الأراضى العثمانية. ثم وسعت فرنسا تلك الحماية تدريجياً حتى أصبحت تشمل الكاثوليك العثمانيين والإرساليات الأوروبية العاملة بينهم". بيروت، نوفل، ٢٠٠١، ص ٥٠ .

(٨) جواد بولس، الموسوعة التاريخية، شعوب الشرق الأدنى وحضارته، تاريخ مقارنة منذ الأصول حتى يومنا، الجزء الخامس، الشرق الأدنى العثماني (١٥١٧-١٩١٨)، والشرق الأدنى ما بعد العثمانية (١٩١٨-١٩٢٠)، تعريب وتحقيق سيمون عواد بمعاونة ماري عواد، دار عواد للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٩ .

(٩) خالد زيادة، م س، راجع الإحالات العديدة، بالتركية والعربية والفرنسية والإنكليزية.

(١٠) م ن، ص ١٥ .

(١١) م ن، ص ٧ و ٨ . يطلق لويس حكماً سلبياً قاطعاً على هذه التجربة عندما يكتب في اكتشاف المسلمين لأوروبا ،

(The Muslim Discovery of Europe, New York, W.W. Norton Co., 1982, p. 170):

“في الشرق العربي الواقع تحت السيطرة العثمانية، وحده دخول الفرنسيين والإنجليز عند منعطف القرن الثامن عشر - القرن التاسع عشر أيقظ فجأة بعض الاهتمام عند تلك الشعوب” . تحيلنا عبارة تلك الشعوب في فقرة لويس هذه إلى شعوب الغرب. في هذا الصدد راجع أيضاً فيليب حنّ، تأثير الغرب على سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر” (بالإنجليزية) في: Cahiers, d'Histoire Mondiale , Paris, Librairie des Méridiens, vol. II, no. 3, 1955, p. 610.

(١٢) م ن، ص ٦٥ .

(١٣) م ن، ص ٧ .

(١٤) م ن، ص ٤٨ .

(١٥) م ن، ص ص ٨٥-٨٨ .

(١٦) م ن، ص ٤٤ .

(١٧) م ن، ص ٩٧ .

(١٨) م ن، ص ٩٩ .

(١٩) م ن، ص ١٠٢ .

(٢٠) ألبرت حوراني، م. س. هذه الفقرة مستوحاة من الفصل الثالث "الانطباع الأول عن أوروبا" وعلى الخصوص الصفحة ٥٢ حيث كتب يقول: "إذ كان عليها [الامبراطورية] للدفاع عن نفسها، أن تجد حلفاء أوروبيين ضد أعداء أوروبيين، وأن تفتح صدرها لفنون الحرب الجديدة في العالم الحديث. وقد بدأت هذه الحاجات إلى قيام الرعييل الأول من السياسيين الغربيين - التفكير في الشرق العربي". إن هذا النوع من التأكيدات دارج عند العديد من المؤرخين سواء كانوا أوروبيين أم عرباً.

(٢١) راجع أيضاً ألبرت حوراني، م. ن، ص ٥٤ .

(٢٢) زيادة، م. س، ص ٤٦ و ٤٨ .

(٢٣) أنور عبد الملك، الفكر السياسي العربي المعاصر، Anouar Abdel-Malek, La pensée politique arabe contemporaine, Paris, Seuil, 1970, p.45 et 46.

(٢٤) حوراني، م. س، ص ٧٠ .

(٢٥) عودة أخرى من قبل هذا المؤلف إلى صورة الكتل المتراسة، بينما كان الأمر متعلقاً، كما رأينا، بعلاقات ليس معنياً بها سوى السلطان والبعض من محظييه، من جهة، وفرنسا، من جهة أخرى.

(٢٦) زيادة، م. س، ص ٤٦ و ١١٧ تجدر الإشارة إلى أن المؤلف يتحدث هذه المرة عن مسلمين وليس عن عرب أو عثمانيين.

(٢٧) راجع في هذا الصدد أمي أيالون، نظرات شرق أوسطية إلى الغرب: دراسة في المصطلحات السياسية العربية، أطروحة دكتوراه، جامعة برينستون، ١٩٨٠، ٣٢٦ ص. (Ami Ayalon, Middle Eastern Perceptions of The West: A Study in Arabic Political Terminology). توفر هذه الأطروحة لائحة مراجع متقنة وتسمى لتغطية تطور المصطلحات العربية المستخدمة إزاء التلاقى مع الغرب من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٩٠٠ .

(٢٨) فيليب حتى، تأثير الغرب على سوريا ولبنان...، م. ن، ص ٦١١ - ٦١٨ . Philip K. Hitti, The Impact of the West on Syria and Lebanon..., op. cit., p. 611 .

(٢٩) من المفيد الإشارة أيضاً إلى النور البارز الذي لعبه مسيحيو بلاد الشام في المحافظة على اللغة العربية التي عانت من الإهمال ضمن البيئة العثمانية. لقد ترك إسهام اثنين منهم، هما ناصيف اليازجي ويطرس البستاني، بصماته على النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ شاركا مشاركة فعالة فيما بات معروفاً بالنهضة العربية أو اليقظة العربية.

(٣٠) محمود محمد شاكر، م س، ص ١٨١ .

(٣١) راجع ألبرت حوراني، م ن، ص ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٣٢) راجع بهذا الصدد فيليب حتّي "تأثير الغرب على سوريا ولبنان..."، م س، ص ٦١٠ . بحسب حتّي، فإن الأمر يتعلق بحلقة دراسية متخصصة أسسها البابا غريغوريوس الثالث عشر في عام ١٥٨٤ .

(٣٣) ثمة عنصر آخر يعمق التمييز بين "الغرب" وبلدان الكتلة الشرقية نجده في فارق الاعتبار الذي يحظى به خريجو الجامعات الغربية على حساب خريجي جامعات الكتلة الشرقية. ويصبح التمييز باطلاً، أو طفيفاً على الأقل، في حالة نشوء صلات غرامية بين رجال ونساء عرب من جهة وبين رجال ونساء ينتمون إلى الغرب أو إلى الكتلة الشرقية من جهة أخرى.

(٣٤) محمود محمد شاكر، م س، على التوالي، ص ١٨٥ و ١٩ .

(٣٥) أنور عبد الملك، الإيديولوجيا والنهضة الوطنية: مصر الحديثة .

(Anouar Abdel-Malek, Idéologie et renaissance nationale: L'Egypte moderne, Paris, Anthropos, 1969, p. 490 et 492 pour la citation).

(٣٦) برنارد لويس، كيف اكتشف الإسلام الغرب ، الطبعة الفرنسية، غاليمار - باريس ١٩٩٠، ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

(٣٧) رأينا أعلاه كيف أن أمين معلوف لم يقع في فخ المزج بين الفرنج والمسيحية في خطاب أسامة.

(٣٨) م ن، ص ٢٧٣ .

(٣٩) إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١، ٣١٨ ص. راجع أيضاً أنور عبد الملك الذى سبقه فى "الاستشراق فى أزمة" عنوان فصل فى كتابه، الجدلية الاجتماعية.

Anouar Abdel-Malek, La Dialectique Sociale, Paris, Seuil, 1972, p. 79 à 113.

(٤٠) كيف اكتشف الإسلام أوروبا The Muslim Discovery of Europe, New York, W.W. Norton & Co., 1982, 350 p.

وقضية الاستشراق

The Question of Orientalism, The New York Review of Books , 24 juin 1982.

(٤١) L'Orient imaginaire , Paris, Minuit, 1988, p. 209.

(٤٢) Dominique Chevalier, Azzedine Guellouz et André Miquel, Les Arabes, L'Islam et l'Europe , Paris, Flammarion, 1991, 234 p.

(٤٣) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٤، ص ٦٩ و١٤٥ و١٤٧ .

(٤٤) ستنجو أراضى المملكة العربية السعودية الحالية من الاحتلال المباشر، غير أنها ستخضع، على غرار سائر مكونات هذا العالم العربى، لنفوذ هذه القوى. تجدر الإشارة إلى أننى ذكرت فى هذه الفقرة الأراضى بأسمائها الحالية.

(٤٥) عبد الرحمن الجبرتي، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٦١، ٢٣٤ ص. [الاستشهاد المثبت هنا مترجم عن الترجمة الفرنسية لتعذر حصولنا على الطبعة المشار إليها - الترجمة] .

عبد الرحمن الجبرتي، من التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المجلدان ٣ و٤، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٢٢٢هـ، ٣٤٢ ص.

(٤٦) نقولا ناصيف الترك، تملق الجمهورية الفرنسية إلى الأقطار المصرية والشامية. يجدر أيضاً ذكر مخطوطة، تملكها مكتبة ميونيخ، بقلم مخايل صباغ (مناصر لحملة

نابليون)، ترجمة رديئة لاسكندر كاردين، بعنوان: يوميات عبد الرحمن جبرتي أثناء احتلال فرنسا لمصر تلاها موجز لنفس الحملة بقلم المعلم نقولا الترك، باريس، المكتبة الشرقية لصاحبها السيدة أرملة دوندى - بويريه، ١٨٣٨، ص ٦٩ .

(Alexander Cardin, Journal d'Abdur Ra'hman Gabarti pendant l'occupation française en gypte, suivi d'un précis de la même campagne, par Mou'allelem Nicolas el-Turki, Paris, La Librairie Orientale de Mme Ve Dondey-Dupré, 1838, 69 p).

(٤٧) خالد زيادة، م س، ص ص ٨١ - ٨٢ .

(٤٨) م ن، ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٤٩) م ن، ص ص - إلى ٥٨ .

(٥٠) م ن، ص ٢٤، ٥٤، ٥٥ .

(٥١) ليس الجبرتي أول من طرح مسألة قلة النظافة. نذكر هنا عزيز العظمة الذى تحرى عن الطريقة التى بنيت فيها الثقافة العربية تصورها للأخر "إن موضوع الصفحات التالية هو اكتشاف الكيفية التى أعدت فيها الثقافة العربية فى العصور الوسطى رؤيتها إلى الآخر ، ولا سيما الطريقة التى فسرنا فيها ذلك الرمز المستهلك المتعلق بالغيرة والإغرابية المتمثل بالبرابرة". يشير العظمة إلى الربط بين الأوروبيين والقذارة عند ثلاثة كُتّاب على الأقل: عند القردفان إبراهيم بن يعقوب فى العام ٩٦٥ (كان الأمر متعلقاً آنذاك بالغاليين الذين يستحمون فقط مرة أو اثنتين على الأكثر فى السنة). وكذلك عند المغربي، الحميرى، بعد ثلاثة قرون، وعند الإيراني، القزوينى، فى العام ١٢٨٢ .

(Aziz Al-Azmeh), Barbarians in Arab Eyes, in Past and Present , No. 134, 1992, p. 6).

(٥٢) يبدو أن الجبرتي لم ينبج من الفخ المتمثل فى النظر إلى العالم منقسماً إلى كتلتين، كتلة غربية وأخرى شرقية. فى الصفحة ٨٨ من المظهر يتحدث عن "سفينتهم المسماة نصف الدنيا". فى الهامش رقم ٢، يشرح الناشرون أن المسألة متعلقة بالسفينة "الشرق" وأن عبد الرحمن الرافعى، فى كتابه تاريخ الحركة القومية (مج ١) يشرح الظاهرة معتبراً أن الجبرتي كان يحيل إلى قوة هذه السفينة أو إلى واقع أنه

يطلق عليها اسم الشرق وأن الدنيا مكونة من شرق وغرب. يبقى أن الجلى فى الأمر هو وجود إحالة إلى الفرنج (فرنسيين، فرنج، إلخ) فى كل مكان، وليست الإشارة إلى الغرب عند الجبرتي سوى استثناء.

(٥٣) يفيد محمد أنيس أن المراسلات بين حسين وماكماهون قد بدأت فى الرابع عشر من تموز/يوليو ١٩١٥ وافتتحت فى العاشر من آذار/مارس ١٩١٦ بينما كان شهر آذار/مارس ١٩١٥ هو تاريخ البدء بالمفاوضات التى قادت إلى عقد اتفاقية سايكس-بيكو. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية (لا ت) ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

(٥٤) بحسب المصدر ذاته، فقد تم الكشف عنها فى شهر تشرين الثانى/نوفمبر ١٩١٧ فى اندفاع الثورة البلشفية. وسوف تتشر صحيفة برافدا ملخصاً عن الاتفاق، فى كانون الثانى/يناير ١٩١٨، والنص الكامل فى الحادى والعشرين فى شباط/فبراير ١٩١٨ (م ن، ص ٢٨٧).

(٥٥) بحسب الملك عبد الله، يجدر التوضيح أن الوعود التى أطلقته بريطانيا بمساعدة الشريف حسين والثورة العربية على استرجاع الحرية والاستقلال لم يكن جيل لبنان معنياً فيه ولا الإمارات العربية التى كانت ما تزال مرتبطة بحكومة الهند (ويوجه أدق آل سعود فى نجد وإمارة الكويت وإمارة البحرين وسلطنة مسقط وعمان وسلطان حضرموت ومستعمرة عدن والجهات الست المجاورة). عبد الله بن الحسين، مذكراتى، عمان، الأملية للنشر والتوزيع، ١٩٨٩، ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٥٦) راجع بهذا الصدد، مجموعة النصوص التاريخية الفنية، مثل مجموعة مراسلات حسين - ماكماهون أو نصوص اتفاقيات سايكس - بيكو، التى جمعها جورج أنطونيوس فى كتابه - يقظة العرب ، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧، ص ص ٥٤٣-٥٨٢ .

(٥٧) راجع ما قاله إدوارد سعيد بصدد جورج أنطونيوس وعمله: "فى سويدانها يقبع، بوجه من الكلام، مُركَّب متشابك فى الأمل، والخيانة، والخيبة المريعة؛ ويحمل إنشاء القومية العربية اليوم هذا المُركَّب معه فى مساره". الثقافة والإمبريالية، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠١، ص ٣٠٤، ٢٠٩ (للاستشهاد)، ٣١٦-٣١٧ . راجع أيضاً أغنية زهرة المدائن.

(٥٨) من خطاب ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، مجموعة الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٤، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت.

(٥٩) تجدر الإشارة مع ذلك أن الرئيس ويلسون قد أعطى موافقته قبل إعلان الوعد وأن فرنسا وإيطاليا أيدته رسمياً على التوالي في الرابع عشر من شباط/فبراير ١٩١٨ والتاسع من أيار/مايو ١٩١٨، حسب ما ذكره محمد أنيس، الدولة العثمانية، م س، ص ٢٩٨ .

(٦٠) حول موضوع دور الولايات المتحدة في نسج مؤامرة ضد عبد الناصر وصدام حسين فيما بعد، راجع محمود بكري، جريمة أميركا في الخليج: الأسرار الكامنة، القاهرة ١٩٩١ (ط ١، صدرت الطبعة السادسة في شهر أيلول/سبتمبر ١٩٩٢)، بشكل خاص القسمين الأولين، ص ٩ إلى ٦٨ وص ٦٩ إلى ١٢٧ .

(٦١) يعطينا جورج قرم مثلاً آخر يشهد على احتفاظ أطروحة المؤامرة بعافيتها وعلى وقوف كيسنجر وراءها مجدداً. ففي كلامه عن الحرب التي سمحت للسادات بأن يسجل أول انتصار على إسرائيل كتب يقول: لقد اعتقد كثيرون فيما بعد أن حرب تشرين الأول/أكتوبر هذه خططت لها عقول وكالة المخابرات المركزية (CIA) لتمكين مصر من الانعطاف بصورة مُشرّفة ونهائية نحو الغرب، وإعادة إسرائيل إلى الرشاد والتعقل بعض الشيء مع تدعيم وجودها في الوقت نفسه عن طريق اعتراف الدول العربية بها. وما أعطى بعداً إضافياً لهذه الفرضية شخصية الدكتور كيسنجر، ذلك المُدرّس المغمور العلوم السياسية، واليهودي الجرمانى الأصل، الذى ارتفع في سنوات قليلة، إلى قمة السلطة الدولية. انفجار المشرق...، م س، ص ٨٠ وحسب ما ذكره ريمون إده فإن كيسنجر وفريقه قد رسموا فعلياً خريطة جديدة للمنطقة. على سبيل المثال، راجع هذه الإفشاءات (متضمنة الخريطة والتدبير بالمؤامرة "الأميركية") في مجلة Ara- 24, Paris, no 38, février 1990, p. 27. بعيد ثمانى سنوات، سوف يتهمه آية الله فضل الله قائلاً: "إن كيسنجر هو مخطط الحرب في لبنان"، الأنوار بتاريخ ١٤ كانون الثانى/يناير ١٩٩٨، ص ٦.

(٦٢) راجع بهذا الصدد صوره المتكررة على الشاشة الصغيرة في برنامج هذا الأسبوع مع برينكلى، وفي مواجهة الأمة، ونايتلين ، ... إلخ (متوفر على أشرطة فيديو لدى شبكة إى بى سى ، وسى بى إس ، وإن بى سى). إن أفكاره حول الموضوع قد تجلت في

أكثر من مناسبة عبر المقابلات/المقالات المنشورة والتي عاودت صناعة الإعلام نشرها عبر العالم. وبالمنااسبة، فإن أسبوعية نيويورك تايمز الأميركية منبر يخصه وزير الخارجية الأسبق برعاية خاصة.

(٦٣) راجع على سبيل المثال المقالات في: الديار بتاريخ الأول من أيلول/سبتمبر ١٩٩٧، بيروت، ص ١ و ١١؛ الأنوار بتاريخ الثالث من أيلول/سبتمبر ١٩٩٧، بيروت، ص ١٤؛ الحياة بتاريخ السادس والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٩٧، بيروت، ص ٢٤. كما أن كتاباً ومخرجين إنجليز تبنا بدورهم أطروحة المؤامرة.

(٦٤) إن هذا التواطؤ قائم على وجه أمتن بين إسرائيل والولايات المتحدة، لا سيما في أوقات الأزمات، حيث أنه تم توظيفه في جهود التعبئة القتالية. نشير على سبيل المثال إلى أن تلفزيون المنار (قناة حزب الله) راح يُذكّرنا، عقب اغتيال إسرائيل الأمين العام لحزب الله في لبنان، السيد عباس الموسوي، بالصلة التي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة. وللصدف كان السيد عباس، قبل اغتياله بيوم واحد (في السادس عشر من شباط/فبراير ١٩٩٢، قد أعلن: إن الولايات المتحدة تريد السيطرة على منابع مياه الشفة في المنطقة مثلما يريدون السيطرة على منابع النفط وذلك حتى بواسطة حليفتها إسرائيل. كان هذا التصريح آخر ما أدلى به السيد، وقد أوردته جميع التلفزيونات في لبنان في نشراتها الإخبارية. كما أوردتها الصحف ووسائل الإعلام الأخرى.

(٦٥) راجع بهذا الصدد ما أشرع حول دور الموساد في عملية التفجير وقد أوردته مجلة المجتمع المدني في عددها رقم ١٧، مركز ابن خلدون للدراسات التنموية، القاهرة، أيار/مايو، ص ٦.

(٦٦) Hergé, Tintin au Pays de l'Or Noir, Paris, Casterman, 1950, p. 17.

(٦٧) الحياة، المكتب الرئيسي، لندن، طبعة نيويورك، الجمعة ١٩ أيار/مايو ١٩٩٥، ص ١ و ٤. راجع أيضاً مقال خير الله خير الله، ص ١٧؛ والحياة، الخميس ١٨ أيار/مايو ١٩٩٥، ص ١ و ٦، ولوريان لوجور بتاريخ ٢٢ آذار/مارس ١٩٩٧، بيروت، ص ١. حول نفوذ إسرائيل في واشنطن، راجع پول فندلي، من يجرؤ على الكلام، الشعب والمؤسسات في مواجهة مراكز الضغط الإسرائيلية، ص ٣٦٢ (الطبعة الإنجليزية)، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع، ط ١؛ وكذلك في الوطن العربي بتاريخ ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩٧، ص ٣١ - ٣٢ وفي سائر وسائل الإعلام العربية التي تُحمّله مسؤولية فضيحة "مونيكا جيت" (قضية مونيكا لوينسكي).

(٦٨) راجع، مثلاً، إدوارد سعيد: Covering Islam, New York, Panthéon, 1981, p.31. One more thing needs mention here: the role of Israël in mediating Western and particularly American views of the Islamic world since World War II [...].

(٦٩) إننا نجد مثلاً بسيطاً على هذه النظرة إلى دور الموشور الذي تلعبه إسرائيل في الصلة التي يراها العديد من الزعماء ووسائل الإعلام العرب بين الأحداث العنيفة التي تخضع مصر حالياً ودور الموساد. ويحسب المحرر فإن شبكة الموساد في مصر حرصت على المبالغة في تقويم دور هذه الأحداث وإعطاء صورة مضخمة عنها في الإعلاميات الغربية. عنوان غلاف مجلة المحرر الأسبوعية، العدد ١٨٥ بتاريخ ١١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢، تصدر في باريس.

يلعب الإسرائيليون أنفسهم دوراً محدداً في تعزيز اقتناع العرب بأن الإسرائيليين يستقلون إلى أقصى حد ظاهرة الموشور. فنلستمتع إلى ما يقوله زلمان شوفال، سفير إسرائيل في واشنطن: "علينا أن نتدبر الأمور مع الأصوليين الإرهابيين الذين يريدون تدمير دولة إسرائيل وقتل اليهود والتعرض لأي مصالح غربية قد تطالها أيديهم"، وهو تصريح أدلى به إلى شبكة PBS بتاريخ ١٢/٢٢/١٩٩٢ حول طرد ٤١٥ فلسطينياً. نلقت النظر إلى الرّبط بين إسرائيل واليهود والغرب، من جهة، وبين العدو المشترك الإسلامي، من جهة أخرى. إنه خطاب فعّال يوظف بشكل مطرد، حتى وإن كانت الحكومة الإسرائيلية نفسها، في هذه الحالة المحددة، قد اعترفت لاحقاً أنها ارتكبت أخطاء بطرد بعض الأفراد من بين الـ ٤١٥ فلسطينياً.

(٧٠) الجملة نفسها سنجدّها في كتاب نهضة مصر، لأنور عبد الملك، م س، ص ٤٩١.

(٧١) ثلاثة كتب بلغ فيها الحديث عن العمالة أقصاه هي:

– ناصر السعيد، مملكة العبيد، بيروت، دار الحق، ١٩٩٢؛

– رفعت سيد أحمد، آل الصباح، لندن، دار عكاظ، ١٩٩٢؛

– فايز عبد الرحمن، فضائح ملوك النفط، بيروت، دار الرياض، ١٩٨٩.

(٧٢) على سبيل المثال، راجع مقتطفات كتاب حرب الخليج، أوهاام القوة والنصر، جريدة السفير بتاريخ ٢٧ آذار/مارس ١٩٩٢، ص ٦. هنا، يروي محمد حسنين هيكل

الشهير أن العقيد القذافي كان يحمل بعض الشكوك حول وجود مؤامرة اشتركت واشنطن و بغداد في الإعداد لها . وصل هذا الكتاب واسع الانتشار إلى عدد كبير من القراء ، إن ذن فقرات منه قد نشرت في وقت واحد على صفحات السفير والأهرام ، وهما صحيفتان يوميتان واسعتا الانتشار؛ لقد استخدم مصطلح الغرب باستخفاف. راجع أيضاً تسجيلات الشاعر العراقي مُطَفَّر النواب حول مبحث العمالة. تخطت حدود انتشار هذه الأشرطة السريّة إطار العراق، فهي متوافرة في لبنان وتونس على حد سواء.

(٧٣) مملكة العبيد ، م س، صفحة الغلاف الأخيرة.

(٧٤) يقظة العرب ، م س، ص ٤٩٥، تجدون النص الأصلي لاتفاق فيصل - وايزمان، ص ٥٩٣-٥٩٥ .

(٧٥) لتفاصيل هذه الخيانة راجع بوجه خاص، م ن، ص ٢٨٢ إلى ٢٨٤ الفقرة بعنوان "بريطانيا ونكوثها بالعهد".

(٧٦) "إيران: توقيف منتظري بعد اتهامه الخامنئي بالعمل خفية لصالح السي آي إيه". الحياة بتاريخ ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٣، ص ١، راجع أيضاً "معارضان إيرانيان يؤكدان "منتظري"...، الحياة بتاريخ ٢٠ شباط/فبراير ١٩٩٣، ص ١ .

(٧٧) محمد أنيس، الدولة العثمانية ...، مرجع مذكور سابقاً، راجع ص ٢٧٢ وص ص ٢٨٢ - ٢٩٩ . في الصفحة ٢٩٣، يلقي ظللاً من الشك حول الشريف حسين نفسه الذي وجهت إليه الإدانة بأنه أخذ علماً بالمطامع الفرنسية المعاكسة لروح التفاهات مع ماكماهون وإرادة لندن بمراعاة مصالح باريس على حساب طموحات الشريف. يتهم المؤلف (ص ٢٩٤ و ٢٩٥ إلى ٢٩٦) الأمير فيصل، ووالده كذلك، بأنهما كانا قد اطلعا على بعض وجوه خطة التقسيم إلى مناطق نفوذ فرنسية وإنجليزية، ورضوخه لها (ونجد أيضاً بعض التعليقات على لقاء الأب والابن مع بيكو وسايكس). إلا أن المؤلف ينفي أنهما علما مباشرة بوجود اتفاقات موثقة قبل أن يأخذا علماً بها مع انتصار الثورة البلشفية (ص ٢٩٥).

(٧٨) أثارت هذه الإشاعات بعض الاهتمام خارج العالم العربي. كتب الصحافي إيتان برورن، مراسل جريدة بوسطن غلوب في المنطقة، مقالاً بعنوان "منظرو المؤامرة: محيكو الداساس" نشرته ذي نيو ريابلوك ونقلته جريدة ذي غلوب أند ميل الكندية بتاريخ ٢٢ أيار/مايو ١٩٩٣، ص 3 D .

(٧٩) فاطمة المرنيسي، الخوف من الحداثة ، دمشق، الجندى للطباعة والنشر - دار الباحث، ١٩٩٤، ص ١٣٨ .

(٨٠) في غالب الأحيان، تفتضح شراكة البعض عن طريق خصومهم السياسيين أو الأيديولوجيين المحليين. سأتناول على سبيل المثال حالة السادات الذي قضحه جلال أحمد أمين (اقتصادي)، وجودت عبد الحق (اقتصادي)، وسعد الدين إبراهيم (عالم اجتماع)، واللواء سعد الدين الشاذلي، بطل تدمير خط بارليف، الذي اختار لنفسه المنفى، وكان قد صدر بحقه حكم بالسجن (احتجز بعد عودته الطوعية في العام ١٩٩٢). كثر منتقدو الرئيس المصري على امتداد العالم العربي. لنذكر أن عبد الرحمن منيف، الكاتب المعاصر الشهير، نجح في مسيرته الأدبية بكتابة روايات يفضح فيها تواطؤ الحكومات العربية وفسادها، على اختلاف اتجاهاتها. إن سيل الاستشهادات المناسبة التي يمكن اقتطاعها من مختلف الصحف العربية يجعل من العملية أمراً غير ذي جنوى (بالإمكان تخصيص صفحات بكاملها لتواطؤ أمراء الحرب اللبنانية). مع ذلك إليكم مثليين راهنين. في صحيفة مصر الفتاة (مصرية مقرية من حركة الناصريين) بتاريخ ٢ شباط/فبراير ١٩٩٢، ص ١، يعتبر رئيس التحرير، مصطفى بكري، أن الاتهامات التي ساقها محمد حسنين هيكل الشهير ضد البلدان الغربية، باعتبارها المحرصة على الاعتداء على ليبيا، يعوزها الكثير من الدقة. وهو يتهم صراحة حكومتها المصرية والولايات الخليجية الأميركية بضلوعها في قضية العقوبات المفروضة على ليبيا، واضعاً مصر مبارك والأنظمة الملكية النفطية والولايات المتحدة في السلة نفسها. وفي صحيفة القدس العربي (مستقلة تصدر في لندن) بتاريخ ٩/٨ شباط/فبراير ١٩٩٢، نقرأ على صفحتها الأولى: "جولة مدير السى أى إيه على مصر والمملكة العربية السعودية وإسرائيل لوضع خطة عسكرية تستهدف إطاحة صدام". نادرة هي الصحف العربية التي لم تنقل على صفحاتها الأولى هذا الخبر المنشور في نيويورك تايمز رابطة ربطاً صريحاً بين روبرت جايتس ومبارك وفهد ووزعماء إسرائيل.

الفصل الثالث

الغرب المثال

"إن المغلوب مولع دائماً بالاعتداء
بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر
أحواله وعوائده" (١).

ابن خلدون

لقد وفر قطار الحداثة وفق المنوال الغربى نموذجاً لا يقاوم بنظر
العرب السابقين الذين لمسوا وفهموا قوة ما سوف يصطلح على تسميته
"بالغرب". وإزاء جاذبية هذا النموذج، ما كان مستوى كفاءة العناصر
الرافضة مقبولاً، فضلاً عن أنه كان لا يستهان فى هذا الصدد بتأثير
الإرساليين وأبنائهم الروحيين.

لقد لعب تعليمهم، دوراً مهماً فى رفع الغرب، سواء بصورة
شعورية أم غير شعورية، إلى مرتبة المثال فى أوساط المجتمعات العربية،

وذلك عبر تأثير "التربية الحسنة"، أى تلك التربية التى تُشددُ على تفوق النماذج الأوروبية والأميركية الشمالية. ومن ناحية أخرى، كان لهذا التعليم دور محدّد فى انتشار الخطاب المتعلق بالانتماء ذى الطابع الفرعونى أو الفينيقي، أو ما سوى ذلك؛ الأمر الذى شجع المزاخمة والانقسامات داخل المجتمعات العربية التى تكوّنت من مختلف الأمم المتعاقبة على المنطقة.

هكذا، فقد تمتع الطهطاوى وأمثاله بالامتياز الذى جعل منهم ناقلى هذا النموذج الظافر إلى مجتمعاتهم. وفى لبنان، كان قسم من المجتمع مُحضراً لفكرة أن يكون البلد (وبخاصة عنصره المسيحى) أبرز صلة طبيعية لوصل الشرق بالغرب^(٢). ثم إن التنافس على هذه الميزة لم يتوقف يوماً بين كلتا النخبتين اللبنانية والمصرية السائرتين فى ركب النموذج الغربى: فكلتاهما كانتا راغبتين فى احتكار الامتياز الذى جعل كلاً منهما القناة الفضلى لتعبير من خلالها المدنية الغربية إلى العالم العربى.

يتمثل المنطق الذى يحكم هذه الظاهرة فى أن المجتمعات المُصنّفة زوراً - مجتمعات متخلفة، بحاجة لاستلهاام النموذج الغربى كى تستلحق تأخرها. واختصاراً، ربما كان الشرق متأخراً والغرب متقدماً. وقد ذهب أصحاب نزعة الأمثلة، بإزاء هذا التفاوت، إلى اعتبار أنفسهم خشبة الخلاص لمجتمعاتهم. مما لم يحل دون إبداء البعض من كل طرف تحفظات من شأنها تمييز نزعة الأمثلة خاصته هذه: إن الطابع غير المقبول للحرر

الأخلاقي على الطريقة الأوروبية، وضرورة مراعاة الديانة الإسلامية، كلاهما موضوعتان تضافان إلى فصل التحفظات التي أبداهما عدد وافر من حَمَلَة راية الرفع إلى مرتبة المثال. لقد أثار اعتراف الأوائل منهم بتفوق المدنية الأوروبية انزعاج المسلمين في أوساطهم بوجه خاص، بل ووجهاء هؤلاء على الخصوص، من أمثال الطهطاوي، الذين تعيّن عليهم التوفيق بين العظمة تلك وبين عظمة الإسلام. تحتل الفكرة الأخيرة هذه، فعلاً، مكاناً مركزياً في النظرية الإسلامية، والتراث والخطاب الشعبي، حيث وُجِهَ الكُفَّار "بالسخرية" من قِبَل أكثر الصيغ حِلماً وبالرفض القاطع من قبل تلك الأقل حِلماً. فتعيّن إذن على الموالين لأوروبا دون تحفظ إيجاد ما يفسر التأخر الذي يشهده في بلادهم من دون أن يكون في ذلك ما يتعارض مع فكرة تفوق الإسلام. تقول أكثر هذه الصيغ انتشاراً بأن الابتعاد، بالممارسة، عن الإسلام في أرض الإسلام يقود إلى التقهقر، بينما الاقتداء بالسلف الصالح والتمسك بتعاليم الإسلام "الحقة" من شأنهما أن يضمنَا عودة ما شهدته الحضارة العربية - الإسلامية من ازدهار في عصرها الذهبي. وقد استخدم هذه الأطروحة المفتونون بالغرب، وأولئك الذين احتقروه على حد سواء، مع الفارق أن الفريقين كليهما لا يعطيان التعريف عينه لما هي تعاليم الإسلام "الحقة".

من البدهي أن يكون هذا الجدل قد تطور منذ بدايات التلاقى مع الغرب حتى أيامنا هذه. بادئ ذي بدء، لم يكن الحال يوماً هو ذاته

بالنسبة لأصحاب نزعة رفع الغرب إلى مرتبة المثال المسلمين والمسيحيين. فهؤلاء الآخرون احتفظوا بهامش مناورة أوسع، نظراً لأنه لم يكن مطلوباً منهم الدفاع عن تفوق الإسلام. فكان لا بد من انتظار عدة عقود حتى ينتقل النقاش إلى الإطار الأعمّ للتعددية، حيث اتضح وضوحاً تاماً أنه كان بوسع عرب، مسلمين ومسيحيين وعلمانيين وملحدين، أو سوى ذلك آخرين، أن ينتموا، دونما تمييز، إلى أصحاب نزعة رفع الغرب إلى مرتبة المثال أو إلى الأوساط المحتقرة له. سنحاول إذن، في هذا الفصل، حصر النظرة إلى الغرب التي يحملها المفتونون به ممن تركوا بصماتهم على ذاكرة العرب الجمعية.

الشيخ رفاعه بدوى رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣)

لقد اعتبره البعض "مؤسس النهضة العلمية العصرية" (٣) أما البعض الآخر فقد رأى فيه رجلاً "آمن بعلاقات حسنة بين الحكام والمحكومين" (٤). كما وتكوّن عند بعض آخر شعور بأن "القرون الوسطى، في مصر وفي سائر العالم العربى، قد شارفت معه على نهايتها" (٥). وباختصار، فإن عدداً وافراً من المفكرين العرب ممن واكبوا قضية النهضة أو القضية الوطنية والقومية الشائكة كذلك، في العالم العربى، لم يسعهم الوقوف غير مباينين إزاء ما طرحه الطهطاوى (٦). ليس هدفنا هنا إجراء تقويم لتركة الشيخ الفكرية، وتعيين التفسير

الصحيح لها ولا تركته من تأثير، ولا تقديم تفسير جديد لها، إنما هدفنا هو تحديد نظريته إلى الغرب ، وفى السياق ذاته إلى الذات كما كشفت عن نفسها عبر تلك النظرة الموجهة إلى الآخر.

كان قد سبق للطهطاوى أن استخدم لفظ الغرب ، رغم أن الإحالة كانت فى تلك الحقبة إحالة إلى الشعوب الفرنسية والإنجليزية والألمانية. وفى كتابه الشهير تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، حيث تركز اهتمامه على "الفرنسيين" (الفرنسيين) والفرنج، بوجه خاص، لم يستطع مقاومة إغراء إطلاق تسمية الغرب عليهم جميعاً، وذلك بالرغم من انتمائه إلى حقبة كانت فيها بلدان المغرب العربى تسمى أيضاً البلاد الغربية. وقد ابتعد الطهطاوى - فى استخدامه لمصطلح الغرب - عن مجرد الإحالة إلى معنى جغرافى حالما ترافق ذلك مع استخدام نعوت دقيقة. فعندئذ غدونا أمام كيان غير واضح المعالم تماماً، لكننا خاصيتُه العينية تكمن فى امتلاكه المعرفة العلمية التى تفتقدها بلاد الإسلام. إن هذه الملاحظة لبالغة الدلالة لأننا نجد من ناحية أخرى، وفى الكتاب عينه، أن الشيخ كان ابن عصره أيضاً وقد حَدَّثَنَا عن الشرق والغرب بمضمونين جغرافيين صرف (٧). نحن نشهد إذًا بدايات تحوُّل فى الاستخدام المخصص لهذا المصطلح.

فى مطلع النص وفى معرض شرح الأسباب التى تدفعنا للانتقال إلى بلاد بعيدة هى أمصار كُفْر وعناد، وحيث الأسعار مرتفعة جداً، يُعلم الكاتب قارئه بأن عليه أولاً أن يمهّد له الطريق تمكيناً له من أن يفهم.

إلى ذلك فإن الشيخ، وقبل أن يروى لنا تفاصيل رحلته فى بعثة رسمية إلى باريس، بدأ بتصنيف الكائنات البشرية إلى ثلاث:

المرتبة الأولى : مرتبة الهمل المتوحشين.

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنيين.

المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب

والظرافة، والتحضر، والتمدن والتمصر المتطرفين.

مثال المرتبة الأولى : همل بلاد

(المتوحشين) الذين هم دائماً كالبهائم السارحة، لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا يقرأون، ولا يكتبون، ولا يعرفون شيئاً من الأمور المسهلة للمعاش، أو النافعة للمعاد. وإنما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم، فيزرعون بعض شئء، أو يصيدونه، لتحصيل قوتهم، ويخصون بعض أخصاص أو خيام، للتوقى من حر الشمس ونحوه.

ومثال المرتبة الثانية : عرب البادية،

فإن عندهم نوعاً من الاجتماع الإنسانى.

والاستثناس، والانتلاف، لمعرفتهم الحلال من الحرام، والقراءة والكتابة وغيرها، وأمور الدين، ونحو ذلك، غير أنهم أيضاً لم تكمل عندهم درجة الترقى فى أمور المعاش، والعمران، والصنائع البشرية، والعلوم العقلية والنقلية، وإن عرفوا البناء، والفلاحة، وتربية البهائم، ونحو ذلك.

ومثال المرتبة [...] الثالثة : بلاد

مصر، والشام، واليمن، والروم، والعجم، والإفرنج والمغرب، وسنار، وبلاد أفريقيا على أكثرها، وكثير من جزائر البحر المحيط، فإن جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات، وعلوم وصناعات، وشرائع وتجارات. ولهم معرفة كاملة فى آلات الصنائع، والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق ولهم علم بالسفر فى البحور، إلى غير ذلك^(٨).

وقد نخطئ إن فكرنا أن الطهطاوى وضع نفسه فى مصاف الفرنج، لأنه سرعان ما يقول لنا إن هذه الفئة ليست كلاً متجانساً إنما تخفى تباينات فيما يتعلق بالمهارات العلمية والفنون والأحوال المعيشية

بوجه عام. لقد عثرنا فى الاستشهاد التالى على تصويرٍ نادرٍ للغاية
للتحول فى استخدام مصطلح الغرب الذى تحدثنا عنه أعلاه:

"البلاد الإفريقية قد بلغت أقصى
مراتب البراعة فى العلوم الرياضية،
والطبيعية، وما وراء الطبيعة أصولها
وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض
العلوم العربية، وتوصلوا إلى فهم دقائقها
وأسرارها، كما سنذكره. غير أنهم
لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم، ولم يسلكوا
سبيل النجاة، ولم يرشدوا إلى الدين الحق،
ومنهج الصدق.

كما أن البلاد الإسلامية قد برعت فى
العلوم الشرعية والعمل بها، وفى العلوم
العقلية، وأهملت العلوم الحكيمة بجملتها،
فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية فى كسب
ما لا تعرفه، وجلب ما تجهل صنعه، ولهذا
حكم الفرنج بأن علماء الإسلام إنما
يعرفون شريعتهم ولسانهم، يعنى ما يتعلق
باللغة العربية. ولكن يعترفون بنا بأننا كنا
أساتذهم فى سائر العلوم، ويقدمنا عليهم.

ومن المقرر فى الأذهان، وفى خارج
الأعيان أن الفضل للمتقدم، أو ليس المتأخر
يعترف من فضالته، ويهتدى بدلالته ؟ - (٩)

نلفت النظر إلى علاقة "الحاجة" التى يدخلها الشيخ. وما فتئت،
العلاقة التى يرغب إقامتها بين البلاد الغربية تطبع نظرنا إلى الآخر،
الغربى، حتى عند أكثر محتقرى هذا الأخير شراسة فى أواخر القرن
العشرين.

ومضى الطهطاوى مادحاً الخلفاء لإقدامهم على رعاية الفنون
والعلوم وتشجيع حركة الترجمة. فخلص إلى أن "الخلفاء كانوا يعينون العلماء
وأرباب الفنون وغيرهم" (١٠). ولكن الحالة الراهنة لا تدعو إلى السرور:

"وقد تشتت عز الخلفاء، وانهدم ملكهم،
فانظر إلى الأندلس، فإنها بأيدي النصارى
الإسبانيول، من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة.

وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم،
وتدبيرهم، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب
وتنوعهم واختراعهم فيها، ولولا أن الإسلام
منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلاً
شئ، بالنسبة لقوتهم، وسوادهم، وثروتهم،
وبراعتهم وغير ذلك" (١١).

فى ذلك الظرف المأساوى بالنسبة لأبناء بلده، لم يفقد الطهطاوى
الأمل، إذ قال: "إن لدى القاهرة الآن حاكماً بصيراً بعواقب الأمور وبيده
زمام الحل".

[...] ويلتجئ إليه أرباب الفنون
البارعة، والصنائع النافعة، من الإفرنج،
ويغدق عليهم فائض نعمته، حتى أن العامة
بمصر، وبغيرها، من جهلهم يلومونه فى
أنفسهم غاية اللوم. بسبب قبوله الإفرنج،
وترحيبه بهم، وإنعامه عليهم، جهلاً منهم
بأنه إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم،
لا لكونهم نصارى" (١٢).

من الواضح تماماً أن الكاتب مخرج بسبب فكرة تفوق الآخر .
وما تصنيفه لنفسه ولزويه ضمن فئة البلاد الغربية عينها إلا مؤشراً على حالة
من الإرباك. كانت المسألة تتعلق بالتوفيق بين الديانة الإسلامية وغلبة
الكُفَّار العلمية وباضطرار المسلمين لطلب العون من الغرب. وللخروج من
المأزق يضع الطهطاوى نفسه ضمن فئة أساتذته نفسها، منتقداً ضلالهم
الدينى ومنكفئاً إلى مجد الماضى، ومُركِّزاً على فكرة دين ثقافى قد أقرَّ
به الفرنج. فأقضت هذه المناورة إلى تبرير عمل الحاكم وبالتالي عمل
الطهطاوى نفسه. والشاعر الذى كتب المديح التالى قد فهم تماماً
الصورة التى أراد الطهطاوى إعطاها عن نفسه وعن الغرب، إذ قال:

نقل الغرب إلى الشرق سوى

ما ينافى ما ارتضيناه من شيم

واستعداد الكنز وضاء السنا

واسترد الدين موفور القيم (١٣)

ولئن كانت إثارة الاكتشاف حاضرة على الدوام فى ثنايا النص، فإن رغبة مزاحمة الآخر لا تقل عنها صراحة. إن الانبهار بغلبة الآخر المدركة حسياً بدا وكأنه بدد عنده تحفظاته الدينية ، وكذلك تمسكه بما يحفظ لشعبه عزَّته وتفوقه فى ميادين أخرى، لا سيما على الصعيد الدينى وفى شأن أمجاد الماضى. وبات هذه الهم مستبعداً كلياً، بعد أن كان قد ختم روايته عقب إقراره بما للخيوى من فضل تفوق به هذا الأخير، بدعمه لهذه البعثة، على نابليون والإسكندر أو قيصر:

كان نجاح البعثة نجاحاً تاماً

واستراتيجية الخديوى أعطت ثمارها. ها قد

حاز أعضاء البعثة على رضا سموه ومضوا

ينفذون المهمة بتصميم. بفضل منحه، حفظه

الله، أوفدوا إلى تلك الديار التى وطنوها

بارتضاء العلوم أطفالاً حتى صاروا بكمال

المعارف رجالاً. حتى أن بعضهم بلغ مرتبة

ما بلغته قمم من الإفرنج نفسها* (١٤).

والطهطاوى، إذ بينَ الفارق بين الحالة الطفولية التى تميّزوا بها فى البداية ، وبين حالة الرشد التى بلغوها بعد عودتهم، فقد أكدَ بما لا يدع مجالاً للشك بأنه يقيم مع الآخر علاقة من النوع الذى يربط المعلم بتلميذه. ثم مضى الشيخ يذكر باعتزاز أسماء أعضاء البعثة والوظائف التى جاعوا ليشغلوها فى الإدارة بعد عودتهم، من دون أن يغفل العلماء الذين سيتوجب عليهم نشر المعارف التى تلقوها حديثاً داخل العالم الإسلامى. كان إذن مقتنعاً بشرعية هذه البعثة وقد افتخر بالنجاح المتمثل بمزاحمة الفرنج، وبالمعارف التى تشكل حسب رأيه امتيازاً للبلاد الغربية.

فيما يتعلق بالعلاقات التاريخية بين الشعوب المقيمة على ضفتى الحوض المتوسطى يتبنى الطهطاوى، فى - مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية ، أطروحات المستشرقين التى تبرز التراث الفينيقي^(١٥) للساحل المعروف اليوم بالساحل اللبنانى، والتراث الفرعونى^(١٦) لودى النيل. ويقع فى فخ تقسيم العالم المتوسطى إلى كتلتين - الشرق والغرب، فيحدثنا عن العلاقات التجارية التى وضعت الشعوب فى تفاعل إيجابى منذ عصر الفينيقيين حتى عصر التوسع العربى الإسلامى. إلا أنه يشير إلى انخفاض فى النشاط التجارى طوال الفترة الصليبية، الذى ما لبث أن استعاد حيويته على أوسع نطاق مع نهاية الحملات الصليبية^(١٧). لقد تم التركيز حتماً على فكرة تقارب بين الأوروبيين والشعوب العربية والإسلامية؛ حيث أن فصلاً بأهمية الحملات

الصليبية جرى تناوله باستخفاف يثير الاستغراب ^(١٨). إلى ذلك، فقد اكتسب مبحث أمجاد الماضى هنا نكهة استشرافية بارزة بإخال الأمجاد الفينيقية والفرعونية. لكن المجد العربى الإسلامى وحده، بلا زيادة، حظى أيضاً بحيزٍ من اهتمام الطهطاوى. فقد أشار إلى إسهام الشريعة الإسلامية فى حقل تنظيم الضوابط التى تحكم العلاقات التجارية، ووقعها على تصور ضوابط التجارة الأوروبية وعلى اختراع البوصلة أو كذلك على الدقة المفرطة فى صناعة الساعات، ويشهد على هذا الأمر الساعة التى قدمها الرشيد هدية لكارلوس ملك الفرنج ^(١٩). كما ويعترف فى الوقت نفسه بإسهام التجار الغربيين المحفّز، هؤلاء التجار الذين قابوا شركاءهم العرب إلى اعتماد اللجان المختلطة لحسم الخلافات بين أبناء البلد والأجانب فى المدن الإسلامية. ويرى لنا فى هذا الصدد أن معظم القوانين المتعلقة بعمل اللجان هى قوانين أوروبية، بالرغم عن أنه بإمكان الشريعة الإسلامية الإيفاء بالغرض إذا ما توافرت لها الظروف الملائمة ^(٢٠).

ومما لا شك فيه أن ثمة إرادة فى إيجاد مجالات للتقارب، حتى عندما تحتل القوانين الأوروبية مجال القوانين المحلية. وتتجلى هذه الإرادة أيضاً فى كتاب تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، عندما يحدثنا عن مدى التقارب بين العرب والفرنسيين. فيقول:

”ظهر لى بدء التأمّل فى آداب الفرنساوية
وأحوالهم السياسية إنهم أقرب شَبْهاً بالعرب
منهم للترك، ولغيرهم من الأجناس“ ^(٢١).

ويعثر الطهطاوى على أوجه تشابه مع العادات والأعراف العربية حيثما يلاحظ المكانة المخصصة لمسألة الشرف وكلمة الشرف عند الفرنسيين ، حتى وإن لم يكن لدى هؤلاء "ما عند الإسلام من الغيرة" (٢٢). كما وأنه يسجل التشابه فى التركيز على مسألتى الافتخار والحرية (٢٣). ويعود ثانية إلى مسألة الحرية هذه ليؤكد مرة أخرى أنها متجذرة فى التراث العربى وهى ما برحت تشكل جزءاً من خصائصنا "من قديم الزمان"؛ ومن أجل ذلك راح يستشهد بالخليفة عمر بن الخطاب حينما استدعى بغضب عمرو بن العاص ناهياً إياه، قائلاً: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟" (٢٤). الجدير بالذكر أن هذا الرد يستخدمه اليوم أصحاب الخطاب الإسلامى الجهادى ناسبين للإسلام فكرة حقوق الإنسان (٢٥).

خلاصة القول، إن الطهطاوى يطرح نفسه داعية لنهضة جديدة بأن تخاض غمارها. ويشعر بالحاجة فى نقل المعارف التى راكمتها البلاد الغربية إلى بلده وفى نشر أفكار الحرية والمساواة والوطنية كما رفع لواءها أساتذته الفرنسيون (٢٦). فهو مشجع إذاً لنشاط الإرساليين ولا يفتأ يثنى على البارون دوساسى (٢٧).

على صعيد التحفظات، رأينا كيف أنه رسم خطأ فاصلاً جلياً بين المؤمنين وغير المؤمنين، لكننا خطئ غير مقنع. تجدر الملاحظة أيضاً كيف أنه رفض التساهل الذى يبديه الفرنسيون حيال تمادى الفرنسيات فى خيانة أزواجهن (٢٨). وبغربة، نراه يثمنُ خلافاً لسلفه الجبرتى حسَّ

النظافة عند الفرنسيين^(٢٩)؛ فهل الأمور قد تبدلت تبدلاً جذرياً في غضون بضعة عقود؟ أم أن الرجلين قد اعتمدا مقياس متباينة؟ إنه لجليّ على كل حال أن الأول نظر إلى الفرنسيين بمنظار المعجب أما الثانى فبمنظار المقاوم. وإننا لنجد نظيراً لذلك الإعجاب لدى صاحب نزعة رفع إلى مرتبة المثال، آخر وهو مصرى كذلك، إنما لا ينتمى إلى الجيل ذاته، عنيت به طه حسين.

طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٤)

غالباً ما قُدِّمَ عمل طه حسين كاستمرارية لعمل الطهطاوى. وكلاهما شخصيتان بدا مصيرهما مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اكتشافنا للغرب. وبور طه حسين فى تشكيل نظرتنا للآخر دور بالغ الأهمية ووقعه على المجتمع المصرى مُسلِّمٌ به، وإشعاعه خارج هذا المجتمع لا يمكن تجاهله. وقد أُنْثِرَ طه حسين فى الوجدان العربى عبر كتاباته المميّزة وترجماته، بالطبع، ولكن أيضاً عبر انخراطه فى السياسة المصرية وبخاصة فى السياسة التربوية. ولم يقتصر تأثيره على الطبقة المثقفة، بل طاول حياة الناس اليومية، إذ إنه شغل منصب وزير التعليم العام من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٥٢^(٣٠). وقد أُتيح للمجتمع بأسره أن يكتشف أفكاره من خلال مسلسل تلفزيونى اقتبس عن أعماله الأدبية^(٣١).

وقد تجلّى التقاؤه بالغرب، أول ما تجلّى، فى حياته الشخصية. فثمة تناقض كبير بين ظروف قريته حيث تقوم التربية على حفظ القرآن، وبين حياته فى باريس حيث تابع الطالب حسين دراسته فى جامعة السوربون^(٣٢). وكان انتقاله من تعليم تقليدى إلى آخر تحديثى قد بدأ فى القاهرة، حيث هجر وسط الأزهر لينضم إلى الجامعة العلمانية الناشئة (الجامعة المصرية). فقد انفتح إذًا على أساتذة قادمين من الغرب، وعلى أتباع الغرب من العرب. وأهمية هذا التحول وعمق التناقض معروضان فى مذكراته. إن قراءة الأيام تبرز أكثر هذا التناقض للعيان، إذ إنه يغطى بصورة أساسية فترة طفولته. لقد أفضى تفاعله مع الغرب إلى نداء من أجل التواصل الفكرى مع هذا المثال الذى تعلم كيف يحترمه ويقدره، وهذا ما عبر عنه خير تعبير فى كتاب مستقبل الثقافة .

وبدأ هذا التواصل منذ الساعات الأولى
لإبحاره على ظهر السفينة بتبنيه الزى
الأوروبى ومن ثم بزواجه من فرنسية^(٣٣).

وقرن طه حسين الغرب بأوروبا و بحدائثها كما أدركها. تقبل كل ما استطاعت توفيره فى شأن التعليم ودعا إلى توثيق الصلة به. لم يكن للولايات المتحدة فى البداية سوى حضور ضئيل^(٣٤)، غير أنها لم تكن غائبة؛ فبالنسبة إليه يتكون الغرب من أميركا وأوروبا^(٣٥). وفى كل الأحوال يقول لنا، إن ما يهمه ليس بعد الغرب الجغرافى:

وأنا من أجل هذا مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتر ابتكاراً، ولن تخترع اختراعاً، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة، وبأن مستقبل الثقافة في مصر لن يكون إلا امتداداً صالحاً راقياً ممتازاً لحاضرها المتواضع المتهاك الضعيف.

ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر في مستقبل الثقافة في مصر إلا على ضوء ماضيها البعيد، وحاضرها القريب [...] .

ولكن المسألة خطيرة حقاً، والتي لا بد من أن نجليها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك، وتعصمها من كل لبس، وتبرئها من كل ريب هي أن نعرف: أمصر من الشرق أم من الغرب؛ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي. فقد يظهر أن في الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف، ويتصل بينهما صراع بغيض، ولا يلقي كل منهما صاحبه إلا محارباً أو متهيناً للحرب. أحد هذين النوعين هذا الذي نجده في أوروبا

منذ العصور القديمة، والآخر هذا الذى
نجده فى أقصى الشرق منذ العصور
القديمة أيضاً.

فهل العقل المصرى شرقى التصور
والإدراك والفهم والحكم على الأشياء، أم
هل هو غربى التصور والإدراك والفهم
والحكم على الأشياء! وبعبارة موجزة جلية:
أيهما أيسر على العقل المصرى: أن يفهم
الرجل الصينى أو اليابانى، أو أن يفهم
الرجل الفرنسى أو الإنجليزى!

هذه هى المسألة التى لا بد من توضيحها
وتجليتها، قبل أن نفكر فى الأسس التى
ينبغى أن نقيم عليها ما ينبغى لنا من
الثقافة والتعليم^(٣٦).

ولم يطل الوقت كثيراً حتى يأتى الجواب. فبعد تقديمه البرهان تلو
البرهان بالدليل المادى، يستخلص طه حسين أن مصر تتأثر قطعاً
بالبحر الأبيض المتوسط وأنه "من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار
مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية
الهند والصين"^(٣٧). أما عن العلاقة مع الغرب فيقول لنا:

كلا ليس بين الشعوب التى نشأت
حول بحر الروم، وتأثرت به، فرق عقلى
أو ثقافى ما. وإنما هى ظروف السياسة
والاقتصاد تدل من أهل هذا الساحل لأهل
ذلك الساحل، وإنما هى ظروف السياسة
والاقتصاد تدور بين هذه الشعوب مواتية
هذا الفريق، ومعادية ذلك الفريق.

فلا ينبغى أن يفهم المصرى أن بينه
وبين الأوروبى فرقاً عقلياً قوياً أو ضعيفاً.
ولا ينبغى أن يفهم المصرى أن الشرق
الذى ذكره كيبلنج فى بيته المشهور
"الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا"
يصدق عليه أو على وطنه العزيز. ولا ينبغى
أن يفهم المصرى أن الكلمة التى قالها
إسماعيل وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا،
قد كانت فناً من فنون التمدح، أو لوناً
من ألوان المفاخرة. وإنما كانت مصر دائماً
جزءاً من أوروبا، فى كل ما يتصل بالحياة
العقلية والثقافية، على اختلاف فروعها
وألوانها^(٢٨).

إنه يحاول إذن إقامة الحجة على أساس التواصل الذى يمليه التاريخ الجامع فيما بين شعوب ضفتى حوض الأبيض المتوسط^(٣٩). وحسب قوله فإننا نتمتع والأوروبيين بالعقل ذاته:

”وإذن فكل شىء يدل على أنه ليس
هناك عقل أوروبى يمتاز من هذا العقل
الشرقى الذى يعيش فى مصر وما جاورها
من بلاد الشرق القريب. وإنما هو عقل
واحد...“^(٤٠).

ولم ينكر طه حسين أن هذا العقل الواحد الذى نشاطه مع الأوروبيين يقع مع ذلك تحت تأثيرات مختلفة، غير أن رسالته تكمن فى أن الصلة، فى الأساس صلة تامة. والمكانة الخاصة التى يوليها لهذه الرسالة تعكسها مقدمته لكتاب مستقبل الثقافة عندما يقول: ”وما كان أشد تأثرى بهذه الحركة اليسيرة السائدة التى دفعت فريقاً من الشباب الجامعيين فى العام الماضى، إلى أن يسألوا المفكرين وقادة الرأى عما يرون فى واجب مصر بعد إمضاء المعاهدة مع الإنجليز“^(٤١).

فهو يولى إذن أهمية بالغة لهذا الكتاب الذى وضعه فى العام ١٩٣٨، محدداً الغاية منه. ”وعداً يبذله للشباب“^(٤٢)؛ ونيته فى جعل فكرة التواصل مع الغرب فكرة مغرية أكثر، بل فكرة لا مناص منها، هى نية صريحة. فتبديداً لكل الشكوك قام بتقديم البرهان على أننا نتمتع بعقل

مماثل، حتى وفقاً للمقاييس التي اعتمدها بول؟ اليرى "الشهير" بتوصيفه للعقل الأوروبي بمكوناته الثلاثة التالية:

"حضارة اليونان وما فيها من أدب
وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها
من سياسة وفقه، والمسيحية وما فيها من
دعوة إلى الخير وحث على الإحسان. فلو
أردنا أن نُحلّل العقل الإسلامى فى مصر
وفى الشرق القريب أفتراه ينحل إلى شىء
آخر غير هذه العناصر..." (٤٣).

والتفاعل بين الحضارات المحلية والحضارتين اليونانية والرومانية ليس موضع شك فى نظر طه حسين الذى يرى، من ناحية أخرى، فى الإسلام اعترافاً بالكتاب المقدس والإنجيل، فضلاً عن التكامل معهما. نشير هنا إلى حاجته للاستجداد بما لغريباً (هو قاليرى) من سلطة رأى، متبنياً توصيفه للعقل الواحد . وهذا الشعور إنما وجد ترجمة له، فى حياة العرب اليومية فى القرن العشرين، من خلال فكرة أن الفعالية والدقة موطنهما الغرب وتفرعاته المتنوعة.

وكثيرة هى تناقضات طه حسين فيما يتعلق بموضوع هذا العقل الذى يعتبر عقلاً مماثلاً فى أوروبا ومصر والشرق القريب، والذى يعتبر مختلفاً عن عقل الصينيين. نذكر على سبيل المثال أنه يُقرّ بتنوع

المعطيات التاريخية الخاصة بكل منطقة تتمتع بخصائص هذا العقل: إنه يُقَرُّ بالاختلاف كأمر واقع بين "إغارة الأمم المتبربرة على أوروبا وإغارة الترك على الشرق القريب"، غير أنه يرى فى كلتا الحالتين أن العناصر الجديدة اندمجت فى ديانة وحضارة كل من أوروبا والشرق القريب ، وأن العقل المماثل الذى يرفع لواءه قد خرج بالتالى من المحنة سالماً معافى فى الحالتين كليهما ^(٤٤). حتى وإن قبلنا بفرضية العقل الواحد، فكيف لا يكون متأثراً بالأحداث التى وقعت على ضفتى البحر الأبيض المتوسط؟ هذا ما لا يقوله لنا طه حسين.

وكتابه هو كناية عن مديح لأوروبا، للغرب وحضارته. والانفتاح على الآخر هو بمثابة ضرورة، بيد أن الكاتب لم يتوقف عند ذلك. وهو يلاحظ أن المزاحمة ظاهرة قد فرضت كأمر واقع، وذلك فى جميع الميادين - بدءاً باستيراد الهاتف والتلغراف ، وصولاً إلى تبنى أنماط الزي مروراً بالعوادات الغذائية ^(٤٥). كل هذا يدل على أننا فى هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً ^(٤٦).

ويذهب طه حسين إلى حد يقول فيه:

"ولعمري إنى لأتخيل داعياً يدعونا
إلى الطريق القديمة التى كان يسلكها
آباؤنا وأجدادنا... إنى أتخيل داعياً يدعونا

إلى هذا، فما أرى إلا أنا سنلقاه ضاحكين
منه مستهزئين به! وما أرى إلا أن الأزهريين
وهم مستقر المحافظة سيكونون أكثرنا منه
ضحكاً وأعظمنا به استهزاء! (٤٧).

يبدو أن الندرة التى تنبأ بها مربينا ليست هى واقع حال شوارع
الجزائر العاصمة، والقاهرة، وتونس العاصمة، وبيروت فى الثمانينيات
والتسعينيات. فهل فى استهزاء طه حسين بالنزعة الرفضية،
التي ما انقطعت يوماً عن الوجود، ما يدل على انقطاعه عن الواقع؟
وهل نشوة اللقاء بالغرب هى سبب هذا الانقطاع؟

من ناحية أخرى لجأ طه حسين إلى برهنة مغايرة لإقناع من هم
أكثر تمرداً. فيحدثهم عن حتمية الاتحاد مع الغرب بناءً على غريزة
البقاء. فكما أن وسائلنا إلى حماية أرض الوطن هى نفس الوسائل التى
يصطنعها الأوروبيون لحماية أوطانهم، فوسائلنا إلى حماية الاقتصاد
القومى هى نفس الوسائل التى يصطنعها الأوروبيون والأمريكيون
لحماية ثروتهم. وإذن فلا بد من أن نهى شبابنا للجهاد الاقتصادى على
نفس النحو الذى يهين الأوروبيون والأميريكيون عليه شبابهم لهذا
الجهاد. ولا بد من أن ننشئ المدارس والمعاهد التى تهين لهذا الجهاد
على النحو الذى أنشأ الأوروبيون والأميريكيون عليه مدارسهم ومعاهدهم،
لأن من أراد الغاية فقد أراد الوسيلة (٤٨). وما من مفهوم سوى مفهوم
انتحارى للمستقبل من شأنه أن يرشدنا إلى اتباع طريق مغايرة لطريق

المنافسة فى جميع الميادين. لكنّ ثمة أمراً جلياً هو أنه رضى بوضع نظّارتى غربى ربّما، أى أنه عاين الحالة من خلال النظارتين تلك. وإلاّ فكيف نفسر إحالته المستمرة إلى "العقلية الأوروبية"، بينما يقول هو نفسه إنها مشتركة بين جميع شعوب حوض المتوسط الذى يضم الأوروبيين والمصريين والسوريين، والفلسطينيين؟ ولما كانت مشتركة، فلم لم يسمّها عقلية حوض المتوسط؟ أو، لنن كان قد عاين الحالة نفسها من خلال نظارتين راشحتين لمصرى أنانى فلم لا تصبح هذه العقلية عقلية مصرية؟ مما لا جدال فيه أن تحليله متأثر متأثراً شديداً برؤية المستشرقين إلى طبيعة العلاقات القائمة بين الغرب والشرق القريب (الشرق الأدنى). ولعل التجديد الذى جاء به بيّن على حقيقته فى استيائه مما ذهب إليه جماعة مصرية (جماعة الرابطة الشرقية)، داعية إلى التضامن والاتحاد مع أهل الشرق الأقصى، وفى مقابلهم أهل "الغرب الأدنى" ^(٤٩). قد يحملنا استخدام تعبير "الغرب الأدنى" على الاعتقاد بأنه يبشر برؤية متوازنة، لكن هذا خطأ لأن ذلك التعبير لم يظهر على السطح مختفياً وراء الخطاب الاستشراقى لأوروبا (وليس لغرب أدنى) تتعارض مع ما يجاورها، أى الشرق القريب. وتمثّل همه الحقيقى فى فصل هذا "الشرق البعيد" (الشرق الأقصى) جغرافياً وفلسفياً وثقافياً على حد سواء كى يدفع إلى الصدارة الألفة الجامعة بين شرقه وأوروبا: هذا الشرق الذى بات جزءاً لا يتجزأ من أوروبا لفرط ما التصق بها ^(٥٠).

لعل طه حسين وحده إذن قادر على التمييز بين هذين الكيانين، وحكمه واضح هنا، إذ يقول: "كلا! ليس الشرق الروحي الذي يفتن به بعض الأوروبيين صادقين وكاذبين فيخدعوننا على كل حال هو الشرق القريب، وإنما هو الشرق البعيد، والشرق الأقصى" (٥١). إن شرقنا يشكل مع أوروبا وحدة، ولئن كان ثمة لبسٌ "عندنا" حول هذه القضية المتعلقة بالشرق ضد الغرب. فإن "مصدر هذا أن الذين يخوضون في أحاديث الشرق والغرب عندنا يجهلون الشرق والغرب جميعاً في أكثر الأحيان، لأنهم يعرفون ظواهر الأشياء ولا يتعمقون حقائقها" (٥٢).

بناءً على ما سبق قوله، وأياً يكن توصيفه هو للغرب ولطبيعة العلاقات التي يتوجب إقامتها معه يبقى طه حسين محور النقاش الدائر بين أتباع كلا التيارين. هناك نوع من التزمّت الخائق الذي تنامي في أوساط المعجبين بطه حسين وحولهُ إلى رمز لمقاومة "التزمّت الديني". وبما أن بطل أصحاب نزعة الأمثلة ليس بإمكانه إلا أن يكون هدفًا لهجوم أصحاب النزعة الاحتقارية (٥٣)، فقد استطعنا في العام ١٩٩٢ أن نقرأ ما يلي:

"أمامنا مثل اليابان التي عرفت
كيف تختار مما ترغب في الغرب،
أي الآلات والصناعات بينما بقيت متمسكة
بثقافتها" (٥٤).

“فى حين أننا قد أوفدنا وما زلنا نوفد
أشخاصاً غير ناضجين ثقافياً يجذبهم
الشكل أكثر من المحتوى، فلم يميزوا إذن
بين القاعدة التى بنيت عليها الحضارة
والتقدم فى الغرب، وكان العديدون منهم قد
عادوا يبشرون بالاندماج مع الغرب
والنوبان فى ثقافته وحضارته. هذا التيار
جسدّه طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة
فى مصر حيث سعى الكاتب إلى جعل
مصر جزءاً من أوروبا وفصلها عن تاريخها
العربى والإسلامى” (٥٥).

مرة أخرى، نحن أمام خطابين متعارضين كل التعارض،
يستخدمان الأمثلة نفسها دعماً لأطروحاتهما الخاصة. إلا أن تأويليهما
مختلفان لأن طه حسين يستخدم مثل اليابان لكنما بمعنى آخر. إنه يركّز
على التواصل الأوسع القائم بين مصر والشرق القريب (الشرق
الأدنى) وبين الغرب ، ويستنتج أنه لا بد منطقياً من التقدم على اليابان
فى السباق الذى نخوض إلى التغريب، بيد أنه يلاحظ بأن ذلك ليس
هو الحال (٥٦). ويؤكد بعيد ذلك:

“كلاً. ليس على الشخصية المصرية
خطر من الحضارة الحديثة كما لم يكن

على الشخصية اليابانية خطر من الحضارة
الحديثة. ولست أدري لم تضع شخصية
المصريين إذا ساروا سيرة الأوروبيين،
ولا تضع شخصية اليابانيين مع أن لمصر من
المجد والسابقة ما ليس لليابان مثله؟! (٥٧).

أمامنا هنا مثال واضح على استخدامات متعارضة للعنصر نفسه.
اللجوء المشترك إلى الصور نفسها من قبل أصحاب خطابات متباينة كل
التباين من مثل خطابى أصحاب نزعة رفع الغرب إلى مرتبة المثال ،
وأصحاب نزعة الرفض. ها هي موضوعة مجد الماضى، التى تستعاد
دائماً، لا تشذ عن القاعدة كما سنرى عند طه حسين وعند أصحاب
النزعة التحقيرية على حد سواء. وعلى غرار ما قام به الطهطاوى، فقد
ميّز بين المجد المصرى/الفرعونى المحض والمجد العربى الإسلامى.
ولم يُخفِ اعتزازه بكونه مصرياً على وجه الخصوص، باستثناء أن اعتزازه
امتزج امتزاجاً مؤثماً بالشعور بالدونية:

”وأنا أخاف أشد الخوف ألا نُقدّر هذه
التبعات، أو ألا نقدرها حق قدرها. أخاف
أن نُقصّر فى ذات أنفسنا، فنهمل مرافقتنا،
أو نأخذها فى غير حزم ولا جد، فنتأخر
ونحن خليقون أن نتقدم، وننحط ونحن
خليقون أن نرقى، ويعود الاستقلال والحرية

علينا بالشر، وهما خليقان ألا يعودا علينا
إلا بالخير كل الخير.

وأخاف أن نقصر في ذات أنفسنا،
وعلى من الأوروبيين عامة ومن أصدقائنا
الإنجليز خاصة، رقباء يحصون علينا
الكبيرة والصغيرة ويحاسبوننا على اليسير
والعظيم. ولعلهم أن يكبروا من أغلاطنا
ما نراه صغيراً، وأن يعظموا من تقصيرنا
ما نراه هيناً، وأن يقولوا: طالبوا بالاستقلال
وأتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس في المطالبة
به حتى إذا انتهوا إليه لم ينزقوه ،
ولم يسيغوه ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون به.

أخشى هذا كله، وأريد كما يريد كل
مصري مثقف، يحب وطنه، ويحرص على
كرامته، وحسن رأى الناس فيه، أن تكون
حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم، وأن
يكون نشاطنا الحديث محققاً لرأينا فى
أنفسنا حين كنا نطالب بالاستقلال،
ومحققاً لرأى الأمم المتحضرة فيما حين
رضيت لنا عن هذا الاستقلال، وحين

أظهرت لنا ما أظهرت من الترحيب وحسن
اللقاء فى چنيڤ.

نعم وأريد كما يريد كل مصرى
مثقف، محب لوطنه، حريص على كرامته،
ألاً نلقى الأوروبي فنشعر بأن بيننا وبينه
من الفروق ما يبيع له الاستعلاء علينا
والاستخفاف بنا، وما يضطربنا إلى أن
نزدري أنفسنا، ونعترف بأنه لا يظلمنا
فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء" (٥٨).

وما ارتداد طه حسين إلى أمجاد الماضى إلا وسيلة يغلف بها
حاجته لانتزاع اعتراف الآخر، "المتحضر"، به. فيقوده الأمر إلى القبول
التام بالمقاييس التى يعتمدها الآخر فى توصيف الأمة المتحضرة. كما
وأنه يسعى إلى تلطيف مرارة العقار الذى أراد للمصريين أن يبتلعوه،
مستخدمًا فى ذلك الأسلحة التى وفَّرها له المستشرقون، أى مجد
الفراعنة باعتباره مجداً سيستفيد منه قراؤه أو سامعوه فى تعريم
صدورهم كالنفخ فى عجلة مثقوبة (٥٩). يعيدنا الاستشهاد التالى إلى
فكرة دَيْن يتعين استرداده ، وهى فكرة كنا قد وقعنا عليها عند
الطهطاوى؛ كما وأن هذا الاستشهاد يكشف لنا المدى الواسع الذى
بلغته عملية استخدام هذا المجد الماضى:

”وكان اليونان فى عصورهم الراقية،
كما كانوا فى عصورهم الأولى، يرون أنهم
تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها
الرفيعة بنوع خاص“ (٦٠).

فباعتبار أن الإغريق كانوا تلامذة المصريين بات الغرب مدينًا
اليوم، فى القرن العشرين، لطف حسين وقومه. وعليه لا يسعنا أن نختم
هذا العرض عن الأمثلة تبعًا لما ذهب إليه طه حسين دون ذكر التحفظات
التي أبداهها تجاه الغرب بوجه عام ، والأوروبيين بوجه خاص. فلشدة
ما كان نقده للاستعمار صارمًا نتج عنه إعادة نظر بأطروحته حول العقل
الفريد: ففى تقديره أن: هذه الأطروحة يعاكسها من يقرر ”أن بيننا وبين
الأوروبيين هذه الفروق الخطيرة التي تمتلئ بها وتضطرب لها قلوب
العاجزين منا، والتي تنتفخ لها أوداج الطامعين والمستعمرين من
الأوروبيين“ (٦١).

وانتقد أيضاً التعليم الذى تنشره المؤسسات الأجنبية لأنه خالٍ من
الحساسية المصرية؛ فهو مُحَبِّذٌ إذن لهذا النمط من المؤسسات،
لكن ما شريطة أن تعمل وفقاً لانتظمة السلطات المصرية، بحيث تصان
المصالح الوطنية المصرية (٦٢).

وهنا، يصبح التساؤل حول درجة تأثر طه حسين نفسه بالتجاذب
بين إحساسه بمصريته، بل بعروپته، وبين حبه للغرب، تساؤلاً مشروعاً.

كما وتجدر الإشارة إلى رفع إلى مرتبة المثال أقل حمية في كتابي (مرآة الإسلام) وفي (المُعْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ) . فهل في المسألة ما يتعلق بإعادة نظر بالرفع إلى مرتبة المثال أم بمجرد خيبة عابرة؟ أياً يكن الأمر، المهم هو ما يبقى عالماً من صورة الشخصية في الوجدان العربي، وهي صورة من يُجَمَلُ الغرب على كل صعيد. إلا أنه لبالغ الدلالة أن نتمكن من رصد شيء من الحيرة في نهاية كتاب مستقبل الثقافة ، حيث يقول:

"وكان الذي أثار في نفسي هذا الاقتراح
ما رأيته من السلطان العقلي للمدارس
الأجنبية على هذه الأقطار. وكنت أرى أن
العقل المصري أقرب إلى العقل السوري
والفلسطيني ، وأحرى أن يتصل به ويؤثر
فيه تأثيراً حسناً من العقل الأميركي
أو الفرنسي" (٦٣).

وفي هذا الفصل نقع على فكرة زعامة مصر على "الشرق القريب"
(الشرق الأدنى). وبالتالي، فإن على مصر أن تحل محل الغرب وتلعب
دور الأستاذ في المنطقة (٦٤). ويقول رداً على تنبيه وجهه إليه وزير
التعليم العام مفاده أن الأجانب قد لا يسمحون بذلك سياسياً:

"فأما الآن وقد عقد بيننا وبين أوروبا
اتفاق مونترو، وقد ظفرت سوريا ولبنان
ببعض الحرية واستقلت العراق، فما أرى

أن مصاعب سياسية تقوم دون هذا النوع
من التعاون الثقافى بين الأقطار العربية
التي تجمعها وحدة اللغة والدين والمثل
الأعلى، والتي تشترك فى منافع اقتصادية
عظيمة الخطر" (٦٥).

ها هو التركيز يتم على ما هو مشترك بين العرب. إذن، هل ثمة من
ألفة بين مصر و"الشرق القريب" (الشرق الأدنى) أكبر مما هى بين
هذين الكيانين والغرب؟ وبعد أن بذل ما فى وسعه طوال الصفحات
الأربعمئة والثمانين لإقناع القارئ المصرى بأنه جزء لا يتجزأ من
أوروبا، ينهى طه حسين كتابه طارحاً فكرة أن الثقافة العربية الشرقية
والأساتذة الشرقيين أجدر من سواهم للاضطلاع برسالة التعليم فى
الشرق الأدنى! فالشرق متميز إذاً عن الغرب، وينهى طه حسين دليله
المهدى إلى الشبيبة المصرية بالعودة إلى نقطة البداية...

فى نهاية المطاف، فى وسعنا القول بأن نابغتنا هذا لعب دوراً
طليعياً فى الدعوة إلى التحلى برحابة فكر إزاء الغرب. لقد رفض
منتقدوه تواريه أمام أوروبا واتهموه بأنه يريد الحد من دور مصر وصولاً
إلى توقيه لأن تصبح جزءاً منها؛ ويصرُّ هؤلاء على اعتقادهم أن طه
حسين يعمل على فصل مصر عن بعدها العربى مفضلاً الغرب بالترويج
لثقافته ومُسلماً بأفكاره المشثومة عن "الفرعونية" والخصوصية المصرية
التي من شأنها تيسير انقسام العالم العربى الإسلامى إلى دول - قومية

على المنوال الأوروبي. وهو بذلك يسهم فى إضعاف العالم العربى وضرب التضامن فيما بين أقطابه. وما حرص طه حسين على عدم توريط نفسه فى دعم القضية الفلسطينية، أو على الأقل ملاحقة الغرب فى هذا الملف ملاحقة جدية، إلا مثلاً على فك هذا التضامن.

لا بل بالعكس، فقد ذهب بعض آخر إلى القول بأن المسألة تتعلق هنا بقراءة بدائية لخطابه، بل إن موقفه المتلهف للتقارب مع الغرب إنما يعبر عن نفاذ بصيرته فيما يتعلق بالنهوض الثقافى الذى أراد لمواطنيه أن يشاركوه توقه إليه. فى هذه الحالة، فكونه أراد اعتبار مصر مجرد جزء من أوروبا، ليس سوى رمزية دفعه إليها انفتاحه على ثقافة الغرب الحديث؛ وهى رمزية تعكس إيمانه بوجود ثقافة مشتركة بين شعوب حوض البحر المتوسط. فى هذا السياق سيكون من الخطأ الشك بنزاهته أو الطعن بإخلاصه لبنى قومه، أو لمواطنيه المصريين على الأقل. الأمر الأكيد هو أن الجدل الدائر بلا انقطاع حول شخصه وفكره ليشهد على ما كان له من تأثير على الطابع المحورى لإشكالية الشرق/الغرب التى دفعها وصولاً إلى حد الاستفزاز^(٦٦).

حالة لبنان

لقد طرح لبنان بدوره عدة تحديات أمام الوجدان العربى، ومؤخراً فقد رُفِعَ أحد المحظورات عبر وضع اتفاقية الطائف، فتم الإقرار صراحة

بعروبة لبنان في الدستور الجديد. كانت المرحلة التي سبقت هذا الاتفاق قد وجدت تعبيراً عنها في جملة جوهرية تضمنها الدستور القديم تقول: لبنان ذو وجه عربي. كانت كل التؤوليات متاحة إذن : كأن يكون له وجه غربي، أو أنه ليس عربياً أيضاً، إلا في الظاهر؛ أما في العمق فهو ليس كذلك. لقد بذلت السلطان الفرنسية والإنجليزية كل جهدهما دعماً لهذا التمييز اللبناني فأصفتا عليه بعداً سياسياً. وبالفعل يعود تدخل مختلف القوى الأوروبية لصالح هذه أو تلك من الطوائف الدينية في جبل لبنان إلى أيام السلطنة العثمانية. فهكذا شككت المراسلة بين حسين ومكماهون، تحت ضغط فرنسا، بعروبة جبل لبنان ذاتها. وقد ركّز المستشرقون وأتباعهم على أصول اللبنانيين الفينيقية، غافلين عن إخبار تلامذتهم بأن الفينيقيين، في الأصل، كانوا على الأرجح قد نزحوا من شبه الجزيرة العربية هرباً من الجفاف! وهكذا تلقت أجيال من اللبنانيين واللبنانيات تربيتهما تبعاً لهذا التقليد، فيما كان بعض آخر من اللبنانيين يتلقى تربية تُركّز على الإرث العربي الإسلامي. كان من شأن الزيجات ما بين الطوائف، وكثافة الانتقال من دين إلى آخر تبعاً للاحتلالات، أن تجعلنا اليوم نصدف غالباً أسماء العائلات نفسها في جميع الطوائف، الأمر الذي يدحض أي أسطورة حول أصول حصيرية.

وثمة تيار غالب يخترق الوجدان اللبناني برمته قد عمد إلى نشر الفكرة القائلة بأن لبنان يُشكّل نقطة التقاء بين الغرب والشرق. فبيروت، المدينة المرفئية ومنطقة العبور، والمدينة ذات الوجهين المفترض فيها لعب

دور الوسيط من الطراز الأول، تعطينا تجربة فريدة فى تفاعل متقدم بين العالمين. وأن المسعى المتمثل فى عمل طه حسين وحياته قد خبره عدد من المثقفين اللبنانيين مرات لا تعد ولا تحصى وسط محيط أكثر تفتُّحاً.

لا بد هنا من تنبيه، لأنه إذا كان عدد لا بأس به من الزعماء ممن تماثلوا مع الطائفة المسيحية (كميل شمعون، بخاصة)، هم أبطال وجه لبنان الغربى، فإن عدداً من المثقفين المنتمين إلى نفس تلك الطائفة هم أبطال نهضة اللغة العربية (ناصرى اليازجى، مثلاً). فى الواقع، سنجد سياسيين ورجال أعمال أو مثقفين من كل الطوائف يتعاطفون أكثر مع هذا الوجه أو ذاك من وجهى لبنانهم. لقد درج على التسليم بأن الطوائف المسيحية تضم من أتباع الغرب عدداً أكبر مما تضم الطوائف الإسلامية. أما الملحدون وأنصار العلمانية فكان مصيرهم التجاهل بغير وجه حق ولم يُبالَ بموقفهم وسط مجتمع مفرط فى طائفية . باختصار، كان المجتمع برمته مُخترقاً من قِبَل هذا التيار الذى لم يكن بالإمكان الوقوف حياله موقفاً غير مبالٍ، وراح كثيرون يفسرون حركية لبنان وتميزه بهذا التلاقى بين هذين العالمين. وثمة اليوم فئة واحدة على الأقل من فئات المجتمع اللبنانى (يتعلق الأمر ببعض رافعى لواء الإسلام السياسى) معنية بإعادة النظر بوجهه الغربى وترغب فعلياً بفرض وجه آخر عليه. ومن علامات الزمان، أن التصريحات الأخيرة لجورج سعادة، رئيس الكتائب المطعون بشرعيته (حزب الكتائب اللبنانية، الذى تزعم فى بعض الأحيان التيار الراض لعروبة لبنان)، كانت عربية المنحى منحى

بارزاً، فى لبنان تتواجد فى سائر أنحائه القوات السورية - القومية
النزعة. وتوضيحاً بالمثل للتيار اللبناني الذى رفع الغرب إلى مرتبة المثال،
سأستشهد بمؤلفين اشتهرا عالمياً هما فيليب حتى وشارل مالك. لقد
أورد فيليب حتى مبحث انفتاح لبنان على حضارة الغرب على أفضل
وجه، وهو مبحث استعيد ككليشه بهذا الشكل أو ذاك:

”عند مفترق القرن التاسع عشر كانت
سوريا ولبنان - ولا سيما لبنان - أكثر
تقبلاً لتأثيرات الثقافة الغربية منها لثقافة
أى منطقة فى الشرق الأدنى. الجغرافيا
والتاريخ هيناً شعوب هذين البلدين
وجعلها أكثر ترحيباً بالأفكار الجديدة.
قربهما من البحر والحاجز الصحراوى
دفعهما للتوجه غرباً فترات طويلة من
مسيرتهما التاريخية“ (٦٧).

إن مؤلفين من أمثال حتى يعترفون عادة بتأثير الغزو السياسى
والعسكرى ”الغربى“ السلبي على سير عملية ”التغريب“ وشعبيتها (وهى
باتت مرادفة لـ ”الأنوار“ بالنسبة إلى أشد أنصارها حماسة)، بيد أنهم
يعترفون لها بآثار إيجابية أيضاً. وهكذا يختم حتى مقاله بالطريقة
فيقول:

"لذا كان بإمكاننا القول إن الدخول
السياسى والعسكرى إلى المنطقة، المتمثل
بالانتداب، تبين أنه الأكثر أذية من كل
شئ تاركاً مجموعة من الأحقاد ما زالت
معمرة النفوس. واحدة فقط من نتائج
التأثير السياسى جاءت فى مصلحة البلاد
وهى قيام أشكال حكم دستورية فى
أراضى الهلال الخصيب تتمتع فى أقل
تقدير بواجهات ديمقراطية.

مع ترسيخ مفهوم القومية كنزعة حكم
فى الحياة السياسية وكذلك أشكال حكم
ديمقراطية، بلغ تأثير الغرب نهاية مداه،
بعد أن دفع سوريا ولبنان على طريق
مسيرة طويلة نقلتهما، فى غضون عشرات
قليلة، من عصورهما المظلمة إلى فجر
عصر التنوير" (٦٨).

وفيمما يتعدى النحيب، نعثر هنا على نموذج للمثقف
المقتنع بالفضائل الناتجة عن التلاقى مع الغرب. أما اليوم،
مع مضى الوقت، لم يعد مطروحاً على الإطلاق التغنى بإقامة أنظمة ذات
واجهة ديمقراطية.

إن شارل مالك، الذي اشتهر بمشاركته بصياغة وثيقة حقوق الإنسان، وفي الوقت نفسه بكونه ملهم الجبهة اللبنانية والمليشيات الكتائبية والقوات اللبنانية، يعتبر من جهته أن الشرق الأدنى "مهد الحضارة الغربية"^(٦٩). وبالنسبة إليه، يتعلق الأمر بمفهوم "ثقافي وتكويني" يتلاءم جغرافياً مع المنطقة التي تغطي دائرة مركزها بيروت أو القدس أو دمشق، ويبلغ شعاعها تسعمائة ميل. فيضم مهد الحضارة الغربية إذن المدن العشر التالية:

أثينا، اسطنبول، أنطاكية، بيروت، دمشق، بغداد، القدس، الإسكندرية، القاهرة ومكة. تلك هي عشر مدن مع ما خلفها من عمق شكّلت الحضارة الغربية، لما كشف عنه وما كان مثار قلق وحب ومعاونة وما نشر في تلك المدن تفريعاً بأنماط معدلة متنوعة التعديل.

هذه العلاقة الوراثة الثقافية بين الشرق الأدنى والغرب كانت مثار إعجاب وتفكير لآلاف من السنين تماماً. لم ينس أحد جنوره، وهكذا لم يكلّ العالم الغربي عن التأمل في سر الساحل الشرقي للمتوسط حيث ولد. إنها لأسطورة محض مجردة من أي معنى التي تقول بأن عرباً كانت أميرة فينيقية ساحرة الجمال خطفها إله ليس سوى زفس نفسه"^(٧٠).

نعود ونكتشف هنا صورة اختطاف عُرْبًا ، المعادة، ولكن لدى هذا المعجب الكبير بالغرب، حيث لا تصادم بين الخاطف والمخطوف والعبارة (Carried off) لا تتضمن الإشارة إلى أى عنف. وتقوم مراهنته على الحبل السُرّي الذى يربط الذُرّة المتمثلة بـ "الحضارة الغربية" بمهدها، كى يشد إلى بعضهما عالمين مختلفين كل الاختلاف: العالم الغربى والشرق^(٧٨). بالتأكيد، من أجل النجاح بمد جسر بين العالمين، كان لا بد لماك أن يتعامل مع الصعوبات نفسها التى أفسدت تصور حتى أوطه حسين^(٧٩)، أى الاعتداء الذى تعرض له شعبهما من قبل غربيهما المحبوب. وعلى غرار ما رأينا فى حالة حتى ما كان فى وسع مالك إلا أن يعاين ذلك عندما كتب ما يلى:

"جاءت الحركة القومية لتتنظر إلى الغرب لا على أنه صديق ولا كمحرر ، وإنما كمتآمر بنى خطته على التفرقة والسيطرة والاستيطان ضد مشيئة أهل البلاد والأهلية اليهودية على أرض سورية"^(٧٢).

بيد أن التلاقى قد سبق أن حصل وكان لبنان هو مكان استضافته:

"لبنان دور إيجابى يلعبه فى المجال الدولى. وليس هذا الدور دوراً سياسياً. إنه دور روحى وثقافى. ويتمثل فى أنه أصيل إلى أبعد الحدود ، أصيل فى شرقيته

بمقدار أصالته في غربيته. ويتفرد في حمل رسالته الوسيطة هذه وتأدية دوره الاستيعابي. لقد ذهب بعض الكتّاب على اختلاف ميولهم وتحدثوا عن إسرائيل على أنها مُؤَهَّلة لمصالحة الشرق مع الغرب. لكن كيف لطرف أن يصالح بين اثنين آخرين وهو خارج عنهما؟ الغرب لا يمكن فهمه بمعزل عن المسيحية ، كما لا يمكن فهم الشرق بمعزل عن الإسلام. فإسرائيل لا تنتمي لا إلى هذه ولا إلى تلك من الحضارتين. فلبنان - الصغير وضعيف التكوين - هو البلد الوحيد، ليس فقط الموجود حالياً ، بل ربما أيضاً عبر التاريخ، حيث يلتقى الشرق الغرب ويتخالطان على قدم المساواة. المواطنون المسلمون اللبنانيون الأشداء ضالعون تماماً في بناء الشرق بينما كان المواطنون المسيحيون في أعرق تواصل روحي وتاريخي مع الغرب. إذا ما كتب لهذا الحال الاستمرار فهناك إمكانية رائعة لقيام مواجهة خلاقة" (٧٤).

منذ ذلك الحين باتت القصة معروفة، إذ حلت محل "المجابهة الخلاقة" التي حدثنا عنها مالك مجابهات مدمرة فاقت فظائعها الخيال، وحل محل براعته شبه الدينية انحيازه إلى جانب ميليشيات دموية، مبتعداً بذلك تماماً عن مثال الوثام الذي نادى به. والصورة المثالية التي تناقلها، وما تضمنته من قدرة انسجام، كانتا بالطبع قد مزقتهما ألف مرة الأحداث الدامية التي وقعت بين مشرق مالك وغربه. ولكن هذه الصورة ما زالت راسخة في أذهان اللبنانيين إما تعلقاً بها تعلقاً شديداً وإما تعارضاً معها تعارضاً صارخاً^(٧٥). وهى أيضاً مناسبة لإبداء وجهات نظر أكثر تمييزاً لكننا نادراً ما كانت غير مبالية^(٧٦).

إذن لم يكف مؤرخينا ومفكرينا شطر العالم إلى كتلتين متراصتين - شرق وغرب، فإنهم قسموا المجتمع اللبناني، بدوره، تبعاً للقطع ذاته. إلا أن هذا الأخير معقد بالغ التعقيد بحيث لا يتطابق مع اللوحات المعممة والمرتكزة على مقاييس إقصائية مشاكلة لتلك المتضمنة في استشهاد مالك، التي أسهمت على كل حال في مفاقمة التشققات اللبنانية.

إننى بالتأكيد ممن يرفضون هذا التقطيع الجامد للسكان اللبنانيين، كما لو أن المسيحيين المتعلقين بعروبتهم أو بالثقافة الإسلامية التعلق الشديد لم يكن لهم وجود قط، وكما لو أن المسلمين اللبنانيين ممن ليسوا متعلقين بها لا وجود لهم أيضاً^(٧٧). إن الثقافة تأثيراً أكيداً، مثلها مثل الأمطار التي تستطيع إنبات براعم فى كل مكان تقريباً. لقد

بذلت بعض المجموعات اللبنانية كل ما فى وسعها لحماية بعض البراعم (المبشرين وتلامذتهم) وانصبَّت جهود مجموعات أخرى على اقتلاعها؛ لكن الضغط الذى تمارسه الأمطار الثقافية المتساقطة من أقنية التلفزة وأدوات التصدير الأخرى لعلى جانب كبير من التعقيد بحيث لا يمكن تفسيره من خلال منظور مالك التبسيطى والإقصائى.

فى نهاية مقالته - النموذج ، الغنية للغاية بالصور السلبية التى تخترق الوجدان اللبنانى، يعيد مالك رسم مثال ترقى أفكار متملقى الغرب: أولئك الذين يشكون من خطورة عدوانه أو من فقدان رشده المؤقت، أو كذلك الذين يُركِّزون على سوء التفاهم القائم بيننا وبين الغرب. لعلنا نعثر على تفسير لسوء التفاهم هذا فى أعمال زعمائنا وفى أخطاء يرتكبها الزعماء الغربيون فى الحسابات، أو كذلك فيما تتمتع به الصهيونية من سطوة على هؤلاء. المهم هو الاستمرار فى تعليق الآمال على غرب متجدد.

فى الختام، لا بد من القول بأن مالك لم ينفِ، فى أواخر الأربعينيات، انتماء لبنان إلى العالم العربى؛ لكنه أضفى عليه ميزات شديدة الخصوصية، مثل انتماء قسم من سكانه للغرب. كما أنه لم ينفِ ما ارتكبه الغرب من عدوان، بالخصوص ذلك الذى قاد إلى المأساة الفلسطينية، بيد أنه شديد الإيمان بأن الغرب قادر، على الرغم من إعيائه، أن يشفى ، وأن من شأن شفائه هذا أن يكون له تأثير إيجابى على حالة الشرق الأدنى.

العائلة المالكة الأردنية الهاشمية

يتميز خطاب العائلة المالكة الأردنية المتعلق بالغرب تميزاً شديداً. بادئ ذي بدء، إنه يمثل وجهاً كاملاً من وجوه الوجدان السياسى العربى، باعتبار أن هذه العائلة هى الوحيدة سليله الشريف حسين، والتي لا تزال فى السلطة، مع كل ما يستتبع ذلك بالنسبة إلى رؤيتنا الجمعية إلى الغرب، نظراً لدور هذه الأسرة فى إجراء الاتصالات العسكرية والسياسية مع الغرب فى لحظة مفصلية من تاريخنا، لحظة تفكك السلطنة العثمانية. غير أن هذا الخطاب يتميز أيضاً بالطريقة المباشرة والحره التى يعالج بها مسألة العلاقة مع الغرب.

والغرب، فى خطاب العائلة المالكة، لا يقتصر وجوده على كونه مجرد مفهوم نظرى أو مثال تحديثى غير واضح المعالم، بل إنه أيضاً عامل داخلى رافق دفع الأسرة إلى صدارة الساحة السياسية الإقليمية. ففى هذا الخطاب، تمت شخصنة الغرب على نحو يتمكن فيه كل عربى يتماثل بقدر معين مع طموحات شريف مكة أن يخال نفسه على علاقة مباشرة مع الغرب. إن الصورة التى ترعاها الأسرة المالكة عن الغرب تمثل شيقاً من وجداننا الجمعى. ولما وثق مكماهون ولورانس العرب صلتهم بالشريف حسين وأبنائه بواسطة تفاهم سياسى كان غرضه الوصول إلى استقلال عربى حقيقى، فقد جرى تمثيل هذه المبادرة فى الخطاب الهاشمى بعبارات الحمية، والصدقة والوعد الشخصيين،

انتشرت انعكاساتها في وجداننا الجمعي، صورة للغرب يظهر فيها على أنه حليف وصديق. والخيانة التي عرضناها في الفصل السابق هي في الأصل خيانة المفاوضين المشاركين الذين نكثوا بوعودهم. فكان خزيهم مضرب مثل ، وأما نصيب الأسرة الهاشمية فكان الخيبة. ومرة أخرى فإن أبرز أثر لهذه المشاعر على ما ترسخ في وجداننا الجمعي من صورة للغرب تمثل الخيانة، بل المرارة المتولدة أيضاً عن خيانة صديق. ومن الواضح أن هذه المرارة التي التصقت نمطياً بالأسرة الهاشمية لم يشاطرها إياها العرب المؤيدون لاستمرار الخلافة العثمانية؛ فبالنسبة إلى هؤلاء، الخونة هم الأسرة الهاشمية والغرب ، كلاهما معاً. إن هذا التدقيق ضروري تذكيراً بأن الأمر يتعلق هنا بوجه مركزي من وجوه وجداننا الجمعي، لكنما غير الوحيد. وتبقى صلاحيته قائمة في كل لحظة من تاريخنا المعاصر.

وخطاب الأسرة الملكية الأردنية أسير لهذه الذاكرة، فمن هنا تأتي الأهمية التي يوليها لاستمرارية النقاش الدائر حول علاقتها بالغرب، وعلاقة العرب الآخرين بهذا الغرب عينه عن طريقها. يتميز هذا الخطاب بالتجاذب بين الصداقة القوية مع هذا الغرب وبين الشعور الحاد بالمرارة إزاء سلوكه، ويتجاوز التجاذب إطاره البلاغي حتى يصبح مقروءاً على وجه كل من ولي العهد الأمير حسن والملك حسين أثناء حرب الخليج^(٧٨). وصورة الغرب التي يراها هذا الخطاب الهاشمي لها صورة خاصة حقاً - هي صورة للغرب، الصديق/الخائن، الذي يصر على عدم رؤية

الحسنات الناجمة عن قيام تحالف صادق بين فرسان الأحلام القادمين منه وبين عشاقه العرب. بيد أن المصالحة لم تتأخر ، وصفح الولايات المتحدة وإسرائيل عن الأردن عقب حرب الخليج بداً نشازاً. إنه لواضح على كل حال أن الأنظمة الملكية النفطية غاضبة منه أكثر من الحلفاء الأميركيين والعنو الإسرائيلي. والشائعات الشعبية التي ذكرتنا بتلك التي رافقت زيارة السادات إلى إسرائيل، ومفادها أن موقف الأسرة الهاشمية، أثناء حرب الخليج، لم يكن الغرض منه سوى رفع شعبية الملك تمهيداً لتقارب مذهل مع إسرائيل، هذه الشائعات قد عززتها مجريات الأحداث ميدانياً. وصورة الحماس الكامن في العلاقة وجدت خير توضيح فيما كشف عنه صوت الملك من مشاعر دفينه، أثناء توقيع اتفاقيات السلام مع إسرائيل (في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤) تحت نظر الرئيس كلينتون المتحنن. فلم يجد ما يدعو للأسف إلا في تأخر حلول تلك اللحظة.

ولكى نحيط بالرؤية إلى الغرب المتضمنة في الخطاب الهاشمي المعاصر إحاطة أفضل، لا بد من استخراج الصور المكونة له. فمن مذكرات عبد الله ملك الأردن تبرز موضوعة التحالف الخير المبتغى بين الأمم "الغربية" وشعوب الإسلام من أجل صدّ الخطر الشيوعي، و"الخطر الأصفر" ^(٧٩). يجب أن نتذكر أن الملك يطرح نفسه كأحد أبرز الناطقين باسم الإسلام ، نظراً لأنه من سليل النبي وابن شريف مكة، قائد الثورة العربية ضد العثمانيين [وسوف لن يكون كلام الملك حسين مغايراً على

الإطلاق] . فائتاء صياغة الخطاب الذى ألقاه فى الأمم المتحدة يوم الثالث من تشرين الثانى/أكتوبر ١٩٦٠، ذكّر الملك بالمعادلة عينها ، حاذفاً منها "الخطر الأصفر" وهو مبحث بات غير دارج ^(٨٠). فى هذا الخطاب، أجرى الملك تمييزاً بين "العالم الحر" و"العالم الشيوعى"، مهاجماً هذا الأخير بقسوة ومصطفاً بحزم بجانب معسكر "العالم الحر". فبوضوح تام، وضع الملك "الشيوعية" فى الموقع النقيض لـ "غرب، زعيم العالم الحر"، واعتبرا نفسيهما عضوين فى هذا "العالم الحر" وبالتالي حليفين طبيعيين لهذا الغرب.

وينظر الملك حسين، فإن الغرب مثال للحرية وأنموذج يحتذى فى التربية والتجارة ^(٨١). فهو ينتظر من هذا الحليف الطبيعى الشئ الكثير:

"وأرجو الله أن يهدينا سواء السبيل
وأن يمدّنا بسند من عنده. وأنتم فى الغرب،
فلتساعدونا على بناء قوتنا ، لأنها ستصبح قوة
للحرية. وتذكروا بأننا قد ولدنا أحراراً" ^(٨٢).

لكن الواقع أقل زهواً من ذلك. بالفعل، فإن علاقات الصداقة، التاريخية، وعلاقات التزويد بالسلاح (أيضاً بحسب الملك حسين) التى تربطهم ببريطانيا العظمى ، ومن ثم بالولايات المتحدة ، قد أصابها الاضطراب جراء اتفاقيات سايكس - بيكو الموقعة عام ١٩١٦، وإعلان وعد بلفور عام ١٩١٧، والمساندة الدائمة لإسرائيل منذ قيامها ^(٨٣). وهذا ما جعل الملك يقول، فى معرض الدعم الذى يوفره الغرب لإسرائيل:

لذلك يجب ألا نبحث بعيداً عن أسباب
التقارب بين بعض البلاد العربية والأقطار
الشيوعية المعادية للعالم الحر. لقد قاوم
الأردن دوماً هذا الإغراء بحزم وعزم
وتصميم، ولو أن من البديهي، أن مقدرتنا
على المساهمة في معركة العالم الحر قد
كانت بلا انقطاع مرهونة إلى حد كبير
بموقف الأقطار الغربية إزاء إسرائيل^(٨٤).

من الواضح إذن في ذهن الملك أنه يوجد عالم الشر الشيوعي، من
جهة، والعالم الحر، من جهة أخرى. في وسعنا أن نتخيل كم هو كبير
قلق الأسرة المالكة التي تشهد اليوم انهيار أسس خطابها التقليدي،
ها هو الحفيد حسين مضطّر الآن للتعامل مع عالم لم يعد فيه وجود للكتلة
الشرقية والاتحاد السوفياتي، بعد أن سبق له وتخلّى عن مبحث الخطر
الأصفر الذي طالما تحدث به الجد. لم يكتب قط للتحالف الطبيعي مع
الغرب، المبني على ضرورة مكافحة خطر مشترك، أن يترجم بتضامن
حقيقي. والآن، لم يعد ممكناً أن يصاب، حتى على مستوى الخطاب.

بيد أنه إلى جانب السجال السياسي، ثمة للعلاقة مع الغرب بعدها
العملي داخل الأسرة المالكة الهاشمية. إن التربية التي يتلقاها الأمراء
والأميرات تنتمي إلى الغرب، وهي تُروّج للتربية التي تمنحها مؤسساتها،
وترفع من شأنها. ولم يخف عبد الله إعجابه بـ "حادثة الدول الغربية

الكبرى" وينظامها التربوى الخاص. فجعله تلاحمه مع بريطانيا ينتظر منها الكثير فى هذا الميدان. بصورة عينية ، فقد وفر لولده ولحفيدته تربية فتحت لهما باب مؤسسة إنجليزية فى الإسكندرية (كلية فيكتوريا). وفيما بعد سوف يمول الملك عبد الله دراسة الملك العتيد حسين فى "أرقى" المؤسسات البريطانية. وتشهد الفقرة التالية على ذلك:

"لقد رغب جدى فى أن ألتحق بكلية
هارو، ولكننى أقنعتة قبل وفاته بوقت قليل
بأن كلية فيكتوريا أكثر ملائمة لى. ... ولقد
قَبِلَ جدى بوجهة نظرى. ولكن استشهاده
غَيَّرَ الكثير من الأمور".

ويقول كاتب السيرة: "وغدا سفر الملك حسين إلى مصر غير ذى موضوع ، نظراً لموقفها العدائى ، وبدلاً من ذهابه إلى هارو تابع الملك دراساته كتلميذ ضابط فى الأكاديمية العسكرية الملكية فى ساندهرست" (٨٥). ثمّة عنصر آخر يُعبّر عن هذه الحماسة نجده فى الاستقبال الذى خصصت به العائلة مندوبى حكومات الغرب ومنظمات غير الحكومية. ويخرج الشعور بأن التحالف بين الفريقين لابد أن يكون طبيعياً، من إطار الخطاب ويرشح من أقوال وأفعال أفراد الأسرة المالكة. فكأننا نعيش طقساً أسسته عقود من علاقات الصداقة والوثام لم تعرف التلبية الحقة (٨٦).

ولكن فيما ظل الورثة الهاشميون لزعامة الثورة العربية ضد العثمانيين قريبين جداً من الغرب، لم تتوان الدعاية الصادرة عن سوريا والجمهورية العربية المتحدة والعراق البعثي، في بعض الأحيان، عن نعت الوريث حسين بـ "عميل الإمبريالية". وحتى السادات، الذي وقّع اتفاقيات كامب دايفيد، عبّر عن غضبه ومرارته بإزاء الملك عبد الله، الذي كان، بالتواطؤ مع الإنجليز، قد أنقذ رقبة إسرائيل بقبول الهدنة عام ١٩٤٨ (٨٧).

وسوف تعيد لنا أزمة الخليج صورة مقلوبة للملك حسين نفسه، المتضامن مع العراق البعثي هذه المرة، والغاضب بشدة على الغرب، بينما القاهرة مرتمية كلياً في أحضان الولايات المتحدة، ودمشق تستغل الأمر لتقطع لنفسها مكاناً جديداً على مسرح السياسة، حيث لم يعد للاتحاد السوفياتي مكان. في هذا الظرف، من العسير أن ننسب رفض الملك حسين الانضمام إلى التحالف المعادي للعراق إلى مجرد حرصه على ضمان استقرار حكمه، وتعزيز شعبيته لدى الأردنيين والفلسطينيين.

كما وأنه من العسير رد كل ذلك إلى مسألة التبعية الاقتصادية إزاء العراق. فالصور لن تكون مكتملة إن لم نضيف إليها هذا الاضطراب وهذه المرارة حيال الصداقة العقيمة التي محضها للغرب بجميع مكوناته. كان الملك يتوقع أن يأخذه أصدقاؤه في الغرب أكثر على محمل الجد (٨٨).

وسيزهد البعض إلى أبعد من ذلك ليتحدثوا عن رغبة هاشمية في التوسع باتجاه الحجاز (اليوم في المملكة العربية السعودية، لكنه كان فيما مضى تابعاً لسلطة الأسرة الهاشمية). على كل حال، تعكس هذه

الرواية، التي لا تستند إلى إثبات حسى، لكننا متداولة على نطاق واسع فى صحافة الشائعات العربية، بعداً آخر يتضمنه المخيال الهاشمى، ألا وهو الشعور بالخيبة إزاء الغرب الذى فضل عليه آل سعود (٨٩). وهذا ما يقودنا ثانية إلى المزاحمة فيما بين العرب لكسب رضى الغرب.

فى الواقع، فإن التجاذب أشد تعقيداً، إذ لا بد من إضفاء بعض التمايزات الخاصة بها على مختلف مكونات الغرب بخصوصياتها: بصورة رئيسية، فرنسا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة. إن زهو الصورة التى اتسم بها خطاب هذه الأسرة المالكة يتراجع شيئاً فشيئاً أمام التجاذب ، وذلك منذ بداية علاقتها ببريطانيا، أحد مكونات الغرب.

أنور السادات

نظراً لجذوره الريفية وتكوينه العسكرى، أدلى أنور السادات بما يراه هو بالذات من فروق دقيقة تنطوى عليها الرؤية إلى العالم ، التى يختلف فيها الغرب الأوروبى - الأمريكى الشمالى مع الشرق العربى. فبنظر السادات، إن اللاعبين الرئيسيين على الساحة الدولية هم: مصر، إسرائيل، الولايات المتحدة، الاتحاد السوفياتى، الإنجليز الذين استعمروا مصر، البلدان العربية، حركة عدم الانحياز، جامعة الدول العربية، الأمم المتحدة... فالغرب، رغمًا عن حضوره فى خطابه، لا يحتل مرتبة مرموقة فى الأوقات بالغة الأهمية فى مجرى حياته السياسية.

ونعثر في مذكراته، أو أيضاً في خطابه أمام الكنيست، على لون من ألوان استخدام الزوج غرب/شرق. إن السادات من الذين يستخدمون مصطلح الشرق للدلالة قطعاً على الكتلة الشرقية (بقيادة الاتحاد السوفياتي) مُعارضةً مع الغرب أو قوى الغرب (على رأسها الولايات المتحدة). ثمة آخرون كثر يستخدمون مصطلح الشرق أو المعسكر الشرقي للدلالة على الكتلة الشرقية، لكن أولئك الذين يستخدمونه استخداماً حصرياً ولا يخلطون قط في خطابهم بين شرق وعالم عربي، هم أقل عدداً بكثير.

وفي مذكراته، لا يأتي على ذكر الغرب إلا في ست عشرة صفحة من أصل أربعمائة وست عشرة صفحة، من ضمنها المرات المكررة (الصفحتان ٢٧٤ و٢٧٧ تستعيدا الحادثة المروية في الصفحتين ٢٠٢ و٢٠٦، حيث طُرِحَت مسألة الصحافة الغربية واستغلال حادثة سجن على صبرى، الرجل المقرب من الاتحاد السوفياتي) ^(٩٠). إذن، فقلما استخدم هذا المصطلح. أما فيما يتعلق بالعبارة الأخرى، الشرق، سواء في مذكراته، التي كتبت عقب زيارته إلى إسرائيل، أو خطابه أمام الكنيست في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧، أو أيضاً في رسالته الشهيرة إلى بريجنيف في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٧٢، ففي كل مرة ترافق استخدام مصطلح الغرب مع مصطلح الشرق، كان المقصود بوضوح الكتلة الشرقية وليس العالم العربي ^(٩١). إنه لبدى بالنسبة إلى القارئ أن السادات لا يدخل ضمن دائرة نظره سوى الدول، وخصوصاً الجبارين،

الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة؛ فلا يستعين بمصطلح الغرب إلا بصورة هامشية مستخدماً إياه فى معرض أحداث تورطت فيها دول غربية أخرى إلى جانب الولايات المتحدة. أما الثنائى شرق/غرب فلا يستأثر إذن بخطابه فى نهاية مسيرته، وذلك حتى وإن كان، فى إحدى كتاباته العائدة إلى عام ١٩٥٧، قد وفر لنا أمثلة رائعة عن قوة هذا الثنائى عندما يقول:

“فإن تونس والجزائر ومراكش تقع فى الخريطة ناحية الغرب ولكنها فى الحقيقة من الشرق حضارة وتاريخاً، وكذلك تقع استراليا ونيوزيلندا [...]” (٩٢) .

أو أيضاً:

“فطريقة فهم الغرب للشرق لا تتعدى اعتبار هذا الشرق ملايين من الهوام الجائعة العارية الجاهلة وأنَّ على الغرب أن يتولى أمر الوصاية عليها باسم المبادئ الإنسانية وباسم مبادئ الديانة المسيحية وباسم المدنية الأوروبية، وفى هذا أيضاً تهجُّم على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى القيم البشرية.

فأما أن للغرب الولاية على رسالة المسيحية وتفسيرها [...] فأمر لا نقبله” (٩٣).

لئن كان السادات خائناً بنظر البعض وأتاتوركاً جديداً بنظر بعض آخر، ونجح في كسب ود الغرب، فيجدر بنا الإشارة إلى أنه لم يستخدم هذه اللغة استخداماً حصرياً^(٩٤). بنظر سادات السبعينيات هناك خصوصاً الولايات المتحدة، ثم الولايات المتحدة، ثم الولايات المتحدة أيضاً، واللاعبون الآخرون من الدول، قبل الإتيان على ذكر الغرب. في زحف كامب دايفيد لم يكن السادات ينظر إلى مسرح السياسة الدولية ولا يقدمه على أنه مواجهة (ودّية أم مبغضبة) بين هاتين الكتلتين المتمثلتين بالشرق والغرب، بل من خلال الدول المكونة لها.

بين رفع الغرب إلى مرتبة المثال أو رفضه

انتشر الانبهار بالغرب وحدثته أول ما انتشر بواسطة بعض المثقفين ورجال السياسة. وامتزج هذا الرفع الأول للغرب إلى مرتبة المثال الأولى بالحاجة إلى تحديث الجيش. إلا أنه سرعان ما شاب هذه الرغبة مسحة من رهبة الجماهير أمام قوة تلك الآلة. فأصبح عسيراً التمييز - عند الكاتب نفسه أحياناً - بين الرفض والرفع إلى مرتبة المثال. لكن تراكم الأحداث السلبية المرتبطة بالغرب قد أسهم في خلق تجاذب في المواقف، وذلك في غضون بضعة عقود.

في ميدان التربية، ومنذ اللحظات الأولى للتلاقى، فإن الاندفاع في جانب المفتونين بأوروبا. لم يلبث المعيار السائد أن اتضح وراجت

كتابات مثل كتابات نقولا الترك على نطاق واسع ، متجاوزة تلك الخاصة بالجبرتي وهلمجرا . وبسرعة، تزايد تأثير الطهطاوى وطه حسين وجميع أتباع الإرساليين.

من ناحية أخرى، كان الدور الذى لعبه أتاتورك دوراً هائلاً. هكذا، فإن كتاب مصطفى الزين، أتاتورك وخلفاؤه ، هو بمثابة مديح للمحرر المحدث ومثال جيد على مبالغة أولئك الذين يسعون لتبرير جميع أعمال أتاتورك، بما فيه فرض الأحرف اللاتينية والقبعة بالقوة ^(٩٥). كان أتاتورك، على طريقته، يوفر هدفاً - بدفعه الأمور نحو التغريب - لأولئك الذين كانوا، بيننا، يميلون نحو الرفض ^(٩٦). الجدير بالإشارة أن تركيا الحالية ما زالت تعيش هذا التجاذب:

”فى آخر طبعة لها وصفت أسبوعية طرف ، القريبة من الجبهة الإسلامية لمجاهدى الشرق الكبير، الأعياد المقبلة بأنها ”عادات مسيحية مفروضة على المسلمين“. فدعت أنصار الجبهة المذكورة إلى مهاجمة ”مراكز الخيانة الغربية“، وخصوصاً محال الأسطوانات والحوانيت التى تعرض سلعا مخصصة لرأس السنة“ ^(٩٧).

أما اليوم، فما تزال العضلة قائمة. إن الرفع إلى مرتبة المثال بحالتها النقية لم يعد لها وجود ، ربما إلا عند أفراد معدودين، لكن هيمنة الغرب جليلة في خطاب عدد لا بأس به من العرب الذين ما يزالون يقرون بهذا الأخير كنموذج. وما عاد بإمكان وجداننا استيعاب جميع تناقضات هذه الجاذبية المشوبة بالحق والعداء. إننا نعاني اليوم من الأجواء نفسها التي عاشها آخرون بيننا بكثافة عندما فرض أتا تورك الأبجدية اللاتينية والقبة. بيد أن الفارق بيننا وبين أسلافنا، الذين قاموا بردات فعلهم التزاماً بالتقاليد، هو أن أسبابنا ترتكز على تراكم الأحداث التاريخية. فالיום ينتشر تأثير الرفض أيضاً في أوساط الذين تعلموا التعااطى مع الأبجدية اللاتينية ولغاتها ، إضافة إلى ارتداء القبة وارتياح المراقص، بل وتعلموا تقدير أهميتها. هذا الرفض يستند إلى واقع مُعاش، إلى مرارة الحاضر، إلى آلام الماضي، وخصوصاً إلى وجه مستقبلنا المتشنج^(٩٨).

حواشي الفصل الثالث

- (١) ابن خلدون، المقدمة.
- (٢) تشربّ الوجدان السياسي اللبناني هذه الصورة الجاهزة بواسطة خطابات السياسيين والمثقفين والصحافيين. وما المثال التالي، المأخوذ من عدد حديث لمجلة ماجازين ، سوى عينة عادية: "تبعاً للمعطيات العالمية الجديدة ظهر لبنان على صورة همزة وصل بالغرب وسط جميع الحالات الخاصة وغدا دوره بالغ الأهمية في نظر دمشق". لقد ورد ذلك في مقال بعنوان "احتمالات ضعيفة في إجراء انتخابات هذا العام"، بيروت، ماغازين بتاريخ ٢٧ شباط/فبراير ١٩٩٢، ص ٢٥ .
- (٣) حسبما ذكره ابن حفيده فتحى رفعت الطهطاوى، لمحة تاريخية موجزة عن حياة وأعمال رقاعة بدوى رافع الطهطاوى مطلق النهضة الثقافية في مصر الحديثة، القاهرة [بدون ناشر] ، ١٩٥٨ . يجدر بنا ملاحظة الفارق فيما ذهب إليه الشيخ في تقديمه، بين الصيغتين الفرنسية والعربية المجموعتين في الكتاب عينه. هل في ذلك ثمة مؤشر على ظاهرة الخطاب المزيج، تبعاً لما إذا كان موجهاً إلى جمهور عربى بلغته أم لا؟
- (٤) ألبرت حوراني، الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ ، بيروت، نوفل، ٢٠٠١، ص ٨٦ .
- (٥) Anouar Abdel-Malek, La pensée politique arabe contemporaine, (٥) Paris, Seuil, 1970, p.46.
- (٦) راجع أيضاً لويس عوض وخلدون الحصرى وعلى مبارك.
- (٧) راجع أيضاً الهامش ٥٢ من الفصل الثانى حيث نعثّر على مثل آخر يصور لنا الجبرتي، بدوره، حقبة التحول تلك.

(٨) تخلص الإبريز في تلخيص باريز ، ص ١٧ في محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة بدوي رافع الطهطاوي (الأعمال الكاملة)، المجلد ٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣ .

(٩) م ن، ص ١٦ و١٧ التشديد مثلاً.

(١٠) م ن، ص ١٧ .

(١١) م ن، ص ١٧، ١٨ .

(١٢) م ن، ص ١٨ .

(١٣) مدح محمود هلال للطهطاوي، في موجز تاريخي م س، ص ١٢٨ .

(١٤) م ن، ص ٢٥٣ .

(١٥) الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية ، القاهرة، مطبعة شركة الراغب، ١٩١٢، ص ١٦٠ إلى ١٦٦ .

(١٦) م ن، ص ١٧، ١٧٠، ١٨١، ١٨٥، ١٨٧، ٢٨٢ و٢٤٢ . نتعرف هنا إلى ميل بعض الكتاب لإعلاء شأن وطنهم الأم الحالي عن طريق إقرانه بمجد من الماضي يتصل بهذا الوطن أكثر منه بأي وطن عربي آخر. لقد سبق لنا أن عايناً مثل هذه الظاهرة لدى جواد بولس وسمير أمين، وما هو الطهطاوي يدفع الآن الحدّ وصولاً إلى البحث في القرآن عما يؤكد تفوق مصر (ص ١٨٥)!

(١٧) م ن، ص ١٦١ .

(١٨) حتى عندما يتحدث عن ذلك ببعض التفصيل، م ن، ص ٣٦٣ و٣٦٤، فاللهجة لا تتسم بالمبالغة؛ على العكس فهو يحيي شجاعة وحمية القادة العسكريين الذين ضحوا بالكثير لتخليص القدس الشريف وينوّه بـ "تبصرهم في إدخال محاسن التمدن المشرقية إلى بلادهم المغربية".

(١٩) م ن، ص ١٦ و١٦٢ .

(٢٠) م ن، ص ١٦ و١٦٣ .

(٢١) تخلص الإبريز في تلخيص باريز ، في الأعمال الكاملة م س، ص ٢٥٦.

(٢٢) ثمة وجه تشابه آخر متمثل في غياب ميلهم إلى الأحداث (الانحراف الجنسي نحو الأولاد)، م ن، ص ٧٨، كل الأعذار تصلح للتقريب بين الشعوب!

(٢٣) م ن، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ .

(٢٤) م ن، ص ٢٦٢ .

(٢٥) يستخدمونها استخداماً شائعاً. مثلاً، عندما أقدم أحد ممثليهم مجهول الهوية، في أحد النقاشات، على الاستشهاد بقول عمر لبشير إلى الممثلين عن روابط مغربية مختلفة لحقوق الإنسان إلى أن هذه الفكرة إسلامية حقاً. لقد دار هذا النقاش في إطار ندوة نظمها مركز الدراسات العربية للتنمية (كندا) في مونتريال بتاريخ ٧ آب/أغسطس ١٩٩٢ . حاضر في هذه الندوة الطيب بقوش (نقابى تونسى)، وميلود إبراهيم (الرئيس المؤسس لرابطة حقوق الإنسان الجزائرية)، وفرج فنيش (مدير عام المعهد العربى لحقوق الإنسان)، وعلى أولملي (رئيس الاتحاد المغربى لحقوق الإنسان).

(٢٦) فى هذا الصدد، راجع جان زيادة، رفاعة رافع الطهطاوى ، مكتبة جامعة ماك جيل الإسلامية فى مونتريال [ل ن] [لا م، لا ت] ، ص ٥ . فيما يتعلق بالفرق بين مفهوم الوطن الذى يحيل إلى بلد الأصل ومكان الولادة من دون أية دلالة إضافية سياسية، وبين استخدام الطهطاوى للفظ للإحالة إلى أمة مصرية يستشهد زيادة بجمال الدين الشبلى، رفاعة رافع الطهطاوى ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨، ص ٥٧؛ ألبرت حورانى، م س، ص ٧٩ و ٨٠؛ وخذلون ساطع الحصرى، ثلاثة إصلاحيين: دراسة فى الفكر السياسى العربى الحديث ، بيروت، خياط، ١٩٥٦، ص ٢٩ .

(Khalidun S. Al-Husry, Three Reformers: A Study in Modern Arab Political Thought, Beyrouth, Khayats, 1966, p. 29).

(٢٧) تخلص الإبريز فى تلخيص باريز ، م س، ص ٨٢ و ١٨٣ راجع أيضاً حورانى، م س، ص ٨١، الذى ينسب للبارون بوساسى تأثيره على الطهطاوى فى إدخاله لأول مرة مبحث مصر القديمة. راجع أيضاً أنور عبد الملك، المعجب كذلك بالطهطاوى، الذى يحدثنا عن تأثير أفكار ثورة ١٧٨٩ وأفكار سان سيمون على الشيخ، فى الفكر السياسى العربى المعاصر ، م س، ص ٤٥ .

(٢٨) م ن، ص ٧٨ و ٧٩ .

(٢٩) م ن، ص ٤٦ .

(٣٠) كان قد سبق له أن عمل مستشاراً فنياً فى الوزارة ذاتها فى العام ١٩٣٦ .

(٢١) قال لنا الدكتور أحمد عبد الله من منظمة حقوق الإنسان المصرية في لقاء خاص معه: إن طه حسين ومعه مثقفين تحديثيين آخرين قد استفادوا من الاهتمام الذي أبداه التلفزيون سواء بالأشخاص أو بأعمالهم؛ ولولا التلفزيون لكان نجيب محفوظ مجهولاً في الوسط الشعبي العريض....

(٢٢) حصل على شهادة الدكتوراة في الآداب، في العام ١٩١٧ .

(٢٣) طه حسين، مذكرات طه حسين ، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٧، ص ١٢٢ و ١٩٧ .

(٢٤) سوف ينتقد بشدة الاحتكار الثقافي الذي مارسه الفرنسيون والإنجليز وصار داعية للانفتاح على الثقافات الأخرى ، مفضلاً المعاملة التي خص بها تلك الثقافة التي أطلق عليها - في كتاب مستقبل الثقافة - ثقافة الشرق الأقصى. وفي تقديمه لمجموعة من الترجمات الأدبية الأميركية، ركز على أهمية التفاعل مع ثقافة الولايات المتحدة وبوتقتها الفريدة في العالم. فيؤكد على ضرورة التعرف إلى الثروة الكامنة خلف وجه الولايات المتحدة الآخر. ورد ذلك في مجموعة دراسات في الأدب الأميركي ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية [لا ت، إنما الأصول تعود إلى العام ١٩٥٢] ، ص ١٠ - ٢١ .

(٢٥) راجع مستقبل الثقافة ، في: المجموعة الكاملة ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣، مج ٩، ص ٥٧ .

(٢٦) م ن، ص ١٦ و ١٧ .

(٢٧) م ن، ص ٢١ و ٢٨ .

(٢٨) م ن، ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢٩) تشير إلى أن كيبلينغ قد نجح في إغضاب طبقة كاملة من المفكرين والسياسيين المتحمسين للغرب ولحدثاته. إلى جانب طه حسين راجع، مثلاً، حسين فوزي، سندباد إلى الغرب ، القاهرة، دار المعارف بمصر [لا ت] ، ص ٢٩١ . هذا الكتاب مهدي إلى "الصديق الكبير طه حسين"، وهو دفاع عن الغرب رغم سقوطه الحضاري في الحرب العالمية الأولى (ص ٢٨٨) ونداء لصالح "حضارته التي ستستطيع الشفاء من سقوطها بفضل مكوناتها المتمثلة في الفكر والعلم والأدب والفن"، (ص ٢٨٨).

(٤٠) مستقبل الثقافة ، م س، ص ٣٨ . نجد في الصفحة ٣٨ هذا الميل ذاته لإيلاء التفوق المصري مرتبة متميزة مقارنة مع بلدان المنطقة الأخرى، وهو ميل نلاحظه عند سمير أمين، ويذكرنا بميل اللبنانيين للإعلاء من شأن لبنان.

(٤١) م ن، ص ٧ و ٨ .

(٤٢) م ن، ص ٨ .

(٤٣) م ن، ص ٣٩ .

(٤٤) م ن، ص ٣٨ .

(٤٥) م ن، ص ٤١ .

(٤٦) م ن، ص ٤٤ .

(٤٧) م ن، ص ٤٥ . راجع أيضاً ص ٤٧ .

(٤٨) م ن، ص ٥٧ . لمزيد من التفاصيل، راجع أيضاً ٥٦ و ٧١ و ٧٢ .

(٤٩) م ن، ص ٢٥ .

(٥٠) المسألة تتعلق باستعادة البراهين التي نعثرت عليها في م ن، ص ٧٨ و ٧٩ .

(٥١) م ن، ص ٧٨ و ٧٩ .

(٥٢) م ن، ص ٨٠ .

(٥٣) على سبيل المثال: محمود تيمور، طه حسين كما يعرفه كُتَّاب عصره [لا م]، مؤسسة دار الهلال [لا ت]؛ سامي الكيالي، مع طه حسين، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥١؛ راجع أيضاً تحليل المؤلف وأعماله في عبد العزيز شرف، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٧ . من ناحية أخرى، راجع سيد قطب، نقد مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة [لا ن] . [لا ت] : ويوسف العظم، الشهيد سيد قطب، بيروت، دار القلم، ١٩٨٠، ص ١٣١ - ١٣٤ . يعترف سيد قطب ببعض الحسنات التي جاء بها طه حسين في الميدان السياسي والتعليمي، لكن نقده استهدف أول ما استهدف إدانة وجهات نظر طه حسين المتعلقة بالغرب. فقد دأب على تفكيك برهنته التي حاولت عرضها في هذا الفصل. ما يجدر ذكره أن المؤلف، إذ أراد التعبير عن سخطه، فقد ربط بين عمل طه حسين وما قام به أتاتورك؛ من وجهة نظره، تلك هي ذروة الإهانة.

(٥٤) فكرة عزيزة على قلب النخب الحاكمة في المملكة العربية السعودية التي تحاول التشبث بالثقافة والتقاليد بالرغم من الصراعات الداخلية الناجمة عن التفاعل مع الحليف الإستراتيجي والعسكري المتمثل بالولايات المتحدة.

(٥٥) مختار الغيث، "دعوة المعتدى ليقف عدوانه..."، في الحياة، المكتب الرئيسي، لندن، طبعة نيويورك بتاريخ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٩٢، ص ٨.

(٥٦) مستقبل الثقافة، م س، ص ٤٩، هذا النوع من المقارنة مع اليابانيين شائع بحيث يسعنا العثور عليه صدف مرتين في الطبعة نفسها من جريدة الحياة المذكور في الحاشية السابقة. ويستعيد عبد العظيم رمضان الموضوع نفسه في إطار طاولة مستديرة نظمها الحياة حول موضوع البرنامج الوطني الذي جاءت به ثورة ٢٣ حزيران/يوليو ١٩٥٢. شارك فيها محمد سيد أحمد وقهمى هويدى ومنى مكرم عبید وضياء الدين داود وعبد العظيم رمضان. كما نجد فيها موضوع الصراع مع الغرب، م. ن، ص ١٤.

(٥٧) م ن، ص ٧٤. راجع أيضاً ص ٧٧.

(٥٨) م ن، ص ١٤ و١٥.

(٥٩) بخصوص إعجابه بالمستشرقين وأتباعه العرب، راجع مذكرات طه حسين، م. س، ص ٥٧ و٦٣ و١٩٣ و١٩٤ (حول بوركايم، المشرف على أطروحته)، وكذلك ص ٢٥٢ (تعليم بوركايم للسان سيمونية طيلة سنة كاملة وتأثير هذا التعليم على التلميذ طه حسين). يجدر ذكر أن الثورة البلشفية لم تحظ سوى باهتمام عابر (لكن ليس أعمال ماركس وإنجلز) حينما يكتب في الصفحة ٢٥١ "خلال تلك الحرب حصلت ثورة لا مثيل لها في التاريخ منذ الثورتين الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر". راجع أيضاً "الأيام"، القاهرة، دار المعارف، ١٩٣٩، ص ١٧٥ و١٧٦ حيث يحيلنا إلى تأثير ترجمات فتحى زغلول وسباعى وكتابات كل من جرجى زيدان ويعقوب صروف والشيخ رشيد رضا، إضافة إلى كتابات قاسم أمين.

(٦٠) مستقبل الثقافة، م س، ص ٢٢.

(٦١) مستقبل الثقافة، م س، ص ١٠ و٥١. وبخصوص نقد الاستعمار، راجع أيضاً "مرآة الإسلام"، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ٣٠٤ - ٣٠٧.

(٦٢) م ن، ص ٨٢ و٨٣. راجع أيضاً ص ٨٧.

(٦٣) م ن، ص ٤٨٣ و٤٨٤.

(٦٤) راجع أيضاً ص ٤٨٨ و ٤٨٩ حيث يقول المؤلف إن العقل المصرى نقطة تتلاقى عندها مختلف الثقافات الأوروبية فضلاً عن المصرية؛ وعرف هذا العقل كيف يستوعب الثقافات وهو بمثابة عقل شمولي لعله يستطيع لعب دور الوسيط. ويقول بالتالى: "لكل شر أثر حسن، والشر أن حاجتنا إلى الأوروبيين لا تزال شديدة فى التعليم، والأثر الحسن لهذا الشر أننا نستطيع أن نكون رسل العلم والثقافة والأمن والسلم والتوفيق بين الشرق والغرب جميعاً".

(٦٥) م ن، ص ٤٨٤ .

(٦٦) فيما كان الطهطاوى يبدى التحفظات إزاء الغرب، كان طه حسين مُنكباً على صياغة نقده للشرق ولبنى قومه. وكان بالتالى يُذكرُ بآثاره الذى دفع به تحديه للشعور الدينى التقليدى لبلوغ ذرى جديدة فالقى بكل بساطة الخلافة.

Philip K. Hitti, The Impact of the West on Syria and Lebanon in the (٦٧) Nineteenth Century, dans Cahiers d'Histoire Mondiale, Paris, Librairie des Meridiens, 1995, vol. II, no 3, p.608.

(٦٨) م ن، ص ٦٣٢ .

Charles Malik, The Near East: The Search for Truth, dans Foreign (٦٩) Affairs, vol. 30, no2, janvier 1952, p. 231, 247 et 264. La même définition de son Proche-Orient est donnée dans Charles Malik, Asia and Africa Ask Searching Questions, The Congregational Quarterly, vol. 33, no 1, janvier 1955, p.38.

Charles Malik, The Near East: The Search for Truth. op. cit., p. 231. (٧٠)

(٧١) راجع م ن، ص ٢٢٥، حيث الأمر يتعلق بالعالم الغربى والشرق .

(٧٢) علماً بأننا نجد صعوبة فى إيجاد كلمة فلسطين ومن باب أولى إقامة رابط بين العدوان على فلسطين والغرب.

(٧٣) م ن، ص ٢٣٧ .

(٧٤) م ن، ص ٢٣٩ .

(٧٥) عديدة هي الفرص التي يذكر فيها السياسيون اللبنانيون بصورة لبنان هذه همزة الوصل بين الشرق والغرب. وهكذا، قال ميشال سماحة، وزير الإعلام اللبناني الأسبق، في إطار ندوة نُظِّمَتْ في باريس حول إعادة إعمار وسط بيروت، إن لبنان مثل على الدوام أرض تلاقى وملجأ للحريات وهمزة وصل بين الشرق والغرب، (الحياة ، المكتب الرئيسي، لندن، طبعة نيويورك بتاريخ ٦ شباط/فبراير ١٩٩٣، ص ٢).

(٧٦) لقد كُتِبَ الكثير حول وجهى لبنان، راجع مثلاً: محمد جميل بيهم، لبنان بين مشرق ومغرب ١٩٢٠ - ١٩٦٩، [لا م، لا ت]، [لا ن] .

(٧٧) لا يسعنا هنا إلا أن نذكر المثل الشهير لفؤاد عجمي الذي جاء بعد أربعين عاماً ليحل محل مالك كأحد الاختصاصيين في الشؤون اللبنانية والعربية بالولايات المتحدة. لقد أظهر عجمي، المسلم اللبناني بالولادة (في حين أن طارق عزيز مسيحي بالولادة) مقداراً كبيراً من الكره للجماهير العربية وواجهها بقدر بالغ من الاحتقار على أثير محطة سى بى إس (CBS) أثناء حرب الخليج بحيث طرح التساؤل حول ما إذا كان ممكناً لعينة أفصح من هذه أن تُوجد. على كل حال إن هذه العينة وغيرها أيضاً تقدم الدليل، على مر السنين، على فظاظة مقالات مالك.

(٧٨) ويشهد على ذلك ظهور ولي العهد المتكرر في برنامج "نايتلاين" التلفزيوني أو برنامج "هذا الأسبوع" الذي حاوره فيه دافيد برينكلي، وهما برنامجان تبثهما شبكة إى بى سى نيوز.

(٧٩) عبد الله بن الحسين، الكلمة ، عمان [لا ن] ، ١٩٥١ .

(٨٠) نص هذا الخطاب موجود في ملحق كتاب الحسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية، مهنتي كملك ، أحاديث ملكية نشرها بالفرنسية فريدون صاحب جم، ترجمة د. غازي عزيل، لام، مؤسسة المصرى للتوزيع، ص ٢٤٦ .

(٨١) م ن، ص ١٤٨ .

(٨٢) م ن، ص ٨٤ .

(٨٣) م ن، ص ص ٧٧-٧٩، أحداث مروية بكثير من الانفعال.

(٨٤) م ن، ص ٩٥ .

(٨٥) م ن، ص ٣٦ .

(٨٦) لقد أتيت لي معاينة ذلك في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير ١٩٩٢ بصفتي منظمًا وعضوًا في وفد يمثل المجلس الكندي للتعاون الدولي الذي كان قد استقبله ولي العهد الأمير حسن، وشقيقته الأميرة بسمه، والملكة نور (وهي نفسها أميركية خلاسية: عربية وأوروبية). كنا قد استقبلنا استقبلاً حاراً وفي أحيان عدة تم تذكيرنا بعلاقات الصداقة والشعور ببن التضامن والتعاون مع الأردن لم يكونا على مستوى الصداقة التي تربط زعيمه بالغرب.

(٨٧) أنور السادات، البحث عن الذات: قصة حياتي ، القاهرة، المكتب المصري الحديث [لا ت] ، ص ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٨٨) لقد تبين أن حياة هذا العمل طويلة نوعاً ما، الأمر الذي سمح لنا بأن نرى مرة أخرى كيف أن وجه الملك عاد ليشع فرحاً وعرفاناً. فمرتان، خلال يومين، وبإحالة واضحة إلى حرب الخليج شدد الملك على امتنانه للتفهم والمساعدة التي تلقاها من أصدقائه الكنديين في اللحظات العصيبة ، حين كانت مواقف الأردن قد أسىء تفسيرها ومقاصدها ولم تؤخذ على محمل حسن. المرة الأولى كانت أثناء حفل عشاء أقامه حاكم كندا العام في السادس من نيسان/أبريل ١٩٩٥، والثانية بحضور الوزير الكندي للشئون الخارجية، بمناسبة طاولة مستديرة حول موضوع الشرق الأوسط الجديد. اقتباس من ملاحظاتي الشخصية.

(٨٩) أوردت الإشاعة أن صدام رمى من وراء مخططاته إلى تولية الملك حسين ثانياً ملكاً على الحجاز. وأخذت الإشاعة مدى اضطرب الملك معه أن ينفيها علانية. أما بالنسبة للموالين لصدام فإن هذه الإشاعة مصدرها أميركي وترمي لإشاعة الخوف عند الملك فهد وحاشيته.

(٩٠) أنور السادات، البحث عن الذات: قصة حياتي ، م.س، راجع ص ١٠٣ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٩٣ ، ٤٠٤ .

(٩١) في الحالة الأولى، راجع م.ن، ص ١٠٣ و ٢٩٤ و ٣٣٤؛ في الثانية، راجع م.ن، ص ٤٤٧ و ٤٤٨؛ في الثالثة، راجع م.ن، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ و ٤٣٠ .

(٩٢) أنور السادات، قصة الوحدة العربية ، القاهرة [لا ن] ، ١٩٥٧ ، ص ٢١١ .

(٩٣) م.ن، ص ٢١٨ .

(٩٤) الصفحة الأولى لغلاف كتاب مذكراته تظهره وهو يدخن غليونته. فهل المسألة تتعلق برمز أم هي محض صدفة؟ إلا أن إعجابه بأتاتورك لم يكن سرّاً كما تشهد عليه هذه الاستشهادات الثلاثة:

ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت في بيتنا صورة كمال أتاتورك وسألت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم: ولكن من بين هذه الإهavasات التي كانت في الحقيقة مجموعة انفعالات وتفاعلات مع الأحداث - بقى لى شيء واحد هو حبى لكمال أتاتورك. في الكلية الحربية كان أتاتورك ما زال مثلى الأعلى....

(من كتاب البحث عن الذات: قصة حياتى ، ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨). الجدير بالملاحظة هو التناقض بين إعجابه بأتاتورك العلمانى والعلاقات الوثيقة التي نسجها مع الإخوان المسلمين.

(٩٥) مصطفى الزين، أتاتورك وخلفاؤه ، بيروت، دار الكلمة للنشر، ١٩٨٢ . راجع الصفحتين ٢١٠ و ٢١١ اللتين تشهدان على المبالغة في المديح الذى بلغ ذروته في الصفحة ٢٥٥ حينما يؤكد ما يلى: "أتاتورك كان دائماً على حق". يرى الزين أن الأمور واضحة ولا أوضح: السؤال الكبير الذى طرحه أتاتورك والذى طرحه فيما بعد على شعبه هو الآتى: كيف يمكن لتركيا أن تتقبل الغرب كاحتلال وترفضه كحضارة!...." (ص ٢٧٧).

ولكن سبق أتاتورك الجنونى باتجاه حضارة الغرب لم يفلح فى خلق الإجماع لدى شعبه ولا عند العرب.

(٩٦) بعكس كتاب الزين، فإن كتاب مصطفى حلمى، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، الإسكندرية، دار الدعوة، ١٩٨٥ ، كتاب يمثل تمثيلاً ممتازاً رفض الغرب وأتاتورك فى أن. الكتاب معروض على أنه دراسة لكتاب آخر الأعيان الدينين للخلافة العثمانية، شيخ الإسلام مصطفى صبرى. كتب المؤلف فى الصفحة ٤٩ يقول إن "أتاتورك كان يهودى الأصل ومتورطاً فى مؤامرة صهيونية هدفها إقامة كيان صهيونى فى فلسطين. ويفيدنا أيضاً أن السلطان عبد الحميد أطبع به معاقبة له على رفضه بيع فلسطين للصهاينة (يحيلنا الكاتب هنا إلى مذكرات السلطان: مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد، القاهرة، دار الانتصار، ١٩٧٨). يؤكد الزين، التصير المتحمس، هو أيضاً أن حركة الاتحاد والترقى كانت ممسوكة من الماسونيين

والحركة الصهيونية. لكنه يزيد مدققاً أن أتاتورك ما لبث أن انسحب من هذه الحركة بعد أن اكتشف هذه الحقيقة. وبالعكس، يؤكد حلمي أن الكماليين مثلهم مثل الاتحاديين كانوا ماسونيين وأعضاء في محفل الشرق (ص ٤٦)؛ حتى أنه يفسر انتصار أتاتورك على الإنجليز بهذا الانتماء. هكذا، فقد سمح الإنجليز بهذا الانتصار لأنه كان في صالحهم، ولأن كان في استطاعتهم سحق القوات الكمالية (ص ٤٧). والخلاصة، لم يكن أتاتورك "سوى خائن للوطن وللأمة، وعميل مخلص للمخططات الشيطانية التي استهدفت وحدة الأمة الإسلامية لفتح الطريق أمام الاستعمار الغربي وأمام الدعوات الصليبية والغزو الصهيوني" (ص ٩). ويؤكد على حسون، في تاريخ الدولة العثمانية، دمشق وبيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢، بدوره أيضاً، وأطروحة المؤامرة الماسونية، التي كان مركزها حركة الاتحاد والترقي (ص ٨٨ و٨٩)، وأطروحة الدعم السري الذي وفّره الإنجليز لمصطفى كمال (ص ٢٦٢ و٢٦٦). يعرض المؤلف قراءة للتاريخ العثماني من وجهة نظر إسلامية. نعث فيها مثلاً على تفسير الإسلاميين للأحداث وللشخصيات مثل الحملة على مصر، اتفاقية سايكس - بيكو، الثورة العربية، لورانس العرب، فيصل وعلاقته بالغرب، انتصارات أتاتورك، إلخ.

(٩٧) حسب وكالة الأنباء الفرنسية، تركيا. اعتداء بالقنابل: ل'إپرس' La Presse، مونتريال، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤، ص ٧. في العام ١٩٩٧، يعطى حل حزب الرفاه وإبعاد زعيمه أربكان مثلاً جلياً عن هذا التمزق.

(٩٨) لا بد من القول أيضاً أن وقع نضال أتاتورك المثير ضد احتلال الغرب واستعمارهم قد فقد حيويته مع مرور الزمن. في زمن ما بعد حرب الخليج، نحن أبعد ما نكون عن الحرب العالمية الأولى. فالיום، نستطيع تحليل إسهام أتاتورك بمنأى عن بريق انتصاراته العسكرية الذي فرض الاحترام على العرب، الذين كانوا كذلك فريسة للاحتلال (راجع في هذا الصدد، المديح المتضمن في استهلال المترجمين العربيين جميل رمزي القبطان، مصطفى كمال، بقلم سثكي، بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٣٤؛ ورفعت الدجاني، الغازي مصطفى كمال، بقلم برهان جاهد، يافا، مطبعة الكمال، ١٩٣٥).

الفصل الرابع

الغرب المرفوض

لسنا مُعَقِّدِينَ من الغرب، حتى وإن
كُنَّا لا نشاطره الرؤية ذاتها إلى العالم،
بيد أن لدينا عقدة إزاء إدارات غربية معينة
ترمى إلى مصادرة حرية شعوب العالم
الثالث فضلاً عن ثرواتهم.

آية الله السيد محمد حسين فضل الله

إن رفض الغرب يتبدى على السواء لدى مناضل إسلامي أم بعثي
عراقي أو عوني لبناني، أكان مسيحياً، مسلماً، ملحداً أم خلافة. وفي
الوقت نفسه، ثمة من يحمل خطاباً يمثل الإسلام المناضل، مثل السيد
فضل الله، الذي يؤكد على تنويع نقده للغرب المستكبر والمعتدى فيقول:
"الواقع أننا نحترم تطور العلوم والنشاطية الفكرية التي تميّز الغرب"^(١).

والبعثى العراقى، الذى يوافق أيضاً، وبالقدر نفسه على إدانة الغرب، هذا "المهيمن الذى سلخ الشعب العربى عن ثرواته الطبيعية بإقامة كيانات محمية مثل الكويت"، لن يفتأ يثنى على التظاهرات المناهضة للحرب التى أفلقت شوارع العواصم الغربية والتى عرضتها مراراً وتكراراً التلفزة الرسمية. وكذلك هو حال النصير العونى الذى يعبر عن عدائه للولايات المتحدة بسبب ما يبدو أنه ضوء أخضر معطى منها للسوريين القادريين على وضع حد لتمررد الجنرال عون، فى حين يجد الأعداء لفرنسا المخلصة، لكنما التى تفتقر إلى الإمكانات المتوافقة مع سياستها (٢).

من الواضح أن صورة الغرب المتراص الذى يمكن رفضه كتلة واحدة لا يطابق الواقع. إلا أننا نجد، حتى فى خطاب أولئك الذين يأخذون بالتنوع والتمييز، مفهوماً عن الغرب، بوصفه كياناً كلى الحضور، ليسوا بحاجة إلى تعريفه وتبينه. وهكذا، فكلما جرى عرضها على هذا النحو، فإن الرسالة المتعلقة بالغرب لا بد لها إلا أن تكون شمولية، تعميمية واختزالية. وبالتالي فإن مفهوم الغرب التعميمى من شأنه أن يحجب العرفان بالجميل إزاء أولئك الذين تظاهروا فى واشنطن وفى باريس أو فى مونتريال تعبيراً عن رفضهم لحرب ١٩٩١ .

الرفض موجودٌ إذن لا محالة. لكن غنى الفروق الدقيقة وإسهامها المفيد فى العلاقات البيثقافية تغيب عن نظرنا، لكثرة ما نقع فى دوامة المساواة والتوحيد فى النظر إلى الأمور. من الضروري أن نكشف هذا

الفخ الذى يشدنا إليه رد فعل قوى تغذية ظواهر وعوامل تاريخية وجبال من الكتابات. إن هذه المادة، وقد رأيناها فى الفصل الأول، تحاول تغذية صورة نقيضين، أى صورة الغرب و الشرق ، يتجاوبان منذ فجر التاريخ، وإبقائها ماثلة فى الأذهان.

لكن هدفنا هنا ليس وضع جدول بأولئك الذين رفضوا غرباً مُعيّناً فى لحظة معينة من التاريخ؛ بل إنه يقوم على التقاط ظاهرة الرفض نفسها وإبراز ما تتضمنه من فروق دقيقة. كما أننا سنعاين على التوالى أشكال الرفض التى تنتسب إلى الإسلامية ثم تلك المنبثقة عن التيار العلمانى، وأخيراً، سنعاين تلك الأشكال من الرفض التى لا يمكن تصنيفها مع ما سبق ذكره.

الرفض الإسلامى : السُّنَّة المصرية

محمد عبده وحسن البنا وسيد قطب، كلهم مسلمون سُنَّة ومعاصرون. إنهم وجوه طليعية من المجتمع المصرى أخذت مواقف حول قضية "النموذج الغربى" فى السياق المسلم. يعطى الأول صورة الرفض المساوم والمعتدل، الذى يبقى انتقائياً للغاية ، لكننا فخور بإسلامه وغيور على مصالحه. أما الاثنان الآخران، فأولهما بصفته مؤسساً ، والآخر، بصفته المنظر العقائدى لجماعة الإخوان المسلمين، فيمثلان من جهتهما النضال ضد "الغربة" (أو التغريب) وضد النظم الحاكمة المحلية

الراضخة والمتواطئة. وهما يمثلان قدوة لكل من يريد إعادة بسط نظام إسلامي.

إنهما موقفان رئيسيان يخترقان العالم العربي والمسلم فيما يتعدى تماماً السياق المصري. كل حكم له أعوانه، من مفتين وغيرهم، الذين لا يتوانون عن الاستنجاد بسلطة عبده (بعد وفاته) عندما يتعلق الأمر بإجراء تسويات لصالح سياسات السلطة. أما الإخوان المسلمون، فهم معروفون على نطاق واسع بأنهم أثروا وقادوا أحياناً حركات جهادية واحتجاجية، في سائر الأنحاء العربية سواء في مغربها أو مشرقها^(٣). إن كون التيارين قد وجدا من يمثلهما في أشخاص ينتمون إلى الطائفة السنية المصرية نفسها ليس من شأنه إلا أن يفاقم الشرخ القائم فيما بينهم ويبرزه، الأمر الذي يجعل سائر الملل الصغرى المحلية العربية غير قادرة الوقوف حيادية.

محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)

كان من شأن روح التسامح العالية التي يتمتع بها أن تجعل من رفضه شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن رفض كبار علماء الدين ، الذين سنتولاهم بالبحث لاحقاً. إن أقرب معاونيه، رشيد رضا (١٩٠٥) يقدمه كمطلق للحركة الإصلاحية المسلمة^(٤). لقد سار عبده في طريق متنوعة، تخلفتها مواقف ثورية اتخذها في الشؤون الدينية والسياسية

إلى جانب توليه منصب عام بصفته مفتى الديار المصرية اعتباراً من العام ١٨٩٩^(٥). كان في البدء ميالاً للصوفية، ثم ما لبث أن كَرَّسَ نفسه للنضال ضد التعليم الإسلامي التقليدي الذي يقوم على استعادة النصوص الكلاسيكية وحفظ القرآن عن ظهر قلب ، فضلاً عن قسم كبير من الحديث. لقد نادى عبده بدراسة نقدية لهذه النصوص، تفسح الطريق أمام الاجتهاد. فأولى اهتمامه إذن بمؤلفات مثل مقامات الحريري من القرن الثالث عشر المشهورة بنقدها المنفتح والتي لم تكن المرجعيات التقليدية السائدة تنظر إليها بعين الرضا في ذلك العصر. فهو يعلى من شأن العقل ويعترف به دليلاً صالحاً لكل نقد يتناول النصوص، وقد استمد من ذلك بلا شك صفته الإصلاحية^(٦). وعزز هذه الصورة باشتراكه مع ذائع الصيت، جمال الدين الأفغاني، رافض من الطراز الأول، جال على جميع أنحاء العالم العربي - الإسلامي (إنما أيضاً على باريس، ولندن) يحذوه هدف التشجيع على إحداث تغيير جذري في أنماط الحكم القائمة في أرض الإسلام. وليس ثمة من شك على الإطلاق في اعتدال موقف عبده إذ إنه تميَّز عن موقف الأفغاني الثوري الذي كان يدعو لفرض نظام جديد بالقوة؛ أما عبده فرفض طريق العنف وأمن بالإصلاح التدريجي. واعتبر غير ملائم كل تغيير عنيف لا ينبع بصدق من شعب بلغ النضج السياسي الضروري. لقد استهدف كفاحه تغيير العقليات من خلال إصلاح التربية عموماً والتربية الدينية خصوصاً. وفضَّلَ تربية تغرف من علوم "الغرب" بأسلوب نقدي وذكي ، من دون أن يعنى ذلك إهمال تربية دينية مسلمة.

كان المفتى عبده يرى إمكانية للتوفيق بين النَمَطَيْنِ التربويين من دون مشاكل ذى بال، لأنه رأى فى الموجة الإصلاحية المسيحية تفسير التقدم "الغربى" فى ميدان العلوم إضافة إلى شكل من أشكال العودة غير المعلنة إلى مبادئ العقلانية والحرية فى الإسلام (الحرية، على الخصوص، فى مواجهة المؤسسات الدينية كالكنيسة) ^(٧). وأخيراً، كلفته شبهة تورطه مع المناهضين للإمبريالية إجراء بالنفى ضده دام ثلاث سنوات وثلاثة شهور ، قاده إلى باريس وتونس فبيروت. وسيعود إلى مصر لإتمام مسيرته كمفتى الديار المصرية وكانت فتاواه الشهيرة دائماً مثار جدل.

وفى كتاب الإسلام ، يقر عبده ويعترف بشعور الغربيين بالفخر إزاء حضارتهم. ومن جهة أخرى، يجدر التذكير أنه رأى تطابقاً لافتاً بين مُثُل الإصلاح البروتستانتى التى ينسب إليها القفزة النوعية صوب "مواكبة العصر" والتطور، ومُثُل الإسلام ^(٨). وذلك باعتبار أن غرب مواكبة العصر قد تربى على يد هذا الأخير. لقد رفض عبده غرب التعصب إزاء الديانات الأخرى وغرب التمامية الدينية. كما أنه رفض استعمار وإرادته فى التحكم بالتربية الوطنية فى الأقطار العربية ، على نحو يفضى إلى تهميش اللغة العربية والإسلام فى أوساط الجيل الجديد من دون أن يؤدى ذلك بالضرورة إلى توفير تعليم فعّال للعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أو الحقوق. إنه لا يخفى إعجابه بمنجزات "العالم الغربى" التكنولوجية ويريد، بالعكس، ملازمة أفضل للاكتشافات الحديثة

مع الواقع الإسلامى. إلا أنه ينتقد تبني نموذج المدرسة الغربية وقدرته الجاذبة المطلقة على المجتمع. ويوصى بتربية مسلمة تتماشى مع النموذج الغربى التكنولوجى من نون أن يعهدوا بالشباب المسلم للتوجيه المسيحى السائد فى المدارس غير المسلمة المغربة أو الغربية.

فمن خلال كتاب رسالة التوحيد إضافة إلى كتاب الإسلام: دين العلم والحضارة ، دعا إلى قيام تعاون بين الدين والعلم اللذين يرتبط كلاهما بالعقل. وهو يرفض خضوع الثانى للأول، مثلاً كان عليه الحال فى القرون الوسطى. كما ويرفض فصلهما الشديد الفظاظة، الأمر الذى يُوَقِّعُنا بالحدائث الغربية. إنه يرى فيهما عنصريين متكاملين وليس متعارضين^(٩).

فيما عدا ذلك فإن القيم المسلمة التى ينادى بها هى قيم متسامحة للغاية ومنفتحة على "النموذج الغربى". سنذكر اثنتين من أشهر فتاواه التى ترمز إلى رغبته فى التوفيق بين الواقعيين: الأولى، توافق الإسلام مع مفهوم الإقراض بالفائدة؛ أما الثانية فـ "تسمح للمسلمين بأكل الذبائح على يد يهود أو مسيحيين"^(١٠). مما لا شك فيه أن نتائج هاتين الفتويين عميقة الأثر ، إذ إن الشيخ قد فسّر، بموقفه هذا، تفسيراً متساهلاً جداً محظورين فى الإسلام مُثَبِّتِينَ بوضوح فى السُّنة. الفتوى الأولى ترمى إلى مصالحة المجتمع المسلم مع "النموذج الغربى" الاقتصادى والمالى، الذى يشكل النظام المصرفى أحد ركائزه متمحوراً حول مفهوم الفائدة. أما فتواه الثانية، فقد رمى المفتى من خلالها إلى

إحداث اندماج اجتماعي أكبر بين المواطنين من أتباع الديانات التوحيدية الثلاث، وإلى تسهيل حياة المسلمين اليومية العابرين منهم أو المقيمين في الخارج.

يتضح من خلال هاتين الفتويين أن الرفض هنا قد جُعلَ نسبياً بفعل الإعجاب ببعض وجوه "النموذج الغربي"، الأمر الذي قاد محمد عبده أحياناً، بحسب نُقَّاده، إلى اتخاذ مواقف متعارضة مع القيم المسلمة التقليدية التي كان يرغب في حمايتها من جهة أخرى. على ما يبدو، فقد انحاز لمواءمة معتدلة متدرجة وانتقائية لا بد أن تمر عبر القنوات الشرعية المتمثلة بالمفتى. إن هذا الأخير لعلّ استعداد لإعطاء تفسيرات متساهلة للسنة هي في صالح المقتضيات الحديثة للعالم المعاصر المشبع بـ "النموذج الغربي".

على أصعدة أخرى، يتخذ الشيخ عبده، مواقف تتمتع بالقدر ذاته من الصلة الوثيقة بالموضوع. الموقف الأول، المرتكز إلى قبسات من القرآن الكريم^(١١)، يكمن في رؤيته إلى توسع إسلامي قائم إلى وسائل سلمية مثل إقامة الحجة. إن معنى الجهاد هنا هو معنى دفاعي^(١٢). الرسالة هنا مختلفة عن رسالة أمة لا تعترف بالحدود الدولية، وورث واجب التوسع حتى تشمل البشرية جمعاء. الموقف الثاني يتعلق بنمط الحكم وبحق الشعب في أن يتمرد. في هذا الصدد، تتمايز أفكار محمد عبده تمايزاً أساسياً عن حرفة القرآن. ففي كتاب الإسلام، يبدأ بالموافقة على المبدأ الإسلامي الذي يقول

"بعدم جواز الخضوع لمخلوق إلهى [الإنسان] إذا كان فى ذلك تناقض مع شريعة الخالق" ^(١٣)، وهو مبدأ يعطى بوضوح شرعية لكل تمرد على سلطة لا تحترم السُّنة أو أقله القرآن. إلا أن محمد عبده يضيف شرطاً ضرورياً لقيادة مثل هذا التمرد الشرعى: عليه أن يوصل إلى تحسن حقيقى. قد يفسر هذا الموقف بكل بساطة موقفاً مهادئاً للأمر الواقع، الأمر الذى يقرُّ به رشيد رضا صراحة. بالفعل، فإن هذا الأخير يروى قصة لقاء بين الشيخ وعرابى باشا ، حيث دافع هذا الثورى الشهير عن مشروعه القاضى بإرساء حكم دستورى وحكومة برلمانية: فيرد محمد عبده بأن هذا المشروع متناغم مع الإسلام، إنما الشعب لما ينضج بعد لحكومة برلمانية. فى الواقع إن ذلك لتعبير واضح عن موقف محمد عبده الذى يفضل، برغم إقراره بتوافق الإسلام مع الحكومة البرلمانية، التعاون مع الحكم القائم مراعاة "للمصلحة الوطنية" حتى وإن كان الحكم لا يطبق سنة الله ورسوله ^(١٤). وقد أثبت ذلك بقبوله منصب المفتى عقب عودته من المنفى الذى كان ثمناً دفعه لتعاونيه المزعوم مع عرابى باشا. إن هذا الموقف يُشكّل، فى واقع الحال، دعماً لأنظمة الحكم التى تقوم بينها وبين الغرب مصالح مشتركة (مثل حكم خديوات مصر فى زمن محمد عبده). من جهة ثانية فقد استفادت منه، نظراً لاعتداله ومناهضته للكفاحية، التيارات المتعطشة "للتغريب"، وهو "تغريب" غالباً ما جرى إفراغه بصورة ظاهرة من مفهوم الديمقراطية.

هكذا فإن المفتى قد نجح فى استعداد جميع الراضين المحليين الذين عارضوا ، وما زالوا يعارضون ، أنظمة الحكم المعنية أو وراثتها .
أليس هو فى الواقع صاحب نزعة حذرة فى رفع الغرب إلى مرتبة المثال؟
أياً كان ما يقوله مناهضوه أو أنصاره، فإن الوقائع تدل على أنه يستسيغ بعض أوجه الغرب كما عرفه، ويرفض أوجهاً أخرى، حتى وإن كان إرثه قد استردّ وبات يُسهّل مُهمّة "المُغربيين" أو "محبى الغرب" فى العالم العربى المعاصر (١٥).

حسن البنا وسيد قطب

كلاهما ولِدَ فى العام ١٩٠٦ . إذ تخرجا فى دار العلوم نفسها، فقد اختلف مسارهما فى البداية ليعودا فيلتقيان فى معترك الصحوة الإسلامية التى ترمى إلى قلب النظام القائم فى مصر وإحلال نظام إسلامى صرف محله، بما يشكل قدوة للعالم الإسلامى. باشر البنا الكفاح بالانكباب على العمل التنظيمى قبل أن يولى اهتمامه عن كثب بالبعد النظرى. أما قطب فسلك الطريق المعاكس. كلاهما يعارض السلطات المصرية القائمة: حسب الرأى الشائع، اغتيل البنا فى عام ١٩٤٩، عن عمر ٤٢ عاماً من قبل عملاء للحكومة المصرية؛ بُعيد ١٧ عاماً، أُعدم قطب، فى عام ١٩٦٦، عقب فترة أحد عشر عاماً سجن فيها مرات عديدة.

إذ أسس جمعية الإخوان المسلمين، كان البنأ مخطط الأخوية ومديرها ومربيها بامتياز. يبدو أن قطب قد تأثر بنبأ وفاته. إن ردة الفعل المحترقة التي أثارها هذا النبأ فى وسط الممرضات والأطباء الأميركيين الذين كانوا يعالجونه أثناء إقامة له فى كولورادو ابتعثت عنده الإعجاب بالإخوان المسلمين ، وقادته إلى مشاركة ملتزمة ^(١٦). وفور عودته من هذه الإقامة التى دامت سنتين، انضم إلى صفوف الأخوية فى العام ١٩٥١ وتبوأ فيها مناصب مختلفة حتى وفاته. لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى اهتماماته النظرية ومتابعة الكتابة فصارت كتبه مراجع كلاسيكية.

كلاهما مثلاً إذن التيار المؤمن بإسلام مقاوم لهيمنة الغرب. الإسلام بنظر البنأ وقطب يغطى سائر جوانب الحياة ويصلح لكل زمان ولكل مكان. إن تطبيق شرع الله على الأرض لا يمكن إلا أن يأتى بمجتمع أكثر إنسانية ومساواة. ستكون الأمة موحدة وعالمية، تخضع لإله واحد ولعقيدة واحدة كما فرض القرآن بشكل واضح. وأتباع الديانتين التوحيديتين الآخرين لهم مكانهم فى قلب الأمة وهم مكرمون فيها، شريطة دفع الجزية. ففى هذا المشروع الحصرى للأمة، نُظر إلى الغرب، الذى عرفه البنأ وقطب، على أنه عقبة. وكان رفضهم له أكثر حدة من ذلك الذى تميّز به محمد عبده، الذى لم يعد يُعتَبَر رفضه رفضاً، إذا ما أجرينا المقارنة.

إن رفضهم أكثر شمولاً لأنهما، فضلاً عن إدانتهم لإمبريالية الغرب واستعمارهم مختلف أشكالهما (العسكرية، المالية والثقافية)،

يعتبران الغرب وحضارته منحطين. الإسلام وحده يستطيع إنقاذ المجتمع البشرى من الانحطاط^(١٧). وعلى عاتق دين المستقبل تقع مهمة تخليص العالم من الفصل، الموحى به من الغرب، بين الدين والنولة، هذا الفصل الذى قاد إلى مادية مفسدة للبشرية جمعاء ولصلحة زمر مصرفية واحتكارية، وجلب المتاعب الاجتماعية والأخلاقية والنفسية التى تُمَيِّزُ المجتمعات الغربية. وفى خطابهما، فإن التأويل المادى للتاريخ، والشيوعية والماركسية قد فُصلُوا عن الغرب ورُبُّوا بالكتلة الشرقية. فهذه أيضاً قد أدينَت، مع أن معظم الانتقادات وجَّهت إلى الغرب.

إن البنا يرفض رفضاً قاطعاً النموذج الغربى وقيمه وينتقد على الخصوص سياسات إنجلترا وفرنسا وإيطاليا. وهو يطمح إلى إحلال حكومة إسلامية محل هذا النموذج باعتبارها لا مفر منها. إن على السلطة القائمة تقديم الحساب وتحملُ مسئوليتها أمام الله فى تطبيق شريعته ، وأمام الأمة التى يجب أن تكون يقظة وموحدة ومستعدة للتدخل فى حالة العكس. ومن ناحية أخرى، لئن كان البنا قد وافق على الحكومة البرلمانية الدستورية، إلا أنه لا يفهم سبب وجود أحزاب سياسية عدة، إذ إن ثمة برنامجاً واحداً ممكناً هو الإسلام، وفى شأن الانتخابات فإن قبول الترشيحات مقتصر على علماء الإسلام الذين لا شبهة حول نزاهتهم. يرفض الاقتداء بالنموذج الغربى طالما أن للإسلام دستوراً هو القرآن، فضلاً عن قانون هو الشريعة. فيما يختص بانتشار الإسلام، فهو بالتأكيد مدافع عن سياسة هجومية من شأنها أن ترمى

إلى إرساء نظام جديد وصحى على الصعيد العالمى. يُشكّل الغرب عقبة أمام هذا النظام الجديد، بما فيه الملابس، فيرفضه البنّا برمته، ناهيك عن المراقص أو الإباحية. غير أنه يلحظ إمكانية قيام هدنة مع الغرب. ففى حقل التربية، يدعو البنّا إلى مقارنة تستوحى الإسلام فى بعده الأخلاقى، لكنما تغطى سائر الميادين الأخرى التى قد تكون مفيدة، مثل العلوم والرياضيات والجغرافيا، إلخ. لا يعارض أى نوع من المعرفة المفيدة والإيجابية أياً يكن منشأها.

إن ما تقدم لا يغطى بالطبع جميع مواقف البنّا المتعلقة بالغرب، إنما يمثل رؤيته إلى المستقبل ويؤشر على المكانة التى يرغب فى إعلانها إلى الإسلام (ضد الغرب والتغريب) فى تنظيم الحياة اليومية والسياسية والروحية.

من جهته، تبنى سيد قطب مباشرة أو بطريقة غير مباشرة مواقف حسن البنّا نفسها مضيئاً بعداً نقدياً إليها. ينتقد قطب محمد عبده على مبالغته فى إيلاء القيمة للعقل والعقلانية على حساب الإلهام. لقد اتهمه بحصر اهتمامه بالرد على المتطلبات الناجمة عن أطروحات الغرب (خصائص التصور ...). ورفض كل تجزئة للفكر الإسلامى، وغرضه من ذلك حماية الإسلام من التحويلات غربية المصدر. الإسلام وحدة، كل، له نمونجه الخاص فى الاشتغال، وأسلوبه ونبرته، ولا يمكن فصلهم عن الكل دون أن يفقدوا معناهم. ويرفض الحديث عن مسألة نمط الحكم، لأن الهدف الوحيد الذى يتوجب متابعته هو أن نعيش خاضعين لله ولقوانينه

التي طاولت جميع جوانب الحياة. ويذكرُ بضرورة العيش كمسلم وبإقامة المجتمع الإسلامي ههنا على الأرض، لأنه من خارج مثل هذا المجتمع لا معنى للإسلام على الإطلاق. إضافة إلى الاستجابة لهذا الواجب، على المسلم أن يحث الآخرين على أن يحنوا حنوه، وهذا ما يعيدنا صراحة إلى أفكار البنأ عن انتشار الإسلام. حتى يتم تطبيق هذه المثل تطبيقاً جيداً يعتمد قطب على الخلية الأسرية، ولا سيما على الأم للعب دور أساسى فى تحديث الإسلام وازدهاره، فمن شأن ما يسميه "المجتمع المصغر" أن يلعب دور الطبيب أو ولى الأمر المقترض أن يلعبه "المجتمع الأكبر"، ولكنه فى حالة ضياع. أمله أن يرى قيام جماعة إسلامية نموذجية، مهما كانت صغيرة، فى مكان ما فى العالم، بيد أنه يرى أن الغرب والصهيونية لن يسمحا قط به لخشيتهما انعكاسات مثل هذه التجربة (١٨).

من ناحية أخرى، ينتقد قطب الميثولوجيا اليونانية والتقليد اليهودى الذى يحمل على الاعتقاد أن الإنسان فى تنافس مع الله وفى وسعه أن يتعادل معه. هذه الفكرة التى تبنأها الغرب إنما تنزع من الإنسان تواضعه وتغذئ طموحه. غير أنه يقرُّ بأن عقيدة الإخوان المسلمين لا تستطيع فى المدى المباشر أن توفر مآثر علمية ولا اختراقات تكنولوجية أرقى مما يوفره الغرب، لكنها تستطيع توفير شىء أهم ألا وهو: تحرير الإنسان، بل ولادته الحقيقية.

هكذا، فهو لا ينكر بعض حسنات "النموذج الغربى"، مثل الآلة الصناعية، والتلفزة أو الإذاعة، إلا أنه يدافع عن ضرورة أن نعرف

ما نختار من بين المناهج والثقافات والحضارات العالمية المعاصرة، ومنها الغربية. يبقى أن هذه الأخيرة هي التي تشغل باله: في نظر قطب، الغرب يمثل المادية والهيمنة الاقتصادية والاحتكارات، وعلى الخصوص استعباد الغالبية العظمى من البشرية، التي تتنازل عن ثمار جهودها لصالح الزمرة المصرفية والاحتكارية الغربية. أخيراً، يتقبل تماماً الآلة الغربية لكنه يرفض الإنسان - الآلة الغربي، ويتهم المجتمع الغربي بالإخفاق في وضع الآلة في خدمة الإنسان.

الرفض الإسلامى: الشيعة

إن الصيغة الشيعية للنزعة الإسلامية تلتقى مع التيار السنّى في رفضه للغرب. فالمسائل الجوهرية التي تُفرّق بينهما، مثل مسألتى الإمامة وولاية الفقيه، لا تمنعهما من الالتقاء على نقاط مشتركة متعلقة بمسألة الغرب ومن أن تكون هناك مصالح مشتركة تجمعهما في ميدان النضال من أجل استبدال أنظمة حكم إسلامية لمختلف أنظمة الحكم الحالية^(١٩). يرفع هذان التياران الإسلاميان لواء العالمية والوقوف موقفاً صارماً فوق الحزابات المذهبية: إن مرشدى الطرفين يدافعون عن فكرة إسلام واحد وموحد، وبالتالي لا يقبل الانقسام. فتضامنها يبيّن ميدانياً، اليوم بالذات، مثلاً في الجزائر ولبنان.

لدى الطائفة الشيعية إذن، شأنها شأن الطوائف الأخرى، من أبنائها من أحب الغرب ومنهم من بغضه. وثمة أيضاً، فى صفوفها، البراجماتيون الذين يحرصون على إبراز التمايزات التى ترافق مواقفهم. سنشرح هنا معنى الغرب فى خطابى علّمين من أعلام التيار الإسلامى المعاصر، آية الله الإمام الخمينى وآية الله السيد محمد حسين فضل الله.

آية الله الخمينى

تتيح لنا دراسة خطابه على التأكيد أن جوهر مواقفه إزاء الغرب متضمن فى وصيته ^(٢٠). إن وقع خطاب الإمام، مرشد الثورة الإسلامية الإيرانية، على الوجدان العربى لا يخفى على أحد. وتأثيره الأكيد على أعضاء الطائفة الشيعية العربية فى لبنان والعراق ليس موضع شك البتة. كما أن لكفاحيته وقعاً على خطاب الإسلاميين العرب من غير الشيعة لا يمكن تجاهله ^(٢١).

إن المباحث التى تطرح أغلب الأحيان هى - المؤامرة والعلاقات التى تربط إسرائيل والصهيونية بالغرب إضافة إلى مبحث تواطؤ القادة المحليين ^(٢٢). هكذا، فإن آية الله يقول لنا: "الولايات المتحدة فى طبيعة أعداء الإسلام، والصهيونية العالمية هى حليفها التى لا تتورع عن أى شىء أو جريمة لتحقيق أطماعها". ويدرك جيداً أهمية الإعلام فى الغرب

ويجد أن "المتعاونين أسوأ من عملاء الأجنبي" ^(٢٣). لقد أعلن أن "الحسن (ملك المغرب) وحسنى مبارك يعملان لخدمة الولايات المتحدة وإسرائيل ، وللقيام بذلك، لا يتوانيان عن خيانة شعبيهما" ويكنُّ لآل سعود كرهاً خاصاً، إذ يتهممهم "بالخيانة" ^(٢٤). من ناحية ثانية، فهو يُميز جيداً بين الغرب والشرق ^(٢٥) وكلاهما شيطانيان: "نصيحتي ألا تقيموا علاقات مع الشرق الملحد ولا مع الغرب الظالم والكافر" وينصح بالثورة على "الحكومات المحلية المرتبطة بالشرق والغرب، التي تُشكّل المصدر الرئيسي لآلام المسلمين".

أما في الشأن التربوي، فإن الخُميني يدين الدور السيئ الذي يلعبه الأساتذة المبهورون بالغرب والذين يتعارضون مع الإسلام وثقافته ١٠٠٪، في حين أنه يرى في ملف فصل الدين عن الدولة "مؤامرة تحاك ضد الإسلام لتشويه صورته". ويؤكد: "والادعاء أن الإسلام معارض للتجدد ليس إلا اتهاماً أبلهاً لا غير، لأنه إذا كان المراد من مظاهر التمدن والتجدد الاختراعات والابتكارات والصناعات المتطورة التي تؤثر في تقدم البشر وتقدمهم... فلا الإسلام ولا أى دين يعارض ذلك أبداً ولن يعارض ، بل إن العلم والصناعة مورد تأكيد الإسلام والقرآن المجيد". غير أنه لا يسعه إلا أن يقصى تأويلات بعض المثقفين فيقول: "إذا كان المراد من التجدد والتمدن ذلك المعنى الذي يطرحه بعض المثقفين المحترفين وهو الحرية في جميع المنكرات والفحشاء حتى الشنوذ الجنسي وما شابه فإن جميع الأديان السماوية والعلماء والعقلاء

يعارضون ذلك بالرغم من أن المنبهرين بالغرب أو بالشرق يُروّجون لذلك بناءً لتقليدهم الأعمى^(٢٦).

هناك مقطع مخصص "لمصيبة التبعية للشرق أو الغرب" حيث يقول آية الله: "من جملة المؤامرات التي تركت - للأسف - أثراً كبيراً في مختلف البلاد وبلدنا العزيز، وما تزال آثارها قائمة إلى حد كبير جعل الدول المنكوبة بالاستعمار تعيش الغربة عن هويتها لتصبح منبهرة بالغرب والشرق ، بحيث أنها لا تقيم أى وزن لنفسها وثقافتها وقوتها..." باختصار، إنه يفضح مركب النقص قائلاً عنها: "وتعتبر قطبى الشرق والغرب العنصر المتفوق وثقافتهما الأسمى... وهما قبلتا العالم ، والارتباط بأحدهما من الفرائض التي لا يمكن اجتنابها". ليندفع فى عرض ما نجم عن الاستعمار وفى نقد للوضع الحالى عند الضحايا فيقول:

"قصة هذا الأمر المحزن طويلة...
والضربات التي تلقيناها من هؤلاء - وما زلنا -
ضربات قاتلة ومدمرة. والأدهى من ذلك
أن أولئك حرصوا على إبقاء الدول المظلومة
المُسْتَعْبَدَة مُتَخَلِّفَة فى كل شيء ...
ودولاً استهلاكية ، وخوفونا من مظاهر
تقدمهم وتقدم قدراتهم الشيطانية إلى حد
كبير ، بحيث لم نعد نجرأ على المبادرة إلى
أى إبداع وسلمنا لهم كل شيء ،

وأودعناهم مصيرنا وبلادنا ، وأغمضنا
عيوننا وسددنا أذاننا مطيعين للأوامر ،
وهذا الخواء والفراغ العقلى المصطنع
أوجب الأنعتمد على فكرنا وعلمنا فى أى
أمر وأن نقلد الشرق والغرب تقليداً أعمى.
بل كان الكُتَّاب والخطباء الجهلة المنبهرون
بالغرب والشرق - وما يزالون - ينقدون
ويسخرون من ثقافتنا وأدبنا وصناعتنا
واختراعنا - إن كان - ويقللون من شأن
فكرنا وإمكاناتنا المحلية ويزرعون فيها
اليأس ويُرْجُون بأعمالهم وأقوالهم
وكتاباتهم العادات والتقاليد الأجنبية مهما
كانت مبتذلة منحلة، وقد عملوا - وما يزالون -
على تسويقها بين الشعوب بالمدح والثناء ،
وعلى سبيل المثال: إذا كان فى كتاب
أو مقالة أو خطابة عدة مفردات أجنبية
ما يقبلونه بإعجاب دون التحقيق فى
محتواه ويعتبرون الكاتب أو الخطيب عالماً
مثقفاً. وإذا لاحظنا من المهد إلى اللحد
فكلهم نراه إذا كان قد سُمى بمفردة غربية

أو شرقية فهو مرغوب ويحظى بالاهتمام
ويعتبر من مظاهر التمدن - أما إذا سمي
باسم محلي مما نسمى نحن فهو مرفوض
وقديم ومتخلف.

أطفالنا إذا كانت أسماؤهم غريبة فهم
فخورون... وإذا كانت محلية فهم خجلون
ومتخلفون... الشوارع، والأزقة، المحلات،
الشركات، الصيدليات، المكتبات العامة،
الأقمشة وسائر الأمتعة... كلما ننتج في
الداخل فلا بد من اختيار اسم أجنبي له
ليقبل الناس عليه ويرضوا به.

إزاء هذا الوضع، يوصى المرشد الأكبر للثورة بـ "إنهاء الخضوع^(٢٧)،
والاعتماد على الذات واللجوء إلى الخبرات المحلية التي فسحت لها
الحرب المفروضة والحصار المجال في أن تثبت جدارتها".

وثمة مقطع آخر بعنوان "الإسلام يرفض الرأسمالية بلا حدود".
هنا، وبعد فضح الدعاية التي تجتهد في الترويج لصور عن الإسلام هي
معاكسة، يؤكد أن الإسلام لا يوافق نظاماً كنظام الرأسمالية الغربية
مثل نظام أميركا وبريطانيا والناهبين الآخرين الغربيين. ويقول
الخميني، في الواقع، "الإسلام نظام معتدل يعترف بالملكية ويحترمها

بنحو محدود... وبالشكل السليم وتتحقق العدالة الاجتماعية التى هى من لوازم النظام السليم... بينما الرأسمالى الغربى ظالم وناهب".

فى الغالب، يستخدم مصطلحا الغرب والولايات المتحدة بطريقة تعاوضية، والبلدان المذكورة صراحة على أنها جزء من الغرب هى الثلاثى: إنجلترا - فرنسا - الولايات المتحدة^(٢٨). مما لا شك فيه أن الإمام، عندما يتحدث عن الغرب، إنما يحيل إلى المفهوم ذاته المستخدم فى اللغة الفرنسية ولها ما يعادله فى الإنجليزية (The West)^(٢٩). ليس ثمة من إعادة نظر البتة فى الاستخدام السائد لهذا المصطلح كلى الوجود، مع أنه مستورد مثلما هى أسماء الأطفال. وآية الله الخمينى يستخدم معاً مصطلحى الغرب والشرق استخداماً دارجاً؛ ويحيل إلى صورة كانت شائعة آنذاك عن عالم دى قطبين. وهاجسه البين فى إدانة القطبين وما يمثلان ليس مثار شك^(٣٠). إن تفتت الاتحاد السوفياتى لا يمكن أن يكون له إلا انعكاسات مهمة على الخطاب المابعد خمينى. فموت المرشد، الذى سبق هذا التفتت، جعل مهمة تحديد استراتيجيات جديدة وتعيين تكتيكات جديدة من مسئولية وجوه أخرى من الصف الأول، مثل آية الله فضل الله.

آية الله سيد محمد حسين فضل الله

كثيرون هم الذين يعتبرون السيد مرشداً روحياً وكثيرون هم الذين يعدونه بين ألد الخصوم. إن صراحته وألمعيته جعلاه منه أحد المحللين

الأكثر إنصافاً له سواء بين أصدقائه أم بين خصومه. شاعر، مرشد روحي، محلل، مؤلف، لا يمكن لأحد الوقوف لامبالٍ بإزائه (٣١).

عندما يتعلق الأمر بتحديد الغرب، يجيب السيد: "الغرب حالة حضارية تنطلق من وعى للمادة، الإنسان المادى على حساب الإنسان الروحي". إنه يعترف بتطور العلوم وبالحركية الثقافية التى تميّز الغرب، ويرى أن البلدان العربية بإمكانها أن تتعلم الكثير من هذه الحركية. ومع ذلك هو يعتقد بأن الغرب له عقلية وركائز خاصة به قائمة على فكر مميز بينما الشرق له ركائزه. غير أنه يضيف:

"لسنا مُعَقِّدين من الغرب وإن كنا
مختلفين معه فى كثير من قواعد تفكيرنا
ولكننا معقدون من الإدارات الغربية أو من
بعض الإدارات الغربية التى تؤكد على
مصادرة حريات شعوب العالم الثالث وعلى
مصادرة ثرواته وعلى اعتبار أن ثروات
العالم الثالث التى تعيش فى أرضه هى
ثروات للغرب".

إلا أنه يميّز بين مكونات الغرب، لا سيما بين فرنسا والولايات المتحدة (٣٢). ويؤكد، على سبيل المثال، "أن من مصلحة فرنسا واللبنانيين أن تقوم الأولى بلعب دور أكبر فى لبنان". فبرأيه، "فرنسا الأمس (المستعمرة والمحتلة) لم تعد فرنسا اليوم، وعلى اللبنانيين أن

يجدوا فيها حليفاً مكشوفاً لكل اللبنانيين في مواجهة الخطر المتمثل فيما يسمى النظام العالمى الجديد المفروض من الولايات المتحدة".

إن الفروق الدقيقة التى يراها السيد لا تدع مجالاً للشك: ففى رأيه، لا الغرب ولا الشرق يشكلان كل على حدة كتلة واحد:

"أنا لا أعتقد أن الشرق كتلة واحدة.
فللشرق مواقفه المتعددة التى قد يتفق بعضها
مع الغرب وقد يختلف. كما أننى لا أعتبر
الغرب يمثل موقعاً واحداً. قد تكون هناك
مصالح غربية يلتقى عليها كل الغربيين ،
ولكننا نعرف أن هناك محاور سياسية غربية
تعيش الصراع ، كما نلاحظه فى الصراع
الخفى بين أميركا وبين أوروبا" (٣٣).

إن مصطلح الغرب العام مستعمل إذن، حتى من أجل التأكيد على أنه مثله مثل الشرق، لا أكثر، لا يشير إلى واقع متراس. باختصار، سنقول إن الغرب بالنسبة إلى السيد موجود وجوداً فعلياً حتى وإن كان غير متراس. فأوروبا وفرنسا، على الخصوص، يحتلان مرتبة متميزة عن مرتبة الولايات المتحدة؛ يتعلق الأمر إذن بالنسبة إلى السيد بالاستفادة من التناقضات الموجودة داخل هذا الغرب المتعدد. إنه يؤكد نزعة الإسلام التوسعية ، لكنما عبر سيرورة مشابهة لتلك المطبقة فى المسيحية: "لا نرغب فى إقامة جمهورية إسلامية بالقوة. لكننا نحفظ بحقنا

فى الدعوة إلى الإسلام بالحجة وبقوة الفكر. تماماً كما يبشر الإرساليون بالكلمة السواء عبر العالم ولا يوافق على التحرر فى العادات، الذى يميز المجتمعات الغربية، ويأسف أسفاً شديداً للمساعدة الممنوحة لإسرائيل^(٢٤).

فى الختام، دعونا نلاحظ أنه بخلاف الخمينى، الذى كان يحرص على إبقاء مسافة بينه وبين القطبين العدوين وعلى حماية الثورة أملاً الاستفادة من العداوة بينهما، فإن السيد يولى اهتمامه الأول باختلال التوازن الناجم عن اختفاء القطب السوفياتى.

* * *

إن دراسة خطاب كل من الشخصيات الخمس السالفة تتكشف عن ثابتة هى قبول أهمية التطورات العلمية فى الغرب والرغبة فى امتلاكها بطريقة أو بأخرى. تشير أيضاً إلى إبراز تأثير الإسلام على البروتستانتية، وعلى النهضة الأوروبية، فضلاً عن التذكير بما قدمته الحضارة العربية الإسلامية للتراث العالمى. أخيراً إنه لواضح أن الإسلاميين من أمثال البنا وقطب والخمينى وفضل الله يرغبون فى مواجهة غربهم بأمة يجمعها قاسم مشترك هو الدين. أما عبده، الذى لا يمكن تصنيفه معهم، فإنه يبدو راغباً هو أيضاً، وعلى طريقته، فى مواجهة المد الثقافى والدينى القادم من الغرب. إنهم يأملون جميعاً، وعلى طريقته، بناء سد فى وجه الجوانب الخطيرة من الثقافة الغربية.

الرفض العلماني : ميشال عفلق

الشريك المؤسس لحزب البعث

على غرار المقاومة ذات الإحياء الديني، فقد نشأت عدة حركات علمانية عربية ، وكانت خطاباتها الموجهة إلى الغرب خطابات غير ودية. من الشيوعيين إلى القوميين السوريين ^(٢٥)، مروراً بالناصرين، فقد حملوا خطاباً لازعاً إزاء الغرب، المتواطىء مع إسرائيل والمعيق للاستقلال الاقتصادي والسياسي الحقيقي للمنطقة. لقد اخترنا أن ننبش غرب ميشال عفلق، لأن كتاباته مُحَدَّدة البنية كانت في أساس البعث، الذي ينتمي إليه على الأقل بلدان عربيان، هما العراق وسوريا. العراق يعاني من حصار مدمر وسوريا منخرطة في عملية تفاوض مفخخة. على الصعيد النظري، يتقاسم البعث مع بقية الحركات العلمانية الحذر إزاء الغرب. إن أول سبب لوجوده هو مكافحة الآثار المشنومة للاستعمار: لا سيما المتمثلة بتفتيت الأمة العربية وزرع الكيان الصهيوني، لغرب يحمل وزر كليهما.

لقد درس مُنْظَرُ البعث، ميشال عفلق، التاريخ في فرنسا (١٩٢٨ - ١٩٣٢). فكان إذن في علاقة مباشرة مع الغرب، الأمر الذي يعطى انتقاده للتربية الغربية نكهة خاصة ^(٢٦). فقد انخرط في النضال ضد نظام الانتدابات وضد الاستعمار وضد إنشاء دولة إسرائيل. في العام ١٩٥٣، أسس حزب البعث العربي. كان تأثيره على الوجدان السياسي العربي

هائلاً، وقد طبع بكتاباته ذاكرتنا الجمعية، ولكننا على الخصوص
بوصول حزبيين بعثيين إلى السلطة في سوريا والعراق. فقد سمحت
هذه الوضعية لرسالة البعث أن تستمر متجاوزة المجابهة بين الحكيم
ومتعدية فضحهما لبعضهما البعض (٣٧).

في الواقع، تكشف لنا مؤلفاته الأساسية أن الغرب، عنده، موجود
حقاً وغالباً ما يختلط، في الخطاب العقلي، بأوروبا (٣٨). يتعلق الأمر
فعلاً بمفهوم الغرب ذاته (الضبابي والشامل) الذي نجده اليوم عموماً
في الخطاب المسيطر في أوروبا والولايات المتحدة، وبالنتيجة، عبر
العالم، حتى وإن كان عقل قد أدخل بصورة استثنائية فروقات دقيقة،
على سبيل المثال، عندما يميز بين المواطنين الفرنسيين وحكومتهم (٣٩).
ثم إن هذا التحليل يفيدنا أن الخطاب العقلي لا يتطابق مع التيار
المسيطر الذي يميز الكتلة الشرقية عن أوروبا من دون أن يبالى بأن
الشيوعية ظاهرة أوروبية المنشأ (٤٠). إن مباحث الماضي المجيد والتواطؤ
والمؤامرة حاضرة بقوة، وغالباً ما تستعاد في إطار النقد الذاتي وراثاء
حالة العرب الاقتصادية المعاصرة، الأمر الذي يؤدي إلى مضاعفة
التباين وإلى حثّ القراء والمستمعين (٤١) (إذ إن الأمر يتعلق في أغلب
الأحيان بنصوص استخدمت كخطابات).

في فقرة بعنوان: العرب والغرب، يؤكد عقل أن "الغرب عاد
اتصاله بالعرب بواسطة حملة بونابرت على مصر". فذلك يحمل على
الافتراض أن الاتصال كان موجوداً قبل ذلك وقد انقطع في لحظة

تاريخية معينة. إن الرسالة المتضمنة حول هذا الاتصال هي رسالة إدانة. وتستهدف الإدانة على حد سواء نابليون و"الرؤساء الدخلاء على العروبة" وبالتالي المتواطئين:

"العرب والغرب - منذ قرن ونصف
قرن عاد اتصال الغرب بالعرب بواسطة
حملة بوناپرت على مصر، وقد رمز هذا
الداھية إلى ذلك الاتصال بأن علق لوحات
كتبت فيها آيات القرآن إلى جانب حقوق
الإنسان. ومنذ ذلك الحين ما برح العرب
(أو الرؤساء الدخلاء على العروبة) يدفعون
نهضتهم الحديثة في هذا الاتجاه الأشوه،
فهم يجهدون أنفسهم ويرهقون نصوص
تاريخهم وقرآنهم ليظهروا أن مبادئ
حضارتهم وعقيدتهم لا تختلف عن مبادئ
الحضارة الغربية، وأنهم كانوا أسبق من
الغربيين إلى إعلانها وتطبيقها. وهذا
لا يعنى إلا شيئاً واحداً: وهو أنهم يقفون أمام
الغرب وقفة المتهم ، مقرين له بصحة قيمه
وأفضليتها. إن الواقع الذى لا محيد عن
الاعتراف به هو أن غزو الحضارة الغربية

للعقل العربى فى وقت جَفَّ فيه هذا العقل
حتى أمسى قوالب فارغة، يَسْرَ لتلك
الحضارة أن تملأ بمفاهيمها ومعانيها
فراغ هذه القوالب، ولم تمض فترة من
الزمن حتى انتبّه العرب إلى أن
ما يخاصمون الأوروبيين عليه هو نفس
ما يقول به هؤلاء، وأنهم لا يفرقون عن
الأوروبيين إلا بالكم، كما يفرق القليل عن
الكثير، والمُقَصِّرُ عن السابق، ولن يتأخر
الوقت الذى يعترفون فيه بالنهاية المنطقية
لهذا الاتجاه، أى أن فى الحضارة الأوروبية
ما يغنى عن حضارتهم. فحيلة الاستعمار
الأوروبى لم تكن فى أنه قاد العقلية العربية
إلى الاعتراف بالمبادئ والمفاهيم الخالدة،
إذ إن هذه العقلية معترفة بها وقائمة عليها
منذ نشأتها. ولكن هى فى اغتنامه فرصة
جمود العقلية العربية وعجزها عن الإبداع
ليضطرها إلى تبنى المضمون الأوروبى
الخاص لهذه المفاهيم. فنحن لسنا نخالف
الأوروبيين فى مبدأ الحرية، بل فى أن
الحرية تعنى الذى يفهمونه منها.

إن أوروبا اليوم، كما كانت فى الماضى،
تخاف على نفسها من الإسلام. ولكنها تعلم
الآن أن قوة الإسلام (التي كانت فى الماضى
مُعَبَّرَةً عن قوة العرب) قد بعثت وظهرت
بمظهر جديد هو القومية العربية. لذلك فهي
توجه على هذه القوة الجديدة كل أسلحتها،
بينما نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام
وتعاضده. فالإسلام الأممى الذى يقتصر
على العبادة السطحية والمعانى العامة
الباهتة أَخْذاً فى التفرنج^(٤٢)، ولسوف
يجئ يوم يجد فى القوميون أنفسهم
المدافعين الوحيدين عن الإسلام ويضطرون
لأن يبعثوا فيه معنى خاصاً إذا أرادوا أن
يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء^(٤٣).

من هذه الأقوال نستخلص المبحث كلى الوجود للتعارض بين
الغرب والقومية العربية^(٤٤) وأبطالها^(٤٥) وهو مبحث مرتبط بسائر
اللحظات التاريخية التى اصطدمت فيها القومية العربية بالقوى الأوروبية
و، توسعاً، ضد الغرب. وفى مكان آخر، يثير مبحث التربية المغربية،
فيحكم عليها حكماً قاسياً وينسب إليها تأثيراً فعلياً فى عمليتى الانسلاخ
عن الجنور، والاغتراب. ومرات عديدة، انتقد بخاصة بعض اللبنانيين

ممن بات اغترابهم معلوماً للجميع^(٤٦). سنلاحظ في الاستشهاد التالي كيف ينتقل من ميدان التربية الغربية إلى حملة الشهادات الذين يشكلون النخبة المثقفة الشيوعية و/أو اليسارية (هذا ما يؤكد أن الغرب والشيوعية صنوان في نظره):

“أتوجه بالخصوص إلى أولئك الذين نشأوا في بنية عائلية واجتماعية مفتقدة إلى نفسياتها العربية ودرسوا في مدارس محلية لكنها في مؤسسات أجنبية أو في الغرب. تؤهلهم هذه الثقافة لتبوء المناصب الأساسية ومن هنا يسمحون لأنفسهم أن يقرروا في الأمور الجوهرية لحياتنا الوطنية بينما هم يجهلوننا ويحتقرونها. فمن بين هؤلاء استقطبت الحركة الشيوعية عناصرها المثقفة”^(٤٧).

مع ذلك، لا ينفي، شأنه شأن كثيرين غيره، أن:

“من شأن ثقافة على الطريقة الغربية أن تكون مفيدة لكنها فقط للإنسان العربي الذي يتمتع بشخصية معدة مسبقاً إعداداً جيداً، لأن هذا الأخير سيكون في وسعه

تلافى أخطاء الثقافة الغربية ويدخل عليها
بعض التعديلات... ومن هو غير مسلح
بثقافته العربية الأم لا يسعه استقبال تعليم
غربي من دون أن يكون مرغماً على حياة
غربية الطراز... نلاحظ عند أولئك الذين تلقوا
تعليماً غربياً وهم يفتقدون إلى نفسية عربية
أن حضورهم بيننا يقتصر على أجسادهم،
بينما أفكارهم التي تتغذى بالثقافة الغربية
تبقى مرتبطة بمحيطها الطبيعي؛ ليسوا
معنيين سوى بالتاريخ الغربي، وبتقاليده
وسياسته. هكذا فكثير منهم يعيشون بيننا
بأجسادهم فيما يعيشون بأفكارهم
ونفسياتهم في الغرب^(٤٨).

إن الرغبة في الاستفادة من إنجازات العلوم جلية في الخطاب
العقلى؛ وتشهد على ذلك الملاحظة التي أدلى بها بمناسبة الذكرى
الثانية والأربعين لتأسيس حزب البعث العربى الاشتراكى وقد أشاد فيها
بالرئيس صدام حسين، مشيراً بخاصة إلى إصراره على التمسك بالعلم
وتطبيقاته العملية. فيقول عفلق:

“إن الزعيم العراقى يوفر للأمة نموذجاً
للعقل العربى العصرى القادر على الإمساك

بالعلم وتطبيقاته العملية وبالجوانب الروحية
والإنسانية التى تتكامل فى تكوين شخصية
الإنسان العربى الجديدة^(٤٩) .

والآراء التى أدلى بها هذا الأخير حول المغربين مطعمة بآراء حول
الغرب نفسه. وما هو استشهاد مقنع:

"إن جميع هذه البلدان الغربية متشبثة
بقومياتها؛ إنها لا تفكر بالتضحية بها
وتفضل التضحية بإنسانياتها. إن لدى هذه
البلدان تقاليد مصبوغة بصبغة إنسانية،
إنما ذلك ليس سوى ذريعة لتوسيعهم
واستعمارهم. إن أوضاعنا مختلفة؛ هم
أقوياء أما نحن فضعفاء، إنهم يعيشون
وضعاً توسعياً أما نحن فواقع تقسيمى.
من المستحيل إذن أن نشاطرهم طريقة
التفكير نفسها"^(٥٠).

ونلتقى هنا مرة ثانية مبحث لا إنسانية الغرب المادى الذى يمتلك
العقل والمهارات العلمية لكنه يفتقد إلى الروح^(٥١). فيطغى على الخطاب
العقلى التآرجح بين النقد الصارم الموجه إلى الغرب والاعتراف بنقاط
القوة. وبالفعل فقد قدم سورية، فى نص حمل عنوان: "العرب بين
ماضيهم ومستقبلهم"، على أنها فى موقع وسط بين الأمم العربية الأكثر

تأثراً بالحضارة الغربية وتلك التي انغلقت على نفسها . فسورية صدرها يرحب بتأثيرات الحضارة الغربية، غير أن قلبها مفعم بالعواطف والذكريات العربية. فى ذلك النص، يصف عفلق التجاذب بين الأقطار العربية الأكثر قرباً من تأثيرات تلك الحضارة الحديثة وبين تلك التي تقف بعيدة عنها . وهو بوضعه لسوريا فى موقع الوسط، إنما يضع إصبعه على التمزق بين هذين التيارين من دون أن يتمكن من تسميتهما بسبب ذلك (٥٢).

وفى مداخلة له فى إطار لقاء مع طلبة مغاربة عام ١٩٥٥، هاجم عفلق ما يبذله المحتل الفرنسى والإنجليزى من جهود لمكافحة القومية العربية عن طريق النبش فى الحضارات القديمة التى استوطنت المنطقة. ذكر حالة "المصريين الذين كادت أن تنجح محاولات اقتناعهم بأنهم ليسوا عرباً"، وكذلك ذكر مثل البربر والأكراد (٥٣). وتابع حديثه فى شأن صورة الغرب الذى يزرع الحزازات ، مؤكداً أن الغرب خلق هذه الخلافات وغذاها (٥٤) . وفى خطاب آخر، راح يحذّر من خطر ضرب الوحدة:

القبول بتجزئة العالم العربى هو قبول بمنطق الاستعمار. ففرنسا التى قسمت سورية إلى خمس دول حاولت تطبيق المنهج الخبيث نفسه الذى استعملته فى المغرب بزرع التفرقة بين العلويين والعرب الآخرين

فى سورية، فمن أجل ذلك حاول الفرنسيون حتى الإثبات عبر دعايتهم وكتابات مؤرخيهم أن علوى سورية يتحدرون من الصليبيين، فهم أوروبيون وأن مذهبهم أقرب إلى المسيحية منه إلى الإسلام. وعلى كل حال فإن أحد أهم أسلحتهم كان خدعة مجيئهم بغرض حماية المسيحيين" (٥٥).

وفى معرض حديثه عن الاستعمار، يشدد الشريك المؤسس لحزب البعث على أن المغرب العربى قد تأثر تأثراً أشد وأعمق بهذه الآفة (٥٦). فمن البديهي أن يكون المصطلح السائد فى خطابه هو الاستعمار ، متجاوزاً بما لا يقاس مصطلح الغرب. إلا أن الربط بين الغرب والاستعمار يكاد يكون ارتكاساً عنده، وإدانتته لتواطؤ القيادات المحلية إدانة انتظامية مطردة:

"ستسخر الأجيال المقبلة منا
وستسخر ونعانى من هذه التجزئة التى
أوجدها الاستعمار وصدقها العرب... ليس
كل العرب... إنما الزعماء..." (٥٧).

وهذا ما يفسر إعجابه الشديد بالثورة الجزائرية التى قال فيها: "إن الثورة الجزائرية معجزة عصرنا" (٥٨).

من اليسير رسم مثلث الغرب - الاستعمار - الصهيونية (٥٩).
والتداعيات بين الثلاثة صريحة فى الخطاب العقلى والبعثى
بصورة عامة (٦٠). كما أن علق لم يغفل التشديد على الشبه القائم
بين الصهيونية والحملات الصليبية ، باعتبارها جميعاً غزوات دينية
الطابع (٦١). وفيما يتعلق بإسرائيل والاستعمار كتب يقول:

نحن نعتبر أن إسرائيل بلا ريب
قاعدة للاستعمار، وهذا بالضبط السبب
الذى من أجله خلقها هذا الأخير وغذاها.
غير أن المشكلة أخطر بكثير، لأن إسرائيل
تعبير عن قوة الصهيونية العالمية القادرة
على توجيه الاستعمار.

الاستعمار يستغل إسرائيل لكن
الصهيونية العالمية بإمكانها استغلال
الاستعمار؛ يستتبع ذلك أن انتصار العرب
على الاستعمار قد يعنى حل معظم المشكلة
وليس المشكلة كلها. وبالتالي فالنضال ضد
الاستعمار عليه أن يترافق مع النضال ضد
الصهيونية، إن نفوذ الصهيونية العالمية
يمتد إلى ما يتعدى استغلال الاستعمار
ليصل إلى استغلال الطبقات الشعبية فى

عدد كبير من البلدان التي عرفت كيف يستفيد الاستعمار من الظرف التاريخي للاضطهاد العنصري والديني ضد اليهود في أوروبا. والوضع المؤاتية الأخرى للصهيونية تكمن في المستوى العصري المتفوق لإمكانيات إسرائيل النفسية وفي انعكاسه مع تخلف المجتمع العربي وطابعه الرجعي. لقد سمح هذا الوضع لإسرائيل أن تقدم نفسها كطليعة التقدم في هذه المنطقة من العالم ومحاولة لزرع الحضارة الغربية في هذا القسم من الشرق؛ وهي محاولة تستحق العناية والتشجيع.

لم يكن بمقدور الحركة الصهيونية أن تفتصب وحدها فلسطين وبناء دولة فيها. على كل حال لم يكن هدفها في البدء فلسطين ، بل كان هدفها أية بقعة أرض من هذا العالم الفسيح لإقامة وطن قومي يهودي عليها. وما جعل خلق إسرائيل ممكناً، تقاطع مصالح الصهيونية مع مصالح الاستعمار. تكمن مصالح البلدان

الاستعمارية فى منع الوحدة العربية
والتصدى لقوة الأمة العربية... هكذا نجح
الاستعمار الغربى فى نقل مركز الصراع
فى اتجاه إسرائيل^(٦٢).

إن هذه التعليقات التى كتبت فى العام ١٩٦٩ حول إمكانية إجراء
مفاوضات سلام مع إسرائيل تصدح عالياً فى الوجدان العربى لعام ١٩٩٢ .
إن الاستشهاد التالى، مع أنه كتب قبل حرب الخليج بفترة، ليعبر خير
تعبير عن شعور العرب جميعاً، سواء كانوا من الراقضين لغزو العراق
للكويت أم من الراضين عنه، بأن الحرب زادت فى تعريتهم^(٦٣):

"والآن قد تتمكن الدول الكبرى بتواطؤ
مع بعض الحكومات العربية حتى من
تسمى نفسها ثورية وتقدمية، قد يتمكنون
من فرض حل يسمونه الحل السلمى،
ويعرفون المغالطات التى تستعمل فى هذا
المجال؛ فيقال إنه هناك فرقاً بين السلم
والاستسلام وحتى يُعطى للحل السلمى
ستار من الصحة والشرعية، فتبتدع هذه
التفريقات والعبارات، لا نقبل الاستسلام
ولكننا نقبل السلم، مع أنه معروف بالبداهة
أنه عندما تكون الدول العربية فى وضع

كوضعها الحالى لا يمكن أن يعنى السلم
إلا الاستسلام ولن تكون هذه أول مرة يفرض
فيها حل حائر ومزيف على الأمة العربية^(٦٤).

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، دافع عفلق عن سياسة الحياد
الإيجابى. فنظراً إلى ما أظهرته بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ،
والاتحاد السوفياتى من عدائية، على الدول العربية أن تقطع سائر
علاقاتها مع الجميع. إلا أن الغرب يبقى العدو بامتياز:

"ما يجب أن يتذكره السياسيون العرب
هو التالى:

١ - أن الأمة العربية تشكل وحدة
لا تنقسم وأن لها مصلحة فى الوحدة.

٢ - أن أعداء الأمة العربية يشكلون
حالياً وحدة أيضاً، لأن بريطانيا والولايات
المتحدة وفرنسا التى تتقاسم العالم العربى
عبر الاستعمار والاحتلال والاستغلال
الاقتصادى موحدة أيضاً فى كتلة عالمية
واحدة هى الكتلة الغربية"^(٦٥).

وفى صدد الحياد الإيجابى بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية كان
عفلق يرى فيها، فى عام ١٩٥٧، المخرج الوحيد الممكن، إذ إن أى

انتصار لكتلة على أخرى ستكون له انعكاسات وخيمة^(٦٦). يبدو أن أحداث العامين ١٩٩١ و١٩٩٢ جاءت بعد خمسة وثلاثين عاماً لتحكم له.

* * *

مصادر أخرى للرفض

لكم لبنانكم ولى لبنانى.

لكم لبنانكم وأبناؤه ولى لبنانى وأبناؤه.

ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم؟

ألا فانظروا هنية لأريكم حقيقتهم.

هم الذين ولدت أرواحهم فى مستشفيات
الغربيين.

هم الذين استيقظت عقولهم فى
حضان طامع يمثل دور أريحي.

هم تلك القضبان اللينة التى تميل إلى
اليمين وإلى اليسار ولكن بدون إرادة،
وترتعش فى الصباح وفى المساء ولكنها
لا تدرى أنها ترتعش.

هم تلك السفينة التى تصارع الأمواج
وهى بدون دفة ولا شراع، أمّا ربّانها
فالتردّد، وأمّا ميناؤها فكهف تسكنه
الغيلان - أوليست كلّ عاصمة فى أوروبا
كهفًا للغيلان؟

هم الأشداء الفصحاء البلغاء ولكن
بعضهم لذى بعض، والضعفاء الخرسان
أمام الإفرنج.

هم الأحرار المصلحون المتحمسون
ولكن فى صحفهم وفوق منابرهم،
والمنقادون الرجعيّون أمام الغربيّين.

إن كاتب هذه السطور ليس بمناضل إسلامى ولا بمنظّر لحزب
سياسى؛ كما وأنه ليس برجل دولة. مع ذلك فإن هذه الأقوال راهنة وقد
تليت بصورة ملائمة عام ١٩٩١، أثناء الاحتفالات التى نظمها أفراد
الجالية اللبنانية فى مونتريال فى ذكرى استقلال لبنان. إنها أقوال
جبران، العاشق، الشغوف، الفيلسوف والشاعر الذى عرف أرض الغرب
لكونه عاش فيها.

ومبحث العجز أمام التهديد الغربى واضح إذن عند أحد الكتاب
الأكثر احتفاءً به من قبل اللبنانيين المحبين للغرب^(٦٧). الأمر يتعلق

بمفكر يشكل انفتاحه الفكرى وروحه السمحة مصدر إلهام لقرائه (راجع
النبي ومراسلاته مع مى زيادة)؛ قد تخذش أعماله حياء بعض
المُشهرِّين الإسلاميين بالغرب، ورفضه للغرب قد يفاجئ المعجبين به
ممن هم مبهورون بالغرب ذاته.

الرفض الذى يعبر عنه هنا صريح. ويشمل فى أن واحد الغرب
واللبنانيين الخاضعين له من زوايا عديدة. إنه يمزج بين الأوروبيين
والغربيين رغم أنه عاش هو نفسه فى الولايات المتحدة. فلنوضح أن
جبران (فى جوابه على أسئلة مجلة الهلال المتعلقة بالحضارة الغربية)
لم يقتصر فى تحليله على اللبنانيين وحدهم. إحساسه بالمرارة يتعلق بوجهة
النظر العربية الإجمالية. ونعثر فيها على مبحثى الماضى المجيد
والاستعمار الغربى، ورفعه من قبل بعض العرب إلى مرتبة المثال:

“الشرق كل الشرق الممتد من المحيط
إلى المحيط أصبح مستعمرة كبرى للغرب...
بيد أن المشرقيين، الذين ينادون عالياً
بأمجاد الماضى ويعتزون بتراثهم وبإنجازات
أسلافهم، أصبحوا عبيد الفكرة الغربية
والتيارات الغربية والميول الغربية. لا نسعى
إلى تحديد ما إذا كانت الحضارة الغربية
حسنة بذاتها أم لا، لأن الحضارة الغربية
وقفت فى عام ١٩١٤ أمام قاضى السماء

وما زالت أمامه. لو أوكل إلى أمر القضاء
لما ترددت لإدانتها هكذا كنت متوافقاً مع
أغلبية المفكرين الغربيين^(٦٨).

فلنسجل أننا نجد عند جبران رفضاً للتغريب المفرط. ويبدى قلقه
من طبيعة العلاقة التي أنشأها شرقيو عصره مع الغرب ومنتجاته بيد
أنه لا يستبعد، بهذا، إمكانية تفاعل إيجابي، أقله على المستوى النظرى:

”بيد أن الغربيين كانوا فى الماضى
يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه
محوّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربى،
أما الشرقيون فى الوقت الحاضر فيتناولون
ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ، ولكنه
لا يتحوّل إلى كيانهم بل يحولهم إلى شبه
غربيين، وهى حالة أخشاهما وأتبرّم منها
لأنها تبين لى الشرق كعجز فقد أضرّاسه
وطوراً كطفل بدون أضرّاس!

إن روح الغرب صديق وعدوّ لنا.
صديق إذا تمكّنت منه وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا.
صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا
وضعنا نفوسنا فى الحالة التى توافقه^(٦٩).

فإذن، لم يكن الغرب ومختلف المباحث التي تدور حول العلاقة مع هذا الغرب من القضايا العابرة في أعمال جبران. نجد أيضاً تشكيلة واسعة من ضروب الرفض عند عدد كبير من المفكرين الكبار. ثمة مثل بليغ آخر معروض علينا من خلال أقوال عبد الله النديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦)، الذي وصفه أنور عبد الملك على أنه "أحد الوجوه البارزة لثورة ١٨٨٢ المصرية، حيث أن حياته الساطعة، التي لم يكن لها نظير في ذلك العصر، شكلت مصدر إلهام للأجيال الثورية في مصر". والجدير بالملاحظة، في المقتطفات التالية، هو الطابع الراهن لكلام قيل قبيل مئة عام ونيف؛ ونتعرف ثانية على مباحث الغرب المعتدى والعائق، وأمجاد الماضي والتواطؤ المحلي. يتعلق الأمر بمقتطفات من "سلافة النديم":

"خادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم
قائلة لعظمائهم مقبحة لما هم عليه من دين
وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة
وزراعة منادية بينهم بأن الغرب محل
التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل
لا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ولا مجد
لن لم ينتم إليه ولا فضل لمن لم يتعلم فيه
ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته
ويتقيد بعبادته [...] .

ومما زادهم بعداً عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء وأجراً يزعمون أنهم نصحاء يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف، ويوهمونهم عدم صلاح بلادهم للصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات ، وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التى لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيت صناعاتها الوطنية وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها، ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها فهم بصرفها الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرقى فى قبضة الغربى احتياطاً إليه وترك الشرق ميداناً لمسابقة رجال أوروبا فلا يجدون مصنوعاً يعطل عليهم ولا معرضاً عن صناعتهم فتبور. وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل ويظنون أنه من المخلصين فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم فى اليأس والقنوط بالمفتريات ، ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم وتقول لو كنتم مثلاً لفعلتم فعلنا .

وأسفاه على رجال قضى أبائهم الدهور
الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان لا يفرق
بينهم دخیل ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبي ،
فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم وحالفوا
غيرهم وخدموا الأجنبي بمساعدته على
التداخل فى بلادهم ، بل على الاستيلاء
عليها ، لا لعداوة بين الأمتين ولا لحرب
جرت فى الوطنيين بل برغيف يُحَصِّلُهُ
الزبال وخرقة يملكها الشحاذ.

وبالجملة فإن آخر الدواء الكى
وقد بلغ السيل الزبى. فإن رفاءنا
هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا وجمعنا
الكلمة الشرقية، مصرية وشامية
وغربية وتركية أمكننا أن نقول لأوروبا
نحن نحن وأنتم أنتم، وإن بقينا على
هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب
فريقاً بعد فريق حق لأوروبا أن تطردنا من
بلادنا إلى رءوس الجبال لتلحقنا بالبهيم
الوحشى وتصدق فى قولها لو كنتم مثلاً
لفعلتم فعلنا" (٧٠).

إن ما يزيد فى قوة هذه الرسالة هو كون صاحبها لم يكن شاهداً
لا على طرد الفلسطينيين ولا على تمزيق لبنان ولا على استسلام مصر
السادات. قال النديم فى نهاية القرن ما قبل المنصرم: "بلغت الحالة
أشدّها". ماذا تراه يقول اليوم!

يعطينا القذافى، بدوره، مثلاً جيداً عن كيفية استخدام الصور
المتعلقة برفض الغرب وعن كيفية الربط فيما بينها:

دعا الزعيم الليبى جميع المسلمين
لمقاومة "الصليبية الجديدة" التى يشنها
الغرب ضد الإسلام. وقال إن على المسلمين
أن "يتوحدوا، ويعبئوا طاقاتهم ويشحذوا
سيوفهم" معتبراً أن بطرس الناسك، أحد
منظمى أول حملة صليبية فى القرن
التاسع، "بُعِثَ من جديد فى واشنطن
وباريس ولندن". ويحسب رأيه "فإن الغرب
المسيحى يسعى إلى قيام إسرائيل الكبرى،
ممتدة من الشرق الأدنى إلى أفريقيا
الشمالية، والقاهرة عاصمتها". وأكّد قائلاً:
"إن القوى المسيحية الغربية الصليبية قد
اتجهت نحو المجابهة مع الإسلام بعد أن
قضت على الشيوعية" (٧١).

إن كون المجابهة التى تضع ليبيا فى مواجهة مع ثلاث حكومات نوعية (الولايات المتحدة، فرنسا وبريطانيا) أو كون الحصار وافقت عليه الأمم المتحدة ولحظه قرار مجلس الأمن لا ينفى، فى خطابه، فكرة أن هذه المجابهة تضعه وجهاً لوجه مع الغرب. عندما يماثل بين المعتدين والغرب ككل، لا يكون القذافى استثناءً، إنما متطابقاً مع القاعدة، ولم تلبث مختلف الوسائل الإعلامية العربية التى تابعت مجريات الأحداث عن كثب أن حذت حذوه (٧٣).

فى استطاعتنا معاينة الظاهرة نفسها عقب اغتيال السلطات الإسرائيلية الشيخ عباس الموسوى، أمين عام حزب الله. وفجأة تتجمع الاتهامات نفسها موجهة إلى غرب غير محدد، كما يشهد على ذلك هذا العنوان فى جريدة الأنوار الصادرة بتاريخ ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٢: (إيران تندد باغتيال الموسوى والغرب يعرب عن قلقه). وحالة السودان مثل آخر، فبسهولة نعثر على أقوال للرئيس عمر حسن البشير يتهم فيها "الغرب والكنائس وإسرائيل بمساعدة المتمردين" (٧٣).

موضوعات الرفض الحالية

إسرائيل

إن استمرار وجود إسرائيل يذكر بكل الأوقات السلبية التى رافقت إدراك الوجدان العربى للغرب. على سبيل المثال، فإن الجزائرى الذى

يعرب في العام ١٩٩١، عن عدائه لإسرائيل، فيما يغمره الأمل لدى رؤيته صاروخ سكود يضرب في عمق إسرائيل، إنما هو شخص متأثر وسمته حرب الاستقلال بميسمها. وبالطريقة ذاتها فكل منا أراد تصفية حسابه مع الغرب، إنما يربط بين إسرائيل والغرب ويجمع بالتالي في وجهة واحدة مشاعر الخيبة المتراكمة بإزاء هذا أو ذاك. إنه مُسَلَّم به أن مشاعر الخيبة هذه ليست غريبة عن تلك التي ترافق الحياة اليومية: مثل الظلم الاجتماعي والبطالة والافتقار إلى الحرية، والقيادة المخيبة للأمال، إلخ.

ولكن لماذا أصبحت إسرائيل البؤرة التي تولد مشاعر العداء هذه؟ السبب هو استمرار وجودها ^(٧٤). لقد تَمَكَّنَتْ قوى أوروبية من إعاقة محاولات محمد علي قلب النظام العثماني وتصنيع مصر، لكن محمد علي مات منذ ١٨٤٩، وتبعه عرابي وعمر المختار والشريف حسين وحسن البنا، وسيد قطب، وفيصل بن سعود وعبد الناصر (في وسعنا إضافة مصدق والخميني في إيران، بسبب التأثير الذي حظيا به على الوجدان العربي). تمثل هذه الشخصيات لحظات تاريخية مختلفة، وتيارات متنوعة تنوع الطموح إلى الديمقراطية والاستقلال الوطني أو إلى الحكم الإسلامي. إلا أن لهذه الرجالات، مع ذلك، قاسماً مشتركاً: لقد ناضلوا ضد الغرب (سواء مباشرة أم من خلال عناصر محلية). إن هذه الأسماء هي أسماء لسلف قد نُكِنَ لهم الاحترام أو العداء، وهم يمثلون بنظر البعض منا مثلاً يحتذى. ومما لا شك فيه أن صدام سيلحق هذه القافلة عقب مماته. وفي حين نحن في انتظار نظير

لصالح الدين، فإن إسرائيل من جهتها تسخر منا . أولاً لأنها موجودة فعلاً،
وهى قوية ومهابة وتحظى بعطف "الغرب". وقد نجد فى تعطل المفاوضات،
المنسوب إلى حد كبير إلى المسئولين الإسرائيليين، أسباباً لتتجيم صورة
إسرائيل وتلميع صورة العرب. إن الامتيازات المقدمة لإسرائيل مدعوة
لأن تخضع لشروط أدق. إن أبطالنا ومشاريعنا ولدوا ميتين ويكاد يكون
قدرهم هذا الموت العجول فيما إسرائيل تتعزز قواها. وما يزيد فى الأمر
مفارقة هو أن خطراً، قد يتهدد إسرائيل، ولو كان بعيداً، يتم استباقه،
ويدفن حتى قبل أن يتخذ شكلاً ملموساً. شاهدنا ذلك فى قصف مفاعل
تموز/يوليو فى العراق وكذلك مع ما تبعه من تدمير لسائر البنية التحتية
لهذا البلد الذى أضحى مختزلاً فى الدعاية الإسرائيلية بالبعد الذى يمثله
التهديد المحتمل لدولة إسرائيل.

وأياً يكن واقع الأحداث، لا نبالى إذا كان أسلافنا المشهورون
ومعاصرونا المشهورون حقاً عملاء منجورين لأجهزة الاستخبارات
الأجنبية، ولا نبالى بكون الغرب قد حاربهم، أو بكونه وفّر الدعم غير
المشروط لإسرائيل أم لا، ولا نبالى بكون إسرائيل تتحكم أم لا بإرادة
الغرب فى المنطقة أو أيضاً بكون الغرب ليس كتلة متراسدة ويكون
الفرنسى والأميركى والإيطالى^(٧٥) أو الإنجليزى ليسوا دائماً متفقين:
المهم هو ما ندركه وما نشعر به. الصور التى تؤثر فى وجداننا هى وجوه
الواقع الوحيدة التى نعيدها أهمية، لأنها حية اليوم، شأنها فى ذلك شأن
إسرائيل. وهذه الصور هى الواقع الراهن، وفى مخيالنا، ما زالت فكرة

الغرب الموحد المتراص هي الغالبة ولم تمس. قد يأخذ العربي علماً بوجود مجموعات تعارض السياسة المسيطرة في الأنظمة الغربية، ثم لا يلبث أن يضيعها في مزيج الغرب المعقد^(٧). حتى في بغداد حيث كانت التلفة، في العام ١٩٩٢، تعرض كل يوم مشاهد عن مظاهرات مناهضة للحرب نظمته بعض المجموعات في باريس ومونتريال، فإن وسائل الإعلام في مجملها لم يسعها مقاومة الميل للعودة إلى استخدام مصطلح الغرب الشمولي. غير أنه لا بد من الإشارة، في الحالة العراقية، إلى أن هاجس الدعاية المحلية في التمييز بين شعوب العالم وبين أنظمتها قد أحدث داخل مفهوم الغرب الشمولي شرخاً أكبر شأنًا مما حصل، على سبيل المثال، في لبنان أو الأردن^(٨).

حرب الخليج

إن التنوع الذي يتشكل منه "الغرب" لتنوع معقد بعض الشيء. ومع ذلك، لم يمنع هذا التعقيد، كاتباً مثل منير شفيق، الذي يحدد نفسه كمسلم عربي، أن يقول بأن الحضارة الغربية تأسست على السيطرة على بقية أجزاء العالم، وأن هذه الحضارة لا تستطيع أن تزدهر خارج هذه السيطرة. فالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمساواة والأخوة ومكافحة الإرهاب... ليست كلها سوى شعارات لا تخدع الكاتب الذي يرى أن الواقع التاريخي قد أثبت أن الغرب لم يسمح منذ مئتي عام لأى

قطر عربى أن يطور قدراته، سواء فى الصناعة أو فى الزراعة أو العلوم ولا أن يعزز قدرته العسكرية. وإثباتاً على ما يقول ؛ يذكر الكاتب بأن الغرب قد دمّر السلطنة العثمانية وفتّتها وقد أخمّد بالقوة محاولات "عربى، ومهدى السودان، وعمر المختار، وعبد القادر الجزائرى، وعبد الكريم الخطابى، ورشيد على الكيلانى، وعبد الناصر، والخُمينى، وصدّام حسين راهناً". يتعلّق الأمر هنا بنموذج عما يمكن أن يخرق الوجدان العربى بإزاء "حرب الحلفاء". وصاحب الحديث لا يمثل البتة جميع العرب؛ قد يعمد البعض، ممن لا يؤيدون الخمينى، إلى حذف اسمه من القائمة، والبعض الآخر إلى حذف اسم صدّام حسين، وهلمّ جراً، إلّا أن الأفكار المثارة يعرفها الجميع ولها التأثير الكبير الذى نعرف. ها هى ذى بعض المقتطفات من نصّه:

"إن أحد الأسس الأولية للحضارة الغربية الحديثة هو القوة العسكرية، واكتسبت هذه الأخيرة من الأهمية بحيث كادت أن تصل إلى اكتساب مبررات وجودها الخاصة مستقلة عن مبررات وجودها الأولى المتمثلة بنهب ثروات العالم والتحكم بثرواته. وهذه الحقيقة لا يمكن عرضها على شعوب العالم ، ولا إلى شعوب الحضارة الغربية بالخصوص، إذ إن تلك

الحقيقة تظهر فجأة وقحة، وأكثر من ذلك عندما يكشف عن البعد العسكرى المتخفى خلف الآلة العسكرية والنهب على صعيد الكرة الأرضية، المتمثل بالإيديولوجية الصهيونية للحملات الصليبية (وبخاصة البروتستانتية الأنجلوساكسونية) ممزوجة بالعنصرية المتضمنة فى فكرة تفوق العرق الأبيض الأوروبى.

والطابع المحارب الحضارة الغربية نفهمه أكثر عندما ندرك أن الأمر متعلق بشرط ضرورى من شروط وجود هذه الحضارة بالذات. إنه لمستحيل أن نتخيل الإبقاء على الحضارة الغربية وازدهارها خارج سيطرتها على ما تبقى فى العالم أو بغياب قدرتها على ممارسة العنف والقوة التى تشكل بالنسبة إليها مسألة مركزية - (٧٨).

وينضم مفكرون آخرون إلى منير شفيق لتقديم تحليلاتهم للسياسة الدولية فى ضوء أحداث ١٩٩١ . فمن جهته، يصف سعد الحاج حسن أزمة الخليج بالزلزال الذى بدّل معطيات العلاقات مع الغرب تبديلاً نهائياً: "كانت الحرب حرب الغرب الصليبي الصهيونى ضد المسلمين،

وبقيادة أميركا". ولم يتورع عن "إدانة العلماء والمفكرين الإسلاميين الذين بينوا طيلة الأزمنة عن عدم فهم لطبيعة أميركا، وبريطانيا، والصهيونية بخاصة، وكذلك الغرب بصورة عامة". وهو يرى "أن أوقات الشدة توقظ الناس من سباتهم وأن هذه الأزمنة بخاصة دخلت إلى أعماق قلوبهم لتحرك ضمائرهم ومشاعرهم وأمالهم، واضعين جانباً تبايناتهم في تقويم نهج الرئيس العراقي في قيادة النضال ضد أميركا وحلفائها". وقد عبّر عن "أمله في أن تعرف قيادة إسلامية ما كيف تقوم من جديد ما تختزنه الشعوب من مشاعر وآمال، وكيف تتفهم رغباتها لتقودها، حينما يحل الظرف الملائم، وتحولها إلى طاقة هائلة تدافع عن الإسلام والأمة في وجه الغزو الغربي" ويختم بالتحذير من "مغبة ما يخلج في صدور الناس العاديين من مشاعر الغضب والكراهية تجاه الأجنبي" (٧٩). ثم أن الكاتب يؤكد أن المواجهة تضع حضارتين وجهاً لوجه ، وأن انحياز العرب غير الإسلاميين إلى الإسلاميين منهم في معركتهم ضد الحضارة الغربية قد يكون أثراً مباشراً لحرب الخليج (٨٠). الفقرات التي تلي خالية من أى لبس:

على الناس أن يعيشوا إلى الأبد متخنين
مواقفهم من هذه الأزمنة، عليهم أن يقدموا
الحساب أمام ضميرهم، وأمام الآخرين
وأمام الله [...] فأمتنا ليست كالأمة
اليابانية أو الألمانية اللتان في وسعهما،

بعد أن أذلتهما ودمرتهما أميركا، أن تعودا إلى علاقة عادية مع تلك الأمة التي وفرت لهما نوعاً من المساعدة وبعض التضميد. والعداء للفرنسيين والإنجليز دام عشرات من السنين ويستمر بالرغم من حملات التأديب العسكرية والتربية السياسية، تضميد الجراح والمساعدة فى التنمية.

للنزاع مع الغرب بعده الحضارى المعروف جيداً لدى الإسلاميين، لكنه كشف عنه هذه المرة أمام الليبراليين والعلمانيين واليساريين والمسيحيين والعرب على وجه العموم. لقد شعر هؤلاء ولأول مرة منذ عشرات السنين - وربما لأول مرة فى حياتهم - مدى الشراسة التى يضمورها الغرب تجاه العرب والمسلمين باعتبارهم عرباً ومسلمين، لقد أحسوا بالجدار الهائل الفاصل بينهم وبين الغرب الذين يحبذون أو الذين كانوا يعتبرون أن الخلاف معه كان خلافاً سياسياً واقتصادياً أو استعمارياً، أو بين يمين ويسار أو كذلك بين الفاشية

والديمقراطية. وكننتيجة مباشرة لهذا الكشف فإن هؤلاء الناس يشعرون أكثر من أى وقت مضى بانتمائهم إلى حضارة أمتنا: فلم يعد فى وسعهم العودة للارتواء فى أحضان الحضارة الغربية المفتحة بعد تجربة حرب الخليج ويشعرون بفراغ؛ يرجع إلى العلماء والحركات الإسلامية أمر استقبالهم والتمنى لهم عودة سعيدة إلى حرارة الحضارة الإسلامية^(٨١).

ويستعيد رضا إدريس، بدوره، الرسوم الأصلية للغرب المستغل، والربط بين الغرب والحملات الصليبية والصهيونية، لكنما يركز على وجه الحرب الكاشف:

"النزعة الاقتصادية لنظريات الليبرالية الغربية التى أعقبت انهيار الاتحاد السوقياتى والكتلة الشرقية كادت أن تسيطر على الظرف الاقتصادى العالمى. والنموذج الديمقراطى الليبرالى على النمط الغربى، بدا للبعض أفضل صيغة حكم. صيغة طابعها: سيادة الشعوب وسيادة الرأى العام، البرلمانات وحرية الصحافة

والحريات الضمنية وتعدد الأحزاب".
فى هذا السياق، أطلقت حملات ضد
"التعصب"، و"التصرف والأصولية
الإسلامية".

غير أن هذه الحملات ما كاد أن
يُشرع بها، حتى انفجرت أزمة الخليج بين
أميركا والعراق" (٨٢).

وهنا، يتفحص إدريس سائر الجوانب المناهضة للديمقراطية التى
رافقت الحرب، منذ وضع اليد على مجلس الأمن حتى إلغاء حرية
الصحافة، مروراً بمفهوم "الكيل بمكيالين" الذى بات شهيراً، مما يبرز ظلم
الشرعية الدولية التى تعامل إسرائيل بوضع قفازات والعراق بحرب
لا هوادة فيها. ولا ينسى الكاتب تحديد أن بعض المعلومات قد حُجِبَتْ
عن الكونجرس الأمريكى، حتى أن أميركا لم تعلن رسمياً الحرب على العراق.

إن مفهوم "الكيل بمكيالين" الشهير هذا الذى طبق على العراق
وإسرائيل يستحق التوقف عنده قليلاً. ولنفتح هلالين: منذ أن نجح
الرئيس العراقي فى أن يطرح فى الإعلام على نطاق واسع ذلك الجانب
المحقر فى السياسة الخارجية للقوى العظمى المشمولة بمصطلح الغرب،
ما عاد بالإمكان تجنب هذا المفهوم. وصار على ألسنة سائر أنماط
القادة والأفراد العاديين العرب. إن أصدقاء الغرب، مثل الرئيس حسنى
مبارك، لا يسعهم ترك الرئيس صدام حسين ينفرد باستخدام الإعلام،

فلم يحرّموا أنفسهم من إدانة هذا العنف. لا أحد يستطيع أن يتخلص من هذا الشعور العام بالخيبة إزاء "الكيل بمكيالين"، حتى وإن لم يستجب عدد لا بأس به من الحكام للرغبة الشعبية تمشيًا مع مجرد تلميع صورتهم. لم يتورع الرئيس التركي، أوزال، مثلاً، عن إدانة "الكيل بمكيالين"، حتى ولو كان هو أحد المستفيدين الرئيسيين منه، نظراً لأن نظامه نجح باستمرار في قمع الأكراد من دون أن يساوره القلق من ذلك، في حين أن جاره العراقي يعاني، في الحالة الراهنة على الأقل، من وطأة العدالة الدولية ^(٨٣).

ولنعد إلى إدريس الذي يرى أن حرب الخليج جاءت لتحطم أسطورتين أخريين، فضلاً عن استخفافها بجدوى القانون الدولي وقرارات مجلس الأمن، ألا وهما أسطورة احترام حقوق الإنسان في الغرب، وأسطورة جدوى المؤسسات في الغرب في مكافحة الفساد وتصويب انحرافات القادة (فهو يعطى مثل واترجيت مصدر افتخارهم). في الحالة الأولى، كان من شأن احتجاج الطلبة العراقيين الاعتباطي في بريطانيا وفي الولايات المتحدة، إضافة إلى التحرشات التي تعرّض لها مواطنون مسلمون أو من أصول عربية (استدعاءات، حملات تفتيش، وتحقيقات بوليسية) أن تفضح تفكك أول أسطورة. "لقد كشف الغرب بذلك عن ضعفه. إذ إنه يضع جانباً كل القيم التي يتباهى بها، ما إن يشعر بأدنى خطر" ^(٨٤). في الحالة الثانية فإن كون إدارة بوش لجأت إلى الكذب دون حسيب ولا رقيب فقد انهارت الأسطورة الثانية. وجرى

ذكر مثلاً مصنع الألبان الذي قُصِفَ بحجة أنه مصنع للأسلحة الكيميائية، لا سيما أن خبراء غربيين وآسيويين هم الذين أكدوا أن المصنع كان مصنعاً للألبان. وعرض الكاتب قائمة من الأكاذيب والتلفيقات التي نطق بها جورج بوش (الأب) وفريقه كإثبات على قدرتهم على التصرف من دون حسيب ولا رقيب داخل المؤسسات الغربية.

"كم هو متخلف غرب بوش مقارنة مع غرب ديكارت!" صرخة التعجب هذه أطلقها الكاتب تنديداً بـ "الاحتكار العلمي الذي يمارسه الغرب والذي انكشف بجلاء أكبر في حرب الخليج". وبالمقارنة، يُذكرُ بـ "تفرد الحضارة العربية الإسلامية التي مارست الترجمة والنشر والتعليم والتوزيع من دون حدود ومن دون شروط؛ حضارة كانت تعترف بكونية المعرفة، وبأن مختلف الاكتشافات التي أتت بها الحضارات السابقة تمثل تراثاً مشتركاً تعود ملكيته للعقل" ^(٨٥). ويختم حديثه بفكرة أن حرب الخليج ليست كاشفة وحسب بل هي أيضاً موحدة. لقد أسهمت في إعادة عدد لا بأس به من الأشخاص الصادقين المُضللين إلى فلك المعسكر المناهض للغرب.

من ناحيته، خصص حسن صالح مقالته لنقد خطاب فرانسيس فوكوياما "الذي يعلن فيه نهاية زمن التحولات الإيديولوجية للبشرية، وانتشار الديمقراطية الليبرالية الغربية في العالم أجمع باعتبارها نموذجاً نهائياً للحكم القائم على الأرض" ^(٨٦). فینعت الكاتب وجهة النظر هذه بأنها مركزية أوروبية النزعة (وهو مفهوم يمتد حتى يشمل

أميركا وروسيا) ويتوقف عند اعتراف فوكوياما بأن "الإسلام وحده يوفر بديلاً سياسياً بطرحه الحكم الدينى عوضاً عن الليبرالية والشيوعية". ويرفض صالح تحليل فوكوياما الذى يؤكد فيه "أن هذا المبدأ ليس مقبولاً عند غير المسلمين وأنه من الصعب الاعتقاد بأنه يمكن لهذه الحركة أن تصبح عالمية الشأن". فبالنسبة إلى صالح:

"إنه لبالغ المعنى ألا يكون ألف مليون من المسلمين نوى أهمية عالمية بالنسبة إلى فوكوياما، إضافة إلى أن الإسلام مقبول قبولاً واسعاً داخل هذه الجماعة التى تضاعف عددها فى غضون خمسين أو سبعين سنة متخطية تعداد الأميركيين والأوروبيين. من جهة أخرى ماذا سيحل بها عندما يتحول الإسلام إلى زعيم للعالم الثالث ولجميع مقهورى هذا العالم فى مواجهة النظام العالمى المجحف المتمثل بالليبرالية الغربية؟

كما وأن حرب الخليج قدمت الدليل على أن النزاعات الكبرى لم يول زمنها وبحضت استنتاجاته [استنتاجات فوكوياما] قائلة إن النزاعات الكبرى لا يمكن أن تنشب

إلا مع روسيا أو الصين... باعتبار الحرب
ضد العراق ليست فقط نزاعاً كبيراً، وإنما
أيضاً بأهمية حرب عالمية" (٨٧).

ويطرح صالح تحليلاً خلدونياً فى مقابل تحليل فوكوياما فيقول (٨٨) :

"انتقال الدولة من الدين والحق [وتوسعاً
الإيدلولوجية] إلى دولة قوة ووفرة،
ثم إلى دولة انحطاط مادی ومعنوی، ثم
العودة بعد ذلك إلى دولة الدين والحق وإلخ
[...] ما يطلق عليه اسم النموذج
الليبرالى وريث الدولة القوية والمتأثر بدولة
الوفرة التى تحمل فى داخلها بذور الفساد
والانحطاط" (٨٩).

وببشّر هذا التحليل إذن، بعكس تحليل فوكوياما، بنهاية مرحلة
انتصار النموذج الليبرالى الغربى. ويختم الكاتب برفضه الكلى لفكرة
فوكوياما فيقول:

"إنها نظرية كولونيالية ترمى إلى
المحافظة على تقسيم العالم بين مستعمرين
ومستعمرين ، مع فارق وحيد هو أن هؤلاء
سيُصنّفون من الآن فصاعداً ضمن فئة

عالم البلدان الليبرالية التي بلغت نهاية
التاريخ [المستعمَرين] بينما الآخرين
سَيُصَنَّفُون بين البلدان الفارقة في وحول
التاريخ [المستعمَرون] (٩٠) .

إن الرسالة التي يحملها هؤلاء الكُتَّاب ليست رسالة جميع العرب،
إنما تعكس تماماً شعوراً شعبياً طاغياً سيترك لفترة طويلة أثراً في
ذاكرتنا الجمعية. ففي رد الفعل على حرب الخليج، بلغت المشاعر
الشعبية المناهضة للحرب لحظات من الانفعال شديدة الكثافة. ونجد
بقايا منها في المقروء من المقالات والكتب وفي المسموع والمرئي من
الوسائل المتصلة بها. وكدليل على ذلك، هذا الشريط المسجل الذي جاب
على الخصوص الأوساط التونسية، وأبرز ما جاء فيه "غضب الشعب
يحرق كل الخيانة" و"قبرك يا محمد يحميه الأمريكان" (٩١).

ثمة جرس إنذار آخر وفد إلينا من محمود زواىى الذى أرجع
موقف التضامن مع العراق، فى معرض الحديث عن موقف المجتمع
التونسى من حرب الخليج، إلى سببين: "عدائية تجاه الغرب متجذرة فى
اللاشعور الجمعى (تاريخ العلاقات بين المسيحية والإسلام، الصليبية،
صلاح الدين...) ورد الفعل على مسعى نظام بورقيبة لخلق المجتمع
التونسى بمنعه من الإفصاح عن مشاعره وعن انتماءاته العربية" (٩٢).
ويضيف بعيد عدة فقرات عاملاً آخر ذا شأن: "الشعور بأن تصميم
الحكم العراقى يعيد التوازن إلى حالة مذلة غارقة فيها الشعوب العربية،

ويضع حداً لاحتقار الغرب لها؛ لا سيما الاحتقار الذي يعامل به الغرب الشعب الفلسطيني^(١٣).

* * *

الغرب المهيمن، الغرب المادى والمتحلل، الغرب حامى إسرائيل، الغرب العدو الذى لا بد من رفضه ككل، باختصار، الغرب الشيطاني، مستعيرين مصطلحاً عزيزاً على آية الله روح الله الخميني، إنما هو مفهوم حاضر حضوراً كبيراً في الوجدان السياسي العربي. بيد أن هذا الفصل، لنن أكد على وجود فكرة الرفض (هذا فيما لو كانت هناك حاجة لتأكيدهما)، فإنه قد أتاح إبراز الفروق الدقيقة الموجودة هي أيضاً. إن الرفض ليس رفضاً ككتلة مترابطة، وليس موحد الشكل وقد يتغير من شخص إلى آخر وأحياناً عند الشخص نفسه في أوقات متباعدة. إنه موجود، ورأيناه في الفصل السابق، حتى لدى أصحاب نزعة رفع الغرب إلى مرتبة المثال. وفيما يتعدى الرفض والرفض، لا بد لنا أن نتحدث عن التمزق والبليلة.

حواشى الفصل الرابع

(١) يرفض آية الله السيد محمد حسين فضل الله استعمال مصطلح أصوليين ويؤثر استخدام مصطلح الإسلامى. ساستخدم إذن المصطلح الذى اختاره أحد القادة الذى يحظى باكبر قدر من الاحترام ضمن هذا التيار؛ لا سيما أن مصطلحى "تمامية" و"أصولية" يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بلحظات تاريخية خاصة بالمسيحية الأوروبية. وتجدر الإشارة إلى أن مناضلين إسلاميين كثيراً يحيلون على حركتهم فيسمونها الصحوة الإسلامية. راجع النص الحرفى للحديث فى الملحق. أعطى هذا الحديث فى العاشر من آذار/مارس ١٩٩٢ .

(٢) لقد جرت هذه المقابلات ببلنان فى شباط/فبراير ١٩٩٢ بالارتكاز على أحاديث أدلى بها ناشطون من أنصار الجنرال عون. والتسجيلات والبيانات الموزعة من قبل العونيين وفيرة كذلك فى هذا الاتجاه مما لم يمنع الجنرال سنة ٢٠٠٤ من المراهنة مجدداً على الولايات المتحدة.

(٣) يشهد على ذلك الشيخ كشك ورشيد الغنوشى ، وعبد الفتاح مرو ، والشيخ سعيد شعبان. وتوفر أحداث حماة الشهيرة فى سوريا، وهى التى شهدت صدامات بين الإخوان المسلمين والحكم، وتلك الأحداث عهداً فى الجزائر متلين من بين سواهما عن هذا التيار.

(٤) راجع رشيد رضا، "سيرة الأستاذ الإمام" (سيرة حياة الإمام محمد عبده)، مج ٨، القاهرة، مجلة المنار ، ١٩٠٥ .

(٥) إذ عين رسمياً من قبل الحكومة وكلف بإصدار فتاوى فى شئون الشرع الإسلامى. كان المفتى السلطة الدينية الوحيدة التى تعترف بها الحكومة.

(٦) محمد عبده، الإسلام ، دار الهلال [لا م، لا ت] ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٧) ينتقد الإسلام بقسوة وجود إكليروس في المسيحية ويؤكد عدم حاجة الفرد لوسيط بينه وبين إيمانه.

(٨) حتى ولو وقع في تناقض، في الصفحة ١٥٤، عندما يوضح بأن البروتستانتية، التي أعلا من شأنها ومدحها للتو طارت رجال العلم، مثل إيراسموس.

(٩) راجع على سبيل المثال، رسالة التوحيد . النص المشار إليه مثبت في مقدمة الطبعة الفرنسية: *Traité de l'unité divine*, Paris, Librairie Orientaliste, 1925, p XLIX.

(١٠) م ن، ص XXXIX .

(١١) لا سيما، الآية ١٠٥ من سورة المائدة التي تقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ .

(١٢) نعتمد تعريف عبد الله يوسف على مفهوم الجهاد: "هنا تعريف جيد للجهاد. إنه يفرض الجهاد في سبيل الله كشكل للتضحية بالذات. لكن جوهره يكمن في (١) ثقة حقيقية وصادقة بالله بحيث تبدو كل الدوافع الأنانية والدنيوية تافهة وضيعة و(٢) نشاط جاد ودؤب، والتضحية (إن لزم ذلك) بالحياة والنفس والملك في سبيل الله. جهاد بسيط هادف يتعارض مع روحية الجهاد برمتها بينما قلم العالم أو الخطب الدينية أو تبرعات الأثرياء قد تكون لأشكال الجهاد الأرفع شأنًا".

Abdullah Yusuf Ali, *The Holy Qur'an, Translation and Commentary*, [s.l.], McGregor & Werner Inc., 1946 [1934], note 1270, p. 444.

(١٣) الإسلام، م س، ص ١٠٠ .

(١٤) لا أقوم هنا سوى بإعادة صياغة مختلف مواقفه التي تنحو هذا المنحى كما في الإسلام ، ص ١٠٠ . أو كما في مقدمة الطبعة الفرنسية لرسالة التوحيد.

(١٥) لقد اخترت معالجة تأثير محمد عبده في هذا الفصل وليس في فصل (الغرب ورقعه إلى مرتبة المثال) على سبيل الاستفزاز بعض الشيء، لأبين مرونة الفصول وما تعكسه من ميول. على كل حال، لا يمكن تصنيف محمد عبده تصنيفاً قاطعاً وبدون تمييز، مع هذا الاتجاه أو ذاك.

(١٦) في يوسف العظم، الشهيد سيد قطب، بيروت، دار القلم، ١٩٨٠ . رُويت هذه الحادثة في الصفحة ٢٠٧ من هذه السيرة. ويوضح المؤلف أن الفريق الطبي المشرف على

قطب ردّ على سؤاله لهم عن سبب فرحتهم فصرخوا: "لقد تخلصنا من العدو رقم واحد للغرب في الشرق... مات حسن البنا مقتولاً".

(١٧) بخصوص الشكل الثقافي راجع، مثلاً، التعارض الذي يصفه البنا بين "الإخوان المسلمين، المدافعين عن الإسلام" والإرساليين المعتدين على الإسلام، في مذكرات الدعوة والداعية، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٧٩، ط ٤، ص ١٤٨.

(١٨) خصائص التصور، في مواضع مختلفة. تجدر الإشارة إلى الربط التلقائي بين الغرب والصهيونية.

(١٩) الإمامة: أو التقليد الشيعي الذي يحتل فيه المتحدرون من سلالة النبي موقع الإمام أو قائد الأمة. ولاية الفقيه: هي الطريقة التي يتبناها الشيعة لإيصال مسؤولية قيادة الأمة إلى الأكثر علماً من بين الأئمة، بانتظار عودة "الإمام المغيّب".

(٢٠) آية الله العظمى الإمام الخميني، الوصية الخالدة، مكتب مفوضي الإمام الخميني، الذكرى الأولى لوفاته. راجع أيضاً الحكومة الإسلامية ...

(٢١) راجع في الحكومة الإسلامية، [لا م، لا ت]، ص ١٦. إن هذا النص وثيقة مكتوبة تستعيد الدروس التي كان الإمام يعطيها لطلابه في النجف الأشرف سنة ١٣٨٩ هـ؛ كان عنوان هذه الدروس - ولاية الفقيه. رسالة الإمام واضحة، يتعلق الأمر بإقامة حكومة إسلامية بالقوة.

(٢٢) م ن، ص ٨، هنا أثيرت مسألة الإرساليين، والمستشرقين والصليبيين والإعلام والإمبريالية. راجع أيضاً ص ٢١، ٢٢ و ١١٠.

(٢٣) م ن، ص ١٥ و ١٧. فيما يتعلق بالإعلام وأهميته، راجع أيضاً الوصية الخالدة، م س، ص ٥١، ٥٢ و ٥٩.

(٢٤) م ن، ص ١٥ و ١٦ و ١٨. كذلك، في ما يتعلق بالحرب ضد العراق، فهو يتهم صدام بالعمل بأمر من الولايات المتحدة وبمساعدهم، ص ٥٦ من وصيته.

(٢٥) تجدر الإشارة إلى أن اللفظ المستخدم للدلالة على الكتلة الشرقية هو الشرق. واللفظ ذاتها مستخدماً للدلالة على بلاد الشرق (المشرق).

(٢٦) م ن، في مواضع مختلفة.

(٢٧) الوصية نفسها يسديها إلى سائر المضطهدين في العالم.

(٢٨) في كتابه الحكومة الإسلامية ، م س، ص ١٢ و١٣، تضاف بلجيكا إلى الثلاثي باعتبارها مصدر إحياء للأنظمة الملكية ولأنماط الحكم الوراثية. ويوضح الإمام أن هذه الظواهر "مستوردة وتعارض مع الإسلام".

(٢٩) راجع من بين كتب أخرى، الحكومة الإسلامية ، م س، ص ١٤ و١٥ بخصوص استعمال كلمة الغرب. هنا يقول لنا الإمام: "أنا أعجب لهؤلاء كيف يفكرون؟ جلد شارب الخمر ٨٠ سوطاً فيه خشونة، وإعدام الأشخاص بسبب تهريب ١٠ جم هيرويين لا خشونة فيه! في حين أن أكثر المفاسد الاجتماعية إنما يسببها الخمر. حوادث الاصطدام في الطرقات، حوادث الانتحار، وحتى الإدمان على الهيرويين - كما يقول البعض - من عواقب السكر ومعاقرة الخمر. ومع ذلك فهم لا يحظرون الخمر، لأن الغرب قد أباح هذا. والويل للإسلام إذا أراد في هذه اللحظة أن يتدخل ويجلد شارب خمر بحضور طائفة من المؤمنين، فإن أولئك سيتهمون بالخشونة والقسوة. وفي مقابل هذا لا ينبغي الاعتراض على ما يجري في فيتنام من مجازر دموية منذ خمسة عشر عاماً على يد سادة هؤلاء الحكام..."

(٣٠) راجع الحكومة الإسلامية ، م س، ص ١٧ و١٨، حيث يمالج الإمام هذين القطبين، فيقول: "ليذهبوا إلى المريخ، وإلى أي مكان يشاءون، فهم لا يزالون متخلفين في مجال توفير السعادة للإنسان، ومتخلفين في نشر الفضائل الخلقية، وفي إيجاد تقدم نفسي روجي مشابه للتقدم المادي. ولا يزالون عاجزين عن حل مشاكلهم الاجتماعية".

(٣١) لقب سيد يدل على انتمائه إلى جميع المتحدرين من سلالة النبي محمد. لقد خصني بحديث حصري، الأمر الذي أتاح لي أن أناقش معه بعض المسائل المطروحة في هذا الكتاب. جرت المقابلة في الضاحية الجنوبية لبيروت، في العاشر من آذار/مارس ١٩٩٢. والنص الكامل مثبت في الملحق.

(٣٢) تجدر الإشارة على سبيل المثال أن الولايات المتحدة وحدها هي التي جرى ربطها بإسرائيل في البيان الموزع من قبل حزب الله عقب اغتيال زعيمهم عباس الموسوي وزوجته ولدهما. والبيان هو بمثابة رسالة تعزية من أية الله على خامنئي.

(٣٣) يستخدم السيد لفظ أميركا ليشير إلى الولايات المتحدة.

(٣٤) راجع أيضاً سيرته تأليف على حسن سرور، العلامة فضل الله: تحدى المنوع، لبنان، دار الملاك، ١٩٩٢ .

(٣٥) الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي حافظ لفترة طويلة على وحدته، يعاني اليوم من انقسامات نهضة من الداخل، وزعيمه التاريخي هو أنطون سعادة.

(٣٦) راجع، مثلاً، الرفض الذي يُعبّر عنه عقلق نفسه للحكم في سوريا عام ١٩٦٣، والذي كان قد أعلن انتماءه للبعث ورفع لواءه. في ميشال عقلق، نقطة البداية، ط ٤، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣، ص ١٤ .

(٣٧) ميشال عقلق، في سبيل البعث، ط ٢، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٣، [ط ١، ١٩٥٩] . معركة المصير الواحد، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٨؛ نقطة البداية، م س.

(٣٨) في سبيل البعث، م س، راجع ص ٥٦-٥٨ حيث مصطلحي الغرب وأوروبا مستخدمين كأنهما متعاضدان.

(٣٩) على غرار ما فعله بصورة استثنائية في الصفحة ٣٢٥ من في سبيل ... أو، كذلك، عندما يجهد نفسه للتمييز داخل الغرب بين الولايات المتحدة، التي كانت قد عارضت العدوان الثلاثي لسنة ١٩٥٦، وبين الثاني فرنسا - إنجلترا. هذا العمل المحمود للولايات المتحدة إنما تعاكسه مواقف كثيرة مؤيدة لإسرائيل: في معركة المصير ...، م س، ص ١٢٤ و١٢٥. كما أنه لاحظ أن عقلق استخدم أحياناً مصطلحي الغرب والشرق بقصد تعيين مناطق جغرافية داخل العالم العربي؛ في هذه الحالة، يكف الغرب عن أن يكون ذلك الغرب الذي يدخل في صلب اهتمامنا. م ن، ص ٩٩ و٢٢٨ غير أنه لا يتوقف لإعادة النظر بالمصطلحات؛ بالعكس، فهو أيضاً يستخدم عبارة الشرق الأوسط على النحو ذاته الذي استخدمها فيه الذين اخترعوها، أي الأوروبيون، وذلك دون التوقف عند النزعة الأوروبية المركزية الكامنة في المصطلح (راجع ص ٢٢١). ونشدد على أن نزعة انتقاد المصطلحات حديثة العهد وما زالت اليوم مهمشة بعض الشيء.

(٤٠) م ن، ص ١٩٣. هنا، يحدد موقفه إزاء الشيوعية ويعرف فيها ظاهرة غربية نشأت عن فكر أوروبا الحديثة وواقعها: "الشيوعية غربية ودخيلة على كل ما هو عربي". وبالمناصفة نقول إنه لجدير بالإشارة إلى أنه سوف يحاول تمييز معارضته للشيوعية والاتحاد السوفييتي؛ سيظهر نوعاً من الود حيال الثورة الصينية، واحدة من أعمقها في القرن العشرين. في هذا الصدد راجع في نقطة البداية، م س، ص ص ٥١-٥٣ و ص ١٣٠ و١٣١. الاستشهاد مأخوذ من الصفحة ٥٢ .

مؤتمرات الصحافية حول السياسات العراقية، بالإنجليزية، ترجمها ناجي الحديثي، بغداد، دار المأمون، ١٩٨١، ص ٧١).

(٥٠) م ن، ص ٦٧ . راجع أيضاً ص ص ٧٦-٨٢ حيث نعث من جديد على مبحث الماضي المجيد ضد الحاضر المخطط . وقد أبرز أيضاً نجاح الأمم الغربية الراهن كما أبرز تماماً ضرورة أن نبلغ النجاح باتباع طريق ينبع من واقعنا العربي بعيداً عن محاكاة الغير. وفي الصفحة ١٨٢، استخدم وزن التاريخ ومجد الماضي لتعزيز صورة البعث بصفته قدر العرب.

(٥١) راجع أيضاً في هذا الصدد الصفحة ١٥٤ من الكتاب نفسه حيث يقول تحديداً في معرض الحديث عن الأحزاب السياسية في الغرب: 'إذا كانت الأحزاب السياسية في الغرب على صورة الدولة وليس لها سوى جسد بلا روح فذلك بالضبط لأن بلدانها لا تحتاج إلى أكثر من ذلك'.

(٥٢) م ن، ص ٨٤ .

(٥٣) م ن، ص ٩٢، ٩٣، ٩٩ . في نقطة البداية ، م س، ص ٢٨، يبدو أنه قد وصف قبل عقود، بعض الجوانب الراهنة المتعلقة بالقضية الكردية عندما قال: 'الحركة الوطنية الكردية لا يمكن أن تتناقض مع الثورة العربية وإذا تناقضت يكون الاستعمار وراء هذا التناقض سواء في خلقه لقيادات عملية لهذه الحركة أو بدفعه وتوريثه لحكومات عربية رجعية أو انفصالية للتصدي لتلك الحركة'.

(٥٤) م ن، ص ٩٩ .

(٥٥) م ن، ص ٢٤٥ و ٢٤٦ . إنني مسئول هنا عن إعادة صياغة أدت إلى دمج فقرتين من الأصل العربي.

(٥٦) راجع، مثلاً، م ن، ص ١١٣ و ١٢١ . في موضوع الاستعمار راجع أيضاً معركة المصير م س، ص ص ٨٦-٩٤ .

(٥٧) م ن، ص ٢١٧ و ٢١٨، حيث يتعلق الأمر على التوالي بالزعامتين المصرية والعراقية المتواطئتين. راجع أيضاً م ن، ص ٢٣٥ و ٢٤٩ . راجع أيضاً، في موضوع تواطؤ الزعماء، معركة المصير م س، ص ١١٥، ١٢٢ و ص ص ١٥١-١٥٥ . في أحداث أيلول الأسود لم يتوان علق عن تشبيه الحكم الأردني بالصهيونية والاستعمار، نقطة البداية ، م س، ص ١٧٣ .

(٤١) م س، ص ص ٥٠-٥٢ . يتعلق الأمر في هذه الحالة بنص خطاب ألقى في الجامعة السورية عام ١٩٤٣ .

(٤٢) إن عبارة تفرنج مشتقة من الفرنج ، وهي تسمية لسكان الإمبراطورية الكارولنجية، ثم جميع الأوروبيين و، تعميماً، اليوم، الغربيين. يمكن استعاضة تفرنج بأوروبية أو تغريب.

(٤٣) م ن، ص ص ١٢٤ و ١٢٥ . يتابع عفلق صياغة عدم تطابق المفهومين الغربيين للقومية والإنسانية مع الواقع العربي إذ إنهما ينبعان من حاجات واستعدادات شعب آخر.

(٤٤) سنجد أيضاً في الصفحة ٢٥٤ تشبيهاً لحلف بغداد (السينتر) بهجوم استعماري دفاعي شنه الإنجليز ضد اليقظة العربية.

(٤٥) لا يتعلق الأمر بالتلميح بأن الشخصيات التاريخية لم يكن لها عند العرب سوى مؤيدين. لكن بعضها كان لا مناص منه ، وفيما يتعلق بعيد الناصر والغرب، مثلاً، راجع معركة المصير م س، ص ص ١٠٩-١١٢ . إليكم ما ذكره عفلق في الصفحة ١١٠: "إن جمال عبد العناصر هو فعلاً بالذات موضوع وهدف لهذه المعركة الفاصلة التي يشنها الغرب الاستعماري، من خلال شخصه، على العرب وحريرتهم ووحدتهم وتقدمهم".

(٤٦) معركة المصير م ن، ص ص ١٦١ .

(٤٧) م ن، ص ص ٦٥ .

(٤٨) م ن. تشير إلى الانزلاق في المصطلحات حيث ذكرت أوروبا عوضاً عن الغرب. كما تجدر الإشارة إلى أن كلمة ثقافة التي تتكرر في النص العربي يمكن أن تعني أيضاً تربية.

(٤٩) مجلة ألف باء، رقم ١٠٧٢، نيسان/أبريل ١٩٨٩، ص ٧، استشهد بها طه الطايح النعيمي، النهضة العلمية والتكنولوجيا في فكر الرئيس القائد صدام حسين، بغداد، وزارة التربية والإعلام، ١٩٩٠، ص ٧، من ناحية ثانية، لم يال حزب البعث العراقي جهداً لإبراز بُعد اكتساب المهارات العلمية عبر تعميم عصرنه صناعة البلاد (راجع، في هذا الصدد، قائمة المراجع في آخر كتاب طه الطايح النعيمي، م س). والرئيس العراقي نفسه رأى استعماراً جديداً في الهوية التي تفصل بين بلدان العالم الثالث والبلدان الصناعية على صعيد العلوم والتكنولوجيات (راجع صدام حسين، مجموعة

(٥٨) معركة المصير م س، ص ١٥٣ .

(٥٩) فى هذا الموضوع، ثمة جرس إنذار قادم من أحمد فوزى (ناصرى). فقد خصّص كتاب غرب... أم غروب [لا م] ، دار الشرق الجديد [لا ت] ، بالكامل للتنديد بتعاون عبدالكريم قاسم مع الغرب ويتعاون نوري السعيد والعائلة المالكة قبل ذلك. وعديدة هي التدايعيات بين الغرب والإمبريالية والصهيونية؛ هوجم كذلك تواطؤ الشيوعيين العراقيين (راجع، مثلاً، ص ١٠٦، ١٠٧، ١٧٣ و ١٨٣). وفى الصفحة ١٨١ يرفض عبارة الشرق الأوسط قائلًا: "الشرق الأوسط عبارة استخدمها الغرب لتسمية منطقة أعد الإمبرياليون لها مخططاً إستراتيجياً واسع النطاق، له أهدافه بعيدة المدى". وفى عنوان الكتاب نوع من اللعب على الكلام بين الغرب والغروب. وغروب الشمس تحمل فكرة إبراز العلاقة الوثيقة بين قاسم والغرب والتنبؤ بغروبها أو نهايتها ونهاية مثيلاتها.

(٦٠) م ن، ص ٣١٧؛ راجع أيضاً ص ص ٣٢٢-٣٢٤ . بخصوص الخطاب البعثي عمومًا والقضية الفلسطينية، راجع حسن طوالب، البعث وفلسطين ، بغداد، دار المأمون، ١٩٨٢ .

(٦١) م ن، ص ٣١٨ .

(٦٢) م ن، ص ٣٤١ و ٣٤٢ . تجدر الإشارة إلى أن ميشال علق وجد للبعث حسنة أخرى هي تلمين الأقليات العربية وانتزاع هذا السلاح من يد الصهيونية.

(٦٣) تعبير مستعار من غسان سلامة من المجلس الوطنى للبحوث العلمية (فرنسا) وهي صورة شائعة جداً فى العالم العربى.

(٦٤) نقطة البداية ، م س، ص ٦٦ و ٦٧ .

(٦٥) م ن، ص ٢٢٤ . لقد أطلقت هذه التأكيدات فى ٢١ كانون الثانى/يناير ١٩٤٨ .

(٦٦) راجع الفقرة المخصصة لهذه المسألة: م ن، ص ص ٣٢٩-٣٣٤ . راجع أيضاً ص ص ٣٤٢-٣٤٥، حيث يرفض صراحة كل تحالف مع الغرب.

(٦٧) هناك لبنانيون ليسوا ميالين للغرب يستسيقون جبران كذلك. خصصت بالذكر المولعين بجبران ممن هم مياليون للغرب لإبراز التناقض بين حبهم للغرب ونزعتهم الجبرانية التى لا تتسجم مع الرؤية التى حملها جبران. راجع أيضاً المقالة الممتازة بقلم محمد

بُنَيْس، في الحياة ، الصادرة في لندن، بتاريخ ٧ حزيران/يونيو ١٩٩٥، ص ٢٠ .
وهنا، يرد بُنَيْس، الشاعر والكاتب المغربي، على النقد الذي يريد التقليل من اعتبار
جبران على قاعدة انتمائه للغرب مشدداً على سخف المعادلة لأنها مرتكزة على النجاح
الذي لقيته أعمال جبران في الغرب. ويمضيها في هذا المنطق العقيم، فإن الثقافة
العربية محكومة بالزوال ما إن تلقى صدى حسناً في الغرب.

(٦٨) في الأنوار ، ٢٤ شباط/فبراير ١٩٩٢، ص ٧ .

(٦٩) مستقبل اللغة العربية، في المجموعة الكاملة، م س، ص ٥٥٦ .

(٧٠) عبد الله النديم، سلافة النديم في منتجات عبد الله النديم، القاهرة مطبعة هندية
بمصر سنة ١٩١٤ ج ٢، ص ٦٥-٦٦ و٨٢ . م س، ص ص ١٣٦-١٤٠ .

(٧١) "القذافي يقاوم ضغوطات الأمم المتحدة"، لاپرس ، مونتريال، ٥ نيسان/أبريل، ١٩٩٢،
ص ١ .

(٧٢) راجع، مثلاً، الجرائد اللبنانية: السفير ، ٢٦ شباط/فبراير، ص ١؛ الأنوار ،
٢٥ شباط/فبراير، ص ١، ٢٢ شباط/فبراير، ص ١٠، ٢١ شباط/فبراير، ص ١٠،
و١٨ شباط/فبراير، ص ١، و١٩ شباط/فبراير، ص ١؛ و النهار ، ١٩ شباط/فبراير،
ص ١ . وفي الأردن، جريدة الدستور ، ١٢ شباط/فبراير، ص ١ . وفي مصر، مصر
الفتاة ، ٢ شباط/فبراير، ص ٨ . وفي العراق، الثورة ، ٦ شباط/فبراير، ص ١ .
جميع هذه الصحف تعود إلى ١٩٩٢، وقد اختيرت تبعاً لصدف سفراتنا إلى المنطقة.
راجع أيضاً الأسبوعيات التالية: الحوادث ، ١١ أيلول/سبتمبر، ص ١٠، والمستقبل ،
١٠ كانون الأول/ديسمبر، ص ٩ . إن صورة المجابهة مع الغرب والربط مع الحملات
الصليبية تدخل حتى في وسائل إعلام غير عربية يستقبلها عرب داخل منازلهم في
مونتريال؛ وهكذا فقد أمكننا أن نرى على شبكة إي بي سي نيوز (ABC News) مع
بيتر جينينغز، أحد سكان القاهرة شاهراً جريدة مصرية حملت عنوان: "الغرب يفرض
الحصار على ليبيا" أو، كذلك في التاريخ نفسه، توضع أنباء (أنتين ٢) الفرنسية قائلة
إن صحيفة لبنانية وصفت العقوبات ضد ليبيا على أنها حملة صليبية جديدة.

(٧٣) "البشير: السودان ضحية هجمة غربية منظمة"، في الحياة ، الصادرة في لندن، طبعة
نيويورك، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤، ص ٦ .

(٧٤) راجع في موضوع المرارة والخيبة في الصف العربي ، المقال النير بعنوان فلسطين: المثلث المكسور، بقلم إرسكين ب. تشلدرز، في مجموعة حررها ج. هـ. تومسون و ر. د. رايشاور (محررين)، تحديث العالم العربي ، برينستون، ثان بوستراند كو. إنك. ١٩٦٦، من ص ١٥٠ إلى ١٦٥ .

Palestine: The Broken Triangle par Erskine B. Childers, dans J.H. Thompson et R.D. Reischauer (dir.), Modernization of the Arab World, Princeton, Van Nostrand Co. Inc, 1966, p. 150 à 154.

(٧٥) لنسجل أن الإيطاليين قد ميزوا مواقفهم مرتين على الأقل، في السنوات الأخيرة، عن مواقف شركائهم في غربنا المتخيل:

- مرة في بيروت حيث كانوا، بصفتهم مشاركين في القوة متعددة الجنسيات المرسلّة عقب الاجتياح في العام ١٩٨٢ . ونظراً لأن مشاركتهم لم تتخذ طابعاً عنيفاً (مساعداً طبية، انخراطها في عمليات إنقاذ منطقة صبرا وشاتيلا المنكوبة، إلخ) قد استقبلوا بحفاوة أكبر (أو لنقل بعدائية أقل) مما استقبل فيها زملاؤهم من القوة الفرنسية، أو البريطانية أو الأميركية، ولم يتعرضوا لأي اعتداء، ومرة ثانية، في إطار عمليات الأمم المتحدة في الصومال، في تموز/يوليو ١٩٩٣ . والنزاع الناشب بين روما من جهة وبين الأمم المتحدة والولايات المتحدة من جهة أخرى جاء ليعزز هذه الصورة الإيجابية في وجداننا عن إيطاليا .

(٧٦) وتستعيد الجرائد العربية بلا كلل مصطلح الغرب سواء من خلال كتابات لأقلام عربية ، أم من خلال إعادة نشر الأنباء التي تأتيها عبر وكالات الأنباء الأجنبية مثل أ ف ب، رويتر أو سي إن إن . هذه الملاحظة مستندة إلى معاينة دامت من كانون الثاني/يناير إلى شباط/فبراير ١٩٩٢، شملت الصحف التالية: النهار، الأنوار، السفير (لبنان)، الدستور، الشعب، الرأي، اللواء (الأردن)، مصر الفتاة (مصر)، الحياة، القدس العربي، (مكاتبها الرئيسية في لندن).

(٧٧) في الواقع لقد سال مداد كثير في الأردن لتحية الوزير شوقي نعمان على جرأته، وهو بطل الساعة، الذي استقال احتجاجاً على مشاركة حكومة بلاده في التحالف المناهض للعراق. لقد راهنت افتتاحيات ومقالات عديدة على حدوث ظاهرة كرة ثلج قد تجر إلى استقالات في صفوف المسؤولين الفرنسيين. اللافت في الأمر أنه كثيراً ما استخدمت

الإحالات إلى الجنرال ديجول. والمباحث التي تكررت فيها كانت: أصالة شوفينمان، مقاومته للمؤامرة الغربية الصهيونية، تبعية فرنسا للولايات المتحدة، فرنسا الأنوار (المساواة إلخ) وخيانة الحكومة الفرنسية الحالية لتراث الصداقة الفرنسية العربية الديجولي. لقد أتاح لنا تحقيق أجريناه في عمان في كانون الثاني/يناير ١٩٩٢ من معاينة مدى اتساع الظاهرة: يبدو أن الأمال التي بعثتها مبادرة الوزير كانت متناسبة طرذاً مع حالة اليأس والخيبات التي طغت على الأذهان. ها هو ذا نموذج مقتبس عن الصحافة الأردنية المشيدة بموقف الوزير المستقل: "نحييه ونبدى إعجابنا به ونحترمه على شجاعته. إنه رجل فرنسا الكبير، حفيد شارل ديغول، ومبادئ فرنسا الكبرى، مبادئ الثورة الفرنسية التي أغضض زعماء الإليزية عيونهم عنها اليوم. مقتبس عن "أنت يا سيد شوفينمان آخر النبلاء أم أولهم. هل النبلاء الآخرون قادمون قريباً : أصالة شوفينمان أول النبلاء، في الرأي بتاريخ أول شباط/فبراير ١٩٩١، بقلم خليل السواحري. راجع أيضاً الثورة، القادسية، الجمهورية (عراق) بتاريخ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢ وقارن بالصحف المذكورة في الحاشية السابقة.

(٧٨) منير شفيق، الغرب والحرب، في الإنسان، باريس، منشورات عمان، نيسان/أبريل - أيار/مايو ١٩٩١، ص ص ٥٤-٥٨ .

(٧٩) م ن، ص ص ٥٩-٦٢ .

(٨٠) في هذا الخصوص، راجع أيضاً إيمان يحيى، الحوار أكثر من ضرورة، في اليسار، القاهرة، أيار/مايو ١٩٩٢، ص ٩٢. وأخيراً، فإذا كانت المفاوضات مع إسرائيل مقبولة من الحكام العرب، لماذا يحرم على اليسار القومي التفاوض مع الإسلاميين.

(٨١) الإنسان، م س، ص ص ٥٩ و ٦٠ .

(٨٢) رضا إدريس، م ن، ص ٦٣ .

(٨٣) في مقابلة متلفزة (مع ماكنتيل وليهرر على برنامج ساعة أخبار بتاريخ ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٩٣) كان أوزال يقارن الحالة العراقية بحالة البوسنة. ووجد أنه لأمر مستهجن ألا يتحرك العالم بقوة في الحالة الأخيرة. وسأل محدثه عما كان يمكن أن تكون ردة فعل المجتمع الدولي لو أن المعتدين الصرب كانوا مسلمين والضححايا البوسنيين، مسيحيين.

(٨٤) م ن.

(٨٥) م ن، ص ٦٦ .

(٨٦) "حول نهاية التاريخ وحرب الخليج"، م ن، ص ٥٠، "هل هي نهاية التاريخ؟" في ناشيونال إنترست ، صيف ١٩٨٩؛ أو الترجمة العربية عن دار البيان، القاهرة ١٩٩٠ .

(٨٧) م ن، ص ٥١ و ٥٢ .

(٨٨) في زمن ابن خلدون لم يكن لمفهوم الدولة وجود، وكانت الكلمة تحيل على السلالات الحاكمة. وعلى الخصوص، كان هذا المصطلح يستمد جذوره من فكرة دائرية كانت دورة السلالات الحاكمة مطبوعة بها (أو غيرها من أشكال الحكم).

(٨٩) م ن، ص ٥٢ .

(٩٠) م ن.

(٩١) عنوان الشريط هو الله أكبر الله أقوى . يتعلق الأمر بإنتاج [لا ت] لشركة فونى التونسية. وصاحب الكلمات هو على الكيلاني.

(٩٢) لنشر إلى أن تحليلاً مَعْمَقًا للسياق التونسي يفرض نفسه نظراً لغنى تجربته والتناقض بين إرث بورقبيبة والتيار الإسلامى كما يظهر مثلاً عبر تصريحات الزعيم راشد الغنوشي. فيما يتعلق برؤية هذا الأخير إلى الغرب، راجع، من بين مقالات أخرى، مقالات: حركة الاتجاه الإسلامى بتونس (مجموعة مقالات...)، باريس، دار الكروان [لا ت] ، ص ١٦٧-١٧٠ .

(٩٣) في: المستقبل العربى ، آب/أغسطس ١٩٩١، عدد ١٥٠ .

الفصل الخامس

تمزّق وبلبلّة

هل كان من الممكن تلافى شيء مما وقع؟
وتر القوس مشدود ولا بد أن ينطلق السهم.

الطبيب صالح

لقد بيّنت لنا الفصول السالفة أن ثمة تنوعاً كبيراً فى المواقف التى تتعلق بمواقف رفع الغرب إلى مرتبة المثال ورفضه، وهى قد أتاحَت لنا معايينة وجود عناصر من نزعة الرفع إلى مرتبة المثال لدى أنصار الرفض، وبالعكس، وجود عناصر تحمل على الرفض لدى أنصار الرفع إلى مرتبة المثال. حقاً، إن تتبع النقاشات الحالية المتعلقة بالغرب تقود إلى الحديث عن وجود حالة من التمزّق والإبهام. سنحاول هنا وصف هذا التمزّق وهذا الإبهام عبر تفحص آراء مثقفين من أمثال محمود حسين أو إدوارد سعيد، لكننا كذلك عبر أعمال روائى مثل الطيّب صالح، أو تصورات فنّان مثل المغنّى الشعبى مارسيل خليفة.

الطبيب صالح وحتمية التمزق

يقع عمل الطبيب صالح الأدبي خارج حدود الزمان والمكان الخاصين بالسودان، مسقط رأس المؤلف، ويضفى على موضوع التلاقي مع الغرب سمة تعبير فنية وعمقاً قلّ نظيرهما. فهل استطاع صالح أن يقول كل شيء فى صدد التمزق، من خلال رائعة الأدب العربى هذه المتمثلة بـ موسم الهجرة إلى الشمال^(١). إن زخم الانفعال وقوة الرمزية المنبعثة من رواية صالح يعطيان لموضوع التمزق هذا روحاً وجسداً. ويجول خيال صالح فى وجوه هذا التمزق المتعددة فيصنعه ، ويطلق عليه أسماء: ها هو ذا أولاً اسم الشخصية المركزية مصطفى سعيد، لكننا أيضاً أسماء شخصية الراوى، وحسنة بنت محمود، وأن همنذ، وإيزابيلا سيمور، وچين مورس. صالح مفتون باللقاء مع الآخر ، المطبوع بالاحتلال والحد، لكننا كذلك بالانجذاب إلى آفاق معرفية شتى وبالاتفتاح عليها. وبالرغم عن دمويته لا يخلو هذا الاتصال من الحب تماماً وهو يمس قواد شخصياته^(٢).

ويعيش مصطفى سعيد، وهو الشخصية الأولى فى الرواية، تجاذباً بين قطبين: هناك من جهة جنوره الطبيعية، فى القرية على ضفة النيل الأزرق، ومن جهة أخرى، التجربة المعاشة التى أوصلته إلى تألف عميق مع الحضارة الأخرى، حضارة المحتل^(٣). بين لندن والقرية السودانية، وبين چين مورس ، وحسنة بنت محمود يجول بنا صالح من خلال شخصية مصطفى فى يم من الفروقات والتناقضات. والراوى،

تلك الشخصية الأخرى فى الرواية، كان أيضاً مهاجراً وقد تعرّف إلى مصطفى أثناء زيارة قام بها لقريته، مسقط رأسه؛ وإذ كان متأثراً بالشخصية وقد اختطفته مجريات الأحداث، يقص علينا الراوى المغامرة المذهلة التى خاضها مصطفى سعيد. فمصطفى سعيد الذى غادر قريته السودانية، قد انتقل إلى لندن من أجل الحصول على أرفع الشهادات الجامعية. وعلاقاته بجين مورس وأن همد وإيزابيلا سيمور إنما هى مرآة للعلاقات مع الآخر المتمثل بالمحتل. إن غزو قلب تلك النساء وجسدهن هو انتقام المحتل أيضاً بعدما صار هو بدوره محتلاً لغيره. إن الحلّ المأساوى والمحاكمة التى أعقبت مقتل جين مورس على يد مصطفى صاراً، على مستوى آخر، محاكمة للمستعمر. وتحيلنا حالة التمزق التى غرق فيها سعيد على حالة التجاذب والحيرة التى تعيشها الشعوب المستعمرة. فمن جهة، هناك الرغبة فى الانتقام، وهناك من جهة أخرى الرفض لقطع الصلة بالمستعمر. إن الإرباك الذى أصاب الفتيات اللواتى ارتبط معهنّ بعلاقات غرامية وأصاب عائلاتهنّ، قد زاد فى إرباك المستعمر الذى تجاذبه الشعور بالذنب والإحساس بالتفوق. ومغامرات مصطفى العاطفية والأحداث المحيطة بعودة الراوى إلى السودان لم تستكشف موضوع التمزق بجدارية عالية وحسب، وإنما لامست جوانب أخرى للعلاقات الإنسانية، ومنها الحب والصداقة.

وما عودة مصطفى إلى السودان، وعلى الخصوص تبنيه من قبل أهل قرية الراوى، إلاّ مثلاً بيّناً عن صدام الثقافات وعجز أولئك الذين

أصابتهم جرثومة "التغريب" عن التأقلم مع نمط حياة تقليدى. ففى حين تؤكد جميع المؤشرات على نجاح مصطفى فى عودته إلى بلده السودان الحميم (زواجه السعيد من حسنة، وأطفال واحترام بلا حد له يكفئه له أهل القرية)، تنتهى القصة بمأساة: ما كان فى وسع مصطفى أن يلغى بشطحة قلم حياته "كمغرب". فقد قام بتجهيز غرفة على النسق الإنجليزى، وإذ به، ذات يوم، يختفى. أهو انتحار أم هروب إلى لندن؟ لا يقوى الراوى على الحسم فى الأمر. بيد أن حسنة، أرملة مصطفى، تؤكد أن الجرثومة ما إن تفتك فى الجسم حتى يصبح الشفاء مستحيلاً. وهى قد رفضت الانصياع للعادات المحلية فى محيطها، رداً على محاولة إلزامها بالزواج مرة أخرى من ود الرئيس، فقتلته. والراوى، العائد إلى السودان حاملاً شهادة أوروبية فى جعبته، يتبوأ منصباً فى العاصمة الخرطوم. وهو يرفض أيضاً هذا الزواج القسرى بين أرملة شابة ورجل عجوز. ويرمز مقتل الرئيس على يد حسنة مرة أخرى إلى استحالة العودة إلى الحياة التقليدية من قبل أولئك، أكانوا ذكوراً أم إناثاً، ممن ذاقوا طعم التحديث أو مشتقاته.

هنا، لابد من التوضيح مرة أخرى أنه لئن كان إطار الرواية يقحم سودانيين وإنجليز، لا مجال لأى شك فى أن صالح يتحدث ها هنا عن العلاقات شرق/غرب. وهو يؤكد ذلك بنفسه، فى مقابلة أجراها معه محبى الدين صبحى وخلدون الشمعة، عندما قال، وهو يصف العملية الإبداعية التى قادته إلى بناء شخصية مصطفى سعيد:

”وكانت تدور فى ذهنى أيضاً فكرة
العلاقة الوهمية بين عالمنا العربى الإسلامى
وبين الحضارة الغربية الأوروبية على وجه
التحديد. إن هذه العلاقة تبدو لى من خلال
مطالعاتى ودراساتى، علاقة قائمة على
أوهام من جانبنا ومن جانبهم” (٤).

الغرب موجود حقًا بنظر الطَّيِّب صالح، لكن العلاقة التى تربطنا به
حبسية الخيالات الخاصة بكل منا. فلندن تمثل فى أن معًا قطبًا
استعماريًا ومكانًا رفيعًا للثورة الصناعية. وكون چين مورس قد سعت
بنفسها وراء الموت فذلك يرمز إلى فشل الحب فى المرحلة الأولى من
اللقاء. إن تَفَتَّت قلب مصطفى، بعد أن ذهب فريسة الإغواء، والإذلال
والخيانة اللذين جادلته بهما چين، كل ذلك يذكر بتفتت قلب العائلة المالكة
الهاشمية التى وقعت فريسة لإغواء وإذلال وخيانة ماكماهون وحكومته.

بنظر المؤلف ”حاول [مصطفى سعيد] أن يرتبط بالبيئة مرة أخرى،
وأعتقد أنه فشل. وربما كان اختفاؤه يعنى أنه يجب أن ينشأ جيل آخر
من نوع آخر” (٥). نشير هنا إلى أن مصطفى ولد فى العام ١٨٩٨ . وقد
تولد عن تصارع الشرق والغرب صراع آخر داخل الشرق، بين مجتمعاته
التقليدية وبين الأجيال المتعاقبة التى تأثرت بالغرب وعرفته عن كثب.
وما يزيد المشكلة تعقيداً هو أن الأجيال التى تنوَّق إلى عصر جديد
متميِّز بعباءات التلاقى مع الغرب، يجذبها بعده الثورى على سعيد

التربية والإدارة العامة والصناعة ، ويرعبها فى الوقت نفسه بعده
العنوانى الاستعمارى. فيقول لنا الطيب صالح فى هذا الصدد:

"أظن أن الفارق فارق مراحل ... وأن
هؤلاء الأساتذة الكبار كتبوا قنديل أم هاشم
وعصفور من الشرق و الحى اللاتينى ^(٦) ...
هؤلاء كتبوا فى المرحلة التى أسميها مرحلة
الاندهاش بالغرب. كانت تلك المرحلة تتميز
بأننا نظن أن علاقتنا بالغرب علاقة
رومانتيكية" ^(٧).

وبعد أن يجرى مقارنة بين التلاقى الأولى الذى جمع العرب مع الغرب
وبين ذلك التلاقى الذى جمع أفريقيا السوداء وهذا الغرب نفسه، يقول لنا:

"إن الصدام بين أفريقيا السوداء -
جنوب الصحراء وبين الغرب بدأ شرساً.
ارتطامها بالغرب أعنف وأشد حدة من
ارتطامنا. وهم الآن بدأوا علاقات أهدأ مع
الغرب فى الوقت الذى بالكاد أن بدأنا
نحس بهذه الحدة وأعتقد أن هذا هو دور
فلسطين فى الوعي العربى. فلسطين
مفاجأة للمنطقة ... وخصوصاً عرب البحر
الأبيض المتوسط الذين كانوا يقعون تحت

الوهم القائل بأنهم جزء من أوروبا. كانت هناك دعوات صريحة تقول بأننا جزء من أوروبا. فجأة اكتشفوا عن طريق الصراع حول فلسطين بأن الموضوع ليس موضوع لون. الموضوع موضوع فوارق حضارية أساسية. لذلك فالعرب الآن على درجة من الحدة والغضب والتأجج ضد الغرب، تجاوزتها أفريقيا السوداء منذ حوالي عشر سنوات على أقل تقدير" (٨).

فى هذه المقابلة لا يدع الطيب أى مجال للشك: إنه يضع نفسه كعربى معنى بالنضال الذى يواجه فيه، هو وقومه، الغرب. إن كون الكاتب يشعر بأنه سودانى كذلك وأن بشرة بطله مصطفى سوداء لا يغير فى هذا الواقع شيئاً. وهذا ما لم يغب، على كل حال، عن بال النقاد العرب، الذين صنفوا صالحاً، تلقائياً ضمن فئة الكتّاب الذين تناولوا بالبحث الإشكالية شرق/غرب. بالنسبة إلى خلدون الشمعة على سبيل المثال، "تبدو شخصية مصطفى سعيد وكأنها حقيقة الصراع بين ثقافتين، الغربية والعربية" (٩). إذن، ليست الشخصية سوى ذريعة للحديث عن المجابهة التاريخية بين كيانتين أوسع بما لا يقاس. ويلاحظ محبى الدين صبحى أن "عمل الطيب صالح نموذج بالغ الأهمية، يصور فترة المخاض التى تلت قرناً من التفاعل بين الموهبة العربية والثقافة الغربية" (١٠).

من ناحيتهما ، ليس لدى رجاء النقّاش وجلال العشري أى برهة تردد مثل ما لدى محيي الدين صبحى فى إدراج العمل ضمن إطار إشكالية المجابهة بين الغرب والشرق^(١١). فعلى العكس تماماً ، صنّف النقّاش صالحاً ضمن فئة الكتّاب العرب الذين تناولوا بالبحث هذه الإشكالية تناولاً مخصصاً ، مثل يحيى حقى ، وتوفيق الحكيم وسهيل إدريس ، ويسمى الأعمال نفسها التى يذكرها صالح فى المقابلة المذكورة أعلاه. وتطرح هذه الإشكالية مسألة مستقبل الشعوب الحديثة العهد :

هل تترك هذه الشعوب ماضيها كله
وتستسلم للحضارة الغربية وتذوب فيها
وتقلدها تقليداً كاملاً؟ هل تعود هذه الشعوب
إلى ماضيها وترفض الحضارة الغربية
وتعطيها ظهرها وتنكرها إنكاراً لا رجعة
فيه؟ هل تتخذ موقفاً ثالثاً يختلف عن
الموقفين السابقين... وما هو هذا الموقف
الجديد؟... تلك هى المشكلة التى تعالجها
رواية الطيب صالح^(١٢).

والفكرة القائلة بأن رواية الطيب صالح تتناول فى البحث المجابهة مع الغرب ، هى إذن فكرة وطيدة راسخة وصريحة للغاية ، سواء لدى الكاتب أم لدى نقّاده. دعونا نتفحص عن كثب بعض اللحظات البارزة فى هذا الأثر الأدبى الرائع.

المجابهة التاريخية

هل كان من الممكن تلافى شئ مما وقع؟

وتر القوس مشدود ولا بد أن ينطلق

السهم^(١٣).

إن مصطفى سعيد، الذى يطرح على نفسه هذا السؤال فى طريق العودة، وهو قد هجر لندن ليستقر فى قرية على ضفاف النيل، إنما يبدو أن ما من خيار آخر كان مطروحاً أمامه. والأمر يتعلق بالأحرى بحالة فرضت نفسها فرض الأمر الواقع. والغرب، وفق صيغة الإرسالين والتربية التى يمنحونها، إنما جاء ليترك باباً وهو لما يزل طفلاً. إن احتلال المستعمر لبلده لم يكن ليدع أمامه خياراً آخر كذلك، وكانت العلاقة مسمومة والمأساة قد وقعت سلفاً^(١٤).

نعم يا سيدتى، إننى جئتكم غازياً فى

عقر داركم.

قطرة من السم الذى حقنتم به

شرايين التاريخ.

أنا لست عطياً. عطيل كان أكنوية^(١٥).

بصفته مقترفاً لجريمة قتل جين مورس، سنلتقيه ثانية فى قفص

الاتهام، كحلقة فى سلسلة من المواجهات التاريخية. فابتداءً بهزيمة

محمود ود أحمد أمام كيتشنر، تلك الهزيمة التى انقلبت فيها الأبور رأساً على عقب وكان الدخيل قد فرض نفسه سيِّد المكان، الشرعى، وصولاً إلى وقع حوافر خيول النبى على أرض القدس، مروراً بقرعة السيوف الرومانية فى قرطاجة تتالت المشاهد فى مخيلة البطل ودوت الأصوات فى مسامعه. ومخيال مصطفى تقوده إلى ماضٍ سحيق، إلى حقبة كان سلفه فيها، وهو الجندى فى جيش طارق بن زياد، قد وقع فى غرام جدّة إيزابيلا قبل الدخول إلى أفريقيا. فكلاهما ينتميان إذن إلى فرعين لشجرة واحدة. وذروة الرمزية أن مصطفى كما أخصب جدّه جدتها، لقرون مضت، قد تصور إيزابيلا بجانبه وكأنها "أندلس خصب" (١٦).

وما يجدر ملاحظته أنه لما يلجها، يحدثنا عن لحظة تردد لم نشهدها فى حالة النساء الأخريات. فهو أراد إذن فى لحظة ما أن يجنّب هذه النصف أندلسية الدمار. ويمثّل مصطفى، على مقعد المتهمين، الاستمرار المنطقى للتاريخ المدموغ بالعنوان على الآخر .

إلاً أن التصادم بين الشرق والغرب لا تقف حدوده عند العنوان. فثمة أيضاً العاطفة التى تُكِنُّها السيدة روبنسن لمصطفى ، واحترام السيد روبنسن للثقافة العربية الإسلامية بصورة عامة والقاهرة بصورة خاصة (١٧) ، وفى مجال آخر لا يسعنا إغفال الجاذبية الجسدية التى لا تقاوم، والمتبادلة، بين مصطفى ونقيضته أن همد؛ هو بصفته ممثلاً الجنوب والحرارة والشمس الحارقة، وهى ممثلة الشمال والبرد والبحار بلا شطآن (١٨). وقد وُصِفَ لنا مصطفى وكأنه كائن عديم القلب،

ولا ينبض قلبه من أجل والدته ، ولا ينبض من أجل آل روبنسن ، ولا من أجل أن همند. كاد أن ينبض من أجل إيزابيلا، إنما مرتبكاً. وعلى كل حال، لم يكن ذلك سوى تردد خاطف. كما وأن الاتصال الجسدى مع جين مورس قد اتخذ على وجه الخصوص مظهر معركة مواجهة مخططة، بينما أنه لم يهمس فى أذنا أى شىء حول علاقته الغرامية بحسنة وعلاقته بولديها. ولكن أين هو قلبه؟ الجواب وصلنا، بترجيح شديد على لسان البروفسور ماكسول فستر كين، إذ إنه يقول دفاعاً عن مصطفى:

”مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين
إنسان نبيل، استوعب عقله حضارة الغرب،
لكنها حطمت قلبه“ (١٩).

ما من أحد كان بمنأى عن التمزق، لا البطل ولا الراوى ولا الإنجليز، سواء كانوا معتدين أم مسكونين بالشعور بالذنب، أو كذلك مدفوعين بمثل مناهضة للعنصرية. وجدُّ الراوى، باعتباره رمز التآلف مع محيطه، لم ينج بدوره من التغييرات الجذرية، إذ إنه تأثر مع أقرانه بموت ودِّ الرئيس، الذى يجسد حالة الركود والتقليد؛ وقتلته حسنة، الوجه المعبر والعنصر المحلى ”المعرّض“ لتأثير قيم الآخر (٢٠).

غير أننا نكتنه من خلال جميع هذه التمزقات ثابتة واحدة: إنها ثابتة الطبيعة التى يرمز إليها النيل متابعاً دون انقطاع جريانه شمالاً.

ولا تجد هذه الثابتة تعبيراً عنها فى البعد المادى للطبيعة وحسب، وإنما كذلك فى البعد النفسى للطبيعة البشرية. لذلك فإن التباينات مع "الأخر" يتخللها تشابهات تعبر محيط الفروقات لتذكرنا بتواصل الشعوب فى إنسانيتهم. والمثل الذى يتبادر فوراً إلى العيان قد يكون مركزية العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، سواء فى لندن أم فى القرية المعنية. ويعبر الطيب صالح عن هذا الشعور بالتواصل فى الإنسانية على لسان الراوى مرتين على الأقل. المرة الأولى حينما عاد عقب غياب دام سبع سنوات. وإذا انهالت عليه الأسئلة فى شأن أوروبا، قام بطرح الفكرة التالية:

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب
علمى. دهشوا حين قلت لهم إن الأوروبيين،
إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تماماً،
يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد
والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عموماً
قوم طيبون. وسألنى محجوب. "هل بينهم
مزارعون؟"

وقلت لهم: "نعم بينهم مزارعون وبينهم
كل شئ، منهم العامل والطبيب والمزارع
والمعلم، مثلنا تماماً". وأثرت ألا أقول بقية
ما خطر على بالى: "مثلنا تماماً". يولون
ويموتون، وفى الرحلة من المهد إلى اللحد

يحملون أحلاماً بعضها يصدق وبعضها
خيبي. يخافون من المجهول، وينشدون
الحب، ويبحثون عن الطمأنينة، في الزوج
والولد. فيهم أقوياء، وبينهم مستضعفون،
بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق،
وبعضهم حرمتها الحياة. لكن الفروق تضيق
وأغلب الضعفاء لم يعوبوا ضعفاءً. لم أقل
لمحجوب هذا، وليتني قلت، فقد كان ذكياً.
خفت، من غروري، ألا يفهم" (٢١).

والمرة الثانية تجسدت في لحظة غضب شديد، لما طلب منه جدُّ
التدخل لدى حسنة كي تقبل بؤدَّ الرئيس زوجاً لها. كانت حسنة، أرملة
مصطفى، رفضت الزواج ثانية من شبان تقدموا إليها وهم أصغر سناً
بكثير من وُدَّ الرئيس الذي يكبرها بأربعين سنة وله عدة زوجات:

"حبس الغضب لسانى فلذت بالصمت.
وقفزت إلى ذهني صورتان فاضحتان في
أن واحد. ولشدة عجبى، اتحدت الصورتان
في ذهني، وتخيلت حسنة بنت محمود،
أرملة مصطفى سعيد، هي المرأة نفسها في
الحالتين - فخذان بيضاوان مفتوحتان في
لندن، وامرأة تثن تحت ود الرئيس الكهل،

قبيل طلوع الفجر في قرية مغمورة الذكر
عند منحني النيل. إن كان ذلك شرّاً فهذا
أيضاً شر، وإن كان هذا، مثل الموت
والولادة وفيضان النيل. وحصاد القمح،
جزءاً من نظام الكون، فقد كان ذلك أيضاً
كذلك^(٢٢).

إن الفروقات التي تميّزنا عن الآخر تحلّ في بعض الأوقات مكان
التواصل النابع من الانتماء إلى إنسانية واحدة بمشكلاتها المشتركة
المتعلقة بالقضايا الوجودية.

فيما يتعدى الصدمة الأولية

في المقابلة المذكورة أعلاه، يحدثنا الطيّب صالح عن تخطي أفريقيا
مرحلة الصدمة المُرّة الناجمة عن الاصطدام الأول بالغرب، ويُنَبِّئنا عن يقظة
وعى متأخرة عند العرب شجعتها نكبة فلسطين. ويستعين الكاتب بالراوي
ليطرح مسألة تعدّي مرحلة المارّة الشديدة التي انطبع بها عصر مصطفى.
ويعرض علينا إمكانية ولوج مرحلة جديدة في العلاقة مع الآخر :

"هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ.
ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة
في فناء دارنا، نبتت في دارنا ولم تنبت

فى دار غيرها . وكونهم جاؤا إلى ديارنا ،
لا أدرى لماذا ، هل معنى ذلك أننا نسम्म
حاضرنا ومستقبلنا إنهم سيخرجون من
بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً ، كما خرج قوم
كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة .
سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات ،
والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ،
وستحدث لغتهم ، دون إحساس بالذنب
ولا إحساس بالجميل . سنكون كما نحن ،
قوم عاديون ، وإذا كنا أكاذيب ، فنحن أكاذيب
من صنع أنفسنا " (٢٣) .

وسوف تكون خيبة أمل الراوى مضاعفة ، مرة أولى بسبب تأييد ميزان
القوى الذى يثبت هيمنة الآخر فى مرحلة ما بعد الاستعمار ، ومرة أخرى بسبب
فشل الزعامة المحلية التى تجمع بين افتقادها للكفاءة وبين الفساد ، وتُزَاج
بين التواطؤ مع الغرب وبين الافتتان بسلعه الاستهلاكية وأنماطه فى العيش ،
ودائماً فى حديثه عن إخفاق الزعامة المحلية ، فقد بلغ به الأمر حدّاً يقول فيه :

"إننا إذا لم نجتث هنا الداء من جنوره
وتكونت عندنا طبقة برجوازية لا تمت إلى
واقع حياتنا بصلة ، وهى أشد خطراً على
مستقبل أفريقيا من الاستعمار نفسه " (٢٤) .

بعد انقضاء ثلاثين سنة على كتابة هذا الأثر بالإمكان أن نستنتج من منطق الطَّيِّب صالح أن الخيبة كانت بلغت الذروة في سائر العالم العربي، سواء في قسمه الأفريقي أم قسمه غير الأفريقي، نظراً لإخفاقات مختلف الزعماء المحليين التي لا تُصَدَّق، ونظراً لازدياد وطأة العدوان والضغط الخارجيين. غير أن الأثر أعمق وأعمق: فكما أن مصطفى يمثل كل عربي في تمرُّقه، كذلك الأمر تمثل چين الغرب داخل كل منّا. إن الغرام والانتقام اللذين يحكمان علاقاتهما يجعلان من زواجهما حرباً، ومن سريرهما ميدان معركة لم تنته حتى مع موت چين. إذن، فقد قتل تلك التي كانت تمسك بيدهما الزمام في أن تهب نفسها أو لا. فقد قتل القوة التي كانت تفرض شروطها. ولكن، حينما دعت، قبل ذلك، إلى أن يقتل نفسه أيضاً، وأن يلتحق بها في الموت، يتكون لدينا الانطباع حقاً بأن لقاءهما كان بالنسبة إليهما قدراً محتوماً^(٢٥). وعلى كل حال، سرعان ما نجد ما يؤيد تحليلنا هذا حين نكتشف مصطفى متمنياً في قرارة نفسه أن يتخذ المُحَكِّمُونَ القرار الذي لم يتجرأ هو على اتخاذه حينما قتل چين.

كما وأن ما لم يمنحه إياه المحكِّمون، أي الموت، سوف يتحقق مع اختفائه الذي قد يعنى دماره. بشرُّ مصطفى باختفائه، بنفسه، في وصيته وفي رسالة تركها للراوى يكلفه فيها بتكفل أولاده. ولم يُعثر على جثمانه^(٢٦). وفي الحقيقة فإن هذا الاختفاء يدع الباب مفتوحاً على التأويل. فثمة ثلاثة احتمالات تتبادر إلى ذهن القارئ فوراً: إما الانتحار

كنتيجة لتمزقه وكعاقبة منطقية لعملية التسميم المتبادل التي أطلقها "الأخر"؛ وإما الهروب (إلى لندن؟) بعيداً عن حياته في القرية التي تبنته؛ وإما موته بحادث، لكننا حادثاً استشعره بالحدس، ولا ينجم عنه إعادة النظر جوهرياً بموافقته على العودة إلى القرية. يبدو لنا هذا الاحتمال الأخير ضعيفاً، إذ إن المختفى كان قد حضرَ عملية اختفائه، ومن ناحية أخرى، فإن ارتياحه لفكرة عودته إلى القرية ينفيها نفيّاً قاطعاً "ديكور" غرفته الخاصة ومحتواها. فتثبت هذه الغرفة أن مصطفى لم يقطع قط قطعاً تاماً صلاته بحياته السابقة ولم يوافق فعلياً على العودة إلى القرية. كُشِفَ عن هذا العنصر أمام الراوى وأمام القارئ في الآن نفسه، لما دخل الأول أخيراً إلى غرفة مصطفى الخاصة فوجد فيها ديكوراً لندنياً مع كراس شيكتورية الطابع أمام موقد إنجليزى (٢٧).

والقارئ العربى الذى يعيش نفس حالات التمزق التى يعيشها مصطفى يستطيع بسهولة أن يخال نفسه فى إحدى هذه الوضعيات الثلاث. وغالباً ما يكون هذا القارئ نفسه متمثلاً بـمصطفى. وعندما لا يهتدى إلى طريقه فى إحدى هذه الحالات الثلاث، حينئذٍ يهتدى إليها عبر حالة الراوى الذى أوشك على الغرق، مجمداً فى وسط الطريق بين ضفة النيل الشمالية وضفته الجنوبية، فى وسط الطريق بين الشرق والغرب:

لن أستطيع المضى ولن أستطيع
العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكناً
أحرك ذراعى وساقى بصعوبة بالقدر الذى

يبقينى طافياً على السطح. كنت أحس بقوى
النهر الهدامة تشدنى إلى أسفل، وبالتيار
يدفعنى إلى الشاطئ الجنوبى فى زاوية
منحنية. لن أستطيع أن أحفظ توازنى مدة
طويلة. إن عاجلاً أو آجلاً ستشدنى قوى
النهر إلى القاع. وفى حالة بين الحياة والموت
رأيت أسراباً من القطا متجهة شمالاً.

فكرت إذا مت فى تلك اللحظة فإننى
أكون قد مت كما ولدت، دون إرادتى. طول
حياتى لم أختار ولم أقرر. إننى أقرر الآن
إننى أختار الحياة. سأحيا لأن ثمة أناس
قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن
ولأن على واجبات يجب أن أؤديها ، لا يعنينى
إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى.
وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن
أنسى. سأحيا بالقوة والمكر. وحركت قدمى
وذراعى بصعوبة وعنف حتى صارت قامتى
كلها فوق الماء. وبكل ما بقيت لى من طاقة
صرخت، وكأئننى ممثل هزلى يصيح فى
مسرح: "النجدة. النجدة" (٢٨).

يدخل الكاتب طرفاً، بعد دفعه بالرمزية إلى أقصاها، فيحث الراوى على إجراء اختيار ما. وباعتباره مشلولاً جراء حيرته بين شرق وغرب فقد أجبره عنوة على الخروج من حالة السكون تلك ^(٢٩). ثمة حد معين تحمل المراوحة، إذا ما تعدّته، معنى الموت. ولعدم قدرته على السباحة على ظهره إلى ما لا نهاية، يجد الراوى نفسه ملزماً بالاختيار: فإما الفرق وإما الحركة؛ إنه اختار أن يعيش. وبذلك يطلق الكاتب من خلال الراوى صرخة من القلب موجهة إلى سائر العرب: فقد طلب منهم الخروج من سباتهم وطلب منهم أن يتحركوا والإتيان بعمل ما؛ طلب منهم أن يختاروا الحياة. وقبل ذلك فى النص، كان الراوى قد اختار وجهة التصدى لأمانى مصطفى التوّاق إلى وقاية أولاده من التلاقى مع "الآخر". كان مدرّكاً بأنّه ينتمى إلى جيل مختلف، فى آن واحد، عن جيل مصطفى وجيل أولاده بالذات.

سوف يرى البعض هنا تلميحاً إلى الأجيال الجديدة التى ستكون قادرة على النجاح حيث فشلت سليفاتها، وهو الفشل فى التحرر من الحالة التى يكون فيها "الماضى والمستقبل فى تأمر مستمر ضد الحاضر" ^(٢٠).

اجتراء التغيير

إننا لا نقوم هنا إلا بمعالجة سطحية لنص غنى للغاية يتطرق إلى قضايا شديدة التنوع، مثل العلاقات شرق/غرب، فى الخيال،

وتحويل المجتمع ومقاومة التقاليد، والعلاقات بين الرجال والنساء على الصعيد المحلي فى القرى ، وكذلك العلاقات بين رجال القطب المستعمر ونساء عاصمة المستعمر. عصفور من الشرق^(٢١) و الحى اللاتينى^(٢٢)، الروايتان اللتان باتتا كلاسيكيتين الآن، إنما تعالجان المواضيع نفسها. لكن الطيب، وقد رأينا ذلك، يبتعد مسافة عنهما عندما يعلن أن مؤلفى هذين الأثرين الكلاسيكيين ينتميان إلى حقبة تاريخية تميزت بالاندھاش "بالغرب". وهو يدق ناقوس أفول مرحلة "كانت تتميز بأننا نظن أن علاقتنا بالغرب علاقة رومانتيكية"^(٢٣) ويعلن انتماءه إلى حقبة جديدة يتبين فيها تماماً أن العلاقة هى بمثابة عملية تسميم متبادل أطلقها "الغرب". فهو إذن المسئول الأول عنها. ويبشر الطيب صالح كذلك بحقبة أخرى، يشاركه فى ذلك الراوى وأولاد مصطفى، وهى حقبة سيصبح ممكناً فيها إقامة علاقة براجماتية مع "الغرب". إلا أن ذلك لن يتحقق إلا بمقدار ما سوف يوقف فيه "الغرب" اعتداءاته، وتبرز فيه زعامة محلية كفؤة وطاردة الذيل فى آن.

محمود حسين: العروبة والخيبة، أو الغرب الخائب

إن بهجت النادى وعادل رفعت، وهما ثنائيان محلَّان يُوقَّعان باسم مستعار هو محمود حسين، وينتسبان إلى اليسار القومى العربى، قد حاولا تتبع سياق العروبة عن طريق معاينة نقاط الضعف ونقاط القوة فيها.

وهما بذلك إنما يكشفان لنا عن بعض من غريهما ، فضلاً عن بعض المواضيع التي طبعتهما عميقاً والتي أسهمت في صنع رؤيتهما إلى "الغرب".

وفيما يتعدى قضية إسرائيل، التي تحتل بالطبع مكانة بارزة في رؤيتهما إلى "الغرب"، دعونا نتفحص موقفهما في النقاش الدائر بين أنصار إبراز خصوصية مصر على حساب عروبتها، بغرض ربطها ربطاً أوثق بأوروبا أو "الغرب"، وبين الذين على العكس من ذلك يعتبرون بعروبتها معتبرين أن مصر تشكل رأس الحربة في المطالبة العربية في وجه هذا "الغرب" بالذات. لقد رأينا في الفصل الثالث المحاججة التي أطلقها طه حسين ليرسي عليها تفريقه بين مصر والعالم العربي. لنرى الآن كيف أن بهجت النادى وعادل رفعت نجحا في التقاط لحظة قلق شديد كانت فيها "الهوية المصرية" ذائبة في العروبة، راغضين في الوقت نفسه أطروحة "الفرعونية" والانطوائية المصرية. إن الاستشهاد التالي يعطينا مثلاً على الشعور العروبي الذي يواجهونها به:

نشأت حركة الجيش المصري على خط
بارليف وبدا مصير الحرب يجرى تقريره
بعيداً، في محيط جبل الشيخ حيث كان
الجنود السوريون يتساقطون عند كل متر
وحيث وحدات فلسطينية ومغربية كانت
حينها تتدفد منها النخيرة تدافع بالأسلح
الأبيض عن كل صخرة. وبدأت القاهرة

تبدى استغرابها: ما الذى كانت تفعله
الأركان العامة المصرية؟ هل اكتفت بتتبع
التقدم الإسرائيلى؟ لماذا لم تعط الأمر
لتقدم القوات المصرية باتجاه الممرات
الجبلىة فى قلب سيناء، أقله من أجل
تخفيف الضغط عن السوريين وكسر التقدم
الإسرائيلى نفسياً. كانت فرصة العمر...
كان يتوجب ألا تنهار جبهة الجولان.
لم يكن فى وسع الحكومة المصرية استنساخ
معكوس الضربة التى كانت حكومة دمشق
قد أسدتها للمصريين، عام ١٩٦٧. وكان
المصريون قد أصبحوا فى غضون أسبوع
واحد، أكثر عرباً منهم مصريين^(٢٤).

يجب مقارنة هذه الجملة الأخيرة مع ما كتبه المؤلفان قبيل ذلك
بصفحتين:

"ثمة تيار قوى قد برز فى أوساط
المثقفين منذ ١٩٦٧، معرباً عن تأييده
لنشوء قطيعة مع بقية العرب. والناطقون
باسمه أعدوا من الحجج الكثيرة، مستترة
فى البدء ثم أكثر فأكثر وضوحاً، تأييداً

لوجهة النظر القائلة بأن مصر مصرية؛ وأن
مساعي إزابتها داخل كُُلِّ عرْبى باءت
بالفشل^(٢٥).

وتتطير هذه الأطروحة "الفرعونية" شظايا. إذ إن الانفعال الذى
يصاحب أحداثاً مثل سقوط خط برليف يجرف كل شىء فى طريقه ،
ويؤجج مشاعر العروبة لدى شعوب المنطقة إلى ذروتها. إن الإحساس
بالنشوة المتولد عن هذا الإنجاز إنما لا يدع مجالاً للشك فى أن العرب
يعيشون فى مثل تلك الأوقات فى زمن العروبة.

وبالنسبة إلى المؤلفين، فإن المجابهة تقع بصورة جلية بين "غرب
مشوه" وبين "عالم ثالث مخنوع". حتى وإن اعتبرنا أن الغرب هو "مبتكر
الديمقراطية"^(٢٦)، إلا أنه يبقى مدينًا للحضارات الأخرى، لأن "فكر
الغرب تغذى هو نفسه من جميع المساهمات قبل أن ينتج، بدوره، هذا
الوجه الجديد المتمثل بالإنسان المعاصر"^(٢٧). ولقد سبق لشعوب العالم
الثالث أن علّقت الآمال على غرب محمود حسين مع حملة بونابرت إلى
مصر. كان مشروع الجنرال لم يزل خليقًا بالغرب، لكنه تشوّه مع
نابليون الإمبراطور وخاصة فى "مرحلة الاستعمار" حيث لم يعد الأمر
على صورة تقديم فرصة نفوذ إلى الأنوار مدموجة بالتقدم والحق. الأمر
يتعلق باندماجه فى نظام عالمى جديد للمبادلة على صعيد داخلى فى
مصلحة البلد العامة ومصلحة العواصم الأوروبية. مشروع السيطرة
يأخذ طريقه ليحل مكان الانعتاق^(٢٨).

بعد أن فضحنا "الغرب الذى حطم محمد على المحدث" و"الغرب المستعمر" و"الغرب المسيطر" لعصر ما بعد الاستعمار، إلخ. فقد توصلَ بهجت الندى وعادل رفعت إلى الخلاصة القائلة بأن هذا الشذوذ لا يليق بالغرب ، وخصاً المثقفين الغربيين على تحمل مسئولياتهم إزاء هذا الانحراف، جنباً إلى جنب مع زملائهم من "العالم الثالث":

"فلتتعلم شعوب الغرب من جهة وشعوب العالم الثالث من جهة أخرى كيف تمفصل بطريقة مغايرة قيمها المتميزة على قيمها الموحدة. ولتكف الأولى عن الاعتقاد بأن الكونى مقولة غربية حصراً وأن تبدأ الثانية باستيعاب بعد الكونى العصرى فى قيمها .

إذن إنها لخيانة الإسهام الأساسى للغرب، فى الإنسانية، أن يُعمل على تصور الإنسان الحديث على أنه صورة غربية، ويُعتقد بأن على الشعوب الأخرى من أجل استيعاب تلك الصورة أن تتغربين، أى أن تتخلى عن هوياتها الذاتية.

والأمر بالنسبة إلى الغرب لا يكمن فى تصدير قيمة إلى الشعوب الأخرى تكون،

فى الجوهر، مقتصرة علىه وغريبة بالنسبة
إلى ما عداه - وإنما فى مساعدة الشعوب
الأخرى على استيعابها بحرية، تبعاً لطرق
خاصة بها، قيمة ضرورية بالنسبة إلى الجميع.

بعد أن كان الغرب قد صاغها قبلها
وجميعاً واحتكر لنفسه الفوائد منها
فالمطلوب من الآن فصاعداً أن يضع الغرب
نفسه فى خدمة هذه القيمة^(٣٩).

أى أن المؤلفين ناديا بتعليق الآمال ثانية على مثال افتراضى
ناقضته التجربة المعاشة فى السابق وما تزال. بالرغم عن هذا الاعتراف
فإن الغرب مُسَاعِلٌ بصفته قوة عظمى على مسرح السياسة الدولية وليس
بصفته مشروعاً يُنسب إليه الكمال. هكذا، ودون إيلاء أية أهمية
للفاشلين تاريخياً، الذين لم يغيبوا عن أنظارهم البتة، فإن المؤلفين
يحضّان الغرب على الوقوف إلى جانبهما فى المعركة التى يخوضانها من
أجل الديمقراطية ضد "التمامية":

ولهذا السبب فى المواجهة بين قوى
الحرية مع قوى الاستبداد ممنوع على
الغرب البقاء على الحياد. قد تكون سلبيته
حتى سلاحاً مخيفاً. فى السنوات القادمة،
مع انتشار الثورات الديمقراطية،

سيكون عليه في مزيد من الأحيان،
وبصورة متزايدة الإلحاح، مضطراً لأن
يختار معسكره^(٤٠).

ولكن أى معسكر؟ إن الدول الكبرى التى يتوجّه لها محمود حسين
بتسمية الغرب تبرهن كل يوم عن إرادتها فى أن تتلاعب بقوى المعسكرين
وأن تخرقهما ، وتخلقهما ، وتدعمهما ، وتحاربهما ، حسب مشيئتها
طبقاً لاحتياجات اللحظة الراهنة والإطار الجيوستراتيجى للعمل.

عبد الله العروى والغرب العالمى

أزمة المثقفين العرب، الإسلام والحداثة و الإيديولوجية العربية
المعاصرة: هى كتب ثلاثة جعلت من عبد الله العروى رائداً (نشر
بالفرنسية وبالعربية على السواء) أكبَّ على مهمة استكشاف مسألة
"الغرب" و"حداثته" للإسلام والمثقفين العرب. والمسائل التى تناولها
العروى فى البحث واسعة وكثيرة؛ إن مسعى هنا مقتصر، عبر قراءة
تلك النصوص، على تحديد الطريقة التى يعالج بها مسألة الغرب.

بالنسبة إلى العروى، ثمة غرب^(٤١) كان لتاريخه الاجتماعى تأثير
لا عودة عنه على الوجدان العربى^(٤٢). ولكنه إذ ابتعد عن فخ استسهال
الأمر، فقد أضاف إلى ذلك المفهوم كل التلاوين اللازمة من أجل إدراك
التعقيدات الملازمة له: فقد أعاد النظر بالحدود الجغرافية للثنائى

غرب/شرق، وذلك مثلاً عبر الحديث عن "المثقفين العرب من الشرق أو من الغرب" ^(٤٣)؛ وفي مكان آخر، يبنى على الالتباس الذى ميّز ولادة هذا الثنائى وسعى للإحاطة بظاهرة الاستشراق ونظيره علم الاستغراب ^(٤٤)، فى حين كان اهتمامه بإشكالية الغيرية قد أسهم فى إثراء النقاش بطريقة حاسمة. وفى هذا الصدد، إدراكاً منه بأن البحث عن الذات يمرّ عبر الآخر، كتب العروى يقول:

"ماذا يعنى العرب بداهة عندما يقولون
الآخر؟ كانوا لمدة قرون عديدة يصفون
النصارى، ثم عنوا الإفرنج سكان أوروبا،
اليوم يعنون الغرب الذى هو لديهم مفهوم
غامض وبيّن فى نفس الوقت" ^(٤٥).

وقد لاحظ أن معنى الغرب لم يلبث أن جاوز ميدان الجغرافيا "لم يعد الشرق والغرب يعنيان جهتين ملموستين بقدر ما عادا يحملان مدلولاً غيبياً" ^(٤٦). كما وأننا نجد أنفسنا متفقين مع العروى فى طرحه تساؤله التالى:

"هل ابتعدنا عن السؤال الذى فتحنا
به كلامنا (من نحن؟) وانتقلنا إلى سؤال
مخالف (ما هو الغرب؟)" ^(٤٧).

وهو إذ يشير بالإصبع، كما فعلنا أعلاه، إلى التحديدات الغيبية فإنه يخلص بعدئذٍ إلى نفى وجود هذين الكيانين الأتليين اللذين يتواجهان. إليكم مقطع مقنع من كتابه الإسلام والحداثة:

تففى المثل الذى يصور فيه السلتي
الإيرلندى على أنه ابن روى لروما الإمبريالية،
والبربرى الشمال أفريقى وريث هانيبال،
فى هذا المثل إثبات على فعالية التحديدات
الأسطورية للهويات! ففى الواقع يقوم التعريف
على النفى: ينفى الأوروبي ذلك القادم من
الشرق، وبالتالي القرطاجى، ولا يستطيع
إلا أن يتمثل فى الرومانى. وكذلك الحال
بالنسبة إلى العرب وإنما فى الاتجاه المعكوس .

اليوم يتخلص التاريخ الوضعى من مثل
هذه الأساطير تدريجياً؛ فهو يرى فى كل
مناسبة أنها مصدر اختزالات مبالغ فيها.
لا يتم توارث الحضارات بخطً مباشر متحد
الهوية مقارنة مع ماضٍ معين لا يتطلب أن
يكون هذا الماضى متواصلاً. لا يختزل
ماضى البشرية بمبارزة بين كيانين أبديين
يحملان اسمى غرب وشرق. يمثل العرب،
فى الجيوسياسية الحالية، مقارنة مع
الغرب الشرق الأدنى، لكنهم يمثلون، من
منظور الصين، غرب آسيا^(٤٨).

وبالإضافة إلى ذلك، نعثر لدى العروى على فكرة الغرب الخائب
المثارة أعلاه فى عمل محمود حسين. إليكم جملة للعروى كان بالإمكان
أن تكون من توقيع محمود حسين:

”منذ البداية، إنه لمصدر ضعف
بالنسبة إلى دعوة المثقف العربى التقدمى،
أن يقوم الغرب العلمانى والشرق
الاشتراكى بتأييد المطامع الصهيونية
المتنافية مع إيديولوجيتهم. حقيقة كان لا بد
أن نؤكد عليها؛ ثم بعد أن جرى التشديد
عليها عدة مرات بدلاً من مرة واحدة فنبقى
على مطالبتنا بالعقلانية [...]” (٤٩) .

فبدلاً من استخلاص النتيجة ذاتها التى توصل إليها محمود حسين ،
والقائلة بوجود شنود لا يليق بالغرب ، وبدلاً من توبيخ المثقفين الغربيين،
توجه العروى إلى المثقفين العرب داعياً إياهم إلى اختيار طريق التغيير،
الطريق الشاق والقليل المجد. وبعد أن أكد أكثر من مرة، كما هو جلى
فى ذلك الاستشهاد، على الإحباط الذى أصاب التقدميين العرب،
فإنه يدعوهم للاضطلاع بمهمة تربية فى إطار ثورة واقعية تندرج
فى التاريخ، ثورة لا تراهن على أمجاد الماضى وتستند إلى منهج:
رداً على التحدى الذى يوجهه مفكرون من أمثال جوستاف جرونباوم،
دعا زملاءه العرب والمسلمين ”لاختيار الموضوعى ضد الذاتى،

المطرّد المنطقي ضد الحدسي، والقابل للتعميم كونياً ضد المخصص^(٥٠). ودحض الفكرة القائلة بأن الإسلام دين يلزم مثقفيه الجمود ، بينما نظراؤهم المسيحيون/الأوروبيون تمكنوا من مجاوزة القرون الوسطى وصولاً إلى الحداثة. وهو بذلك يلغى المعادلات التي تدمج الدين والثقافة والجغرافيا.

ويصبو العروى إلى الإمساك بطريقة موضوعية وواقعية بواقع وحقيقة مندرجين في التاريخ^(٥١). ويدأ متاكداً بأن المثقفين العرب، بمجاورتهم "الثقافة العربية الكلاسيكية" إلى "الشمولية الماركسية"^(٥٢)، إنما قد يسعهم الانضمام إلى التاريخ ثانية تبعاً للتوقيت الحقيقي وإجراء حوار الند للند مع زملائهم الغربيين. فهو مرتاح إذن لاستخدامه مصطلحي واقع وحقيقة الحاضرين في خطابه حتى آخر فقرة من كتابه الإيديولوجية العربية المعاصرة:

"ونصل هنا إلى بيت القصيد" يحرز الغرب كل يوم انتصارات جديدة باهرة في العلم والتكنولوجيا، إلا أنه يبتعد في الوقت نفسه عن إرساء قواعد ذلك العلم الذي يدعى أنه أول أهدافه، أي علم الأنثروبولوجيا. يبدو كأن الغرب لا يستطيع أن يحقق ما يأمل إلا بشرط أن يملك غيره من الأمم والشعوب ذلك الوعي النقدي الذي طالما تميز به وحده في الماضي، والذي لا يزال

يتحلى به فى بعض أوجه نشاطه بينما نراه
ينحرف عنه فى أنشطة أخرى.

فإذا ما أصبح العربى نقدياً بالفعل،
وتوصل عندئذ إلى نظرة إنسانية شمولية،
سيوافى الغرب حيث يراوح هذا الأخير
خطواته منذ القرن الماضى. فيمكن لأول
مرة أن يتعرف العقلان الواحد على الآخر
ويدشنان عهد حوار حقيقى. آنذاك يمكن
استدراك الوقت الضائع وإتمام ما لم ينجز
من تطعيم الوضعانية، وجعل الماركسية
جدلية فعلاً، وباختصار تأسيس
أنثروبولوجية حقّة.

حلم وتفاؤل فى غير محله! هذا
ما سيقوله البعض. ولم لا نحلم بوضعية
أحسن من التى نعيشها اليوم؟ فصلّنا
الكلام فيما يباعد اليوم العرب عن الغرب،
لماذا لا نستبق الزمن ونتخيل ظروفًا قد
يلتقى فيها الخصمان على أرضية واحدة،
سيما إذا كان يوجد فى الواقع ما يركّز
هذا الاحتمال؟

خلاصة متفائلة؟ نعم. وخلاصة
غامضة فى نفس الوقت.

نؤكد الوحدة الجوهرية بين العرب
والغرب رغم صراعاتهم المتجددة، ولا نعترف
بغلبة أحد. أو لا نتعرض بذلك لتأويلات
متناقضة؟ قد يفهم البعض من كلامنا دعوة
إلى الاستسلام، والبعض الآخر نداءً إلى
نقل المواجهة إلى مجال أعلى. هذه مجازفة
نقبل نتائجها راضين: قد يتيه عن الصواب
من يبالغ فى التدقيق! (٥٣)

فبالرغم عن إدراكه للتنوع الذى يتضمنه معنى الغرب ، وبالرغم عن
خطأ المواجهة الأزلية بين الغرب والشرق، تنوب تلك الفروق الدقيقة فى
التأكيدات المتضمنة فى خاتمته المتعلقة بموضوع "الغرب" وموضوع
"الخصمين". وبوضوح، فإن الأمر لم يبلغ به حد الاعتراف بضرورة
التخلص من هذه التعميمات الضارة.

مارسيل خليفة : غرب رجل جماهيرى

بصفته مؤلفاً موسيقياً ومغنياً ومُعبِّئاً للحشود، يُعَبِّرُ مارسيل خليفة
عن شعور شعبى عارم بكيلى طافح إزاء غرب لم يعد يؤمل منه شيئاً.

هل بالإمكان قياس إشعاع مغنٌ شعبي وملترزم مثل مارسيل خليفة؟ فى حالة خليفة، فإن التفاعل مع آلاف المشاهدين، بل عشرات الألوف فى آن واحد، إضافة إلى تسجيلات أغانيه تقدم تعبيراً ملموساً تماماً عن انتمائه إلى وجداننا السياسى العربى الذى يرى فيه نفسه متفقاً مع جمهوره.

لقد أتاحت لى فرصة طيبة أغنيت فيها تفكيرى حول الثنائى شرق/غرب، عبر تجربة بالغة الخصوصية قد عشتها: وهى تجربة تنظيم مهرجان غنائى، فى مونتريال، لمارسيل خليفة وفرقة الميادين ، التى انضم إليها موسيقيون كنديون من مونتريال تلقوا إعداداً كلاسيكياً^(٥٤). كان اللقاء الموسيقى بين فنانين عرباً وفنانين مونترياليين لقاءً ساحراً. وبدا واضحاً من خلال أول تجربة أن الفنانين كانوا يتحدثون اللغة ذاتها، لغة الموسيقى. إن أرباع النغم والفروق الدقيقة الأخرى التى قدمها العازفون العرب لم تكن لتهدد فى شئ العازفين المونترياليين الذين قدموا ما اختزنه حساسيتهم الخاصة^(٥٥). كنا بعيدين عن تلك المواجهة السحيقة المزعومة بين شرق وغرب أسطوريين. كانت الأجواء حارة مفعمة بالحماس فى قاعة ويلفريد - پلتييه، رغم رصانة أجوائها. ولم تكن الأجواء بالتأكيد عدائية، فنادرأ ما شوهدت مثل هذه الأعداد من الحضور التى غادرت مقاعدها وراحت تجوب الصالة وترقص وأيديها بأيدى بعضها البعض.

وباعتبار أن الموسيقى هى بنفسها لغة تطبع العلاقات بين المجتمعات الحقيقية والوهمية، كما تطبع العلاقات بين الأفراد، فقد

تساءلتُ عما يتضمنه الغرب المتخيل من فنان على غرار مارسيل خليفة. ولنذكر أن خليفة ظاهرة نجحت في الوصول في آن واحد إلى الوجدان السياسي ، ووتر إحساس مئات الألوف من المعجبين عبر العالم العربي، من تونس إلى بيروت ^(٥٦). وكونه قد أنشد عدة قصائد لصديقه الشهير محمود درويش إنما يؤكد حتماً التزامه لصالح يقظة الوجدان العربي بكل المشاعر الإنسانية التي نعرفها عند درويش. والإنشاد لفلسطين محمود درويش له صدى يصل إلى أعماق وجداننا العربي.

كما وأننى سألت مارسيل خليفة أن ينقل إلينا بالكلمات ما يشعر به حيال الغرب. فهذه هي إجابته:

"الغرب يسيطر على الإعلام والاستلايت
ودور النشر، الخ. عمل هذا الغرب على
حملنا على الاعتقاد بأن الثقافة الغربية
ثقافة كونية. وخاطبنا جميعاً نحن الوافدين
من آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. فهكذا
أصبحت الحضارة مرادفة للغرب ، وكأن
على المرء كي يكون متحضرأ أن يتبنى
ويعتق الفلسفة والتربية والعلوم والقيم
والفنون الغربية. بيد أن ليس من ثقافة
تستطيع الادعاء لنفسها صفة "الثقافة
الكونية". أليس طموح الثقافة الغربية هذا

مرتكزاً على هيمنته على وسائل الإعلام والاتصال. فكل ثقافة بالضرورة ثقافة تاريخية لها أهداف محددة تماماً ضاربة جنورها في سياق محدد تماماً وكذلك تاريخ بالغ الخصوصية. وبالتالي فإن واحداً من شروط التحرر في الشرق قد يكون حصر الغرب في حدوده الطبيعية، أو، بعبارة أخرى، وضعه في نصابه وتبيان تاريخية ثقافته لتمكين الثقافات الأخرى غير الغربية أن تؤكد نفسها وتؤكد هويتها.

طالما يُغرقُ المركز الأطراف بإبداعيته الغربية، لا نستطيع أن نتنفس، لأن واحداً من شروط الإبداع هو التحرر من سيطرة الآخر.

لا يعنى ذلك رفضاً للغرب، إنما بالحرى محاولة للوجود كذات ولدراسة الظواهر بطريقة مباشرة: يتطلب الأمر معاينة الواقع بطريقة مباشرة وليس عبر نص مكتوب. المطلوب منا أن نحول الواقع إلى نص مكتوب. فبالطبع نراقب الثقافة الغربية أولاً

وقبل كل شيء على أنها يقظة وجدان. ليس
لثقافة وجوداً خارج وجدان فردى
 واجتماعى وتاريخى.

وهكذا فإن الوجدان الغربى الذى
يشكل نواة الثقافة الغربية هو تماماً وجدان
تاريخى. فى عملية تشكيله الخاصة نعثر
على عناصر تنتمى إلى الحضارة الشرقية
القديمة إضافة إلى عناصر تعود إلى
الحضارتين الإغريقية والرومانية. إذن فإن
الوعى الأوروبى له فى تكوينه ارتكازات
تاريخية محددة تماماً مثله مثل أى وعى
آخر. فهو ليس وعياً كونياً. لقد تكون الوعى
الغربى فى شروط خاصة زمن النهضة
عندما قطعت بصورة واضحة مع القديم،
مع أرسطو مثلاً قطعت مع الكنيسة
لتدشين علاقة مباشرة مع الواقع.

اليوم، لم يعد الوعى أو الضمير
الغربى قادراً على الإبداع، الروح مصابة
بإنهاك والشعلة تفتقر: يمكن تشبيه هذا
الوعى حالياً بشيخ منهوك القوى من غير

مستقبل واعد. وفي الوقت ذاته نلاحظ شكلاً جديداً للحياة يظهر في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية والصين والهند وكذلك في العالم العربي. فجر جديد يبرز، ليس مهماً تقييماً الآن: إذا ما كان صحيحاً أم باطلاً! الأهمية كامنة في أن شيئاً جديداً وواعداً موجود! هل يمكن قلب الأدوار من جديد؟ هل يمكن للمعلم أن يصبح تلميذاً والتلميذ معلماً كما كان الحال زمن ازدهار الحضارة العربية^(٥٧).

وتشبه رؤية مارسيل خليفة على وجه لافى رؤية حسن حنفى^(٥٨) (وهى رؤية سنتناولها بالبحث لاحقاً) وآخرين غيره ينتمون، شأنهم شأن حنفى، إلى أفاق مختلفة. وتكشف هذه الظاهرة عن حالة الكيل الطافح الذى يتميز به الوجدان العربى كما عرفناه تبعاً لضرورات هذه الدراسة^(٥٩). إلا أن هذه الدراسة هى بالضبط دعوة إلى الإقرار بأن الغرب لا وجود له من خارج مخيلتنا. فمن أجل مقاومته، لا بد من إدراك هذه الطبيعة المتخيلة والتخلص بالتالى من قيود فكرنا المكيف. فبمعابنتنا للسياق بتعقيده، من دون النظر إليه عبر الغرب، تتوافر لنا فرص أفضل لرؤية طبيعته المتخيلة.

إدوارد سعيد ونقد الاستشراق

بين ظهرانى أولئك الذين انتقدوا التعميمات ويشعرون ببعض الضيق جراء اضطراهم للتعامل مع مفاهيم مثل الشرق أو الغرب ، هناك أيضاً إدوارد سعيد، رائد النقد الذى وجه إلى الاستشراق. إن أعماله التى باتت كلاسيكية والتى تنتسب إلى العربى والغربى، تضم عناوين مثل الاستشراق، قضية فلسطين، تغطية الإسلام أو الثقافة والإمبريالية^(٦٠).

فى تقديم كتابه تغطية الإسلام ، صرح إدوارد سعيد أن الأمر يتعلق بالكتاب الثالث من ثلاثية حاول فيها معالجة العلاقة الحديثة بين عالم الإسلام والعرب والشرق من جهة، وعالم الغرب وفرنسا وبريطانيا وبخاصة الولايات المتحدة من جهة أخرى^(٦١). نحن إذن أمام عمل يؤيد فيه المؤلف عن وعى الثنائية التى يتعارض فيها الشرق مع الغرب . مع ذلك، فإن المسألة أكثر تعقيداً إذ إن إدوارد سعيد سوف لن يفوته كذلك أن يطلق عدة تحذيرات من استخدام هذين المفهومين الشموليين. فهكذا يؤكد بعيد ذلك بعدة صفحات، "إن كوننا نعيش فى عالم بالغ التعقيد والتنوع، لا يترك مجالاً للتعميمات المتسارعة والفورية". ولم يكن فى وسع سعيد أن يكون أكثر وضوحاً، فى شأن نظرتة إلى الشرق والغرب، مما كان عندما كتب:

"وينبغى أن نأخذ بجدية ملاحظة فيكو
العظيمة أن البشر يضعون تاريخهم ،

وأن ما بمقدورهم أن يعرفوه هو ما صنعه،
وأن نسحب هذه (الملاحظة) لتتنطبق على
الجغرافية، ذلك أن مواضيع وأقاليم
وأقساماً جغرافية كالشرق والغرب، من
حيث هي كيانات جغرافية وثقافية - دون أن
نقول شيئاً عن كونها كيانات تاريخية - هي
من صنع الإنسان. ومن ثم، فإن الشرق،
بقدر الغرب نفسه تماماً، هو فكرة ذات
تاريخ وتراث من الفكر، والصورة والمفردات
التي أسبغت عليه حقيقية وحضوراً في
الغرب ومن أجل الغرب. وهكذا فإن كلاً من
(هذين) الكيانين الجغرافيين يدعم الآخر،
ويعكسه إلى حد ما" (٦٢).

مما لا ريب فيه أن نقده للاستشراق يغطى خصوصاً استعمال
المصطلح الإنجليزي (The West) ، أى الغرب:

"إن الهويات [Label] التي تدعى إمكان
تسمية أوضاع معقدة تمتاز بضبابية
معلومة وهى فى الوقت ذاته لا مفر منها.
إذا كان صحيحاً أن "الإسلام" هوية غير
واضحة المعالم ومشحونة إيديولوجياً،

فالصحيح أيضاً أن "الغرب" و"المسيحية" يتضمنان الإشكالية ذاتها. لم توجد بعد طريقة سهلة لتلافي هذه الهويات، طالما أن المسلمين يتحدثون عن الإسلام ، والمسيحيين عن المسيحية ، والغربيين عن الغربيين ، والجميع عن كل الآخرين بطرق تبدو مقنعة ودقيقة في أن. فبدلاً من محاولة اقتراح طرق لتجاوز الهويات، أرى أنه من الأجدي في المدى المباشر الإقرار أولاً بوجودها وأنها اعتبرت لفترة طويلة جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الثقافي ، عوضاً عن أن تكون تصنيفات موضوعية: في مكان آخر من هذا الفصل سأحدث عنها كتأويلات أنتجت بواسطة ومن أجل من سأسميها جماعات تأويلية" (٦٣).

ولكن إن كانت هذه السمات موجودة واستعمالها شائعاً، فهل علينا بسبب ذلك استعمالها ثانية وتعزيزها؟ لا ريب في أنه من المثير للاهتمام النظر على هذه السمات باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من "تاريخ الثقافات"، ولكن أي اعتبار هو الذي يلزمنا بضمها إلى خطابنا الشخصي؟ في الواقع، إن تحذيرات سعيد لا تصمد أمام ما دأب عليه من استخدام

مكتفٍ للتعميمات من النمط شرق/غرب ، على غرار ما فعل عندما يؤكد أن القسم الأعظم مما عرفه الغرب عن العالم غير العربي، عرفه في إطار الاستعمار^(٦٤). وأن استخدامه الانتقائي للمزدوجات عندما يحيل على "الغرب"^(٦٥) لنودلالة على الانزعاج الذي يشعر به بسبب خياره النقدي واستعماله المتكرر لكليشيهات وصفها هو نفسه بالكليشيهات المفروضة^(٦٦) والشمولية^(٦٧).

ومما لا ريب فيه أن إيوارد سعيد يطمح فكرياً لمفادرة التصور الثنائي الذي يضع الغرب في مواجهة الشرق:

"وإذا كان لهذا أن يشجع نمطاً جديداً
من التعامل مع الشرق، بل إذا كان له في
الواقع أن يبتز "الشرق" و"الغرب" بقرأ
كاملاً فسنكون قد تقدمنا قليلاً في عملية
ما أسماه ريموند وليمز تبيان ما تعلمناه
من النهج الطبيعي المسيطر"^(٦٨).

فإذن حدد سعيد تحديداً واضحاً الطابع الوهمي للشرق والغرب على السواء ، والتزم معنوياً السير على الدرب الموصل إلى إلغاء مثل هذا النمط من التصورات في شأن الآخر. وبصورة معاكسة، فإنه يبقى عملياً على هذا النمط من التصورات، كما رأينا أعلاه. فبجانب الهجمات الكثيرة جداً ضد هذه التعميمات، والتي يمثل الاستشهاد السابق

نموذجاً عنها ^(٦٩)، سنعثر على حشد من الأمثلة التي تبرز فيها من جديد هذه التعميمات في استعمالاته بدون تمييز لمفردتي West و Occident . وكدليل على ذلك نورد هذا التأكيد له:

”وما أطرحه هنا هو أن الاستشراق
كان، جوهرياً، مذهباً سياسياً موز
إرادياً على الشرق ، لأن الشرق كان
أضعف من الغرب، الذى ساوى بين
اختلاف الشرق وبين ضعفه“ ^(٧٠).

ولكن بائى شرق يتعلق الأمر وبائى غرب؟ هذا ما لا يقوله لنا سعيد . وبالتالي فإنه يقع فى الفخ نفسه الذى قد أسهم مع ذلك فى الكشف عنه . مرة أخرى، يتعلق الأمر بعينة ^(٧١)، أو إن شئنا بعينة معاكسة تصور لنا كيف أن إدوارد سعيد يسهم بتأييد التفرع الثنائى الشمولى الذى عمل هو نفسه على فضحه .

فى سجل آخر، يظهر سعيد مرة أخرى فى صورة يناقض فيها بالخطاب ما طمح إليه نظرياً . وإن القول بأن نشر الكتاب العرب لأعمالهم بالعربية ليس له تأثير كبير فى الأوساط الثقافية فى نيويورك وباريس أو فى لندن، لهو شئ ، وتأكيد ما سيلي لشيء آخر:

”إن مجرد وجود ”حقل“ كالاستشراق،
دون أن يوجد معادل مطابق له فى الشرق

نفسه، ليوحى بالقوة النسبية لكل من الشرق والغرب [...]. وبالإضافة إلى هذا، فقد قدر أن حوالى ٦٠٠٠ كتاب تتعلق بالشرق الأدنى قد كتبت بين ١٨٠٠ و١٩٥٠ فى الغرب؛ وليس ثمة ما يقارب هذا العدد أى مقارنة من الكتب الشرقية عن الغرب" (٧٢).

ونجد هذه الفكرة معززة فى خاتمة الكتاب:

"ليس هناك، مثلاً، مجلة رئيسية واحدة من كبريات المجلات المكرّسة للدراسات العربية تصدر فى العالم العربى اليوم [...]. ثمة إشارات أخرى كثيرة من أنماط مختلفة إلى الكيفية التى يتم بها الحفاظ على السيطرة الثقافية عن طريق القبول الشرقى بقدر ما يتم عن طريق الضغط الاقتصادى المباشر الخام من قبل الولايات المتحدة. وإنها لصدمة موقظة على سبيل المثال، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربى والإسلامى فى الولايات المتحدة، فليس ثمة مؤسسة واحدة فى الشرق

لدراسة الولايات المتحدة، وهى أعظم
المؤثرات الاقتصادية والسياسية على
الإطلاق فى المنطقة. وأسوأ من هذا،
لا يكاد يكون ثمة من معهد ذى مكانة حتى
متواضعة فى الشرق مكرس لدراسة
الشرق (نفسه) (٧٣).

هل يأخذ سعيد فى حسبانهِ الدوريات مثل المستقبل العربى وشئون
فلسطينية وشئون عربية أو مجلة الدراسات الفلسطينية؟ وماذا عن منبر
الفكر العربى (مقره عمان) ومركز دراسات الوحدة العربية أو كذلك
مركز ابن خلدون (مقره القاهرة)؟ وماذا أيضاً عن مختلف المنشورات
الصادرة عن دوائر الناشطين الإسلاميين الملتزمين، سواء تعلق الأمر
بكتابات آية الله فضل الله فى بيروت أم بمجلة الإنسان التى تصدر فى
باريس؟ ففى كتابه الأخير يؤكد إدوارد سعيد، فى معرض الحديث عن
الخطاب المناهض للاستشراق، على أحكامه المسبقة بتركيزه على
المؤلفين العرب الممتازين والمشهورين فى الأوساط الجامعية الباريسية
أو النيويوركية، وليس على مئات المؤلفين الممتازين المشهورين فى الأوساط
الجامعية (العلمانية أو الإسلامية) العربية:

ومن جهة أخرى، فإنَّ الإنشاء النقدى
والمُعَادَى للاستشراق الذى كتبه جيلٌ من
الباحثين أكبر سنّاً مثل أنور عبدالمك

ومكسيم رودنسون يستمر مع جيل أصغر
يضم: تيموثى ميتشل، وجوديث تَكرُ، وبيتر
گران، ورشيد الخالدي، ونظراءهم فى
أوروبا^(٧٤).

إن هذا الخيار مفهوم تماماً، إذ إن إدوارد سعيد يشن هجومه
بالأحرى، فيما يسميه الغرب، على مدرسة الاستشراق وعلى خطابه.
ولكنه فى تركيزى هنا على المؤلفين والمفكرين الأكثر تأثيراً فى وجداننا
العربى، يجعلنى أدرك مقدار ما تعانيه من نقص قائمة أنصار الخطاب
المناهض للاستشراق التى وضعها إدوارد سعيد. لقد اقتصر اعتراف
إدوارد سعيد على المؤسسات والمطبوعات المباركة من الغرب (حتى فى
هذه الحالة، فما هو تقويمه للجامعة الأميركية فى بيروت والقاهرة
ولثيلاتها؟). فى وسعنا بكل سهولة التأكيد أن الأفراد الذين يشهرون
انتماءهم للعالم العربى ينشرون بكثافة^(٧٥). وهم ينشرون على
الخصوص بالعربية^(٧٦) لكننا كذلك بالفرنسية والإنجليزية. إنهم ينشرون
بهذه اللغات الثلاث (وبلغات أخرى أيضاً) انطلاقاً من العالم العربى.
وعندما يعجزون عن ذلك أو لا يريدون أن يفعلوا، ينشرون انطلاقاً من
باريس، ومن نيويورك أو كذلك من مونتريال كما أنا فاعل هنا. ثمة عرب
تلقوا تعليمهم فى القطاع العام اللبناني، السوري، العراقى أو المصرى
ينشرون ويَحْتَجُّون؛ وثمة آخرون ممن ارتادوا المؤسسات الأجنبية،
أو ذات اللون الأجنبى، ينشرون وهم من الرافضيين. إن أصوات الاحتجاج

تدوَّى حيثما للعرب وجود على هذا الكوكب. وأمثال عبد الملك والعروى اللذين حددهما إدوارد سعيد بالاسم، إضافة إلى إدوارد سعيد نفسه، لكثُر. فمن البديهي أن تسهم عدة أصوات (ومن بينها نعثر، فضلاً عن أصوات الجامعيين، على أصوات مغنين وصحافيين وممثلين وتجار وأولاد وخطباء في الحشود، علمانيين أو رجال دين) في الخطاب المناهض للاستشراق بطرق مختلفة؛ وسيكون غير ذى جدوى محاولة تصنيفها إلا أنه سيكون مفيداً في الآن نفسه الاعتراف بتنوعها.

إن الصورة التى ينقلها إدوارد سعيد، أى صورة الغرب الكلى القدرة فكراً، وصورة عجز الشرق فكراً، تعزز هيمنة المخيال الأول ولا تخدم أطروحته الخاصة. ألم تكن الرغبة فى تحرير الطلاب العرب من الإفراط فى تثمين التربية التى يتلقاها المرء فى الولايات المتحدة رغبته؟ ألم تكن رغبته كبح تأييد مرتبة "المخبرين المحليين" التى تتسم بها علاقتهم بأساتذتهم الأميركيين أو الأوروبيين؟ من ناحية أخرى، يعطى طابع العالم العربى الدينامى وتعقيده اللذين شخصهما إدوارد سعيد خير تشخيص، إثباتاً تلقائياً لعدم جدوى التعميمات. فعلى سبيل المثال، إن تأكيدات إدوارد سعيد التنبؤية المتعلقة بالاستغراب وجدت ما يناقضها فى عمل حسن حنفى، أستاذ الفلسفة فى جامعة القاهرة. وهذا الأخير، بعد أن رفع لواء الاستغراب، يريد الآن أن يرفعه إلى مرتبة "العلوم الصحيحة" ^(٧٧). وبالتالي، كان إدوارد سعيد قد تسرع كثيراً عندما كتب:

"أن نتحدث عن تخصص بحثي بوصفه
"فعلًا" جغرافيًا هو، في حالة الاستشراق،
أمر ذو دلالة جلية؛ إذ لا يحتمل أن يتخيل
أحد حقلاً مناظراً له اسمه "الاستغراب" (٧٨).

حسن حنفى وعلم الاستغراب

في كتابه مقدمة في علم الاستغراب (٧٩)، يمتنع حنفى عن رفض
شامل للغرب كما يمتنع عن الهروب إلى الأمام باتجاه ذلك الغرب
نفسه (٨٠). وهو يدين إدانة لا لبس فيها الانبهار بإزاء الغرب
ويطمح إلى أن يستحيل الرفض عن طريق الحركة الإسلامية
نقداً مستنيراً (٨١). أما قضية الهوية والأصالة التي "ما زلنا
منذ فجر نهضتنا العربية نطرحها [...] وتكمن وراءها مشاكلنا
الاجتماعية والسياسية" (٨٢):

"ربما كانت معظم تياراتنا الفكرية
الحديثة أقرب إلى التغريب منها إلى
الأصالة، فالإصلاح الدينى (الأفغانى)
والليبرالية السياسية (الطهطاوى)
والعقلانية العلمية (شبلى شميل) كلها ترى
الغرب نمطاً للتحديث ونموذجاً للتقدم" (٨٣)

وخلافاً لنظيره الغربى فإن "علم الاستغراب يقوم على أنا محايد لا يبغي السيطرة، وإن بغى التحرر" ^(٨٤)؛ "مهمته القضاء على أسطورة الثقافة العالمية التى يتوحد بها الغرب" ^(٨٥).

ونشير إلى أن حنفى دعم أسطورة التعارض الأزلى بين الغرب والشرق ، وأنتج ثنائية بدون وجل الرسوم التى تجمع بين الغرب واليونان القديمة والإسكندر الأكبر والحملات الصليبية ^(٨٦). فبالنسبة إلى حنفى، الغرب موجود إذن بالفعل، أما بالنسبة إلى العرب فإن المطلوب هو مقاومته:

الغرب هو المعلم ونحن تلامذته. إلامَ
هذه الوصايا؟ إلامَ سنبقى موافقين على
السير فى ركب الغرب؟ ^(٨٧).

علم الاستغراب إذن، هو وسيلة مقاومة وليس وسيلة تعبير عن رفض: "خلافًا للنقد الذاتى الذى ظهر داخل الغرب نفسه، انبثق هذا العلم من الرؤية إلى الآخر غير الغربى قياساً على الغرب" ^(٨٨). وبالتالى يصير الغرب المراقب، بدوره، المراقب:

يرمى "الاستغراب"، كعلم، بالضبط
إلى قلب الاتجاه. لم يعد الغرب مصدر المعرفة.
صار موضوعاً للمعرفة. بعد تفكير متأنٍ
توصلت إلى القناعة الراسخة بأن العالم

العربى الإسلامى لا بد له من أن يتحرر من وصاية الغرب الفكرية. وعلى هذا الأخير أن يكف عن تشكيل المثل الأعلى والنموذج غير المنازع والذي لا يقبل الجدل فى مجال المعرفة. ليس مطروحاً رفض الغرب كتلة واحدة. فبصفتى طالباً وأستاذاً، أمضيت عشرين سنة من حياتى فى الغرب. تشبعتُ بالفلسفة الغربية. أريد بكل بساطة أن أعرف ما إذا كان لى الحق باتخاذ الغرب موضوعاً للدراسة، وليس كذات فقط. لا يضير الغرب شىء أن يتخذ من الثقافة الأخرى موضوعاً للدراسة كما لو كان الأمر يتعلق بعظائيات أو ثدييات (أنظر الاستشراق). لم يخطر فى باله يوماً أن يصبح كذلك موضوعاً للمعرفة، وأن يكون فى وسعنا أن نشرحه كما يتم تشريح فأرة أو موضوع تجارب فى المختبر. لماذا هو دائماً المراقب ويكاد لا يكون إطلاقاً المراقب؟ (٨٩).

ويضع حنفى فى حيز التطبيق إرادته فى مراقبة الغربية كموضوع ويلاحظ ارتباطاً تاريخياً متبادلاً بين انحطاط الحضارات وصعودها على

ضفتى البحر الأبيض المتوسط. وحسب حنفى نفسه كذلك، فإن الغربية بامتياز، بنظر العرب، هى الغرب؛ وهذا ينطبق على مرحلة اليونان القديمة وعلى الحاضر بالمقدار نفسه^(٩٠). مع ذلك، فى حين أن الأسلاف نجحوا فى عدم الاقتصار على تقليد غربهم والنقل عنه^(٩١)، فإن العالم العربى الإسلامى الراهن لم ينجح فى اجتياز هذه المرحلة والانتقال إلى مرحلة أخرى تتميز بالإبداع. بيد أن حنفى واثق ويبشر بفجر جديد، فجر انحطاط الغرب وصعود الشرق المتناظر:

فبينما الغرب يتمتع بانتصاره كما يفعل
فوكوياما وغيره بعجرفتهم واعتدادهم
المعهود، كنت مُصِراً على رفع صوت
الاحتجاج، وقول لا. فبالنسبة إلى العرب
والأفارقة والأميركيين اللاتينيين
والآسيويين... فالتاريخ لم ينته. حتى أنه
لم يبدأ بعد. عندما يتنبأ توينبى أو شبنجلر
أو ثاليورى بانحطاط الغرب، لا أحد يحتج
ولا أحد يهتمهم بالانحياز. ولكن ما إن
يقول ذلك عربى حتى يصرح الجميع
يا للفضيحة.. يا للغش!^(٩٢).

إن عمل حنفى قد استثار الجدل بين من رأوا فيه انكفاءً على الذات ،
ومن رأوا فيه مقاومة فكرية مستتيرة. ففى عزمه على دراسة الغرب كموضوع ،

وليس كذات ، على غرار ما يفعل الاستشراق بالشرق، ألا يجازف حنفى بالوقوع هو نفسه فى التقليد والنقل بينما يريد تخطى الاستشراق عن طريق الإبداع؟ وهو عندما يرفع لواء "علم يكون مرآة للاستشراق"، ألا يجازف، بالرغم من كل الفروق الدقيقة التى ينسبها إلى "استغرابه"، بتعبيد الطريق أمام دراسات "استغرابية" ^(٩٣) قد يكون تأثيرها مُسيئاً بمقدار الإساءة نفسها التى رصدها فى التراث الاستشراقى؟ إن إجابة حنفى عن هذه الأسئلة إجابة تقول بـ "حتمية تأسيس ما يوازن الاستشراق به ليجرى التعامل مع غريبتنا المتمثلة بالغرب ندأً للند" ^(٩٤). إنه يستبعد المقاربة المقترحة هنا والتى ترمى إلى معرفة الذات معرفة أفضل من خلال دراسة رءانا إلى الآخر. ولا يخاف، وهو الذى يقرُّ بالطابع المعقد والمنوع لما يحتوى عليه "التراث الغربى" ^(٩٥)، من معاودة إنتاج التعميمات من نمط الغرب و الشرق ، وهى تعميمات من المعلوم أنها تحجب خلفها تعقيدات الواقع. ويفسرُ هذا الموقف الأخير تفسيراً طبيعياً بكون الغرب موجوداً فى نظر حنفى. بالاستناد إلى نقطة الانطلاق المشتركة هذه بين العديد من المفكرين، فمن الطبيعى الوصول إلى رؤية إلى العالم مجزأة إلى كتل. والاعتراف عرضاً بالتنوع الذى تضمه هذه الكتل لا يحد من الوقع السلبى الذى يحدثه التماذى فى استخدام المفاهيم المعتمدة فى تسميتها. وفى خضم مثل هذه الاستعمالات لا تلبث التحذيرات أن تغرق وتنجرف فى تيار التعميمات، متراجعة أمام سيرورة تعزيز الرسوم الاختزالية.

صادق جلال العظم : الاستشراق والاستشراق المعكوس

توفر النصوص المتضمنة في كتاب صادق جلال العظم الأخير، ذهنية التحريم: سلمان رشدي وحقيقة الأدب ، مثلاً ساطعاً على مركزية الموقع الذي يحتله مفهوم الغرب في النقاش، أو بالأحرى في المجابهة الفكرية مع مفكرين عرب آخرين ^(٩٦). ولنذكر بأن العظم قد اشتهر بكتابه نقد الفكر الديني ، مما تسبّب له بالمثل أمام القضاء في بيروت (علماً أن بيروت كانت في تلك الفترة أكثر العواصم العربية تمتعاً بحريات واسعة في الصحافة ونشر الكتب التي تثير قضايا سجالية) ^(٩٧). وسيكون صادق العظم في الوجدان العربي بطل الماركسيين والشيوعيين على اختلاف اتجاهاتهم. أما اليوم، فكتابات لا تكفّ عن إثارة غضب النشطاء الإسلاميين، لكنها تهاجم كذلك القوميين العرب أو شخصيات مثل إدوارد سعيد ، وأنونيس ، وأنور عبد الملك.

وعندما يتخذ صادق جلال العظم الاتفاق مع إدوارد سعيد نقطة انطلاق لمحاربة فكرة الاستشراق الأساسية، إنما يكون بذلك قد حدد ما يسميه "ميتافيزيقا الاستشراق". وهذه تكمن في الفكرة القائلة بوجود طبيعتين ثابتتين ومختلفتين جوهرياً تخصان الشرق والغرب على التوالي، وإن الثاني أرقى شأنًا من الأول:

وبإمكاننا أن نسمى هذه القناعة
بميتافيزيقا الاستشراق لأنها تفسر الفوارق

بين ثقافة وأخرى بين شعب وآخر، إلخ،
بردها إلى طبائع ثابتة وليس إلى صيرورات
تاريخية متبدلة. على سبيل المثال، ترى
ميتافيزيقا الاستشراق ضمناً (وأحياناً
صراحة) أن الخصائص التي تميز
المجتمعات الغربية ولغاتها وثقافتها إلخ،
هى على ما هى عليه، فى التحليل الأخير،
لأنها تنساب من طبيعة "غربية" معينة
متفوقة فى جوهرها على باقى الطبائع
وبخاصة على الطبيعة "الشرقية". لذلك يؤكد
إدوارد بأن "جوهر الاستشراق هو التمييز
الذى لا يحى بين التفوق الغربى والدونية
الشرقية" (٩٨).

قبل أن يكشف لنا بصورة جلية طريقته فى النظر إلى الأمور، انتقد
صادق العظم إدوارد سعيد لقيامه فى كتاباته بتعزيز الأسطورة التى
أراد تحطيمها فى البداية، أى أسطورة وجود طبيعتين ثابتتين. فيأخذ
عليه جمعه بين "الآراء المشوهة والأحكام الخاطئة والمواقف العنصرية
التي كان يحملها ممثلو العقل الغربى والثقافة الأوروبية حول الشرق من
أمثال هوميروس وأسخيلوس ويوريبيديس ودانتى" (٩٩) وبين الاستشراق.
ولا يوجه صادق العظم انتقاده إلى إدوارد سعيد لقيامه بالجمع خطأً بين

هؤلاء المؤلفين وبين الغرب، إنما بالأحرى لقيامه بربطهم بفترة معينة من فترات الغرب، أى بالاستشراق الذى لا ينتمون إليه تاريخياً.

إن ما يزعم صادق العظم هو غروب المقدمة المنطقية عن بال إدوارد سعيد، تلك المقدمة التى تُربط بموجبها ظاهرة الاستشراق بسياق تاريخى ذى خصائص مميزة جداً، سياق هو "حركة توسع أوروبا البورجوازية الحديثة خارج نطاق حدودها التقليدية توسعاً متسارعاً منتظماً شمولياً على حساب بقية أجزاء العالم" (١٠٠). وسعيد يربطه لمفكرين من خارج الإطار التاريخى، المحدد تماماً، بالاستشراق، إنما "يرجعنا بصورة ضمنية إلى نمط من التفكير والتعليل يقوم على التسليم الصامت بأسطورة الطبائع الثابتة والخصائص الدائمة، وهى الأسطورة التى يفترض بأن إدوارد قد أعلن الحرب الكلية عليها" (١٠١).

وفيما يتعدى نقد صنوف الغرب المتعددة لدى الآخرين، يغذى صادق العظم تماماً غربه. وهو يبعد سنوات ضوئية عن القيام بإعادة النظر بوجود هذا الغرب ذاته خارج المخيال. وهو يدعونا على الأكثر إلى التمييز بين الإعلام الغربى، والغرب الحقيقى، والمجتمعات الغربية، الأنثلجنسيا الغربية، أو كذلك بين الحكومات الغربية (١٠٢). وفى معرض الحديث عن قضية سلمان رشدى، كتب يقول: "تَصَرَّفَ نقادنا وصحافيونا ومعلقونا وكأن الإعلام الغربى هو الغرب" (١٠٣). ويبعد ذلك بقليل يوضح قائلاً: "لو كُفَّ نقادنا خاطرهم ونظروا إلى الغرب الحقيقى بدلاً من الغرب الإعلامى كان سيتبين لهم أن هذا الغرب لم ينطق بكلمة

واحدة دفاعاً عن رشدى ، ولم يفه ببنت شفة فى مديح رواية "الآيات الشيطانية". فى الواقع أن العكس هو الصحيح تماماً^(١٠٤). "الغرب الحقيقى" يتكشف أمام عيني العظم فى تصريحات ومواقف چورچ بوش ومارجريت تاتشر وچاك شيراك ، ورونالد ريجان أو الفاتيكان أيضاً، الذين أدانوا جميعاً عمل رشدى^(١٠٥).

وبجلاء، فإن تداول مصطلح الغرب، المستخدم استخداماً تعميمياً للدلالة على كيان يؤخذ كتلة واحدة، هو الغالب فى العديد من الفقرات. حيث ينتقل صادق العظم بخفة من الولايات المتحدة إلى الغرب^(١٠٦) أو أيضاً حين يحدثنا عن اليمين المسيطر فى الغرب^(١٠٧)، وعن مجرد الغرب كمكان جغرافى^(١٠٨) (عندما يتحدث عن الجماعات الإسلامية المتواجدة فى الغرب) أو أيضاً عن الغرب كطرف أو قطب حيث يشكل الغرب الطرف الأقوى^(١٠٩). فى هذه الحالات لا يعود الأمر متعلقاً بالتمييز بين "الإعلام الغربى" و"الغرب الحقيقى"، إنما بالغرب بكل اختصار.

لقد خطا صادق العظم إذن خطوة فى اتجاه تشريح الغرب عندما رده إلى مختلف المكونات التى ربطها به ، لكنه سرعان ما أفسد هذه المحاولة باستخدامه المتماذى لمفهوم الغرب هذا دونما تمييز دقيق. وهذا علماً بأن غربه ليس غرباً ثابتاً لا يتحرك، بل غرب مرّ فى حقبات مظلمة وأخرى أكثر نوراً، شأن الشرق تماماً، الذى عرف فترات من الأنوار (بغداد، قرطبة)، لكننا يعيش اليوم حقبة "ظلامية بغيضة". ويعتبر صادق

العظم أن الاستشراق ثمرة لحظة تاريخية مرّ فيها الغرب ، وليس نتيجة غرب متواصل لا يتبدل. مع ذلك، فهو لا يتابع سيره وصولاً إلى الإقرار بأن هوميروس ويوربيديس لم يعلننا يوماً انتماءهما إلى أى شكل من أشكال الغرب^(١١٠). شأنه شأن إدوارد سعيد وكثيرين غيره، وقع صادق العظم فى الربط المغلوط تاريخياً بين مفكرين مثل هوميروس ويوربيديس وبين مفهوم الغرب. فى زمنهما وفى ذهن سكان المناطق المشمولة الآن جغرافياً بمفهوم الغرب، لم يكن للغرب وجود.

وللعظم غربه، إلا أن غربه، مثل شرقه، متحرك. وأمميته الماركسية لم تدفعه إلى حد إنكار وجود، عملية تأكيد الثنائى شرق - غرب فى التفكير، أو على الأقل ملاءمة هذا الثنائى^(١١١). ولم يتوان عن الحكم لصالح بعض الاستشراقيين الذين وضعوا الإصبع على عيوب الغرب المعاصر الواقع فى حالة تدعو إلى الرثاء حقاً. فيعلن، على سبيل المثال، تعارضه مع سعيد بهذه الكلمات:

لا يكفى أن نقول مع إدوارد بأن سيطرة الإطار الإبستمولوجى الاستشراقى التقليدى على عقليهما وروحيهما قد أعمتهما عن حقيقة المجتمعات الإسلامية وشوّهت نهائياً نظرتيهما إلى الواقع الشرقى عموماً. على سبيل المثال: أوليس صحيحاً - على وجه العموم - أن الغيب هو بالفعل أكثر حضوراً

وقرباً بكثير بالنسبة لسكان دمشق
والقاهرة ، مما هو بالنسبة لسكان باريس
ولندن فى الوقت الحاضر؟ أوليس صحيحاً
أن الدين يعنى كل شىء بالنسبة للفلاح
المراكشى والجزائرى والإيرانى بطريقة
لا يمكن أن يعنيها بالنسبة للمزارع
الأميركى المعاصر أو لعضو الكولخوز
السوفيأتى فى يومنا هذا؟! أوليس صحيحاً
أن فكرة النظام الطبيعى العام الذى يجرى
وفقاً لقوانين ثابتة هى أكثر رسوخاً بكثير
فى عقول طلبة جامعتى موسكو ونيويورك ،
مما هى فى عقول طلبة جامعتى الأزهر
وطهران (أو أية جامعة عربية أو إسلامية
أخرى تختارها)؟^(١١٢).

بالنسبة إلى العظم، فإن جيب ومكدونالد كانا محقين فى تقويمهما
للحالة، ويأخذ على إيوارد سعيد إرادته فى إنكار الواقع المر الذى يسود
فى الغرب عمومًا، ولدى العرب خصوصاً. ويلومه لعدم رده على جيب
وعلى مكينالد بتذكيرهما بأن الغرب أيضاً عرف أوضاعاً مشابهة فى
القرون الوسطى. إن ميتافيزيقا الاستشراق تقدم الغرب على صورة
كيان متفوق على امتداد التاريخ، بينما الواقع، حسب صادق العظم،

هو أن هذا التفوق، وهو ثمرة مرحلة تاريخية محددة تماماً، ليس أزلياً، تماماً مثلما ليست دونية الشرق أزلية. وقد يطمح هذا الشرق للوصول إلى مصاف الغرب (١١٣).

الاستشراق المعكوس والنقاش مع أدونيس

إن ظاهرة الاستشراق المعكوس طبعت، حسب صادق العظم، "الفكر القومي العربي وحركة الإحياء الإسلامى" (١١٤) على حد سواء. وهو يتهم أدونيس والمفكرين "الإسلاميين" على حد سواء بأنهم يؤيدون مقولة الاستشراق الكلاسيكى المتعلق بالخصائص الثابتة لفرق عضوى بين الغرب والشرق ، لكننا بتحويل التفوق الثانى فيما المستشرقون يعلنون تفوق الأول. فى الاستشهاد التالى، يقصد بعض الإسلاميين، ولكن تفسيره للاستشراق المعكوس ينطبق على فئات أخرى من المفكرين:

"يستعيد الإسلاميون، بأشكال مختلفة،
القناعة الأساسية لميتافيزيقا الاستشراق
القائلة بأن الشرق شرق والغرب غرب ولكل
منهما طبيعته الخاصة وخصائصه المميزة
ثم يقبلون، ضمناً أو صراحة، حكم القيمة
المتضمن فى الحكمة الاستشراقية الغربية
بحيث يعمل لصالح الشرق هذه المرة. لذلك

لا غرابة فى أن يستعيز الإسلاميون فى تفكيرهم السياسى، عن التعارض المؤلف بين حركات التحرر الوطنية من جهة والسيطرة الإمبريالية من جهة ثانية، بتعارض من نوع آخر، أى التعارض بين الشرق والغرب^(١١٥).

والمؤلف لا يتهم الإسلاميين بتجاهلهم ظاهرة الإمبريالية تجاهلاً كلياً، إنما يتهمهم بالأحرى بتقديم موضوع التصدى للغرب على ما عداه، مما سيمكنهم من التصدى للماركسية والشيوعية أيضاً بحجة جذور هاتين الإيديولوجيتين، الغربيتين^(١١٦). والأمر الذى يصدمه على وجه الخصوص هو قيام عدد من الماركسيين السابقين والراديكاليين المنهكين، أو أيضاً عدد من القوميين الخائبين، بمغازلة الاتجاه "الإسلامى" هذا إن لم نقل إنهم التحقوا بمواقفهم. ويحقد بخاصة على أدونيس، لكننا يحقد أيضاً على عبد الملك الذى قد اعتمد، هو أيضاً، صيغة المواجهة شرق/غرب بقوله بأن: "السمة الرئيسية لعصرنا هى المجابهة الحضارية المستمرة بين الشرق والغرب"^(١١٧).

وما يزعج صادق العظم، ليس أن يكون أنور عبد الملك وآخرون قد اعترفوا بالمواجهة بين الشرق والغرب، إنما بالأحرى أن يعمدوا إلى تقديم هذه المواجهة على أنها مستمرة وسكونية. ونلاحظ، بالمقابل أن العظم لئن اتهم الإسلاميين السياسيين بالنظر إلى الماضى، فهو يتبنى

الرؤية ذاتها إلى غرب يفترضه متعارضاً تعارضاً ديناميكياً مع طرف آخر هو الشرق. والتفكيران يجمعان على القول إن الحالة ليست ثابتة: "ألم يمرّ الغرب في العصر الوسيط" ^(١١٨). كلاهما متفقان على القول إن ثمة أملاً في خروج الشرق من ظلامه الراهن. والفرق يكمن في أن بعض الإسلاميين يرمون إلى استعادة أمجاد الماضي بينما العظم، من ناحيته، يود أن يسود مجد الحاضر، هذا المجد نفسه الذي يماثله بالغرب ^(١١٩).

وفي النقاش الذي ما فتىء يوجه فيه صادق العظم الشاعر والمفكر أدونيس، يكشف لنا كل منهما شيئاً إضافياً عن غربه. فمن دون مواربة يتهم العظم أدونيس بالسقوط في فخ ميتافيزيقا الاستشراق بإسناد مزايا للشرق تفرقه بصورة ثابتة وجوهرية عن الغرب. كما وأن العظم يقول، برهاناً على أن أدونيس يمارس "الاستشراق المعكوس"، "ولا يترك أدونيس مجالاً لذرة من الشك في أن الإبداع متحقق أولاً وفي الأساس في الشرق وليس في الغرب" ^(١٢٠). وتدعيماً لفرضيته، اعتمد على المقطع التالي من نص أدونيس:

"إبداعياً، أعنى على مستوى الحضارة
بمعناها الأكثر عمقاً وإنسانية، ليس
في "الغرب" شيء لم يأخذه من الشرق.
الدين، الفلسفة، الشعر (الفن، بعامة)
"شرقية" كلها. ويمكنكم أن تستأنسوا
بأسماء المبدعين في هذه الحقول،

بدءاً من دانتى حتى اليوم. فخصوصية
"الغرب" هي التقنية، لا الإبداع. لذلك يمكن
القول إن الغرب، حضارياً، هو ابن الشرق.
لكنه تقنياً "لقيط": انحراف - استغلال،
هيمنة، استعمار، إمبريالية. إنه فى دلالة
أخرى، تمرد على الأب. وهو الآن، لم يعد
يكتفى بمجرد التمرد، وإنما يريد أن يقتل
الأب" (١٢١).

فى مكان آخر، يتهم صادق العظم أدونيس بالالتحاق بصفوف
الاستشراقيين والإسلاميين الذين يزعمون أن "الكل الإسلامى الشرقى
بغنى تام [...] عن العلمانية والحدثة والماركسية والشيوعية والتحليلات
الطبقيّة والتنظيمات الحزبية والديمقراطية، وما شابه ذلك مما يجب أن
يبقى حكرًا على الحضارة الغربية الحديثة وحدها" (١٢٢). ويستطرد
العظم قائلاً: "ألم يقل لنا أدونيس إنه:

"أمام الفكر الغربى يأخذك "النظام"،
"النسق"، "المنهج" وأمام الفكر الشرقى،
تشعر، على العكس، أنك فى حضرة
الهاوية، حضرة السديم. الخلاق الشرقى
هو نفسه سديم. لذلك تشعر، إزاءه، كأنك
مأخوذ بالرب" (١٢٣).

ويختتم صادق العظم بالقول: "جميل جداً، لنا السديم ولهم الوضوح الديكارتي ، لنا الهاوية ولهم التطور التاريخي الصاعد متجديداً، لنا الرعب الميتافيزيقي ولهم طمأنينة الركون إلى العلم بقوانين حركة المادة والمجتمع. حقاً، إنها لقسمة استشرافية أدونيسية ضيزى!" (١٢٤).

وفى رده على مقال صادق جلال العظم بعنوان العقل المعتقل (١٢٥)، ينفي أدونيس هذه الاتهامات فيقول:

"أولاً - ألا يبدو جلياً، في هذه الفقرات
المأخوذة من المقال (وحبذا لو يعود القارئ
فيقرأه بكلية) إننى، حين أتكلم عن الشرق
أو الغرب أو الإسلام، لا أتكلم عنها
كمنطلقات ، أو كماهيات. وإنما أتكلم عليها
كمستويات ومفاهيم إيديولوجية ؟" (١٢٦).

يبدو هنا أن أدونيس على وشك أن يمحو من مفرداته الثنائي شرق/غرب باعتبارهما كتلتين متراصتين ومتجانستين. ويضيف فروقات دقيقة أخرى عندما يقول لنا بصدد المجابهة شرق/غرب:

[...] إن التعارض شرق/غرب [...]
ليس تعارضاً من طبيعة حضارية،
خصوصاً أن في الغرب أنواعاً كثيرة من الغرب
أكثر انحطاطاً من أى انحطاط مشرقى،

وأن في الشرق أنواعاً كثيرة من الشرق
أكثر تقدماً من أى تقدم غربي" (١٢٧).

مع ذلك، فإن الغرب يبقى واقعاً ملموساً تماماً بالنسبة إلى
أدونيس. وحسب ما يراه فإن الفرز غرب/شرق، لأن كان غير موجود فى
الأصل، فقد حدث عبر التاريخ. كما وأنه حينما يرفض المعادلة غرب
متحضر/شرق متأخر ، فذلك ليقول لنا على الفور "فى أفق هذا الوعى
يصح أن نقول إن الحداثة، مبدئياً، ليست غربية أكثر مما هى عربية.
وإذا كان ثمة تفاوت بين الغرب والشرق فى ممارستها التطبيقية، فإنه
فرق فى الكم لا فى النوع" (١٢٨). فإذن، ليس مطروحاً بالنسبة إلى
أدونيس التخلي عن مفهومى الغرب والشرق؛ بل على العكس، هو مستعد
حتى إلى العودة إلى الحملات الصليبية ليحدد بداية هذا الفرز الذى
ما زال يتطور فى أشكاله:

"ففى الأصل، لا "غرب"، لا "شرق".
فى الأصل الإنسان، سائلاً، باحثاً، (...)
الانفصال إلى "شرق" و"غرب"، فى الشكل
الراهن، معنى: صورته "التدين"، وأساسه
التسييس - التعيش، أى الاستعمار. ومنذ
الحروب الصليبية، تم الانفصال، وبدأ يأخذ
شكله الإمبريالى - الرأسمالى مع توسعات
"النهضة" الأوروبية" (١٢٩).

وإسهام أدونيس متمثل في أنه تابع بوعى تطور الثنائي غرب/شرق في الفكر، وهو تطور تلون بإيقاعات الحوادث التاريخية. فالغرب الذى يشغله هنا هو مفهوم لا ينطبق على مكان جغرافى بعينه. وصرخته المتكررة، "فى الأصل لا غرب ولا شرق" (١٣٠)، تعبّر تماماً عن رؤيته. فبالنسبة إليه ينتمى الغرب انتماءً جلياً إلى ميدان الخيال؛ إنه بناء مفهومي. ويكاد يقف قاب قوسين أو أدنى من الاستنتاج القاضى بالتخلص من الخيال هذا. وهذه الخطوة لم يخطها أدونيس كما لم يخطها عبد الله العروى ومارسيل خليفة ومحمود حسين. وها أنا ذا أخطوها متلما فعل آخرون على الأرجح، كلٌّ على طريقته، فى حياتهم اليومية دون أن ينعكس ذلك فى الأدب أو على مستوى واسع حتى يكون له تأثيره على الوجدان السياسى العربى.

حواشى الفصل الخامس

- (١) الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال ، بيروت، دار العودة، ١٩٦٩ (ط ٢).
- (٢) سننثر على الموضوعات ذاتها فى مجموعة صالح القصصية: دومة وذُ حامد ، بيروت، دار العودة، ١٩٧٠ وخصوصاً فى تلك القصة المعنونة رسالة إلى إيلين .
- (٣) نشير إلى أن إدوارد سعيد وجد فى مصطفى مرآة شخصية كوترز فى رواية قلب الظلام لجوزيف كونراد: هكذا تتقلب رحلة إلى قلب الظلام إلى مجرة مقدسة من الريف السودانى - الذى ما يزال يبرز تحت أعباء موروثة الاستعماري - إلى قلب أوروبا، حيث يُطلق مصطفى سعيد، وهو صورة مرآوية لكوترز > فى قلب الظلام > ، عنان عنفٍ طقوس ضد نفسه وضد النساء الأوروبيات وضد الفهم لدى الراوى [...] وتبلغ عمليات العكس المؤمّنية التى يقول بها صالح لكونراد درجةً من القصديّة تجعله يكرّر ويشوّه سياج كوترز المغطى بالجماجم ضمن محتويات قائمة الكتب الأوروبية المكسّسة فى مكتبة سعيد السريّة (الثقافة والإمبريالية، م.س، ص ٢٦٩-٢٧٠) .
- (٤) جماعة من المؤلفين العرب، الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، بيروت، دار العودة، ١٩٧٦، ص ١٢٥ .
- (٥) م ن، ص ١٢٨ .
- (٦) ومُ على التوالى يحيى حقّى وتوفيق الحكيم وسهيل إدريس .
- (٧) الطيب صالح عبقرى م س، ص ١٢٩ .
- (٨) م ن، ص ١٣٠ و، ١٣١ نذكر بأن الكتاب نشر فى العام ١٩٧٦، لكن لم يذكر تاريخ إجراء هذه المقابلة.
- (٩) م ن، ص ١٢٤ .

(١٠) م ن، ص ١٢٥، تجدر الملاحظة أن صبحى يفضح واقع أن المجابهة الحضارية بين أوروبا والغرب قد أفرغت من دلالتها لحظة جرى تقديمها تحت عنوان المجابهة بين الشرق والغرب. والظاهرة بالغة الدلالة هي أن صبحى، الذى أبدى هذه الملاحظة بالغة الأهمية فى الصفحة ٦٥، يشبّه عالم جين مورس، زوجة مصطفى، بالعالم الغربى ولا ينجح فى مقاومة الرغبة فى استخدام مصطلحات مثل "ثقافة غربية" أو "حضارة غربية" ويتحدث عن هذه المجابهة عينها فى الصفحات ٧١ و٧٧.

(١١) فى حالة العشرى راجع الطيّب صالح عبقرى... م س، ص ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦١ و١٦٢.

(١٢) م ن، ص ٨٠.

(١٣) موسم... م س، ص ٣٧.

(١٤) راجع أيضاً م ن، ص ٥١، حيث يقول، وهو يتوجّه فى قرارة نفسه إلى إيزابيلا سيمور، إلى الجذور الأندلسية: "... فانا لا أنوى بك شراً، إلا بقدر ما يكون البحر شديداً، حين تتحطم السفن على صخوره، ويقدر ما تكون الصاعقة شريرة حين تشق الشجرة نصفين". الأمور تتبع إذن مجراها الطبيعى.

(١٥) م ن، ص ١٠٤.

(١٦) م ن، ص ١٥٢.

(١٧) لقد استقبل آل روبنسن مصطفى أثناء إقامته فى القاهرة حيث تميّز عن التلاميذ الآخرين فى المدرسة الناطقة بالإنجليزية التى يشرف عليها المربى روبنسن. كانت القاهرة إذن المحطة الأولى فى الرحلة التى قادته من السودان إلى لندن.

(١٨) موسم... م س، ص ٤٠، ١٤٩ و١٥٢.

(١٩) م ن، ص ٤٢.

(٢٠) الجدير بالملاحظة هنا أن حسنة كانت قد تعرضت بالتالى للتأثير من خلال زوج محلى اقتتد صوب الآخر وصوب حضارته بوساطة بعض الإرساليين والحكومة المحلية المتعاونة مع المحتل. فى شأن دوافع القتل، راجع أدناه.

(٢١) موسم... م س، ص ١٢.

(٢٢) م ن، ص ٩٦ .

(٢٣) م ن، ص ٥٩ .

(٢٤) م ن، ص ١٢٧ .

(٢٥) راجع م ن، ص ص ١٦٧ إلى ١٧٣ .

(٢٦) راجع م ن، ص ١٠١ .

(٢٧) دفعت الرمزية إلى أقصاها لما قال الراوى، بعد استعراضه العناوين التي افترشت جدران الغرفة: "داوتى لا يوجد كتاب عربى واحد. مقبرة، ضريح، فكرة مجنونة، سجن، نكتة كبيرة. كنز. افتح يا سمسّم ودعنا نفرق الجواهر على الناس" م ن، ص ١٤٥، إنها فكرة ساخرة ورمزية للغاية، عندما نعلم، قبل ذلك من خلال النص، أن محجوباً كان يحثُ صديقه الراوى على فتح غرفته وتوزيع الكنوز المادية (جواهر والخ) التي كانت فى داخلها.

(٢٨) موسم الهجرة ...، م س، ص ص ١٧٥ و، ١٧٧

(٢٩) استعادة للفظى سكوى وحركى، لروبرت بيرسيغ، ليلى: بحث فى القيم، وخاصة ص ٥٢ - ٥٣ .

(Robert Pirsig, Lila: An inquiry into Morals, New York, Bantam, 1991).

(٣٠) الطيّب ...، م س، ص ٢٢٠ . مقتطف من مقابلة أجرتها معه هدى الحسينى.

(٣١) م س. النقاش بين البطل وصديقه الروسى لبالغ الدلالة على فكر المؤلف. ويعبر هذا المفكر عن نفسه بقوة من خلال النقد الذى يجريه البطل، وقد أثار الغرب فيه روح التمرد، لشرقه الذى نسب إليه الروسى الكمال: "نعم، اليوم ما عاد الشرق موجوداً... لم يعد هناك سوى غابة تسكنها القردة تتزيا بزى الغرب من دون نظام ولا فهم..." (ص ٢٠٦).

(٣٢) م س. إضافة إلى المواضيع المذكورة نعثّر فيها على الكليشيهات التالية: جاذبية الشقراء والسهولة المثال (ص ٤١): جاذبية الغرب ونساؤه اللواتى يهددن حالة السكون كما هى معاشة فى البلد الأم (ص ١٦٦ و ٢٢٠): الأندلس، أرض الأمجاد المفقودة (ص ٢٦٢).

(٣٣) الطيب صالح عبقرى ...، م س، ص ١٢٩ .

Mahmoud Hussein, Les Arabes au présent, Paris, Seuil, 1974, (٣٤) p.78.

(٣٥) م ن، ص ٧٦ .

Mahmoud Hussein, Versant sud de الضفة الجنوبية للحرية (٣٦) la liberté, Paris, La Découverte, 1989, p.8.

(٣٧) م ن، ص ١٦٩ .

(٣٨) م ن، ص ٥٣ .

(٣٩) م ن، ص ١٦٩، ١٧٠ .

(٤٠) م ن، ص ١٦١، ١٦٢ .

Abdallah Laroui, La crise des intel- (٤١) أزمة المثقفين العرب، lectuels arabes, Paris, François Maspero, 1974, p. 17, 38, 39, 60.

Abdallah Laroui, L'idéologie (٤٢) الإيديولوجية العربية المعاصرة، arabe contemporaine, Paris, François Maspero, 1967, p. 11, 40, 75, 107, 151.

La crise..., op. cit., p. 214, 215. (٤٣)

(٤٤) عبد الله العروى، الإسلام والحداثة، الالتباس، الاستشراق والاستغراب هي عناوين فرعية ثلاثة لذلك النص المعنون الإسلام وأوروبا: البعد الثقافى للحوار الأوروبى العربى .

(٤٥) الإيديولوجية العربية المعاصرة، م س، ص ٣٥ .

(٤٦) م ن، ص ٣٦ .

(٤٧) م ن، ص ٦٣ .

(٤٨) م ن، ص .

(٤٩) أزمة ...، م س، ص .

(٥٠) م ن، ص ٨٢ .

(٥١) من أجل نقد جيد للمؤلف ولكتاب أزمة المثقفين العرب، راجع هشام جعيط، أوروبا والإسلام، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٥، ص ص ١٠٠-١٠٥، وفي الصفحة ١٠٢ بوجه خاص، كتب يقول: "... إن العروبي نفسه شخص غامض: أوروبياني/ضد الأوروبي، عروبي تاريخي/لا عروبي ثقافي، ثوري/ضد الثورية، ماركسي/ضد الماركسية، واعٍ للاعتراضات لئلي يمكن أن نوجهها له وهو نفسه يقوم بها، يبعدها أو يدمجها حسب الحالات [...]".

(٥٢) م ن، ص ١٠١.

(٥٣) الإيديولوجية العربية المعاصرة، م س، ص ص ٢٥٤-٢٥٥، التشديد لى.

(٥٤) أقيم العرض في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢ في قاعة ويلفريد - بلتييه في ساحة الفنون (Place des arts). هذا قيس من كلمة لى في الافتتاحية المدرجة في برنامج المهرجان: "مارسيل خليفة رائد الأغنية العربية المعاصرة، بصحبة فرقة الميادين، اختار أن ينقل عبر الموسيقى رسالة سلام وأن يخوض نضالاً سلمياً من أجل كرامة البشرية. لقد عانى خليفة من مرارة العنف، مصيبة بلده، وكذلك من فقدان العدالة الذي يخض على الدوام سائر العالم العربي في علاقاته مع ما يسمى عادة الغرب. إن الثنائي "شرق/غرب" يمر في أوقات عصيبة؛ فالإعلام يجد دائماً الفرص لنقل التوتر الذي يسود علاقاتهما. بيد أن وراء هذين العنوانين - الشرق والغرب - يكمن العالم الحقيقي، عالم كل إنسان يتجاذبه الحقد والحب، العنف والسلام، المزاحمة والتضامن. ونحن من هؤلاء الذين يسلكون هذا الطريق الشائك الذي يغنيه خليفة وفرقة الميادين. في تلك السهرة، كانوا قد اختاروا لقاء "الأخر"، أى "نحن"، عبر الموسيقى. يسرنا أن نشاطركم متعة استقبالهم هنا في بلدنا. دعونى أضيف هنا: إن التحدي يكمن بالطبع في تحديد الـ "الأخر" والـ "نحن" والـ "أنتم".

(٥٥) من علامات الزمن، نسجل أن العازف على آلة الكلارينيت، بين العازفين المونترياليين، كان، حسب كلماته، "مهاجراً أرمنياً من لبنان".

(٥٦) تشير إلى أن أغانيه عانت طويلاً من المنع في الكثير من أقطار المنطقة وهي ما زالت تُحارب في عدة عواصم.

(٥٧) وثيقة وضعها مرسيل خصيصاً لغرض هذه الدراسة.

(٥٨) نشير إلى استخدام خليفة للمواضيع ذاتها التي نعثر عليها عند حنفى وآخرين كثر: العلاقة بين المعلم والتلميذ: الغرب الذى يخلو من الإبداع وإمكانية رجحان كفة الميزان لصالح العرب مرة ثانية؛ هيمنة المركز ومقاومة الأطراف (مفهوم شاعراً عبر أعمال سمير أمين).

(٥٩) كيل طافح قاد خليفة إلى التردد وإلى أن يوجه إليه الطلب بإلحاح ليقول بعض الكلمات بالفرنسية كمدخل لأغانيه ، نظراً إلى أن مكان المهرجان هو مونتريال ، وأنه يوجد بين ظهرائى الجمهور كيبيكيون وكيبكيات لا يعرفون العربية. ونحن نفترض أن ذلك الكيل الطافح نفسه يدفعه للعناية عناية دقيقة بصورته العامة كمقاوم للغرب. نشير إلى أن خليفة يقيم فى باريس فترة لا يستهان بها فى كل سنة ، ويتكلم الفرنسية بصورة دارجة؛ نحن نعلم إذن أنه لا يمانع فى التواصل بالفرنسية على الصعيد الشخصى، لكن المشكلة تطرح إزاء الرسالة السياسية التى يرغب فى نقلها إلى جمهوره. ونسجل أيضاً أنه فى ميدان الموسيقى لا يقتصر وجود الغرب على انتشار إنتاج الموسيقى، بل هو يلعب دوراً كذلك فى نظرتنا إلى مشاهيرنا الخاصين. ويعطينا صاغية، على سبيل المثال، مثلاً جيداً عندما يلاحظ، فى معرض حديثه عن الصورة الشائعة لأم كلثوم فى العالم العربى، أن سمعتها لم تمسها أى شائبة من شوائب تأثير الغرب، بينما أسمهان وعبد الوهاب لم ينجوا منه. فى حازم صاغية، أم كلثوم سيرة وإنسان: الهوى دون أهله، بيروت، دار الجديد، ١٩٩١، ص ٧٥. راجع أيضاً، ص ٩١ و٩٢ عن أم كلثوم وتأثير الفنانين الأجانب.

(٦٠) من المفيد توضيح أن إدوارد سعيد يشعر شخصياً بانتمائه إلى العالم العربى وإلى العالم الغربى فى آن واحد، من دون أن يكون هذا الانتماء كلية، أكان لهذه الجهة أم لتلك، حسب كلماته هو: لقد نشأت لأسباب موضوعية لم يكن بوسعى السيطرة عليها، عربياً ذا تعليم غربى. ومنذ أقصى لحظة أستطيع استذكارها، أحسستُ بأننى أنتمى إلى كلا العالمين، دون أن أكون (جزءاً عضوياً) من أى منهما. الثقافة والإمبريالية، م س، ص ٧١.

Covering Islam, op. cit., p. ix. Ma traduction. (٦١)

(٦٢) الاستشراق...، م س، ص ٤٠. ويضيف سعيد: ينبغي على المرء، وقد قال هذا، أن يستمر ليقرّر عدداً من التعبيرات المعقولة؛ فهو إذن لا يتخذ مواقف قاطعة ضد استعمال هذا اللفظ، الذى سيواظب عليه فى كل حال استعمالاً مفرطاً.

(٦٣) م س. ، Covering Islam, op. cit., p. 8 et 9 ونجد الرضوخ نفسه فى فاتحة كتابه الاستشراق.... م س، ص ص ٣٢٢-٣٢٤ .

(٦٤) م ن، ص ١٥٥ .

(٦٥) راجع م ن. إن لفظة "الغرب" مستعملة محاطة بمزدوجين فى الصفحة ٤٨ ومن دونهما فى الصفحات ٦٤، ٧٧ و١٣٦ . وكذلك هى محاطة بمزدوجين وبدونهما فى نفس الصفحة ٧٢ . راجع أيضاً فى إيوارد سعيد، الثقافة الإمبريالية ، م س، حيث لفظة "الغرب" مستعملة محاطة بمزدوجين فى الصفحة ٣٦٣ وبدونهما فى الصفحات ٦٥، ٦٨، ٨٨، ٩١، ٩٢ و١٠٦ . كما أنها استعملت محاطة بمزدوجين وبدونهما فى نفس الصفحة ١٩١ أو كذلك كتبت بحرف مائل وبدونه فى ص ص ٢٥٥-٢٥٦ . راجع أيضاً هامش توطئة كتابنا هذا فى ما يتعلق باستعمالنا للمزدوجات فيه.

(٦٦) م ن، ص ٧٢ . "ثمة نتيجة غير عسكرية، غير متوقعة هذه المرة، وهى أن بعض الناس هنا وفى العالم الإسلامى قد يكتشفون الحدود المؤسفة للتصنيفات المقيّدة مثل "الغرب" و"الإسلام".

(٦٧) م ن، ص ١٦١ . يقول بصدد مفاهيم مثل "الإسلام": "بعيداً عن منح رضا نرجسى للخبير الذى يستعملها ، والذى تتعلق شروط حياته بها غالباً، هذه المفاهيم الكليانية لم تصمد لا أمام امتحان الأحداث ولا أمام القوى المعقدة التى تصنع الأحداث". لا يسعنا أن نكون أكثر اتفاقاً معه، باستثناء أن الأمر نفسه ينطبق على مفهوم الغرب الذى يتمادى فى استخدامه بالطريقة نفسها التى يستخدم فيها أولئك الذين ينتقدهم مفهوم الإسلام.

(٦٨) الاستشراق ، م س، ص ٦٠ .

(٦٩) راجع أمثلة أخرى م ن، ص ص ٤٠-٤١، ٧٣-٧٦، ١٦٦-١٦٧، ٢٣٥-٢٣٦، ٢٣٨، ٢٦٢، ٣١٥-٣١٦، أو كذلك فى الثقافة والإمبريالية ، م س، ص ص ٦٨-٧٠، ٣٦٧، ٣٩٢-٣٩١ .

(٧٠) م ن، ص ٢١٥ .

(٧١) راجع أمثلة أخرى م ن، ص ص ٥٥، ٥٨-٦٠، ٧١، ٧٣-٧٥، ٨٩-٩٠، ٩٦-٩٧، ١١٩-١٢٠، ١٣٢، ١٧١-١٧٢، ٢٠٨-٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤-٢١٥، ٢٣٠-٢٣١، ٢٥٣-٢٥٤، ٢٧٤-٢٧٥، ٢٨٤، ٣٢٠-٣٢٢، أو كذلك فى الثقافة الإمبريالية، ص ص ٦٥، ٦٨-٦٩،

٨٨، ٩١، ٩٢، ١٠٤-١٠٦، ١٠٩-١١٠، ١٢٠-١٢٢، ١٢٥، ١٤٨، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧،
٢٥٣-٢٥٤، ٢٥٦، ٢٧٥-٢٧٦، ٢٩٦، ٣٠٨-٣٠٩، ٣١٣-٣١٦، ٣١٨-٣١٩، ٣٢٨،
٣٤٠-٣٤١، ٣٦٦-٣٦٧، ٣٨١، ٣٨٥.

(٧٢) الاستشراق ، م س، ص ٢١٥-٢١٦ . ولنسجل مرة أخرى أن لفظتى الشرق والغرب مستعملتان هنا بطريقة متناقضة مع التحذير من التعميمات التى يصوغها المؤلف.

(٧٣) الاستشراق ، م س، ص ٣٢٠ و ٣٢١ .

(٧٤) الثقافة والإمبريالية ، م س، ص ٣١٦-٣١٧ . راجع أيضاً ص ٦٨-٦٩ .

(٧٥) أما فيما يتعلق بمسألة حجم ما ينشر، ففى وسعى أن أطمئن إدوارد سعيد، عقب سنوات عشر من التفتيش عن كتب ، والتجوال فى أرجاء العالم العربى، أن أكبر تحدى واجهته فى هذه الدراسة هو أن أنتقى من بين كم الكتابات المتعلقة بطريقة أو بأخرى بمسألة الغرب. كان عسيراً علىّ تماماً أن ألزم نفسى بتأجيل قراءة عدة مئات من الكتب قراءة جادة، وهى كتب جمعتها بنفسى، وفى مونتريال علاوة على ذلك. إن زيارة لمعرض الكتاب العربى فى بيروت لأمر لا مفر منه لمن لديهم شكوك بشأن كثافة النشر بالعربية.

(٧٦) فى تطور لافت، إن مقالات إدوارد سعيد الأخيرة المتعلقة "بمسيرة السلام" الإسرائيلية العربية وبخاصة الإسرائيلية الفلسطينية، المنشورة بالعربية فى الحياة ، لاقت استحساناً بالغاً وانتشاراً واسعاً فى أوساط القراء العرب الذين لا يعرفون جميعاً إدوارد سعيد.

(٧٧) حسن حنفى، مقدمة فى علم الاستغراب ، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٩١ .
لقد أتيت لى أن ألتقى بحسن حنفى فى القاهرة فى كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢؛
والغريب فى الأمر أن ملاحظته الأولى كانت حول حاسوبى النقال باعتباره "مؤشراً
على تكوينى الغربى ، وتكلفت كان فى وسعه هو وأعضاء فريق التفكير خاصته، فى
قسم الفلسفة التابع لجامعة القاهرة، الاستغناء عنه".

(٧٨) الاستشراق ، م س، ص ٨٠ .

(٧٩) ليست اللفظة حكراً على حنفى. ونشير أن شارل مالك كان يطرح على نفسه، قبل
حسن حنفى بخمسين سنة، السؤال التالى: "كم أحسن الاستشراق صنفاً ولكم أضر،
لماذا لم تبرز فى المقابل ظاهرة "الاستغراب". شارل مالك الشرق الأدنى البحث عن

الحقيقة ص ٢٥٧. راجع أيضاً أنور عبد الملك، الفصل المعنون "الاستغراب" في الفكر العربي في معركة النهضة، ط ٢، بيروت، دار الآداب، ١٩٧٨، من ص ١٢٠ إلى ١٢٦ .
ولنشر أيضاً إلى أن عز الدين قلّوز قدم من قبل دومينيك شوفالييه بالطريقة التالية:
[...] تصنف نفسك "مستغرباً"، شاهراً ابتسامتك [...] . العرب، الإسلام وأوروبا،
م س، ص ١٧٤ .

(٨٠) مقدمة في علم الاستغراب، م س، ص ١٤؛ راجع أيضاً ص ١٥ و ١٦ .

(٨١) م ن، ص ٢٨ .

(٨٢) م ن، ص ٢٦ .

(٨٣) م ن، ص ٢٦، راجع أيضاً ص ٦٣ .

(٨٤) م ن، ص ٣٢ . في شأن التمييز الذي يجريه حنفي بين علم الاستغراب والاستشراق،
راجع ص ٣٠ و ٣١ .

(٨٥) م ن، ص ٣٦ .

(٨٦) م ن، ص ٢٨، ٥٧، ٥٩، ٩٨ و ٦٩٦ .

(٨٧) حسن حنفي، في مقابلة أجراها معه هاشم صالح: "حسن حنفي: في الاستغراب"
كعلم، في مجلة أرابي (Arabies) (الفرنسية)، باريس، تموز/يوليو - آب/أغسطس
١٩٩٢، ص ٩٤ .

(٨٨) م ن، ص ٢١ .

(٨٩) في مجلة Arabies (الفرنسية)، "حسن حنفي... م س، ص ٩٤ . راجع أيضاً في
مقدمة ...، م س، ص ٢٩ حيث يعطى تعريفاً للاستغراب وُضِعَ في مقابلة الاستشراق،
وص ٤٤ حيث يوضح الفرق بين دراسة الآخر الغربي انطلاقاً من منظور الأنا العربية
الذي يقترحه ومنظور هشام جعيط، مثلاً، الذي شرع في دراسة الأنا العربية من
منظور الآخر الغربي . راجع في هذا الصدد هشام جعيط، الشخصية العربية
الإسلامية والمصير العربي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٠ .

(٩٠) م ن، ص ٦٩٦ . راجع أيضاً ص ٧٧٣ و ٧٧٤ و ٧٧٥ .

(٩١) نوضح أنه حصل له أن حدد الغرب باعتباره "يشمل أوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان المعاصرة إذا ما استمروا في مشروعاتهم الإنتاجية الراهنة" والشرق باعتباره "يشمل العالم الثالث وأفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية". في هذا السيناريو، فإن التعارض بين "مشروع الإنتاج الغربي المعاصر" من جهة وبين "طاقات الحضارات التاريخية الماضية في تحقيق ذاتها من جديد" من جهة أخرى، م ن، ص ٧٦٤ .

(٩٢) في مجلة Arabies ، "حسن حنفى..."، م س، ص ٩٥، راجع أيضاً في مقدمة، م س، ص ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩ و ٧٧١ .

(٩٣) نشير إلى التباين بين ممارسي "علم الاستغراب" الذي يدعو إليه حنفى وبين "مستغربي" صادق العظم ، الذين يتكونون من العرب المتواجدين في الغرب، هذا إذا افترضنا أن ما يناسب العرب المتواجدين في الولايات المتحدة يناسب العرب المتواجدين في فرنسا ، أو في مناطق أخرى غربية ، حسب تصنيف صادق العظم لها. وهذا الأخير يعطينا تعريفاً للمستغربين على وزن المستشرقين في إطار نقد صارم يوجه إليهم: "من ينتج هذا النوع من "المعرفة" العربية بالسياسة الأميركية؟ ومن يعيد إنتاج هذا النوع من "التفسيرات" كيف يصنع القرار الرئاسي الأميركي وينشرها؟ مجموعة كبيرة من الدكاترة والأساتذة والخبراء والمثقفين والدبلوماسيين العرب المتواجدين في الولايات المتحدة ، والعاملين في جامعات مختلفة ومراكز بحوث مُمَوَّلة بترولياً ومؤسسات متنوعة للدراسات الإستراتيجية بالإضافة إلى السفارات متعددة الجنسيات. تشكل هذه الفئة مجموعة ما يمكن تسميته "بالمستغربين" (على وزن المستشرقين) لأنهم يعتبرون أنفسهم - بحكم مواقعهم - أصحاب فهم علمي جيد ودقيق، للغرب، (هنا الولايات المتحدة) وثقافته ومؤسساته وسياساته وآلية عملها كلها مما يؤهلها لتقديم صورة "موضوعية" عن المجتمع الذي يعيشون في كنفه ويعرفونه إلى العالم العربي ويخاصة إلى حكامه وأصحاب القرار السياسى فيه. ونسجل أن حنفى لم يتطرق إلى نفوره من هذه المجموعة، مع أنه نفور بين. وهذا المقطع لصادق جلال العظم، ذمنية التحريم: سلمان رشدى وحقيقة الأدب، نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ط ٢، ١٩٩٧، ص ١٢٧ .

(٩٤) مقابلة مع حسن حنفى.

(٩٥) مقدمة، م س، ص ١٠٢ .

- (٩٦) ذهنية م س.
- (٩٧) صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني ، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩ . برأته المحكمة من جريمة زرع الفتنة.
- (٩٨) ذهنية، ص ١٥ .
- (٩٩) م ن، ص ١٦ .
- (١٠٠) م ن، ص ١٤ و ١٧ .
- (١٠١) م ن، ص ١٧ .
- (١٠٢) م ن، ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٥، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٥٢ ...
- (١٠٣) م ن، ص ١٨٣ . في وسعنا ملء صفحات وصفحات حول الضجة التي أثارها كتاب الآيات الشيطانية عند المسئولين الإيرانيين وحلفائهم في لبنان، الذين وضعوا الحدث في سياق النضال ضد الغرب الذي يحمى رشدي، أو الغرب الذي يحرك ملف رشدي خشية من الصحوة الإسلامية. راجع، على سبيل المثال، لندن تبلغ طهران انزعاجها الشديد من تجدد الدعوة لقتل سلمان رشدي، في الحياة ، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٩٣، ص ٨ .
- (١٠٤) م ن، ص ١٨٤ .
- (١٠٥) م ن، ص ١٨٤ .
- (١٠٦) م ن، ص ١٢٣ . نشير أنه في حديثه عن الغرب في الصفحة ١٢٧ نجده بحاجة إلى التوضيح بين هلالين بأن الأمر يتعلق بالولايات المتحدة.
- (١٠٧) م ن، ص ١٨٦، ١٩٠ أو أيضاً ص ٢٢٣ حيث صُنّف محمد أركون مع "اليمين المسيطر في الغرب".
- (١٠٨) م ن، ص ١٩٧: راجع أيضاً ص ٢٢٣، ٢٢٨ و ٢٤٧ .
- (١٠٩) م ن، ص ٢١١ .
- (١١٠) قال لي أحد طلابي، وهو يوناني، إنه ما زال دارجاً بالنسبة إلى اليونانيين المتوجهين إلى فرنسا أن يقولوا: "نحن ذاهبون إلى أوروبا!".

(١١١) ثمة مثل من عالم الموسيقى يقدمه لنا حازم صاغية الذي يربط اليونان القديمة بالغرب في حديثه عن الدور الذي لعبته الموسيقى اليونانية القديمة في ازدهار الموسيقى العربية في العصر العباسي. حازم صاغية، أم كلثوم سيرة وإنسان: الهوى دون أهله ، م س، الهامش ١٥٠

(١١٢) ذهنية م س، ص ٢٦ . يعود هذا النص إلى ١٩٨١ . نشير مع ذلك إلى وجود ملحوظ لمبشرين بجانب جورج بوش ورونالد ريغان، وإلى مقر دايثد كوريش (Davis Koresh) في واكو (Waco) بولاية تكساس، وإلى وجود ٢٥٠٠ مذهب عبادي في الولايات المتحدة (حسب إي بي سي وولد نيوز مع بيتر جنيغز بتاريخ ٣ آذار/مارس ١٩٩٣).

(١١٣) م ن، ص ٢٧ و ٢٨ .

(١١٤) م ن، ص ٢٨ .

(١١٥) ذهنية م س، ص ٤٤ .

(١١٦) م ن، راجع ص ٤٤ و ٤٥ .

(١١٧) م ن، ص ٤٤ . ترجمة صادق العظم للأصل الإنكليزي.

(١١٨) لقد رأينا كيف أن الرسم محوري في خطاب الإسلاميين وكذلك عند صادق العظم.

(١١٩) نقول بعض، لأن الإسلاميين ليسوا متشابهين جميعاً والنماذج التي يرغبون في تطبيقها تختلف من اتجاه إلى آخر ومن سياق إلى آخر. نرفض تقديمه للإسلاميين، ص ٥٤ و ٥٥، الذي يعتبرهم فيه كتلة متراسة تسعى إلى القطع مع الغرب، من دون تمييز، راجع الفصل بعنوان الغرب المرفوض .

(١٢٠) صادق جلال العظم، ذهنية م س، ص ٧٩ .

(١٢١) م ن، ص ٧٩ و ٨٠ . مقتطف من مجلة المواقف ، بيروت، عدد ٣٦، شتاء ١٩٨٠، ص ١٥٠ .

(١٢٢) حسب صياغة صادق جلال العظم ثانية، ذهنية م س، ص ٥٦ .

(١٢٣) صادق جلال العظم، ذهنية م س، ص ٥٦، مقتطف من مجلة المواقف ، بيروت، العدد ٣٦، شتاء ١٩٨٠، ص ١٥٠ .

(١٢٤) م ن، ص ٩٥ .

- (١٢٥) "العقل المعتقل"، المواقف ، بيروت، العدد ٤٣، خريف ١٩٨١، المقال نُشر ثانية حرفياً
فى: صادق جلال العظم، ذهنية، م س، ص ص ٩٣ - ١٠٦ .
- (١٢٦) ذهنية، م س، ص ١٠٥ مقال "العقل المعتقل"، م س. والمقال الذى يوصينا بقراءته
هو "بيان الحداثة" فى مجلة المواقف ، بيروت، العدد ٣٦، شتاء ١٩٨٠، ص ١٥٠ .
- (١٢٧) أدونيس، فى صادق جلال العظم، ذهنية، م س، ص ١٠٤ .
- (١٢٨) م ن، ص ١٠٤ .
- (١٢٩) م ن، ص ١٠٣ (ص ١٤٩ من الأصل فى مجلة المواقف). نسجل أن استعمال
أدونيس للمزيجات إحاطة للفظتى الغرب والشرق ليس استعمالاً ثابتاً .
- (١٣٠) المواقف ، م س، ص ١٥١ .

الخاتمة

حوار وأحكام مسبقة

"إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد
أن يستجيب القدر".

أبو القاسم الشابي

الحوار والنقاش هما وجهها التلاقي الآخران. ولنسجل أن ثمة قصص حبّ دائماً ما كانت موجودة، ولقاءات تبادل غير رسمية، تجرى على صعيد الفكر فيما بين أفراد، إضافة إلى حركة تبادل مباشر وغير مباشر بين مثقفين؛ كل ذلك إلى جانب زرع دولة إسرائيل واجتياحها لجنوب لبنان، وألف اعتداء واعتداء منسوب في وجداننا إلى الغرب. كما أنه يتعين علينا عدم إغفال التعبيرات اللغوية (الكليشيهات) الشعبية المتداولة، من نوع: في الغرب، لا يلقي الجار التحية على جاره في الصباح، حتى أنه لا يسعفه بحبة سكر؛ أو أيضاً أن لدى الغربيين

عادات طائشة، أو أنهم فاسقون وفاسقات فضلاً عن أنهم يتخلون عن شيوخم فيودعونهم بيوت العجزة، وما إلى ذلك.

ثمة نمط من أنماط النقاشات ذو دلالة فيما يكشف عن رؤياتنا إلى الغرب وهو الذى يثير مسألتى الغيرية و الهوية : فعلى سبيل المثال عمدت مجلة قنطرة ، فى ملف خاص ^(١) بعنوان "أوروبا كما يراها العالم العربى" ^(٢)، إلى استفتاء عشرين كاتباً ومحرراً فى الصحافة العربية حول هذا الموضوع. طلبت منهم المجلة "أن يروى كُلُّ أوروباه، لكنما أن يحددوا أيضاً مقدار امتزاج أوروبا بالغرب أو تميزها عنها". اثنان فقط من أصل هؤلاء العشرين، لم يشيرا إلى الغرب فى نصيهما: أسيا جبار ^(٣) التى ميّزت بقولها "إن أوروبا [...] هى المكان الآخر ، وأميركا [...] المكان الآخر للمكان الآخر" ^(٤)، من بون أن تذكر الغرب، بين غيريتين بدت واحدة منهما أقرب إليها نسبياً؛ ثم عبد الكبير الخطيبى ^(٥) الذى ينتمى إلى الاستثناء الراض لهذا النوع من التصنيف التعميمى، إذ يقول: "الهوية (أكانت هوية الفرد أم الجماعة) ليست منفصلة - إنها علامة الزمان. إنها فى طور الصيرورة" ^(٦). ومن ناحيته، يفصل إميل حبيبي ^(٧) بلدان الاتحاد السوفياتى السابق عن الغرب ، ويرى أن أوروبا هى "الغرب"؛ أقله فى اللغة العربية، حيث "الغريب" مشتق من "الغرب" كما "الاستغراب". وحسب حبيبي، فإن "العالم الجديد" متضمن فى هذا الحقل. أما الاتحاد السوفياتى، فكان، فى وجداننا، "شرقاً" ^(٨). يضيف لطفى الخولى ^(٩) اليابان بطريقة ملتبسة عندما يقول، فى ملاحظة

يبيديها، "إن التطور شمل جميع الميادين فى أوروبا وبصورة أعم، الغرب، إذا أخذنا فى الحسبان الولايات المتحدة وكندا واليابان الحديث" (١٠). من جهته، يقول لنا عثمان العمير (١١):

"لا أحبذ كثيراً هذا التفرع الثنائى
بين شرق وغرب، بل أرى التمييز بين بلدان
الماضى وبلدان المستقبل. اليابان بلد
المستقبل لكنه لا يتصل فى شىء بأوروبا
من ناحية أصوله وثقافته وجغرافيته، فى
حين أن الفاتيكان يمثل الماضى حتى وإن
كان موجوداً فى قلب هذه القارة" (١٢).

وبالنسبة إلى جاره محمد الرميحي (١٣)، من الكويت، فإن للغرب وجوداً، حقيقة، وقد التقى مع الشرق ضد العراق؛ فمنذ ذلك الحين لم يعد من شأن أى أمر إيقاف هذا الزواج السعيد:

"إن أوروبا التى عرفها جيلنا هى
أوروبا الثورة الفرنسية والجنرال جورو
الذى أعلن من دمشق أمام ضريح
صلاح الدين: "ها نحن قد عنا يا صلاح الدين!"
لم تكن إذن أوروبا واحدة [...] .

بنظرنا، وحتى بدايات القرن، كان
الغرب هو أوروبا، أوروبا شارلمان، ملك

الفرنج الذى أرسل إليه هارون الرشيد،
كعربون صداقة، مرسالاً و"ساعة سحرية".
[...] نحن مقتنعون بأن أوروبا أقرب إلينا
جغرافياً وحضارياً مما هى بقية البلدان
أو المجموعات الصناعية الغربية. لأن
"أوروبيتنا" (إيجابية كانت أم سلبية)
متجذرة بقوة فى التاريخ. على غرار ما هو
قائم فى أوروبا من وجود لتيارات لم تتقبل
سقوط القسطنطينية، ثمة عندنا، فى العالم
العربى، من لا يستطيع مجاوزة الحملات
الصليبية وما زالوا أسرى بعض التصرفات
الاستعمارية. بيد أن كل ذلك لا يلغى
الحقائق الجغرافية والتاريخية، أى أن
أوروبا هى "الغرب" الأقرب إلينا. [...]
نعتقد أن ثقافة الغرب مدينة بالفضل للثقافة
العربية الإسلامية (بمعارفها وتجاربها
وعقلانياتها) طيلة القرون الوسطى، وهى
لذلك عليها أن ترد هذا الجميل بالسماح
لنا، لا بأن نحصل على السمكة مطبوخة
جاهزة، لكننا بأن نتعلم الصيد.

لقد ألغت حرب تحرير الكويت مقولة
كيبلينج: "الغرب غرب، والشرق شرق، وأبداً
لن يلتقيا". لكن بما أنهما التقيا في الحرب،
سيكون في مقدورهما بناء هذا اللقاء على
أرضية توطيد السلام^(١٤).

كان من شأن كيبلينج أن يغضب إذن أكثر من صديق للغرب. فهل
كان من شأن طه حسين أن يشاطر الريميحي حماسته فيعاكس قول
كيبلينج عن طريق مجابهة دامية؟
وچوزف سماحة^(١٥) وجه آخر يمثل الاستثناء الراض للتفرع
الثنائي شرق/غرب. فهو يرى أن:

"أوروبا ليست الغرب، إنها غربنا.
نحن لسنا الشرق إنما شرقها. حتى وإن
كانت هذه الاعتبارات نسبية فهي تبقى
فاقدة لموضوعها. نعيش في عالم واحد
لا يستطيع تبعثر الدول أن يفصمه.
ويتعابير أخرى، العرب هم طفولة أوروبا.
الاختلاف في الزمان وليس في المكان. إنه
اختلاف حضارى ليس في صالح العرب.
نحن أوروبا متخلفة وهى العالم العربى
المتطور. المطلوب ببساطة ألا يستحيل نمو
أحدهما شرطاً يحدده تخلف الآخر.

النهضة العربية استحققت حقاً اسمها
بسبب اعترافها بتقدم أوروبا هذا وتأخر
العرب. ولئن كان مصير هذه النهضة
الفشل، فإن الفشل ما زال يولد أوهاماً
حول "غرب" ما و"شرق" ما، كيانيين
متفارقين تدعمهما نظرية الأحفاد المتأخرين
للأفغاني والكواكبي، هذه النظرية التي
تقول أولاً بالتفوق العربي، ما يقود فيما بعد
إلى الإحياء الذاتي بتفوقهم الخادع.

على العرب أن يطلبوا من أوروبا فقط
أن تتحمل مسئوليتها. عليها أن تعرف أن
النظام الاجتماعي الذي أفرزته هو ثمرة
التقدم وليس ثمرة أى خصوصية "غربية"
أو "مسيحية". [...] وكل شعور بالأبوية
هو شعور منحط. لكن علينا افتراض أن أوروبا
مستعدة لدفع الثمن كي ترى الآخرين،
العرب، يبلغون رشدهم، أى "أوروبيتهم".
إنه لرشد قد يترافق مع التحكم بمصيرهم
وتحديد احتياجاتهم وإدارة شئونهم.
الأوروبية لا تعنى خلع الطربوش واستبداله

بالقبة والطقم. الأوروبية تعنى اعتماد فكرة
"القومية" (الأمة)، وإنتاج السياسى
والثقافى والاقتصادى انطلاقاً من مبدأ
قومى إنسانى^(١٦).

لنشر إلى تمزق سماحة الذى يبذل ما فى وسعه لإثبات خطأ
التفرع الثنائى غرب/شرق أو الاستثناء الحضارى الأحادى ليسقط
أخيراً فى الشك المتمثل بوسم "مبدئه القومى الإنسانى" بالأوروبية. فهو
يحطم وهم "غرب" ما و"شرق" ما، كيانين متفارقين لكنهما يحتفظ بوهم
أوروبا مرفوعة إلى مرتبة المثال وعالم عربى متخلف. ويسهم فى تأييد
رؤية بوجهين تقف فيها أوروبا هذه المرة فى وجه العالم العربى، فيتحرر
من رؤية تكون السيطرة فيها للكتلتين التعميميتين، غرب وشرق، ليلتحق
بأخرى يطلق عليها "الأوروبية".

ويشاطر شريف الشواشى^(١٧) الرأى القائل بأن أوروبا تمثل
الغرب الأقرب:

"بالنسبة إلى رجل مثلى ينتمى إلى
العالم الثالث، أوروبا هى جزء لا يتجزأ من
الغرب. إلا أنها تشكل بلا أدنى شك كياناً
اقتصادياً وثقافياً على جانب كبير من
الأصالة. والمجابهة الاقتصادية التى ترتسم

بين أوروبا من جهة والمجموعة الأميركية واليابان، من جهة أخرى تثبت هذا الواقع. من الناحية الثقافية أشعر بأننى أقرب إلى أوروبا منى إلى بقية الغرب" (١٨).

أما فؤاد التكرلى (١٩) فهو يرى بالحرى أن:

"أوروبا وحدها ليست الغرب. ينبغى إضافة أميركا وكندا وربما أستراليا إليها لكي تكون للتسمية كامل دلالتها. غير أن هذا لا يمنع أوروبا من أن تشكل كياناً اقتصادياً وثقافياً على حدة" (٢٠).

واليمنى عبد العزيز المالح (٢١) يحمل رأياً مغايراً تماماً، فليس فى نظره ثمة من شك:

"نعم، أوروبا هى "الغرب". لا أستطيع تفسير كيف أن الخلط ساد بين أوروبا وأميركا بحيث لم يعد المرء يفصل بينهما البتة. [...] منذ الأربعينيات - الفترة التى فرضت الولايات المتحدة نفسها - تعطى أوروبا الانطباع بأنّها تلعب دور المخلص التابع، دور الذى لا يقوى على

المنافضة فى القول أو إبداء الرأى. هذا الموقف كان مقبولا فى زمن الحرب الباردة والبيع السوفياتى. أما الآن وقد مات البيع، لا بد أن تعود أوروبا إلى الوجود، أوروبا الأنوار، صاحبة الموقف السياسى الواضح إن لم يكن موقفاً غير منحاز... ولنكون منصفين، لا بد من القول إن المواطن العربى يشعر بالانزعاج من معايته أن أوروبا تسير فى ركب الولايات المتحدة. باستثناء إنجلترا التى ترغب دائماً فى تصدر الساحة، كما لو كانت هى سيدة المشروع الأمريكى التى لا تشكل فى الحقيقة سوى أدواته، فإن سائر الدول الأخرى لديها الإحساس بأنها تابعة للولايات المتحدة، وتابعة تقوم بمهمة لا جدوى منها تقتصر أهدافها على الإذلال وإحداث قطيعة بين أوروبا وشعوب العالم الثالث^(٢٢).

وهكذا، فإن مسألة العلاقات شرق/غرب تثير نقاشات كثيرة، وما المقتطفات السالفة إلا عينة هزيلة^(٢٣).

من نحن؟

فى نهاية الأمر، وفى ضوء هذه النظرة التى نلقىها على الرؤية إلى الغرب فى الوجدان السياسى العربى، بوسعنا تقديم بعض الملاحظات التى تفيدنا فى الإجابة عن نحن اليوم:

- ننتمى إلى مجتمعات عدة متصلة بشريط جامع، لكننا كل بدوره له علاقته الخاصة بالعروبة و"بالغرب". كل من هذه المجتمعات يوفر تنوعاً من العلاقات مع "الغرب" متلائماً مع مكوناته؛

- بسبب الهجرة، فإن العديد منا منتشر فى أرجاء الأرض كافة بحيث يكون الالتقاء بعرب من شتى أقطارهم أسهل أحياناً فى مونتريال أو فى باريس منه فى بيروت، ما يوفر تنوعات إضافية إلى نمط العلاقات والظهور للعيان الذى نقيم مع عروبتنا ومع "الغرب"؛

- تصيبنا مرارة بالغة بإزاء الغرب ومكوناته تبعاً للطريقة التى تسكن فيه مخيالنا. قد يكون ملحاً تصحيح هذه العلاقات ونمط ظهورها للعيان وذلك تفادياً للصدمات العنيفة؛

- "الغرب" حاصر فى كل نواحي حياتنا اليومية عبر الإعلاميات، أعمال المثقفين، الخطب السياسية، المواد الاستهلاكية، وخصوصاً عبر الاعتداءات الإسرائيلية، وغيرها التى يشترك فيها؛

- كثيراً ما نستسهل تحمل مسئولية التفرع الثنائى "شرق/غرب" كواقع تاريخى يتجابه فيه كيانان يعود وجودهما إلى آلاف السنين.

فتتعرّز عندئذ المسابقات من الأفكار السلبية وتنبؤ الفروقات الإيجابية في البعد العام.

لقد ولّى زمن كان في وسع طه حسين وأترابه فيه أن يكونوا رؤية شاعرية عن حضارتين متكاملتين قائمتين على ضفتي حوض البحر المتوسط. فبنتيجة ذلك بات ملحاً مقاومة هذه الرؤية التي لا تقود إلا إلى تأييد مثال لا صلة له بالحياة اليومية لعدد كبير من العرب.

ولكثرة ما كررنا لأنفسنا أن "الشرق" و"الغرب" موجودان ولكثرة ما مثلناهما، فقد أفسحنا لهما في المجال أن يغزوا وجداننا. ولشدة ما كان إحساسنا بالعدوان باسم "الغرب" كبيراً استسلمنا لأن تستقر كراهيتنا "للغرب" في نفوسنا. ولكثرة ما كانت آمالنا معلقة على منجزاته، فتحتنا الباب "للغرب" أن يحتل أحلامنا. باختصار، فسواء كنا من عملائه أم من أعدائه، من مُمَجِّدٍ أو من رافضيه، فإننا لا ننفك نعزز صورة يبدو فيها لا غنى عنه. هلاً أمكننا يوماً أن نعيش متحررين من صورة هذا الغرب الكلية الوجود؟ لعله ضرب من الطوبى إرادة التخلص من صور وعلامات شديدة الرسوخ في ذاكرتنا الجمعية، غير أنه بإمكاننا على الأقل إدراك مدى تأثيرها على رؤيتنا إلى الآخر، وفي نهاية المطاف على رؤيتنا إلى أنفسنا. الشيء الجلى هو أن التصورات المسبقة، إذا ما ترافقت مع التفرُّع الثنائي الشمولى والمختزل للزوج "شرق/غرب"، إنما تشكل عقبة ذات بال أمام تكوين رؤية مختلفة إلى العلاقات بين الشعوب وبين الأفراد. في هذا السياق، فإن حركية الملاحظة المباشرة والحوار والنقاش

هى سبيلنا إلى لقاء الآخر ، طالما أن هذا اللقاء صار، شئنا أم أبينا، كلى الوجود، أملاً بأن يصبح ممكناً مجاوزة الحدود التى تميز اللقاء الذى عايناً فى هذه الدراسة.

إننا، إذ نتساءل عمّن نحن، عبر النظر الذى نلقيه على الآخر ، إنما لا نبحث عن إجابة. لا بل إننا بصدد حركة فيها احترام للآخر من دون إلصاق سمة به، وذلك فى لحظة من التاريخ العلاقات فيها مسمومة على نحو خاص. وهذه الحركة يجب ألا تُفهم على أنها إنكار لحق المرء فى أن يحاول إبداء الرأى مباشرة فى أى شأن من شئون الآخر . فالمسألة تتعلق بكل بساطة بمحاولة لدفع المعاينة حتى تشمل نظرتنا نحن للآخر، لكى تأتى نظرتنا لأنفسنا على نحو أفضل. وإذا ما قرر آخرون الاستمرار فى النظر إلى الآخر ، فقد يوفرون لنا هم أنفسهم مشهداً متجدداً باستمرار ينبغي معاينته. وكذلك، عندما يبلغ المعانين مستوى يرى فيه نقاط التشابه مع الآخر، فى وسعه أن يبقى على هذا المستوى الذى تكون فيه المسائل المسيطرة وجودية المنزلة، والفرق مع الآخر معدوماً إزاءها؛ فعلى هذا المستوى ينتفى الآخر كلياً ويختفى مع اختفاء الفرق. فى وسع الآخر/إذن أن يختفى على مستويات معينة ثم يعود على مستويات أخرى. وطالما أن الأمر يتعلق بدفع معاينتنا إلى حدود معاينة نظرتنا نحن للآخر ابتغاءاً لمعاينة أفضل لنظرتنا إلى ذاتنا، يصبح منطقياً، بالمنطق ذاته، دفع التجربة نحو غيريات أخرى مختلفة عن غيرية الغرب: مثل الآخر العربى ، الآخر اللبنانى ، الآخر الإسرائيلى (٢٤)،

الأخر الإيطالى ، الآخر المرأة، إلخ. إن هذه الدراسة هى دعوة لصالح المعاينة المباشرة للغيريات ^(٢٥)، معاينة متحررة قدر الإمكان من جميع المرايا والمواشير المشوهة التى توفرها تلقائياً الذاكرة وتنوع اللاعبين الضالعين فى كل لحظة. نخلص إذن إلى تناقض: الآخر غير موجود وموجود فى آن واحد ، طالما أن له استقلالية نسبية لكنه فى الوقت ذاته جزء من كل.

"اعلم أن الدهر يومان... يوم لك ويوم عليك، فإن كان لك فلا تبطر وإن كان عليك فلا تضجر، فاصبر فكلاهما سيان حاسر". إن وصية الإمام على، وصرخة القلب التى أطلقها أبو القاسم الشابى للشعب داعياً إياه أن يتحدى القدر تنذران بثورة عربية ممكنة فى أى وقت. هل تكون عنيفة أم سلمية؟ أمل أن تكون سلمية. وهى ستكون أيضاً لأسباب داخلية وخارجية. إن للآخر حصة من المسؤولية فى كلتا الحالتين.

يقول سلوترديجك:

"إن ما يزعجنى عند الآخرين، هو أنا" ^(٢٦).

أما ذلك الآخر فهو أنا وليس سواى.

حواشي الخاتمة

- (١) راجع أيضاً الملف الخاص القِيم المعنون: "أن تكون عربياً، نظرات متقاطعة" في مجلة قنطرة، تصدر عن معهد العالم العربي، عدد ٧، نيسان/أبريل - حزيران/يونيو ١٩٩٣، ص ١٤ إلى ٣٢. نعتز ثانية على مباحث الغرب، الأندلس، الحداثة الغربية، الإحباط، التلاعب، التمزق. فمن بين الذين وضحوا أفكارهم هنا: أدونيس، جمال الدين بن شيخ، محمد بن نونة، حنان الشيخ، عابد الجابري، إدوار خراط، محمود حسين ومحمود درويش.
- (٢) أوروبا كما يراها العالم العربي، في قنطرة، الصادرة عن معهد العالم العربي، عدد ٥، تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢، ص ١٢ إلى ٢٥.
- (٣) الجزائر، كاتبة: م ن، ص ١٣ صفات العشرين شخصية المستفتاة مأخوذة عن مجلة قنطرة.
- (٤) م ن، ص ١٣.
- (٥) المغرب، كاتب: م ن.
- (٦) م ن، ص ١٥.
- (٧) فلسطين كاتب: م ن.
- (٨) م ن، ص ١٤.
- (٩) مصر، كاتب، الأهرام، أمين عام اتحاد الكتاب الأفرو آسيويين: م ن.
- (١٠) م ن، ص ١٧.
- (١١) العربية السعودية، رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط: م ن.
- (١٢) م ن، ص ٢٠.

- (١٣) الكويت، رئيس تحرير صوت الكويت الدولية ومجلة العربي الشهرية : م ن، ص ٢١ .
- (١٤) م ن، ص ٢١ و ٢٢ .
- (١٥) صحافي عربي يعيش في باريس؛ م ن، ص ٢٢ و ٢٣ .
- (١٦) م ن، ص ٢٣ .
- (١٧) مصر، مدير مكتب الأهرام ، م ن، ص ٢٤ .
- (١٨) م ن، ص ٢٤ .
- (١٩) العراق، كاتب له كتابان مترجمان إلى الفرنسية،
(J.C. Lattès, 1985 et L'autre face , Paris Publisud, 1991, Voix de
l'aube , France), م ن، ص ٢٥ .
- (٢٠) م ن، ص ٢٥ .
- (٢١) اليمن، كاتب وعميد جامعة صنعاء، م ن، ص ١٨ .
- (٢٢) م ن، ص ١٨ .
- (٢٣) راجع خصوصاً - في إطار الاحتفالات بمئوية مطبوعة الهلال العربية - إحدى
الطاولات المستديرة في الندوة التي نُظِّمَت على مدى ثلاثة أيام وكان موضوعها: نحن
والغرب.
- (٢٤) يؤكد مفكرون مثل إبراهيم صوص وميشال إده عبر أعمالهم على أهمية سبر غيرية
الإسرائيلي. من ناحية أخرى توفر الحالة الإسرائيلية مستوى آخر من التعقيد جراء
كون عدد من الأفراد مواطنين إسرائيليين ومواطني بلدان منسوبة إلى الغرب في أن
واحد، أو كذلك مواطنين عرباً سابقين، من إيطاليا، من مراكش، من مصر، إلخ.
- (٢٥) تؤكد مرة أخرى هنا على الطابع غير المتقصى حتماً لمعايشتنا وندعو الآخر لاعتماد
هذه المقاربة: وبوجه خاص في إطار هذه الدراسة، الآخر العربي والآخر المرأة العربية
الذين يستطيعان الإسهام في إغناء معرفة الذات بالكشف أكثر قليلاً عن غربنا بالذات.
- (٢٦) بيتر سلوترديجك، نقد العقل الكبّي
- (Peter Sloterdijk, Critique de la raison cynique, Paris, Christian
Bourgeois, 1987, p. 68).

ملحق

مقابلة مع سماحة

السيد محمد حسين فضل الله

كثيرون هم الذين يعتبرون السيد مرشداً روحياً، وكثيرون هم الذين يعدونه بين ألدّ الخصوم. إن صراحته وألمعيته جعلتا منه أحد المحللين الأكثر إنصافاً له سواء بين أصدقائه أم بين خصومه. شاعر، مرشد روحى، محلل، مؤلف، لا يمكن لأحد الوقوف غير مبالٍ بأرائه.

السؤال : دعوتكم العرب إلى عدم المشاركة فى المحادثات، لقد ربطتم موقفكم من محادثات السلام باعتبار ما يمكن أن يحصل من تطورات. وما هى تطورات قد جرت على هذا الصعيد، حدثنا عن معارضتكم لهذه المحادثات.

ج : لعل المشكلة مبدئياً فى مسألة السلام هى أن اتجاهاً عالمياً فى مثل هذه القضايا السياسية ليس اتجاهاً إنسانياً. بل ينطلق من منطق أن الأمر الواقع الذى تفرضه القوة هو الحقيقة وهو القيمة بعيداً عن أية عناصر إنسانية.. وهى مصلحة.. هى قيمة. ربما لا يطبق الكثيرون من

الناس الحديث عن أن فلسطين لم تكن أرضاً فارغة بل كانت أرضاً مليئة بالسكان ، ولم تكن إسرائيل حركة شعبية فى داخل الواقع اليهودى ، لتحدث عن دولة ديموقراطية منطلقة من خيار شعبى وإنما ثمرة تحكم تيار يهودى هو التيار الصهيونى ، وكانت إسرائيل نتيجة ضغوط دولية بدأت بوعده بلفور بريطانى ، مروراً بالدول الكبرى التى كانت لها مصلحة مختلفة ، ولكن يوحدتها إبعاد فلسطين عن أن تكون بلداً لأهلها الذين يمثل العرب أكثريتهم. ولذلك كانت إسرائيل حركة عدوانية ضد الشعب الفلسطينى الذى استعملت كل الوسائل فى سبيل تهجير وطرده وفى سبيل محاصرة البعض منهم من الداخل ، وقد لاحظنا أن الدول الكبرى التى تتحدث عن حقوق الإنسان لم تتحدث منذ البداية عن حقوق الإنسان الفلسطينى ، بل كانت تتحدث عن الشعب الفلسطينى كشعب إرهابى بينما تتحدث عن الشعب اليهودى كشعب حضارى مظلوم. ونحن عندما ندرس المسألة خلال الإيديولوجية السياسية اليهودية التى تجعل من فلسطين أرضاً يهودية تقام عليها دولة إسرائيل... فإننا نعتبرها إيديولوجية لا يحترم الإنسان المعاصر نفسه المنطق الحضارى عندما يريد أن يلتزم بها لأنها حديث الإيديولوجية اليهودية الذى ينطلق من فكرة أن اليهود كانوا قبل ألفى سنة فى فلسطين ، وهذه الظروف بحسب الحق التاريخى. ونحن لا نعرف فى العالم أية دولة يمكن أن تبرر وجودها على أساس إخراج شعب من أرضه ليأتى شعب آخر من خلال هذا الحق التاريخى. لنا أن نتصور أن

الحضارة التي تفكر بهذا المنطق أو تؤيد هذا المنطق تحتقر نفسها ، لأنها لا تطل من منطق حضارى ، وإنما تنطلق من منطق عنصري فئوى تتحرك فيه الصهيونية من أجل تمويه مشاريعها . لذلك فإننا نعتبر أن ولادة إسرائيل كانت ولادة خطأ إنسانى ، وربما يتحدث بعض الناس أن هذا الظرف يمثل معاداة للسامية كما هو منطق اليهود عندما يتحدث عن أية فكرة معادية، لكننا نعرف أن العرب ساميون وأن الفلسطينيين ساميون وليسوا متحدرين من أصول أخرى ليقال بأنهم يتحركون بمنطقهم بطريقة لاسامية. إننا نلاحظ أن الإسلام يتحدث عن اليهود والنصارى بصفة أنهم أهل كتاب، وأن الإسلام يحترم التوراة كما يحترم كتاب الإنجيل، وأن مسألة المسلمين مع اليهود فى فلسطين أو مع إسرائيل ليست مسألة موقف ضد اليهود ولكنه موقف ضد سياسة اليهود القائمة على أساس عنصرى، والقائمة على أساس تدمير قسم كبير من الشعب السامى وهُم الفلسطينيون العرب الذى يعيشون فى فلسطين ، لذلك نحن لا نعتبر أن الأمر الواقع يمكن أن يخدم لنصنع منطقاً إنسانياً بحيث يجعل نتائج الأمر الواقع قائماً على الظلم نتائج إنسانية ، ولهذا فنحن لا نعتبر دولة إسرائيل ، بل نقول بأن حل هذه المشكلة من ناحية حضارية هى أن يعود اليهود الذين قدموا من سائر أنحاء العالم إلى بلدانهم الأصلية ويبقى اليهود الذين كانوا فى فلسطين فى أرض فلسطين ويعود الفلسطينيون الذين هُجروا من فلسطين الى داخل فلسطين ، ويكون هناك حكم قائم على إرادة شعبية من كل الناس

الذين ينتمون إلى فلسطين، لا من خلال المسألة التاريخية قبل ألفى سنة أو أكثر من ألفى سنة ، لكن من خلال المنطق الإنساني الواقعي. لذلك نحن نرفض... نحن لا نجد أن السلام هو في الاعتراف بإسرائيل ولكن السلام هو في أن تكون هناك دولة فلسطينية للعرب واليهود معاً.

س : ما رأيكم بالأشخاص، الأفراد اليهود ومجموعة كاملة هي مناهضة لإسرائيل وتطالب بقيام دولة فلسطينية مستقلة؟

ج : نحن نتفق مع أية جهة في العالم سواء كانت يهودية أو نصرانية تنفتح على قضية العدالة في المسألة الفلسطينية ، إننا كما قلت لسنا ضد اليهود من الناحية الدينية وإن كنا نختلف مع اليهودية في بعض خصائصها. ولكننا ضد الحركة الصهيونية التي طردت الفلسطينيين من أرضهم وجاعت بيهود من سائر أنحاء العالم ليجلسوا مكانهم.

س : ماذا تقولون لقلّة قليلة من اليهود الذين يشاركوننا انتقاد دولة إسرائيل لكنهم يربون قائلين : إنهم ولدوا في إسرائيل وليس ذنبهم إذا كان الأمر كذلك؟

ج : المسألة إذا كانت الحجة هي أن هؤلاء اليهود من الجيل الثاني أو الثالث ولدوا في فلسطين ، فإن هذه الحجة تؤكد حق الفلسطينيين أكثر مما تؤكد حق هؤلاء باعتبار أن الفلسطينيين يملكون واقعاً حياً باعتبار أنهم في فلسطين أو ولد أبائهم في فلسطين ويملكون تاريخاً يرقى الى أكثر من ألف سنة.

س : إن قبلوا بدولة فلسطين هل يمكن أن يبقوا فيها؟

ج : هذا خيار الشعب الفلسطيني وليس خيارنا، ثم لسنا ضد أن يسكن بعض اليهود في فلسطين ، ولكننا ضد أن تكون فلسطين دولة يهودية تقوم على هذا الأساس التاريخي.

س : لاحظنا أن هناك فراغاً سياسياً في العالم العربي ، ولا أحد يملأ هذا الفراغ ، ولكن هناك الحركات الشعبية التي ظهرت في أوقات كثيرة، ظهرت مؤخراً في الانتخابات الجزائرية ، وظهرت بالتضامن مع شعب العراق في الحرب من قبل الناس بمختلف طبقاتهم ، حتى الذين كانوا غير موافقين مع صدام، أعداء صدام الذين كان يحاربهم صدام ظهرت هذه الظاهرة الشعبية التي أتحدث عنها. سؤالى هو هل هذا الشعور على المستوى الشعبى الذى يظهر، حتى برز من حادثة "عون"، شعور شعبى لا يبالى بالأشخاص، هل هذه الظاهرة يمكن أن تعطينا أملاً بالصمود تجاه ما يسمى النظام العالمى الجديد؟

ج : إننى أعتقد أن هناك خزاناً شعبياً يتحرك في العالم العربى والإسلامى ويمتد إلى كثير من مواقع العالم الثالث ، وأن هذا الخزان الشعبى تماماً كما هى الخزانات الجوفية التى تنتظر الكثير من عناصر الضغط التى تدفع بها الى الواجهة. إننى أتصور أن الأنظمة التى وظفها الاستكبار العالمى فى العالم الثالث لتكون حراساً للتخلف والجهل ، ولصالحه العدوانية على مختلف المستويات. إن هؤلاء الذين يفرضون أنفسهم من خلال مخابراتهم المحلية المنفتحة على المخابرات الدولية، إن

هؤلاء الذين يحاصرون شعبهم ويمنعونهم من أن يحقق إرادته سوف لا يستطيعون الاستمرار في هذا الدور عندما تتعاضم الأزمات التي يفرضها الاستكبار العالمي على العالم الثالث.

بالنسبة إلى الجزائر إننى أتوقع فترات من الاضطرابات، ويبدو أن الديمقراطية مقبولة فقط في الأماكن التي تخدم بعض المصالح.. من اللافت أن الديمقراطية في العالم الثالث وفي العالم العربي تعنى قاعدة ٩٩، ٩٩٪.

س : في حديثكم عن الغرب سابقاً ميزتم بين فرنسا والولايات المتحدة، قطبين مختلفين لغرب واحدة، ودعوتهم، حتى، فرنسا إلى أن تتقدم الولايات المتحدة في لبنان؟

ج : إن من مصلحة فرنسا واللبنانيين أن تقوم الأولى بلعب دور أكبر في لبنان. على بعض اللبنانيين أن يتخلصوا من عقدهم تجاه فرنسا. فرنسا الأمس (المستعمرة والمحيلة) لم تعد فرنسا اليوم ، وعلى اللبنانيين أن يجدوا فيها حليفاً مكشوفاً لكل اللبنانيين في مواجهة الخطر المتمثل فيما يسمى "النظام العالمي الجديد" المفروض من الولايات المتحدة. ثمة خطورة في العلاقات الدولية، أن يكون هناك قطب واحد يسيطر على العالم. لذلك علينا من أجل توفير بعض التوازن أن نشجع قيام علاقات متوازنة بين فرنسا ولبنان، بين فرنسا والعالم العربي. بين أوروبا والعالم الإسلامى. إن الحركة العنصرية في فرنسا المناهضة للهجرة والإسلام تثير القلق؛ علماً أن فرنسا بلد ديمقراطى يتمتع فيه

كل الفرنسيين بحقوق وحرّيات متساوية. نأمل بالأّ تكون لهذه الظاهرة عواقب سلبية على العلاقات مع العالم الإسلامي.

على نول العالم الثالث إيجاد قواسم مشتركة مع أوروبا، وبخاصة مع فرنسا، لمواجهة "النظام العالمي الجديد" المزعوم. إن القرب من أوروبا يجعل هذه الأخيرة أقدر على تفهّم العالم العربي والإسلامي وبخاصة لبنان. لقد عرفتهم أوروبا عن كثب. يجب العمل سوّية على إبعاد شبح الهيمنة الكاملة للولايات المتحدة على المنطقة.

س : هل تستطيعون تحديد ما هو الغرب؟

ج : الغرب هو حالة حضارية تنطلق من وعى المادة. وعى الإنسان المادى على حساب الإنسان الروحى ، فنحن نعرف أن الغرب المعاصر لا يضع للروح حسابات دقيقة فى تطلّعاته وفى خطّطه وفى علاقاته بالإنسان الآخر. الأمر الذى يجعل المشكلة الإنسانية فى الغرب مشكلة تتحرك فى جو مأساوى ، من الصعب أن نجد له مخرجاً أو حلاً^(١) باعتبار أن الحسابات المادية هى التى تتحكم بحركة المشاكل لا القيم الإنسانية الروحية. وحتى القيم الإنسانية عندما يتحدث عنها الغرب فإنّه يتحدث عنها بلغة الأرقام التى تتحرك فى نطاق مصالحه بدلاً من أن يتحدث عنها بلغة القيم ، حتى على حساب بعض مصالحه عندما تكون مصالح هشة. إننا لا نتعقد من الغرب كما يتحدث بعض الناس ، فنحن نعترف فى الغرب تطوره العلمى ونحترم فى الغرب حيويته الفكرية^(٢) ونعقد أننا نستطيع أن نتعلم الكثير من هذه الحيوية العلمية الفكرية ،

كما أننا نستطيع أن نستفيد من كثير من بعض خطوات التجارب السياسية فى الغرب^(٣). ولكن مشكلتنا أننا نعتقد أن للغرب ذهنيته وركائزه وللشرق ذهنيته وركائزه الفكرية ونعتقد أنه من الممكن أن يحدث هناك تفاعل فى بعض الجوانب الحضارية بين الشرق وبين الغرب ، ونحن نحب أن نجد فى الشعوب الغربية أصدقاء لنا ولقضايانا ولتفكيرنا ، ونحن نعمل على أساس أن ندخل فى حوار^(٤) فكرى سواء كان فى الجانب الدينى أو الجانب السياسى ، أو فى الجانب الاجتماعى أو الثقافى مع الغرب فى كل قضاياها، لسنا معقدين من الغرب وإن كنا مختلفين معه فى كثير من قواعد تفكيرنا ، ولكننا معقدون من الإدارات الغربية أو من بعض الإدارات الغربية التى تؤكد على مصادرة حريات شعوب العالم الثالث وعلى مصادرة ثرواته ، وعلى اعتبار أن ثروات العالم الثالث التى تعيش فى أرضه هى ثروات للغرب وليس من حق العالم الثالث أن يتصرف بها. إننا نتصور أن للغرب مصالحه عندنا ولنا مصالح عند الغرب، ونعتقد أن أفضل صيغة لحركة الشعوب هى أن تنطلق على أساس احترام المصالح المتبادلة واحترام الخيار المتبادل لهذا الشعب أو ذاك الشعب. إننا لا نشكو من الغرب ثقافته وحضارته التى قد تختلف معه فيها ، ولكننا نشكو من الغرب استكباره وعدوانيته فى مختلف قضاياها.

س : هل أنتم داخلون فى حوار مع شخصيات يمنية فى الغرب؟
وهل الإسلام يرمى الى شمول الكرة الأرضية كما تؤكد بعض الشخصيات الإسلامية والمسيحية؟

ج : التقيت ببعض رجال الدين الفرنسيين ولكن الأحاديث التي دارت بيننا لا يمكن أن تعتبر حواراً. ولكنني أملك الاستعداد للدخول في حوار مع أية شخصية دينية أو غير دينية حول القضايا الكبرى التي يمكن أن تكون موقعا للحوار. أما الحديث على أن الإسلام يعمل على أن يشمل الكرة الأرضية فهذا ليس مشكلة في الإسلام ، لأن المسيحية أيضاً تعمل على أن تسيطر على الكرة الأرضية وتعتبر أن ذلك واجبها. هناك مسألة لا بد أن تثار وهي أن هناك فرقاً بين أن تعمل على أن تسيطر على الكرة الأرضية من موقع عدواني أو من موقع العنف أو أنك تسيطر على الكرة الأرضية من موقع الكلمة الطيبة من خلال الفكر القومي ومن خلال الدعوة والحوار. إن كل فكر في العالم يعمل على أن يسيطر على كل العالم ولكن المسألة التي تفرض نفسها هي : ما هي الوسائل التي نحركها للوصول إلى قناعات العالم. إن القرآن الكريم لا يتحدث عن العنف عندما يتحدث عن دخول الآخرين معه في فكره. إن الله يقول: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل] ، وهناك آية تتحدث عن أسلوب العنف وأسلوب اللين وتنتهي الى نتيجة هي أن علينا... أن على الإنسان المسلم أن يلجأ الى أسلوب اللين الذي يُحوّلُ الأعداء الى أصدقاء ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [سورة فصلت] ، الإسلام يقول للمسلم حوّل عدوك الى صديق من خلال الكلمة الطيبة ومن خلال الأسلوب الطيب. وإننا نتفق مع

رجل الدين هذا الذى يقول هذه الكلمة ونقول له إننا كمسلمين تماماً كما أنتم كمسيحيين. إن عندكم التبشير الذى يحمل البشارة الى العالم، وإن عندنا الدعوة التى تحمل فكرنا الى العالم على طريقة الرسالات وعلى طريقة الأنبياء التى تحترم إنسانية الإنسان وتريد أن تربح قناعاته قبل أن تربح جسده.

س : أستعيد هذا السؤال الذى يتعلق بتمييزكم بين فرنسا والولايات المتحدة باعتبارهما قطبين لغرب واحد، هل تستطيعون أن تحددوا لنا الغرب جغرافياً؟

ج : بالواقع، لم تكن هذه التفرقة من الناحية الجغرافية ، ولكنى كنت ألاحظ الموقف الأمريكى من المسألة الفلسطينية ، وبعض القضايا المتصلة بقضايا الشرق وبين الموقف الأوروبى من القضية الفلسطينية. كنت أقول إننا نختلف مع الموقعين، ولكن الموقف الأوروبى أكثر إنسانية من الموقف الأمريكى ، لأن أميركا اتخذت موقفها الى جانب الموقف الإسرائيلى بنسبة ٩٠٪ وتبقى الـ ٩٠٪ قابلة لأن تنضم إلى الـ ٩٠٪ ، بينما نجد أن الأوروبيين اتخذوا موقفهم الى جانب اسرائيل، على الأقل فى المرحلة الحاضرة، بنسبة ٦٠٪ مثلاً.

كنت أتحدث عن الموقف السياسى الأمريكى الذى يختلف عن الموقف السياسى الأوروبى ، ولم أكن أتحدث من التفرقة من خلال الموقف الجغرافى، لا سيما إذا عرفنا أننا عشنا مشاكل كبيرة مع أوروبا باعتبار أنها كانت هى التى تستعمر البلاد العربية والإسلامية.

ولكن أوروبا الآن ابتعدت كثيراً عن مواقع الاستعمار وإن كانت لها مصالح كبرى تتفق مع المصالح الأميركية. كنا نعلق على بعض المفردات السياسية ولم نكن نتكلم عن مجمل الوضع الأوروبي مقابل الوضع الأميركي. إننا قد نستطيع أن نفكر بطريقة أخرى عندما نريد أن نتحرك في قضايا أخرى. فقد نجد أن أوروبا التي تحمل حضارة معقدة ربما تختزن في داخلها ما تتحرك به الحركات اليمينية العنصرية ضد الإسلام. بينما لا نجد لدى الشعوب الأميركية هناك عقدة حضارية توجه بعدوانية الى الشعوب الأخرى.

س : نتحدثون عن الشرق والغرب، هل هما كتلة واحدة؟ ألا يسهل هذا التصوير للشرق، كتلة واحدة، في ضربه، كيف تُقِيمُونَ هذه المسألة؟

ج : أنا لا أعتقد أن الشرق كتلة واحدة. فللشرق مواقع المتعددة التي قد يتفق بعضها مع الغرب وقد يختلف. كما أنني لا أعتبر الغرب يمثل موقعاً واحداً، قد تكون هناك مصالح غربية يلتقى عليها كل الغربيين ، ولكننا نعرف أن هناك محاور سياسية غربية تعيش الصراع كما نلاحظه في الصراع الخفي بين أميركا وبين أوروبا.

س : قضية الرهائن تشغل كثيراً الرأي العام العالمى ، ما هى ردة فعل سماحة السيد؟

ج : بالنسبة إلى قضية الرهائن، نحن دعونا منذ البداية إلى إغلاق ملف الرهائن جملةً وتفصيلاً ، لأنه ملف غير إنسانى. وكنت أتألم لإقحام

اسمى فى هذا المجال ، فى الوقت الذى كنت أقف فيه ضد مسألة الخطف ، لأننى لا أعتبر حجز حرية إنسان مبرراً بأية قضية سياسية. ونحن سعيينا ولا نزال نسعى فى سبيل ممارسة الضغوط لإغلاق هذا الملف. هذا من جهة ولكننا كنا نتحدث أن على العالم الذى يقف إلى جانب قضية الرهائن كما نقف نحن الى جانبهم أن يدرس المنطلقات التى دعت هؤلاء الناس الى حجز الرهائن. وأن المسألة لم تكن مسألة ابتزاز مالى كما هى قضايا الإرهاب. وإنما كانت المسألة مسألة تنفيس عن محاولة لإيجاد وسائل ضغط فى مقابل الضغط المدمر الذى تفرضه [إسرائيل] على الشعب اللبنانى والشعب الفلسطينى ، والذى تساعده قوى أمريكية وقوى أوروبية. إننا كنا نريد للإنسان الغربى وهو يواجه هذه القضية المناوئة ألا ينظر إلى الموضوع بعين واحدة وألا يصدر حكمه المطلق على خاطفى الرهائن ، بل أن يدرس ظروفهم لأن ذلك يجعل المسألة أكثر إنسانية.

س : المرأة فى الاسلام، مسألة مثيرة ومقلقة ، ما رأيكم فى هذه المسألة؟

ج : أما مسألة المرأة فإننا نفكر أن المرأة إنسان كما هو الرجل إنسان، بينما نجد أن للمرأة الحق نفسه ولا فرق على هذا الصعيد. فهناك الفلسفة التى تقول بالحرية الجنسية المطلقة ، وهناك فلسفة تقول بالضوابط الأخلاقية ، وهذه الفلسفة يلتقى بها الإسلام مع المسيحية لأن المسيحية لا توافق على الحرية الجنسية المطلقة ، ولذلك فإن من الطبيعى

أنا عندما نؤمن بفلسفة أخلاقية متوازنة فلا بد أن نهتئ الظروف التي تحمى حركة هذه الفلسفة فى الواقع، وأنا نعتبر أن الفرق بيننا وبين النظرية الغربية الموجودة الآن حول المرأة فى بعض جوانبها تتصل بالمسألة الجنسية التي تحكم الرجل والمرأة. وتتصل بالنظرية الأخلاقية العامة وهذا أمر لا بد أن يكون فيه حوار.

س : هناك من يفسر أن الآية الثالثة من سورة النساء تجيز للرجل تعدد الزوجات فى أن معاً. ولكن ثمة شرط موضوعى ألا وهو العدل بين الزوجات الأربعة. كما توصى الآية بواحدة من الزوجات: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ... ﴾ (٣) ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا (١٢٩) ﴾ [سورة النساء] .

ج : إليك تفسير قول "وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة". المراد هنا العدل فى تحمل مسؤولية الحياة الزوجية فى النفقة. والقول، "لن تستطيعوا أن تعدلوا" فى الميل القلبى ، لأن عواطف الإنسان لا يمكن أن يكون عادلاً دائماً فيها ، ولذلك لم يكلف الإنسان بأن يعدل فى الميل القلبى، وإنما كُلفَ أن يعدل فى الواقع فى مسؤوليته الإنفاقية. عندما يتمكن الإنسان من العدل... لا عندما نفسر العدل فى مسألة تعدد الزوجات، وجدته بالعدل فى مسؤولية رعاية الحياة الزوجية من الخاصة المادية ، ونفسر العدل المنقى هناك بالميل القلبى. عند ذلك لا يمثل عدم القدرة على العدل فى الميل القلبى التزاماً بالمرأة الواحدة، فالإنسان إذا كان قادراً على إعالة امرأتين وأن يعدل بينهما بالمسؤولية حتى لو كان ميله إلى واحدة أكثر من أخرى هذا لا يهم. لكن المهم ما تقوله الآية الثانية :

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ...﴾ (١٢٩) ﴿[سورة النساء] .
يعنى أن على الإنسان ألا يترك نفسه بحيث يميل الى واحدة دون أن
يعطى الأخرى شيئاً من الميل ، لأن ذلك يجعل المرأة الأخرى لا مُرَوَّجَةً
ولا مُطَلَّقةً وهذا يمثل انتهاكاً لإنسانيتها. إننى أحب أن أعلق على
الرفض الغربى لتعدد الزوجات لأن الغرب برفض تعدد الزوجات بشدة
كما تقوله المسيحية. ولكن الغرب يمارس تعدد الصديقات بشكل غير
معقول. فإذا كان الإسلام يحلل للرجل أربعة مع العدل ، فالغرب بحسب
حضارته الآن يبرر للإنسان أن يتصل بألف امرأة من خلال الجانب
الجنسى البعيد عن جانب المسؤولية الإنسانية التى يعانى منها مع
الازواج من دون أية ضوابط فى هذا المجال. ولذلك فهو يرفض من
موقع العقدة لا من موقع الواقع...

س : نتحدثون عن إنصاف المرأة، بينما نسمع أصواتاً ترتفع (منها)
على سبيل المثال أصوات كاتبات جزائريات مسلمات) تؤكد أن الإسلام
يحرم عليهن الوصول الى مواقع سياسية من الدرجة الأولى. بل هناك
حديث ينحرف فى هذا الاتجاه^(٥).

ج : هناك فرق بين الموقع القيادى الأول والمواقع القيادية الأخرى.
إن الاسلام لا يتحدث... لا يضطهد إنسانية المرأة ، إنما يتحدث عن
الجانب العاطفى فى المرأة الذى قد يسىء إلى مسألة العدالة ، لذلك
فنحن لا نلاحظ أن هناك فى العالم - بالرغم من كل حركة التحرر فى
العالم - ليست هناك مواقع قيادية كثيرة للمرأة ، صحيح أن هناك

مواقع قيادية للمرأة ، ولكن فى الموقع الذى يحيط بها الرجل. لهذا نجد أن العالم - حتى العالم الغربى - لا يزال عالم الرجال فى المواقع القيادية.

س : تُوجد بعض النساء وزيرات، إلخ...

ج : بطبيعة الحال قد يحدث ذلك.. كنت أتكلم أن هذا قد ينطلق من مسألة حماية العدالة من مواقع الضعف بدلاً من أن يكون ذلك نظرة دينية للمرأة.

س : من وجهة النظر الإسلامية، إن ما حدث مع السيدة بوتو بتوليها منصب رئاسة الوزراء غير مقبول؟

ج : ربما تنطلق بعض التعقيدات فى مناقشة هذه المسألة.

حواشي الملحق

(١) إذ الهياج الشعبى الذى حدث فى أواخر أيار/مايو ١٩٩٢ منطلقاً من لوس أنجلُس غذى هذا الخطاب وعزز من صدقيته.

(٢) راجع فى هذا الخصوص محمد حسين فضل الله، من أجل الإسلام، حارة حريك - لبنان، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٩، ص ٤٢٤ و ٤٢٥ .

(٣) راجع فى هذا الخصوص تعليقات السيد على الديموقراطية الغربية فى: السيد محمد حسين فضل الله، الإسلام ومنطق القوة، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٦، ص ١٧٠ . السيد محمد حسين فضل الله، الحركة الإسلامية... هموم وقضايا، لبنان، دار الملاك، ١٩٩٠، ص ٤٦ و ٤٧ .

(٤) حالياً، تشكل الدعوات الى الحوار جزءاً من خطاب العديد من الناشطين الإسلاميين. مثل آخر نجده فى الشيخ حسن الترابى الزعيم الإسلامى السودانى المشهور الذى صرح مؤخراً: "يمكن أن يقوم حوار بيننا إذا ما أراد الغرب ذلك. حوار بين قوتين، نموذجين وحضارتين. ليس فى مصلحة البشرية الاستمرار فى طريق المواجهة.

علينا أن نضع ذلك فى ذهننا. المشكلة تكمن فى أن الغربيين لا يعرفوننا تماماً. المستشرقون فى أوساطهم منغلَقون داخل تصوراتهم القديمة عن الإسلام ، فيما نحن بحاجة الى أن يتفهم بعضنا بعضنا الآخر". مقابلة مع الشيخ حسن الترابى فى الأسبوع العربى ٣٠ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٢، ص ٩ .

(٥) حديث صحيح ٢٧٨٤ مذكور فى: الحسين بن مسعود البغوى، مصابيح السنة، ٤ مج، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٧ .

المراجع

إن المراجع المرفقة تكمل وتطابق الإحالات العديدة المذكورة في الحواشى على امتداد صفحات النص. من البدهى أن إلماماً بالمعطيات التاريخية المحيطة بواقع العرب والمسلمين لأمر أساسى لإنجاز هذه الدراسة، وبالتالي: تاريخ المنطقة العام، كتب التراث، القرآن الكريم، السنّة والكتاب المقدس، جميعها قراءات لا بد منها مراراً وتكراراً.

لائحة المراجع مقسمة الى قسمين:

أولاً - المصادر، بما فيها الدراسات الفاردة، المجلات، وثائق أخرى ومقابلات استخدمتها كمصادر.

ثانياً - الأعمال التى لم تستخدم كمصادر.

- أولاً المصادر

(أ) الدراسات الفاردة

إبراهيم، سعد الدين (بإشراف)، ديغول والعرب: العلاقات الفرنسية العربية بين الأمس والغد، عمان، منتدى الفكر العربى، ١٩٩٠ .

ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٢ م)، الكامل فى التاريخ (١٢ مج)، بيروت، دار صادر - دار بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .

إبن الحسين، عبدالله، مذكراتى، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٩ .
ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)، المقدمة، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٠٢/١٣٢٠ .

أحمد، رفعت سيد، آل الصباح، لندن، دار عكاظ، ١٩٩٣ .

أمين، سمير، AMIN, Samir, La Déconnexion, Paris, La Découverte, 1986.

أمين، سمير، و ياشير، فيصل، AMIN, Samir et YACHIR, Fayçal, La Méditerranée dans le monde. Les enjeux de la transnationalisation, Paris, L'Université des Nations Unies, La Découverte/ Toubkal, 1988.

الأنصارى، محمد جابر، تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠ .

أنطونيوس، جورج، يقظة العرب: ANTONIUS, George, The Arab Awakening, New York, Capricorn Books, 1965.

أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربى، القاهرة، المكتبة الأنجلو المصرية [لات] .

البغوي، الحسين بن مسعود، مصابيح السنة، ٤ مجلدات، بيروت،
دار المعرفة، ١٩٨٧ .

البنّا، حسن، رسائل الأمام الشهيد، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٥ .

البنّا، حسن، مذكرات الدعوة والداعية، بيروت، المكتب الإسلامي،
١٩٧٩ .

بولس، جواد، الموسوعة التاريخية: شعوب الشرق الأدنى
وحضاراته تاريخ مقارن منذ الأصول حتى يومنا، الجزء الرابع: منذ
التوسع العربي - الإسلامي حتى الفتح التركي - العثماني (٦٤٠ -
١٥١٧) والجزء الخامس: الشرق الأدنى العثماني (١٥١٧ - ١٦١٨)
والشرق الأدنى ما بعد العثماني (١٩١٨ - ١٩٣٠). تعريب وتحقيق
سيمون عوّاد بمعاونة ماري عواد، بيروت، دار عواد للطباعة والنشر -
إشراف مؤسسة جواد بولس، ١٩٩٣ .

بيهم، محمد جميل، لبنان بين مُشرّق ومُغرّب ١٩٢٠ - ١٩٦٩ [لا ن]
[لام، لا ت] .

بكري، محمود، جريمة أميركا في الخليج: الأسرار الكاملة،
القاهرة، ١٩٩١ .

الترك، نقولا ناصف الترك، تملك الجمهورية الفرنسية الى الأقطار
المصرية والشامية، [لا ن] [لام، لا ت] .

جبران، جبران خليل، المجموعة الكاملة، قدم لها وأشرف عليها
ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر، ١٩٤٩ .

الجبرتي، عبدالرحمن، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين،
القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٦١ .

الجبرتي، عبدالرحمن، من التاريخ المسمى عجائب الآثار في
التراجم والأخبار، مج ٣ و٤، القاهرة، المطابع الأميرية، ١٣٢٢ للهجرة.
حتى، فيليب، تاريخ لبنان، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢ .

حسون، على، تاريخ الدولة العثمانية، دمشق وبيروت، المكتب
الإسلامي، ١٩٨٢ .

حسين، طه، الأيام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٣٩ .

حسين، طه، دراسات في الأدب الأمريكي، القاهرة، مكتبة النهضة
المصرية [لا ت، لكن الأصول "الأميركية" تعود الى ١٩٥٢] .

حسين، طه، مذكرات طه حسين، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٧ .

حسين، طه، مرآة الاسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩ .

حسين، طه، المجموعة الكاملة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣ .

الحسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية، مهنتي كملك، أحاديث
ملكية، نشرها بالفرنسية فريدون صاحب جم، ترجمة الدكتور غازي
غزّيل، الناشر: مؤسسة المصرى [لا ت] .

حلمى، مصطفى، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، الإسكندرية، دار الدعوة، ١٩٨٥ .

حنفى، حسن، مقدمة فى علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٩٩١ .

حورانى، ألبرت، الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، بيروت، مؤسسة نوفل، ٢٠٠١ .

الخمينى، آية الله، الحكومة الاسلامية، [لا ن] [لام، لا ت]
الخمينى، آية الله العظمى الإمام، الوصية الخالدة، بيروت، ذكرى وفاته الأولى.

درويش، محمود، -DARWICH, Mahmoud, Rien qu'une année, traduit de l'arabe par Abdellatif Laâbi, Paris, Minuit, 1983.

زيادة، خالد، اكتشاف التقدم العروبي: دراسة فى المؤثرات العروبية على العثمانيين فى القرن الثامن عشر، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١ .

الزين، مصطفى، أتاتورك وخلفاؤه، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣ .

السادات، أنور، البحث عن الذات: قصة حياتى، القاهرة، المكتب المصرى الحديث [لا ت] .

سرور، على حسن، العلامة فضل الله: التحدى الممنوع، لبنان، دار الملاك، ١٩٩٢ .

سعيد، إدورد، وديع، الثقافة والإمبريالية، بيروت، دار الآداب، ط ٢،
١٩٩٨ .

سعيد، إدورد وديع، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الانشاء،
بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١ .

السعيد، ناصر، مملكة العبيد، بيروت، دار الحق، ١٩٩٢ .

شكري، محمود محمد، أباطيل وأسمار، القاهرة المدني، ١٩٧٢ .

صاغية، حازم، أم كلثوم سيرة وإنسان: الهوى دون أهله، بيروت،
دار الجديد، ١٩٩٧ .

صالح، الطيب، دومات ود حامد، بيروت، دار العودة، ١٩٧٠ .

صالح، الطيب، موسم الهجرة الى الشمال، بيروت، دار العودة،
١٩٦٩ .

صبحي، محي الدين الشماخ، خلدون، الطيب صالح عبقرى الرواية
العربية، بيروت، دار العودة، ١٩٧٦ .

الطهطاوى، رفاعة رافع، مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب
العصرية، القاهرة، مطبعة شركة الرغائب، ١٩١٢ .

الطهطاوى، فتحى رفاعة، موجز سيرة وأعمال رفاعة بدوى رافع
الطهطاوى مطلق النهضة الثقافية فى مصر الحديثة، القاهرة [لا ن]،
١٩٥٨ .

- طوالبة، حسن، البعث وفلسطين، بغداد، دار المأمون، ١٩٨٢ .
- عبد الرحمن. فايز، فضائح ملوك النفط، بيروت، دار الرياض، ١٩٨٩ .
- عبد الرحمن، منيف، الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، مؤسسة إيبال للدراسات والنشر، ١٩٩١ .
- عبد الرحمن، منيف، شرق المتوسط، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١ .
- عبد الله بن الحسين، التكملة [لا ن]، ١٩٥١ .
- عبد الملك، أنور، الفكر العربي في معركة النهضة، بيروت، دار الآداب، ١٩٧٨ .
- عبد، محمد، الإسلام والنصرانية، القاهرة [لا ن]، ١٩٢٢
- عبد، محمد، الإسلام، دار الهلال، [لا ت لام]
- عبد، محمد، تقرير، مصر، المنار، ١٩٠٠ .
- العظم، صادق جلال، ذهنية التحريم: سلمان رشدي وحقيقة الأدب، لندن، رياض الرئيس بوكس لمتد، ١٩٩٢ .
- العظم، صادق جلال، نقد الفكر الديني، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩ .

- العظم، يوسف، الشهيد سيّد قطب، بيروت، دار القلم، ١٩٨٠ .
- عفلق، ميشيل، فى سبيل البعث، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٣ .
- عفلق، ميشيل، معركة المصير الواحد، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٨ .
- عفلق، ميشيل، نقطة البداية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣ .
- غبجى، عبد الرحمن، أم كلثوم، بيروت، مكتبة دار الشرق [لا ت] .
- الغنوشى، راشد، مقالات: حركة الاتجاه الاسلامى بقونس، باريس، دار الكروان [لا ت] .
- فضل الله، السيد محمد حسين، الحركة الإسلامية... هموم وقضايا، لبنان، لبنان، دار الملاك، ١٩٩٠ .
- فضل الله، السيد محمد حسين، من أجل الإسلام، حارة حريك - لبنان، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٩ .
- فضل الله، السيد محمد حسين، الإسلام ومنطق القوة، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٦ .
- فوزى، أحمد، غرب... أم غروب، دار الشرق الجديد [لام، لا ت] .
- فوزى، حسين، سندباد الى الغرب، القاهرة، دار المعارف بمصر [لا ت] .

القذافي، معمر، الكتاب الأخضر، طرابلس [لا ن]، ١٩٧٦ .

CORAN, Al-Qour'ân Al-Karim, traduit de l'arabe، القرآن الكريم،
par Abdullah Yusuf Ali et incluant le texte arabe ainsi que des com-
mentaires par Ali, Ryad, Dâr El-Liwa, 1983.

CORM, Georges, Le انفجار الشرق الأوسط:، قورم، جورج،
Proche-Orient éclaté, Paris, La Découverte, 1988.

CORM, Georges, L'Europe et l'Orient, Paris, La Dé-، قورم، جورج،
couverte, 1989.

قطب، سيد، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، [لام] [لا ن]،
١٩٦٧ .

قطب، سيد، نقد مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة [لا ن] [لا ت] .
المرنيسي، فاطمة، الخوف من الحداثة: الإسلام والديموقراطية،
دمشق، دار الجندي - دار الباحث. ١٩٩٤ .

معلوف، أمين، الحروب الصليبية كما رآها العرب، بيروت، دار
الفارابي، ١٩٨٨ .

معلوف، أمين، القرن الأول بعد بياتريس، بيروت، دار الفارابي،
١٩٩٧ .

معلوف، أمين، حقائق النور، بيروت، دار الفارابي، ١٩٩٣ .

معلوف، أمين، ليون الأفريقي، بيروت، دار الفارابي، ١٩٩٠ .

نعوم، سر كيس، ميشيل عون: حلم أم وهم، بيروت، مطبعة المتوسط، ١٩٩٢ .

النعمي، طه طايح، النهضة العلمية والتكنولوجيا في فكر الرئيس القائد صدام حسين، بغداد، وزارة التربية والإعلام، ١٩٩٠ .

هيكل، محمد حسنين، حرب الخليج: أوهام القوة والنصر، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢ .

(ب) المقابلات

من بين المقابلات العديدة التي غذت هذه الدراسة، كان الغرض الوحيد لثلاثٍ منها الوحيد سبر غور رؤية الغرب لدى محادثي. وهم: سماحة السيد محمد حسين فضل الله، بئر العبد، مارس/ آذار ١٩٩٢؛ مارسيل خليفة، مونتريال، باريس وبيروت أكتوبر/ تشرين الثاني ١٩٩٢؛ حسن حنفي، القاهرة ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٢ .

(ج) المقالات

إده، ريمون، "مقابلة" أرابي (باريس) (Arabies) عدد ٣٨، شباط/ فبراير ١٩٩٠، ص ٢٤ حتى ٢٧ .

أمين، سمير، "موقع العرب والمسلمين فى النظام الخارجى العالمى -
الجنور التاريخية لعداء الغرب"، المستقبل العربى، العدد ١٥٦، أب/
أغسطس ١٩٩٤، ص ١٩ .

الترايى، شيخ حسن، "مقابلة مع الشيخ حسن الترابى" الأسبوع
العربى، (بيروت)، ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٩٢، ص ٩ .

الحياة، "لندن تبلغ طهران انزعاجها الشديد من تعدد الدعوات لقتل
سلمان رشدى"، الحياة (بيروت)، ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٩٣، ص ٨ .

رضى، رشيد، "سيرة الأستاذ الإمام"، مجلة المنار (القاهرة) المجلد
٨، ١٩٠٥ .

زوايدى، محمود، "موقف المجتمع التونسى من حرب الخليج"،
المستقبل العربى، أب/ أغسطس ١٩٩١، العدد ١٥٠، ص ١٢٥ .

السّمَان، غادة، "الغبطة المتصلة"، الحوادث (لندن) ١٢ تموز ١٩٩١،
ص ٧٠ .

شفيق، منير، "الغرب والحرب"، الانسان (باريس) أبريل - مايو،
١٩٩١، ص ٥٤ حتى ٥٨ .

صالح، حسن، "حول نهاية التاريخ وحرب الخليج" الإنسان
(باريس) إبريل - مايو ١٩٩١، ص ٥٠ .

عامر، كمال، "الفرق الرياضية ترفض التطبيع مع إسرائيل".
روز اليوسف، (القاهرة) ١٤ آذار/ مارس ١٩٩٤، ص ١٣ .

عواد، عبدالله، "حصيلة زيارة كرّست الانقطاع عن الديجولية"
الأسبوع العربي، ٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٢، ص ٢٠ .

الغوث، مختار، "دعوة المعتدى لإيقاف عدوانه"، الحياة (نيويورك)
٢٧ يوليو/ تموز ١٩٩٢ ص ٨ .

يحيى، إيمان، "الحوار الأكثر من ضرورة اليسار (القاهرة)، مايو/
أيار ١٩٩٢، ص ٩٢ .

ABDALLAH, King of Jordan, My Memoirs Completed, traduit de l'arabe
par Harold W. Glidden, Washington D.C., American Council of
Learned Societies, 1954.

ABDEL-MALEK, Anouar, Idéologie et renaissance nationale, l'Egypte
moderne, Paris, Anthopos, 1969.

ABDEL-MALEK, Anouar, La dialectique sociale, Paris, Seuil, 1972.

ABDEL-MALEK, Anouar, La pensée politique arabe contemporaine,
Paris Seuil, 1970.

ABDOU, Mou'hammad, Ressâlat al-taw'hîd (Traité de l'unité divine),
traduit de l'arabe avec une introduction sur la vie et les idées du
cheikh Abdou par B. Michet et le Chaykh Moustafa Abdle-Razik,
Paris, Librairie Orientaliste, 1925.

AL-'AZMEH, 'Aziz, Barbarians in Arab Eyes, Past and Present [s. l.], no
134. 1992, p. 6.

AL-KHOUMEYNI, Ru'hallah al-Mousawi, Islam and Revolution Writings
and Declarations of Iman Khomeini, traduit en anglais et annoté
par Hamid Algar, Berkeley, 1981.

- BUCIANTI, Alexandre, L'Egypte aux deux Islams, Le Monde (Paris), 13-14 mai 1990, p. 1 et 3.
- DAHDAH, Jean-Pierre, Khalil Gibran poète de la sagesse, Paris, Albin Michel, 1990.
- GALEANO, Eduardo, tre comme eux traduit de l'espagnol par Pierre Guillaumin, Le Monde Diplomatique (Paris), octobre 1991, p. 17.
- GOYTISOLO, Juan, L'Espagne lobotomisée, Le Monde Diplomatique (Paris), octobre 1991, p. 14.
- GRSEL, Nedim, Deux écrivains de l'exil, Liber [s. l] [s.e.], décembre 1992, p. 12.
- HERG, Tintin au Pays de l'Or Noir, Paris, Casterman, 1950.
- HITTI, Philip K., The Impact of the West on Syria and Lebanon in the Nineteenth Century, Cahiers d'histoire mondiale (Paris), vol. II, no 3, 1955, p. 608.
- HUSSEIN, addâm, President Hussein's Press Conference on Iraq's Policies, traduit par Naji Al-'Hadithi, Bagdad, Dâr al-ma' moun, 1981.
- HUSSEIN, Mahmoud, Les Arabes au présent, Paris, Seuil. 1974.
- HUSSEIN, Mahmoud, Versant sud de la liberté, Paris, La Découverte, 1989.
- JORDAN TIMES, Italian Unit to Leave Mogadishu in Protest over U.N. Approach, Jordan Times (Amman), 14 août 1993, p. 1.
- KASSIR, Samir et MARDAM-BEY, Farouk, Itinéraires de Paris à Jérusalem, la France et le conflit israélo-arabe, tome I: 1917-1958 et tome II: 1958-1991, Paris, Les Livres de la Revue d'études palestiniennes, 1993.

- L'ORIENT-LE JOUR, Les Frères musulmans égyptiens..., L'Orient-Le Jour (Beyrouth), 21 janvier 1991, p. 1.
- LA PRESSE, Kadhafi résiste aux injonctions de l'ONU, La Presse (Montréal), 5 avril, 1992, p. 1.
- LAROUÏ, Abdallah, L'idéologie arabe contemporaine, Paris, Maspero, 1967.
- LAROUÏ, Abdallah, La crise des intellectuels arabes, Paris, Maspero, 1978.
- LEWIS, Bernard, The Question of Orientalism, The New York Review of Books, New York, 24 juin 1982, p. 49.
- MAGAZINE, Elections peu probables cette année, Magazine (Beyrouth), 27 février 1992, p. 25.
- MALIK, Charles, Asia and Africa Ask Searching Questions, The Congregational Quarterly [s.l.n.d.], p. 38. Disponible sous forme de livret à la Islamic Library de l'Université McGill à Montréal.
- MALIK, Charles, The Near East: The Search for Truth, Foreign Affairs [s.l.n.d.], p. 231, 247 et 264. Disponible sous forme de livret à la Islamic Library de l'Université McGill à Montréal. La lecture du document ne laisse aucun doute que l'article a été rédigé avant 1952.
- MARZOUKI, Moncef, L'Occident fourvoyé, Le Monde (Paris), 6 février 1991 cité dans CASSEN, Bernard, Une francophonie mutilée, dans Le Monde Diplomatique (Paris), mars 1991, p. 32.
- PRES, Henri, Ibn Khaldûn, extraits choisis de la Mouqaddima et du kitâb al-'Ibar, Alger, Imprimerie officielle, 1947.
- PRONCEL-HUGOZ, Jean-Pierre, L'Université francophone d'Alexandrie est inaugurée par quatre chefs d'état, dont M. Mitterand, Le Monde (Paris), 4-5 novembre 1990, p. 3.

QANTARA, tre arabe, regards croisés, Qantara (Paris), no 7, avril-juin 1993, p. 14.

SAD, Edward W., Covering Islam, New York, Panthéon, 1981.

SALEH, Hachem, Hassan Hanafi: de l'occidentalisme comme science, Arabies (Paris), juillet-août 1992, p. 94.

SALIBY, K. S., The Modern History of Lebanon, Londres, Weidenfeld and Nicolson, 1965.

ZAKARIA, Fou'âd, Compte rendu d'un débat dans le cadre des célébrations marquant le centième anniversaire de la publication de langue arabe El-Hilal, Al-Moujtama' al-madani (Le Caire), no 11, novembre 1992, p. 21.

(د) اليوميات والدوريات

الأنوار (بيروت)

الأهرام (القاهرة)

الثورة (العراق)

الجمهورية (العراق)

الحوادث (لندن)

الحياة (نيويورك، لندن، بيروت)

الدستور (الأردن)

الرأى (الأردن)
السفير (بيروت)
الشعب (الأردن)
القادسية (العراق)
القدس العربى (لندن)
اللواء (الأردن)
المجتمع المدنى أو Civil Society (مزبوجة اللغة، القاهرة)
المستقبل العربى (بيروت)
مصر الفتاة (القاهرة)
المواقف (بيروت)
النقد (لندن)
النهار (بيروت)

La Presse (Montréal)

Le Devoir (Montréal)

Le Monde Diplomatique (Paris)

L'Orient-Le Jour (Beyrouth)

The Globe and Mail (Toronto)

New York Times

ثانياً - الأعمال

(أ) مجموعات ببليوجرافية عامة

داغر، يوسف أسعد، الديمقراطية في الحياة العربية مصادر ومراجع، بيروت [لا ن]، ١٩٥٩ .

داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، مج ٢، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، القسم الأول: الراحلون [١٨٠٠ - ١٩٥٥]؛ بيروت [لا ن]، ١٩٥٥ .

داغر، يوسف أسعد، قاموس الصحافة اللبنانية [١٨٥٨ - ١٩٧٤]، بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٧٨ .

الطرزي، فيليب، تاريخ الصحافة العربية أربع مجلدات.

كحالة، عمر رضى، معجم المؤلفين، تراجم مصنّفى الكتب العربية، ١٥ مجلد، دمشق [لا ن]، ١٩٥٧ - ١٩٦١ .

مجموعة، ببليوجرافيا الوحدة العربية، مجلدان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣ .

مروة، أديب، الصحافة العربية، نشأتها وتطوراتها، بيروت [لا ن]، ١٩١٣ - ١٩٣٣ .

HADDAD, G. et SAID, M., Catalogue collectif des ouvrages en langue arabe acquis par les bibliothèques françaises 1952-1983, avec la participation de l'Institut du Monde arabe, Paris, Bibliothèque nationale, 1984.

MARDAM-BEY, Farouk, Le Monde arabe, bibliographie sélective et analytique, بلا demande de l'Institut du Monde Arabe, Paris, CNDP, 1987.

(ب) الدراسات الفاردة

- ابن تيمية، سياسة وشريعة، القاهرة [لا ن]، ١٩٦١ .
- أبوريان، محمد على، تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، مج ٢، الاسكندرية، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٠ .
- الأيباردى، إبراهيم، تاريخ القرآن، بيروت، دار الشروق، ١٩٦٤ .
- الباهى، محمد الكلى، الفكر الاسلامى الحديث، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٠ .
- بدوى، عبد الرحمن، الإلحاد فى الاسلام، القاهرة [لا ن]، ١٩٤٥ .
- بدوى، عبد الرحمن، دور العرب فى تكوين الفكر العروبي، بيروت [لا ن]، ١٩٦٥ .
- برهان الدين ، المتقدم، فى مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية [لا ن] [لام، لا ت] .
- بيطار، محمد بهجت، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية بيروت، المكتب الاسلامى، ١٩٧٢ .
- الترابى، حسن، الحركة الاسلامية والتحديث، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٠ .

التونسي، خير الدين، أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك،
تونس، منصف شنوفى، ١٩٧٢ .

تيمور، محمود، طه حسين كما يعرفه كُتَّاب عصره، مؤسسة دار
الهلل [لام، لا ت] .

الجندي، أنور، طه حسين: حياته وفكرة فى ميزان الاسلام، القاهرة
[لا ن] ١٩٧٦ .

الزندانى، أبو عبدالله، تاريخ القرآن، القاهرة، لجنة التأليف
والترجمة والنشر، ١٨٢٥ .

شرف، عبد العزيز، طه حسين وزوال المجتمع التقليدى، القاهرة،
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٧ .

الشيال، جمال الدين، رفاة رافع الطهطاوى، القاهرة دار المعارف،
١٩٥٨ .

صدر، سيد محمد باقر، اقتصادنا [لا ن]، [لام، لا ت] .

صعب، حسن، تحديث العقل العربى، بيروت [لا ن]، ١٩٧٢ .

عبّود، مارون، رواد النهضة الحديثة، بيروت [لا ن]، ١٩٥٢ .

عبد الرازق، على، الاسلام وأصول الحكم، القاهرة [لا ن]، ١٩٢٥ .

عجاج، الخطيب محمد، المختصر الوجيز فى علوم الحديث، بيروت،
مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥ .

- الكيالى، سامى، مع طه حسين، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥١ .
- محمود، مصطفى، القرآن محاولة لفهم عصرى، [لا ن]، [لام، لا ت] .
- المونودى، أبو العلاء، دور الطلبة فى بناء مستقبل العالم الاسلامى، بيروت، الدار الكويتية [لا ت] .
- الموردى، (٣٦٤ - ٩٧٤/٤٥٠ - ١٠٥٨) أدب الدنيا والدين، القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية ١٩٠١/١٣١٩ .
- الموردى، الأحكام السلطانية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٠٩/١٣٢٧ .
- ABDEL-MALEK, Anouar, Anthologie de la littérature arabe contemporaine, II: les essais, Paris, Seuil, 2e' é d., 1970.
- AL-HUSRY, Khaldun, S., Three Reformers: A Study in Modern Arab Political Thought, Beyrouth, Khayats, 1966.
- AMIN, Samir, L'eurocentrisme, Critique d'une idéologie, Paris, Anthropos, 1988.
- AMIN, Samir, L'impérialisme et le développement inégal, Paris, Minuit, 1976.
- AMIN, Samir, La nation arabe, paris, Minuit, 1976.
- ARKOUN, Mohammed, L'Islam morale et politique, Paris, Unesco et Desclées de Brouwer, 1986.
- ARKOUN, Mohammed, La pensée arabe, paris, Presses universitaires de France (Que sais-je? no 915), 1975.
- ARKOUN, Mohammed, Lectures du Coran, Paris, Maisonneuve & Larose, 1984.

- ARKOUN, Mohammed, Pour une critique de la raison islamique, Paris, Maisonneuve & Larose, 1984.
- AYALON, Ami, Middle Eastern Perceptions of the West: A Study in Arabic Political Terminology, thèse de doctorat, Princeton University, 1980.
- BADAWI, 'Abdurrahmân, La transmission de la philosophie grecque au monde arabe, Paris, Librairie philosophique J. Vrin, 19877.
- BADIE, Bertrand, Les deux tats, pouvoir et société en Occident et en terre d'Islam, Paris, Fayard, 1986.
- BAZARGAN, Mehdi, The Inevitable Victory, Houston, [s.e.], 1979.
- BEN JELLOUN, T., La plus haute des solitudes, misères, sexuelles d'immigrés nord-africains, Paris, Seuil, 1977.
- BERQUE, J. et CHARNAY, J.P., L'ambivalence dans la culture arabe, Paris, Anthropos, 1967.
- BERQUE, Jacques, Les Arabes d'hier à demain, Paris, Seuil, 1976.
- BOHM, David et PEAT, David, La conscience et l'univers, traduit de l'anglais par Corine Derblum, France, ditions du Rocher, 1990.
- BOHM, David, Causality and Chance in Modern physics, London, Routledge & Kegan Paul, 1959.
- BOHM, David, Quantum Theory, New York, Prentice-hall, 1966.
- BOHM, David, The Special Theory of Relativity, New York, W. A. Benjamin Inc., 1965.
- BOULLATA, Issa, Trends and Issues in Contemporary Arab Thought, New York, State University of New York Press, 1990.
- BOUSQUET, G.H., Les textes sociologiques et économiques de la Mouqaddima, Paris, ditions Marcel Rivière et Cie, 1965.

- CHALMERS, A. F., Qu'est-ce que la science?, traduit par Michel Biezunski, Paris, La Découverte, 1988.
- CHEBEL, Malek, L'imaginaire arabo-musulman, Paris, Presses universitaires de France, 1993.
- CHEBEL, Malek, La formation de l'identité politique, Paris, Presses universitaires de France, 1986.
- DJAÏT, Hichem, La personnalité et le devenir arabo-islamique, Seuil, Paris, 1974.
- DJALILI, Mohammad-Reza, Religion et révolution: l'Islam shi'ite et l'Iat, Paris, Economica, 1981.
- FANON, F., Les damnés de la terre, Paris, Maspero, 1968.
- FEYERABEND, Paul, Contre la méthode, Paris, Seuil, 1979.
- FINDLEY, Paul, They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby, Connecticut, Lawrence Hill & Co., 1985.
- GIBB, H.A.R., Studies on the Civilisation of Islam, Londres [s.e.], 1962.
- GOYTISOLO, Juan, Juan sans terre, traduit de l'espagnol par Aline Schulman, Paris, Seuil, 1977.
- GOYTISOLO, Juan, Les royaumes déchirés, traduit de l'espagnol par Aline Schulman, Paris, Fayard, 1985.
- GRAVES, Robert (introduction de), New Larousse Encyclopedia of Mythology, traduit du français par Richard Aldington et Delano Ames, Toronto, Prometheus Press, 1968.
- HENTSCH, Thierry, L'Orient imaginaire, Paris, Minuit, 1988.
- HITTI, Philip, Précis d'histoire des Arabes, traduit par M. Planiol, Paris, Payot, 1950.

- HOURLANI, Albert, *Europe and the Middle East*, Berkeley, University of California Press, 1980.
- HUSSERL, Edmund, *La crise de l'humanité européenne et la philosophie*, traduit par Paul Ricoeur, Paris, Aubier Montaigne, 1977.
- HUSSERL, Edmund, *La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale*, traduit de l'allemand par Edmond Gerrer [s.l.n.d.], 66p.
- HUSSERL, Edmund, *L'idée de la phénoménologie*, traduit de l'allemand par Alexandre Lowit, Paris, Presses universitaires de France, 1985.
- KEDDIE, Nikki R. (dir.), *Religion and Politics in Iran* New Haven, Yale University Press, 1983.
- KRISHNAMURTI, J., *Se libérer du connu*, textes choisis par Mary Lutyens et traduits par Carlo Suarès, Paris, Stock Plus, 1983.
- LAOUST, H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, Payot, 1977.
- LEWIS, Bernard, *Comment l'Islam a découvert l'Europe*, traduit de l'anglais par Annick Pélissier, Paris, Gallimard, 1990.
- LEWIS, Bernard, *The Muslim Discovery of Europe*, New York, W.W. Norton & Co., 1982.
- MANNAN, M. A., *Islamic Economics, Theory and Practice*, Lahore [s.e.], 1970.
- MORIN, Edgar, *La méthode: 1. la nature de la nature*, Paris, Seuil, 1977.
- MORIN, Edgar, *La méthode: 2. la vie de la vie*, Paris, Seuil, 1977.
- MUBARAK, Z., *L'éthique chez Ghazzâli*, Le Caire [s.e.], [s.d.].

- PIRSIG, Robert, *Lila: An Inquiry into Morals*, New York, Bantam, 1991.
- POLK, William R., *A Study of the Impact of the West on the Middle East*, Massachusetts, Harvard University Press, 1963.
- QUADRI, G., *La philosophie arabe dans l'Europe médiévale*, traduit de l'italien par Roland Huret, Paris, Payot, 1960.
- ROUGEMONT, Denis de, *L'aventure occidentale de l'homme*, Paris, Albin Michel, 1957.
- ROUQUI Alain, *Amérique Latine. Introduction à l'Extrême-Occident*, Paris, Seuil, 1987.
- SAEED, Sheikh M., *Islamic Philosophy*, London, The Octagon Press, 1982.
- SELYE, Hans, *From Dream to Discovery: On Being a Scientist*, New York, McGraw-Hill, 1964.
- SHARI'ATI, Ali, *Civilisation and Modernization*, Houston [s.e.], 1979.
- SHARI'ATI, Ali, *Marxism and Other Western Fallacies: An Islamic Critique*, traduit par R. Campbell, Berkeley, Mizan Press, 1980.
- SHARI'ATI, Ali, *The Islamic View of Man*, traduit par A.A. Rasti, Bedford-Ohio, Free Islamic Literatures, 1978.
- SHARI'ATI, Ali, *the Sociology of Islam* Berkeley-California, Mizan Press, 1979.
- SIMARD, mile, *La nature et la portée de la méthode scientifique*, Québec, Les presses de l'Université Laval, 1958.
- SIVAN, Emanuel, *L'Islam et la Croisade: Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, 1968.

- SLOTEDIJK, Peter, Critique de la raison cynique, Paris, Christian Bourgeois, 1987.
- THOMPSON, J.H., et REISCHAUER, R.D. (dir.), Modernization of the Arab World, Princeton, Van Nostrand Company Inc., 1966.
- VAN BREDÁ, H.L. (président du comité de rédaction), Edmund Husserl 1859-1959, La Haye, Martinus Nijhoff, 1959.
- WELCH, E. Parl, The Philosophy of Edmund Husserl, New York, Octagon, 1965.

(ج) الدوريات

الهلال (القاهرة)

المؤرخ العربي (بغداد)

المقتطف (القاهرة)

شئون عربية أو Journal of Arab Affairs (تونس) Journal of Pales-
tine studies (بيروت)

منبر الشؤون الإسلامية (القاهرة)

(هـ) مقالات ووثائق فيديو

فرج، محمد عبد السلام، "الفريضة الغائبة"، الأحرار (القاهرة)،
١٤ ديسمبر/ كانون الأول، ١٩٨١، ص ١، ٣، ٥ .

ARKOUN, Mohammed, Positivismisme et tradition dans une perspective islamique: le cas du kémalisme, Diogène (paris), no 127, p. 89-107, 1984.

BERQUE, Jacques, Qu'est-ce que l'islamisme? Une déviation de la modernité, Le Monde Diplomatique (Paris), août 1990, p. 28.

BOHM, David, The Observer and the Observed, vidéo filmé pour le compte de la Fondation Krishnamurti Canada (Victoria, Colombie-Britannique), mai 1979.

المؤلف فى سطور :

نسب سمير الحسينى

مولود فى لبنان، درس فى الجامعة الأميركية ببيروت، وحاز على شهادة الدكتوراه من جامعة كيبك بمونتريال. وإلى جانب كونه رئيساً للقنطرة - شركة استشارات مهمتها نسج علاقات اقتصادية وثقافية مع العالم العربى ؛ فهو باحث مشارك فى كرسى -Télé globe Raoul Dandu- rand للدراسات الإستراتيجية والدبلوماسية فى جامعة كيبك بمونتريال (UQAM) .

المترجم فى سطور :

غازى بّرو

أستاذ الأنثروبولوجى، درس فى فرنسا جامعة باريس ٥ والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (EPHE) ، دَرَسَ مادة الأنثروبولوجيا السياسية والتدريب على الأبحاث الميدانية فى معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية. يعمل كذلك فى حقل النشر والترجمة فى ميادين العلوم الاجتماعية منذ حوالى ٣٠ عاماً.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جذباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالمين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (١٦)	ك. مادهو باتنيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جودج جيمس	شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارستنيكوفا	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفتيش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الانلىكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أنثرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد مقسم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١- مختارات شعرية	فيسوفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرائك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميت	عبد الوهاب علوب
١٤- التعليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميت	أشرف رفيق غلبنى
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	يشرافه أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى ويلى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- منكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم النسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامع	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (٢٦)	ك. مادهو باتنيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حمزة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. نيكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيلر	٣٧- واحة سيوة وموسيقاها
أنور مغيث	ألن تورين	٣٨- نقد المذاهب
منيرة كروان	بيتر والكوت	٣٩- الحسد والإغريق
محمد عبد إبراهيم	أن سكستون	٤٠- قصائد حب
عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد	بيتر جران	٤١- ما بعد المركزية الأوروبية
أحمد محمود	بنجامين تاربر	٤٢- عالم ماك
المهدى أخريف	أوكتايفر ياث	٤٣- اللهب المزوج
مارلين تاندرس	ألدوس هكسلى	٤٤- يعد عدة أصياف
أحمد محمود	روبرت دينا وجون فاين	٤٥- التراث المغنود
محمود السيد على	يابلو نيرودا	٤٦- عشرون قصيدة حب
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)
ماهر جويجاني	فرانسوا دوما	٤٨- حضارة مصر الفرعونية
عبد الوهاب طوب	ه . ث . نوريس	٤٩- الإسلام فى البلقان
محمد براءة وعشمانى الملبود ويوسف الأنطكى	جمال الدين بن الشيخ	٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
محمد أبو العطا	داريو بيانوفيا وخ. م. بينياليستى	٥١- مسار الرواية الإسيانو أمريكية
لطفي فطيم وعادل نمرdash	ب. نوليس وس . روسيفيتز وروجر بيل	٥٢- العلاج النفسى التعميمى
موسى سعد الدين	أ . ف . ألنجنون	٥٣- الدراما والتعليم
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح
على يوسف على	جون بولكنجهوم	٥٥- ما وراء العلم
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)
محمود السيد و ماهر البطولى	فديريكو غرسية لوركا	٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	٥٨- مسرحيتان
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيث	٥٩- المحبرة (مسرحية)
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتن	٦٠- التصميم والشكل
بإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميت	٦١- موسوعة علم الإنسان
محمد خير البقاعى	رولان بارت	٦٢- لذة النص
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)
رمسيس عوض	الان وود	٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
رمسيس عوض	برتراند راسل	٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى
عبد اللطيف عبد العظيم	أنطونيو جالا	٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	٦٧- مقتارات شعرية
أشرف الصباغ	فالنتين راسبوتين	٦٨- نتاشا المعجوز وقصص أخرى
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	٦٩- العالم الإسلامى فى أول القرن العشرين
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج روبريخت	٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
حسن محمود	داريو فو	٧١- السيدة لا تصلح إلا للومى
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	٧٢- السياسى المعجوز
حسن تانظم وعلى حاكم	جين ب . تومبكتز	٧٣- نقد استجابة القارئ
حسن بيومى	ل . ا . سيمينيولا	٧٤- صلاح الدين والمالِك فى مصر

أحمد درويش	أندريه موروا	فن التراجم والسير الذاتية	٧٥-
عبد القاصد عبد الكريم	مجموعة من المؤلفين	جاك لاكلن وإغواء التحليل النفسي	٧٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	٧٧-
أحمد محمود ونورا أمين	رونالد روبرتسون	العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	٧٨-
سميد الفانمي وناصر حلاوي	بوريس أوسبنسكي	شعرية التأليف	٧٩-
مكارم الفهمي	ألكسندر بوشكين	بوشكين عند «نافورة النعوم»	٨٠-
محمد طارق الشراوي	بنكتا أندرسن	الجماعات المتخيلة	٨١-
محمود السيد على	ميجيل دي أونامونو	مسرح ميجيل	٨٢-
خالد المعالي	غوتفريد بن	مختارات شعرية	٨٣-
عبد الحميد شحبة	مجموعة من المؤلفين	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	٨٤-
عبد الرزاق بركات	صلاح زكي أقطاي	منصور العلاج (مسرحية)	٨٥-
أحمد فتحي يوسف شتا	جمال مير صادق	طول الليل (رواية)	٨٦-
ماجدة العناني	جلال آل أحمد	نون والقلم (رواية)	٨٧-
إبراهيم الدسوقي شتا	جلال آل أحمد	الابتلاء بالغرب	٨٨-
أحمد زايد ومحمد محيي الدين	أنتوني جيلنز	الطريق الثالث	٨٩-
محمد إبراهيم مبروك	بورخيس وآخرون	وسم السيف وقصص أخرى	٩٠-
محمد هناء عبد الفتاح	باربرا لاسوتسكا - بشونيك	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	٩١-
نايلة جمال الدين	كارلوس ميجيل	لسانيات وشاعري المسرح الإسباني المعاصر	٩٢-
عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون وسكوت لاش	محدثات العولة	٩٣-
فوزية المشماوي	صمويل بيكيت	مسرحيتا الحب الأول والصحية	٩٤-
سرى محمد عبد اللطيف	أنطونيو بويرو بايخو	مختارات من المسرح الإسباني	٩٥-
إيوار الخراط	نخبة	ثلاث زنيقات ووردة وقصص أخرى	٩٦-
بشير السباعي	فرنان برودل	هوية فرنسا (مج١)	٩٧-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	٩٨-
إبراهيم قنديل	ديفيد روينسون	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	٩٩-
إبراهيم فتحي	بول هيرست وجراهام تومبسون	مساحة العولة	١٠٠-
رشيد بنحور	بيزنار فاليت	النص الروائي: تقنيات ومناهج	١٠١-
عز الدين الكتاني الإدريسي	عبد الكبير الخطيب	السياسة والتسامح	١٠٢-
محمد بنيس	عبد الوهاب المزيب	قبر ابن عربي يليه آياه (شعر)	١٠٣-
عبد الغفار مكاري	برتول بريشت	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	١٠٤-
عبد العزيز شبيب	جيرار جينيت	مدخل إلى النص الجامع	١٠٥-
أشرف على دعور	ماريا خيسوس روبيراماتي	الأدب الأندلسي	١٠٦-
محمد عبد الله الجميدى	خفية من الشعراء	معرض الفنان في الشعر الأمريكي للتجديد المعاصر	١٠٧-
محمود على مكي	مجموعة من المؤلفين	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	١٠٨-
هاشم أحمد محمد	جون بولوك وعادل درويش	حروب المياه	١٠٩-
منى قطان	حسنة بيجوم	النساء في العالم الثامن	١١٠-
ريهام حسين إبراهيم	فرانسيس هيسون	المرأة والجريمة	١١١-
إكرام يوسف	أرلين علوى ماكليود	الاحتجاج الهادي	١١٢-

أحمد حسان	سادى پلانت	١١٣- راية التمرد
نسيم مجلى	مسرچينا حصاد كرنجى وسكان المستعق	١١٤- مسرچينا حصاد كرنجى وسكان المستعق
سمية رمضان	فرچينيا وولف	١١٥- غرفة تخس المرء وحده
نهاد احمد سالم	سينثيا تلسون	١١٦- امرأة مختلفة (نورية شفيق)
منى إبراهيم وهالة كمال	ليلى احمد	١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام
ليس النقاش	بث بارون	١١٨- النهضة النسائية فى مصر
بإشراف: روف عباس	أميرة الأزهرى سنبلى	١١٩- النساء والأسرة والفرق بين الخلق فى التاريخ الإسلامى
مجموعة من المترجمين	ليلى أبو لغد	١٢٠- الحركة النسائية والتطويع فى الشرق الأوسط
محمد الجندي وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
منيرة كروان	جوزيف فوجيت	١٢٢- نظام العبودية القديم والتموذج المثالى للإنسان
أنور محمد إبراهيم	أنثيل ألكسندرو فنادولينا	١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
أحمد فؤاد بليغ	چون جرای	١٢٤- الفجر الكائن: فوهم الرأسمالية العالمية
سمحة الضولى	سيدرك ثورپ ديللى	١٢٥- التحليل الموسيقى
عبد الوهاب علوب	فولغانج إيسر	١٢٦- فعل القراءة
بشير السباعى	صفاء فتحي	١٢٧- إرهاب (مسرچية)
أميرة حسن نويرة	سوزان باسنيت	١٢٨- الأدب القارئ
محمد أبو العطا وآخرون	ماريا دولورس أسيس جاروت	١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
شوقى جلال	أندريه جوند فرانك	١٣٠- الشرق يصعد ثانية
لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى
عبد الوهاب علوب	مايك فيذرستون	١٣٢- ثقافة العولمة
طلعت الشايب	طارق على	١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)
أحمد محمود	بارى ج. كيمب	١٣٤- تشريح حضارة
ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
سحر توفيق	كينيث كونو	١٣٦- فلاحو الباشا
كاميليا صبحى	جوزيف مارى مواريه	١٣٧- مكرات ضابط فى العلة الفرنسية على مصر
وجيه سمعان عبد المسيح	أندريه جلوكسمان	١٣٨- عالم النليفيزيون بين الجمال والعنف
مصطفى ماهر	ريتشارد فاچنر	١٣٩- يارسيغال (مسرچية)
أمل الجبورى	هربرت ميسن	١٤٠- حيث تلقى الأنهار
نعمية عطية	مجموعة من المؤلفين	١٤١- اثنا عشرة مسرچية يونانية
حسن بيومى	أ. م. فورستر	١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
عدلى السمري	ديرك لايدر	١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
سلامة محمد سليمان	كارلو جولونى	١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرچية)
أحمد حسان	كارلوس فوينتس	١٤٥- موت أرثيميو كروت (رواية)
على عبدالروف البيمى	ميجيل دى لبيس	١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)
عبدالغفار مكاوى	تاتكرود دورست	١٤٧- مسرچيتان
على إبراهيم منوفى	إنريكي أندرسون إمبرت	١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية
أسامة إسبر	عاطف فضول	١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس
منيرة كروان	روبرت ج. ليمان	١٥٠- التجربة الإغريقية

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير الصباغى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطايب
١٥٣-	غرام الفراشة	فيولن فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكتجوى	عبدالعزیز يقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير الصباغى
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيوى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالمعظم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيرى	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جورجون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصايفة
١٦٦-	العلاقات بين اللتين واللطائين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرناث طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانت بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطايب
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سماعيل عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنري تروايا	حصه إبراهيم النيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل قصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	الذئب الابى الأمريكى من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنست ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنمو (شعر)	وب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي المشرى
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تتام	هانز إيندورفر	نسوقى سميد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب غلوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرض (رواية)	يُردج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرتان	بدر الديب

- ١٨٩- السيرة الذاتية في بلاد الله العاصم بول دي مان
١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١- الكلام وأسمال وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وآخرون
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراقى
١٩٣- عامل المنجم (رواية) بيتر أبراهامز
١٩٤- مختارات من الله الإنجليزي-أمريكي الحديث مجموعة من النقاد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالتين راسبوتين
١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلى النعماني
١٩٨- الاتصال الجماهيري إدوين إمري وآخرون
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية يعقوب لاندائو
٢٠٠- ضحايا التنقية: المقاومة والبدائل جيرمي سيبروك
٢٠١- الجانب البيني للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١) ريتش ويليك
٢٠٣- الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالي
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شانزار
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجي لوقا كافاللي- سفورزا
٢٠٦- الهولوية تصنع علماء جديداً جيمس جلايك
٢٠٧- ليل أفريقي (رواية) رامون خوتاسنديز
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي دان أوريان
٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠- منشويات حكيم سنائي (شعر) سنائي الغزنوي
٢١١- فريديان دوسومير جوناثان كلر
٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين
٢١٣- مسر مث قدم تابليزين حتى رحيل مبداتنامر ريمون فلاور
٢١٤- قواعد جديدة للتفكير في علم الاجتماع أنتوني جينز
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراقى
٢١٦- جوانب أخرى من حياته مجموعة من المؤلفين
٢١٧- مسرحيتان طليعتان صمويل بيكيت وهارولد بينتر
٢١٨- لعبة العجلة (رواية) خوليو كورتانا
٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كازو إيشيجورو
٢٢٠- الهولوية في الكون باري باركر
٢٢١- شعرية كلفاني جريجوري جوزدانييس
٢٢٢- فرائز كافكا رونالد جراي
٢٢٣- العلم في مجتمع حر باول فيرايند
٢٢٤- دمار يوغسلافيا يرانكا ماجاس
٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابرييل جارشيا ماركيث
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هريت لورانس
- سعيد الغانمي
محسن سيد فرجاني
مصطفى حجازي السيد
محمود علاوي
محمد عبد الواحد محمد
ماهر شفيق فريد
محمد علاء الدين منصور
أشرف الصباغ
جلال السعيد الحفناوي
إبراهيم سلامة إبراهيم
جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد الطيف حماد
فخرى ليبي
أحمد الأنصاري
مجاهد عبد المنعم مجاهد
جلال السعيد الحفناوي
أحمد هويدى
أحمد مستجير
على يوسف على
محمد أبو العطا
محمد أحمد صالح
أشرف الصباغ
يوسف عبد الفتاح فرج
محمود حمدي عبد الفنى
يوسف عبد الفتاح فرج
سيد أحمد على الناصري
محمد محيي الدين
محمود علاوي
أشرف الصباغ
نادية البنهاوي
على إبراهيم منوفى
طلعت الشايب
على يوسف على
رفعت سلام
نسيم مجلى
السيد محمد نقادي
منى عبدالظاهر إبراهيم
السيد عبدالظاهر السيد
طاهر محمد على البربري

السيد عبدالظاهر عبدالله	خوسيه مارييا ديث بوركي	٢٢٧-
ماري تيريز عبدالسميح وخالد حسن	جانيت وولف	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	نورمان كييجان	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	فرانسواز جاكوب	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	خايمي سالوم بيدال	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	توم ستونير	٢٣٢-
طلعت الشايب	أرثر هيرمان	٢٣٣-
فؤاد محمد عكرد	ج. سبنسر تريمنجهام	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل شونكيفيتش	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	روين فينين	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعيسى مديولى أحمد	تقرير لمنظمة الأنكاد	٢٣٨-
نادية سليمان حافط وليهاب صلاح فايق	جيلا رامراز - رايوخ	٢٣٩-
صلاح محبوب إدريس	كاي حافظ	٢٤٠-
ابتهام عبدالله	ج. م. كوتزي	٢٤١-
صبري محمد حسن	وليام إميسون	٢٤٢-
باشراف: صلاح فضل	ليفي بروفنسال	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لاورا إسكيبيل	٢٤٤-
توفيق على منصور	إليزابيتا آديس وآخرون	٢٤٥-
علي إبراهيم منفي	جابريل جارثيا ماركيت	٢٤٦-
محمد طارق الشرفاوي	والتر أرميرست	٢٤٧-
عبداللطيف عبداللطيم	أنطونيو جالا	٢٤٨-
رفعت سلام	لراجو شتامبوك	٢٤٩-
ماجدة محسن أبانلة	لومنيك فيك	٢٥٠-
باشراف: محمد الجوهري	جورجون مارشال	٢٥١-
علي بدران	مارجو بدران	٢٥٢-
حسن بيومي	ل. أ. سيمينوفا	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وكريس جارات	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلى وايت	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزد	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	نخبة	٢٥٩-
باشراف: محمد الجوهري	جورجون مارشال	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكي نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إدواردو مندوتا	٢٦٢-
علي يوسف علي	جون جرين	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشلي	٢٦٤-
	المرح الإسماني في القرن السابع عشر	
	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	
	مازق البطل الوحيد	
	من الغياب والقرآن والبشر	
	الرائيل في الجيل الجديد (مسرحية)	
	ما بعد المعلومات	
	فكرة الاضمحلال في التاريخ القرصي	
	الإسلام في السودان	
	ديوان شمس تبريزي (جدا)	
	الولاية	
	مصر أرض الوادي	
	العولة والتحرير	
	العربي في الالب الإسرائيلي	
	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	
	في انتظار البرابرة (رواية)	
	سبعة أنماط من الفموض	
	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	
	الغليان (رواية)	
	نساء مقاتلات	
	مختارات قصصية	
	الثقافة الجماهيرية والعداوة في مصر	
	هقول عدن الخضراء (مسرحية)	
	لغة التمزق (شعر)	
	علم اجتماع العلوم	
	موسوعة علم الاجتماع (جدا)	
	رائدات الحركة النسوية المصرية	
	تاريخ مصر الفاطمية	
	أقدم لك: الفلسفة	
	أقدم لك: أفلاطون	
	أقدم لك: ديكارت	
	تاريخ الفلسفة الحديثة	
	الفجر	
	مختارات من الشعر الأرضي مير العصور	
	موسوعة علم الاجتماع (جدا)	
	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	
	مدينة المعجزات (رواية)	
	الكشف عن حافة الزمن	
	إبداعات شعرية مترجمة	

روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي	٢٦٧-
ديوان شمس تيريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن	٢٧٠-
الخصارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال	٢٧١-
الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والتون	إبراهيم سلامة إبراهيم	٢٧٢-
الاسم الاجتماعي والثقافة لحركة عربيه في مصر	جوان كول	عنان الشهاوي	٢٧٣-
السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي	٢٧٤-
د. س. إلهي شاعرًا وثقافيًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	٢٧٥-
فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التلمساني	٢٧٦-
الحيثيات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي	٢٧٧-
البدائيات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله	٢٧٨-
الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوتندز	طلعت الشايب	٢٧٩-
الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٠-
الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي	٢٨١-
طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق	٢٨٢-
السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	علي عبد الرؤوف اليمبي	٢٨٣-
هرقل مجنونًا (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان	٢٨٤-
رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٥-
سياحات نامة إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراسي	محمود علاوي	٢٨٦-
الثقافة والمعلمة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون	٢٨٧-
الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي	٢٨٨-
ديوان منوچهری الدامقانی	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم	٢٨٩-
علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم	٢٩٠-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩١-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩٢-
مقدمة للادب العربي	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون	٢٩٣-
فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت	٢٩٤-
سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب	٢٩٥-
مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي	٢٩٦-
فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور	٢٩٧-
مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد	٢٩٨-
ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد	٢٩٩-
الأسطورة وديوشور في الأدب اليوناني والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري ويها. جامين وإيزابيل كمال	٣٠٠-
الأسطورة وديوشور في الأدب اليوناني والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي	٣٠١-
أقدم لك: فنجانشين	جون هيتون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام	٣٠٢-

٢٠٣- أقدم لك: يودا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالبارت	صلاح عبد الصبور
٢٠٦- المصاحبة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد باييتو وهوارد سليتا	محمود مكي
٢٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز ويورن فان لو	ممنوح عبد المنعم
٢٠٩- أقدم لك: الزمن والمخ	أنجوس جيلالي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محمى الدين مزيد
٢١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجود	فاطمة إسماعيل
٢١٢- روح الشعب الأسود	وليم دييويش	أسعد حلیم
٢١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعیدی
٢١٤- مارسيل نوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هوردا السباعی
٢١٥- جرامشى فى العالم العربی	ميشيل بروندينو والظاهر لبيب	كاميليا صبحی
٢١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسیم مجلى
٢١٧- بلا غد	س. شیر لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨- الالب الروسى فى السنوات العشر الاخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩- صور دريدا	جايترى اسيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠- لغة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينباود	خالد مفلح حمزة
٢٢٣- فن السائورا	تروث يوناني قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤- القبح بالانار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٢٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٢٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧- مخفارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٢٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٢٣٢- شهر الغسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحي العشرى
٢٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧- فلسفة الولاة	جوزايا رويس	أحمد الانتصارى
٢٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيروجلو	فخرى لبيب

حسن حلمي	راينر ماريا رلكه	قصائد من رلكه (شعر)	٢٤١-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبدالرحمن الجامي	سلامان وأبسال (شعر)	٢٤٢-
سمير عبد ربه	نادين جورديمر	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	٢٤٣-
سمير عبد ربه	بيتر بالانجيوي	الموت في الشمس (رواية)	٢٤٤-
يوسف عبد الفتاح فرج	يونو نداسي	الركن خلف الزمان (شعر)	٢٤٥-
جمال الجزيري	رشاد رشدي	سحر مصر	٢٤٦-
بكر الطلو	جان كركتو	الصبيبة الطائشون (رواية)	٢٤٧-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كويريلي	المتصورة الأولى في الألب التريكي (ج١)	٢٤٨-
أحمد عمر شاهين	أرش والدمورين وآخرون	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	٢٤٩-
عطية شحاتة	مجموعة من المؤلفين	باتوراما الحياة السياحية	٢٥٠-
أحمد الانتصاري	جوزايا روس	مبادئ النطق	٢٥١-
نعيم عطية	قسطنطين كفافيس	قصائد من كفافيس	٢٥٢-
علي إبراهيم منوفي	باسيليو بابون مالدونادو	الزئ الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	٢٥٣-
علي إبراهيم منوفي	باسيليو بابون مالدونادو	الزئ الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	٢٥٤-
محمود علاوي	حجت مرتجي	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	٢٥٥-
بدر الرفاعي	بول سالم	الميراث المر	٢٥٦-
عمر الفاروق عمر	ثيموثي فريك ويثير غاندي	متون هرمس	٢٥٧-
مصطفى حجازي السيد	نخبة	أمثال الهوسا العامة	٢٥٨-
حبيب الشاربي	أفلاطون	محاضرة بارمنيدس	٢٥٩-
ليلى الشربيني	أندويه جاكوب ونويلا باركان	أنثروبولوجيا اللغة	٢٦٠-
عاطف معتمد وآمال شاو	الآن جرينجر	التصحر: التهديد والمجابهة	٢٦١-
سيد أحمد فتح الله	هاينرش شبول	تميز يابنبرج (رواية)	٢٦٢-
صبري محمد حسن	ريتشارد جيبسون	حركات التحرير الأفريقية	٢٦٣-
نجلاء أبو عجاج	إسماعيل سراج الدين	حدائق شكسبير	٢٦٤-
محمد أحمد حمد	شارل بودليير	سام باريس (شعر)	٢٦٥-
مصطفى محمود محمد	كلاريسا بنگولا	نساء يركضن مع الثئاب	٢٦٦-
البراق عبد الهادي رضا	مجموعة من المؤلفين	النظم الجريء	٢٦٧-
عابد خزندار	جيرالد برنس	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	٢٦٨-
فوزية الشماوي	فوزية الشماوي	المرأة في أدب نجيب محفوظ	٢٦٩-
فاطمة عبدالله محمود	كلير لا لويت	الفن والحياة في مصر الفرعونية	٢٧٠-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كويريلي	المتصورة الأولى في الألب التريكي (ج٢)	٢٧١-
وحيد السعيد عبدالحميد	وانغ مينغ	عاش الشباب (رواية)	٢٧٢-
علي إبراهيم منوفي	أومبرتو إيكو	كيف تعد رسالة دكتوراه	٢٧٣-
حمادة إبراهيم	أندويه شديد	اليوم السادس (رواية)	٢٧٤-
خالد أبو اليزيد	ميلان كونديرا	الخلود (رواية)	٢٧٥-
إدوار الخراط	جان أنوي وآخرون	الغضب وأحلام السنن (مسرحيات)	٢٧٦-
محمد علاء الدين منصور	إدوارد براون	تاريخ الأدب في إيران (ج١)	٢٧٧-
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد إقبال	المسافر (شعر)	٢٧٨-

جمال عبدالرحمن	سنيل ياث	٣٧٩- ملك في الحقيقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	٣٨٠- حديث عن الضمارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٣٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادی	بهاء الدين محمد إسفنديار	٣٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٣٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزاد	٣٨٥- مشقري العشق (رواية)
روهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	جون دن	٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سمدي الشيرازي	٣٨٨- مواظ سمدي الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٣٨٩- تقاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى البروي	مايف بينشي	٣٩١- الحافلة التليكية (رواية)
عبداللطيف عبدالعليم	فرتانو دي لاجرانجا	٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيری	ندوة لويس ماسينيون	٣٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٣٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٣٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علائی	تقي نجاري راد	٣٩٦- السالك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتي شين	٣٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودي وهوارد ريد	٣٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	٣٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممنوح عبد المنعم	زيادون ساردر وأخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممنوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تولور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملايس تصنع الناس (روايات)
طلبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الصبي
حمادة إبراهيم	أنثويه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بقلم كتابه
عنان الشهلاوى	جوان فوشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامي عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينييفر أكرمان	٤١١- همس من الماضي
بإشراف: صلاح فضل	ليفي بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ٣)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفيا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. وتشاردن	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

- ٤١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جده) رينيه ويليك
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر الشاذلية جين هاثواي
٤١٩- العصر الذهبي للإسكندرية جون مارلو
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية) فولتير
٤٢١- الولاء والقادة في المجتمع الإسلامي الأول روى متحدة
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١) ثلاثة من الرحالة
٤٢٣- إسماءات الرجل الطيف نخبة
٤٢٤- لوائح الحق ولوائح العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجاسي
٤٢٥- من طابوس إلى فرح محمود طلوعى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى نخبة
٤٢٧- يانديراس الطاغية (رواية) باي إنكلان
٤٢٨- الخزنة الخفية محمد هوتك بن داود خان
٤٢٩- أقدم لك: هيجل ليود سينسر وأندرجي كروز
٤٣٠- أقدم لك: كانط كرستوفر وانت وأندرجي كليوفسكي
٤٣١- أقدم لك: فوكي كريس هوروكس وزدردان جفتيك
٤٣٢- أقدم لك: ماكيفاللي باتريك كيري وأوسكار زاريت
٤٣٣- أقدم لك: جويس ديفيد نوريس وكارل فلنت
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية دونكان هيث وجودي بورهام
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة نيكولاس زوريج
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) فريدريك كويلستون
٤٣٧- رحلات هندي في بلاد الشرق العربي شيلي النعماني
٤٣٨- بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بيبرس
٤٣٩- موت المراهبي (رواية) صبر الدين عيني
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة كرستن بروستاد
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداتي روي
٤٤٢- حثشيسوت: المرأة الفرعونية فوزية أسعد
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها وستويناها وتثيرها كيس فرستينغ
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه
٤٤٥- حول وزن الشعر برونز نائل خاتلري
٤٤٦- التحالف الأسود ألكسندر كوكين وجيفري سانت كليل
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم ج. پ. ماك إيفوي وأوسكار زاريت
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور ديلان إيلانز وأوسكار زاريت
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية نخبة
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وريبيكا رايت
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزبورن وبودن فان لون
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إيجينانزي وأوسكار زاريت
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة جان لوك أرنو
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية رينيه برودال
- مجاهد عبدالمنعم مجاهد
عبد الرحمن الشيخ
نسيم مجلى
الطيب بن وجب
أشرف كيلاني
عبدالله عبدالرازق إبراهيم
وحيد النقاش
محمد علاء الدين منصور
محمود علاوى
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
ثريا شلبى
محمد أمان صافى
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
حمدي الجابري
عصام حجازي
ناجي وشوان
إمام عبدالفتاح إمام
جلال الحفناوي
عايدة سيف الدولة
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
محمد طارق الشرقاوي
فخري لبيب
ماهر جويجاني
محمد طارق الشرقاوي
صالح علماني
محمد محمد يونس
أحمد محمود
ممنوح عبدالمنعم
ممنوح عبدالمنعم
جمال الجزيري
جمال الجزيري
إمام عبد الفتاح إمام
محيي الدين مزيد
حليم طوسون وفؤاد الدهان
سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلمستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح
٤٥٨-	المويسكيون الأنطلسيون	مريثيس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نمو مفهوم لاتصايات الموارد الطبيعية	توم تيتنبورج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والتأزيرة	ستوارت هود وليتزا جاستنز	إمام عبدالفتاح
٤٦١-	أقدم لك: لكن	داريان ليدر وجوى جروفز	إمام عبدالفتاح
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصانق محمودى	عبدالرشيد الصانق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارتنى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنتزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولن فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفن ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزابا رويس	أحمد الانتصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرنيسكى وأخرون	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كىخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كىخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال غنائى
٤٧٦-	أرض الصايب بعيدة: يوم التونسى	مارلين يوث	سهر توفيق
٤٧٧-	تاريخ تسعين سنة ما قبل التاريخ عصر الفلن العصرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى لونغ	عبد العزيز حمذى
٤٧٩-	المقهسى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمذى
٤٨٠-	تسالى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمذى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبرت ياكوس	رشيد بنحمو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالطيم عبدالقنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسْرُل: الفلسفة علماً وحقاً	إدموند هُسْرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسعار البقاء	محمد قاندى	عبد الوهاب طوب
٤٩١-	نصوص تصمى من روائع الأدب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

- ٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات هارولد بالمر
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج في النهار نصوص مصرية قديمة
٤٩٥- اللوى إدوارد تيفان
٤٩٦- الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١) إكواو بانولى
٤٩٧- اللطانية والنوع والنوع في الشرق الأوسط ناديا العلى
٤٩٨- النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث جوديث تاكر ومارجريت مريونز
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع مجموعة من المؤلفين
٥٠٠- في طوافي: دراسة في السيرة الذاتية العربية نيتز روكي
٥٠١- تاريخ النساء في الغرب (ج١) أرثر جولد هامر
٥٠٢- أصوات بديلة مجموعة من المؤلفين
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسي الحديث نخبة من الشعراء
٥٠٤- كتابات أساسية (ج١) مارتن هايدجر
٥٠٥- كتابات أساسية (ج٢) مارتن هايدجر
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية) أن تيلر
٥٠٧- سيدة الماضي الجميل (مسرحة) بيتر شيفر
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومي عبدالباقى جلبنارلى
٥٠٩- الفخر والإحسان في مصر سلاطين الممالك آدم صبرة
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحة) كارلو جولونوى
٥١١- كوكب مرعق (رواية) أن تيلر
٥١٢- كتابة النقد السينمائي تيموثى كوريجان
٥١٣- العلم الجصور تيد أنتون
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية جونثان كولر
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة فدوى مالمى بوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان في علاج الإيمان أرنولد واشنطنون ودونا ياوندى
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى نخبة
٥١٨- استكشاف الأرض والكون إسحق عظيموف
٥١٩- معاضرات في المثالية الحديثة جوزايا رويس
٥٢٠- النوع الفرنسي بمصر من العلم إلى المشرع أحمد يوسف
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة أرثر جولد سميت
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها أميركو كاسترو
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمجنن باسيلييو يابون مالدونانو
٥٢٤- الملك لير (مسرحة) وليم شكسبير
٥٢٥- موسم صيد في بيروت وقصص أخرى نثيس جوتسون
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية ستيفن كروى ووليم رانكين
٥٢٧- أقدم لك: كافكا ديفيد زين ميروفيتس وروبرت كرمب
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية طارق على وفل إيفانز
٥٢٩- يدائع العلامة إقبال في شعره الأردى محمد إقبال
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية رينيه جينو
- محمد صالح الضالع
شريف الصيغى
حسن عيد ربه المصرى
مجموعة من المترجمين
مصطفى رياض
أحمد على بدوى
فيصل بن خضراء
طلعت الشايب
سحر فراج
هالة كمال
محمد نور الدين عبدالمنعم
إسماعيل المصنق
إسماعيل المصنق
عبدالحاميد فهمى الجمال
شوقى فهمى
عبدالله أحمد إبراهيم
قاسم عيده قاسم
عبدالرازق عيد
عبدالحاميد فهمى الجمال
جمال عبد الناصر
مصطفى إبراهيم فهمى
مصطفى بيومى عيد السلام
فدوى مالمى بوجلاس
صبرى محمد حسن
سمير عبد الحميد إبراهيم
هاشم أحمد محمد
أحمد الانصارى
أمل الصبان
عبدالوهاب بكر
على إبراهيم منوفى
على إبراهيم منوفى
محمد مصطفى بدوى
نادية رفعت
محمي الدين مزيد
جمال الجزيرى
جمال الجزيرى
حازم محفوظ وحسن نجيب المصرى
عمر الفاروق عمر

صفا فتحي	جاك دريدا	٥٣١- ما الذي حدث في مَحَنَة ١١ سبتمبر؟
يشير السباعي	هنري لورنس	٥٣٢- المغامر والمستشرق
محمد طارق الشرفاوي	سوزان جاس	٥٣٣- تعلم اللغة الثانية
حمادة إبراهيم	سيفرين لوبا	٥٣٤- الإسلاميين الجزائريون
عبدالعزیز بقوش	نظامي الكتيجوي	٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)
شوقي جلال	سمويل منتجبون ولورانس هاريزون	٥٣٦- الثقافات وتقيم التقدم
عبدالقادر مكارى	نخبة	٥٣٧- للحب والعزبة (شعر)
محمد العديدي	كيت داتيلر	٥٣٨- النفس والأخر في قصص يوسف الشاروني
محسن مصباحي	كاريل تشرشل	٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة
روفي عباس	السير رونالد ستورس	٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية
مروة ديق	خوان خوسيه مياس	٥٤١- هي تشخيل وهافس أخرى
نعيم عطية	نخبة	٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث
وفاء عبدالقادر	باتريك بروجان وكريس جرات	٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية
حمدي الجابري	روبرت هنتشل وأخرون	٥٤٤- أقدم لك: ميلاي كلاين
عزت عامر	فرانسيس كريك	٥٤٥- يا له من سباق محموم
توفيق علي منصور	ت. ب. وايزمان	٥٤٦- ريموس
جمال الجزيري	فيليب توي وأن كورس	٥٤٧- أقدم لك: بارت
حمدي الجابري	ريتشارد أوزيرين ويون فان لون	٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع
جمال الجزيري	بول كويلي وإيتاجانز	٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات
حمدي الجابري	نيك جروم ويبيد	٥٥٠- أقدم لك: شكسبير
سمحة الخواي	سايمون ماندي	٥٥١- الموسيقى والعزلة
علي عبد الرحوف الببسي	ميجيل دي ثريانتس	٥٥٢- قصص مثالية
رجاء ياقوت	دانيال لوفرس	٥٥٣- مثل لشعر الفرنسي الحديث والمعاصر
عبدالسميع عمر زين الدين	عفاف لطفي السيد مارسوه	٥٥٤- مصر في عهد محمد علي
أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالي	أناثولي أرتكن	٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية القرن العاشر والعشرين
حمدي الجابري	كريس هوروكس وزودان جيفتك	٥٥٦- أقدم لك: جان بوجريار
إمام عبدالفتاح إمام	ستوارت هود وجراهام كرولي	٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد
إمام عبدالفتاح إمام	زيودين ساردارويون فان لون	٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية
عبدالحى أحمد سالم	تشا تشاجي	٥٥٩- الناس الزائف (رواية)
جلال السعيد الحفناوي	محمد إقبال	٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)
جلال السعيد الحفناوي	محمد إقبال	٥٦١- جناح جبريل (شعر)
عزت عامر	كارل ساجان	٥٦٢- بلايين ويلايين
صبري محمد التهامي	خاينيتو بينابيتي	٥٦٣- ورده الخريف (مسرحية)
صبري محمد التهامي	خاينيتو بينابيتي	٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)
أحمد عبدالحميد أحمد	ديورا ج. جيوتر	٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر
علي السيد طي	موريس بيشوب	٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى
إبراهيم سلامة إبراهيم	مايكل رايس	٥٦٧- الزئبق المتعصب
عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر	٥٦٨- الأصول في الرواية

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير رويرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإشباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الزراعة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فريد	ريتشارد أبيتاناس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعملة	نجير ويدز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قنري عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيمى ميزوكوشى	محمد إبراهيم ومصام عبد الرزاق
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محبي الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج ١)	جون فيذر ويول سيجرتز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١-	الصمقي يعبوتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجبيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود لوت أبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزيث مالكموس ودي أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنيس كابول	ماهر جويجاني
٥٨٩-	شبكة العجينة (رواية)	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	لساطير من المزيجات الشعبية الفنانية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج١)	محمد صبرى السوربوتى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزي
٥٩٥-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج٢)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت ديچارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلو غرنطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدلفورد	بيومي على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهزين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوة والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتارنخو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافي	أرثر أيزنبرجر	وفاة إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصفير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦-	قصة البردى اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

صبري محمد حسن	هارى سينت فيلبى	٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (ج١)
صبري محمد حسن	هارى سينت فيلبى	٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (ج٢)
شوقي جلال	أجنر فوج	٦٠٩- الانتداب الثقافى
على إبراهيم منونى	رفانيل لويث جوشمان	٦١٠- العمارة المحنة
فخرى صالح	تيرى إيجلتون	٦١١- النقد والأيدولوجية
محمد محمد يونس	فضل الله بن حامد الحسينى	٦١٢- رسالة النفسى
محمد فريد حجاب	كوان مايكل هول	٦١٣- السياحة والسياسة
منى قطان	فوزية أسعد	٦١٤- بيت الأقصر الكبير (رواية)
محمد رفعت عواد	أليس بيسيرينى	٦١٥- مرض الاحلحة اثر راعه فى بلاد من ١٩١٧ إلى ١٩١٩
أحمد محمود	روبرت يانج	٦١٦- أساطير بيضاء
أحمد محمود	هوراس بيك	٦١٧- الفولكلور والبحر
جلال البنا	تشارلز فيليس	٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة
عايدة الباجورى	ريمون استانبولى	٦١٩- مفتاح أورشلیم القدس
بشير السباعى	توماش ماستناك	٦٢٠- السلام الصليبي
فؤاد عكود	وليم ي. آدمز	٦٢١- التربة المعبر الحضارى
أمير نبيه وعبد الرحمن حجازى	أى تشينغ	٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين
يوسف عبدالفتاح	سعيد قانعى	٦٢٣- توابر جحا الأيرانى
عمر الفاروق عمر	ريشه جينو	٦٢٤- أزمة العالم العنيد
محمد براءة	جان جينيه	٦٢٥- الجرح السرى
توفيق على منصور	نخبة	٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (ج٢)
عبد الوهاب غوط	نخبة	٦٢٧- حكايات إيرانية
مجدى محمود المليجى	تشارلز داروين	٦٢٨- أصل الأنواع
عزة الشميسى	نيقولاس جويات	٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية
صبرى محمد حسن	أحمد بللو	٦٣٠- سيرتى الذاتية
بإشراف: حسن طلب	نخبة	٦٣١- مختارات من الشعر الأتريقى المعاصر
رائيا محمد	بولورس برامون	٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا
حمادة إبراهيم	نخبة	٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)
مصطفى البهنساوى	روى ماكويدي واسماعيل سراج الدين	٦٣٤- مكتبة الإسكندرية
سمير كريم	جودة عبد الخالق	٦٣٥- التثبيث والتكيف فى مصر
سامية محمد جلال	جناب شهاب الدين	٦٣٦- حج يولاندة
بدر الرفاعى	ف. روبرت هنتر	٦٣٧- مصر الخديوية
فؤاد عبد المطلب	روبرت بن ودين	٦٣٨- الديمقراطية والشعر
أحمد شافعى	تشارلز سيميك	٦٣٩- فننق الأرق (شعر)
حسن حبشى	الاميرة أناكوميثا	٦٤٠- ألكسياد
محمد قدرى عمارة	برتراند رسل	٦٤١- برتراند رسل (مختارات)
مدوح عبد النعم	جوناثان ميلر ويورين فان لون	٦٤٢- أقدم كت: داروين والتطور
سمير عبد الحميد إبراهيم	عبد الماجد الدريابادى	٦٤٣- سفرنامة حجاز (شعر)
فتح الله الشيخ	هوارد د تيرنر	٦٤٤- العلوم عند المسلمين

٦٤٥-	السلسلة التاريخية الأمريكية وساميرما التاريخية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سمير ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون تينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الثوب وقصص خرافية أخرى	جى دى موياسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الوثة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوبن	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليبيس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفلة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الضميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض العمراء (مسرحيات)	ألونسو ساسترى	ممدوح البستوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أريزال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	ناقذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنود	داسو سالدبيار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عابية	ليويسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كرهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كلين	جمال عبد الناصر ودمت الجبار وجمال جاء الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون وماسا ميوشى	لىلى الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أنولفو	جوستاف أنولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهاال سالم
٦٧٣-	حرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الشفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الغمىنى	آية الله العظمى الغمىنى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١، ج٢)	إدوارد جراتفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب في إيران (ج٢، ج١)	إدوارد جراتفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستاتلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حطر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

صبري محمد حسن	ت. م. ألوكر	سكين واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٣-
رزق أحمد بهنسي	أوراثيو كيروجا	الأمثال النصبية الكاملة (إنا كنا) (ج١)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسي	أوراثيو كيروجا	الأمثال النصبية الكاملة (السمراء) (ج٢)	٦٨٥-
سحر توفيق	ماكسين هوتج كنجستون	امرأة محاربة (رواية)	٦٨٦-
ماجدة العناني	فتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحي	فيليب م. دوير وريتشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تادوروش روجيفيتش	الملف (مسرحة)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم أبنيتش في فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أبنيتش: حياته وفكراته	٦٩١-
حمدي الجابري	ريتشارد أيبجانسي وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجودية	٦٩٢-
جمال الجزيري	حانيم يوشيت وآخرون	أقدم لك: القتل الجماعي (المحرقة)	٦٩٣-
حمدي الجابري	جيف كوليزر وبيل مايلين	أقدم لك: نريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروف	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ودفين وجودي جروف	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سينسر وأندريجي كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيري	إيفان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسي	٦٩٩-
بسمة عبدالرحمن	ماريو فرجاش	الكاتب وواقعه	٧٠٠-
منى البرنس	وليم رود فينيان	الذاكرة والعدالة	٧٠١-
محمود علوي	أحمد وكيليان	الأمثال الفارسية	٧٠٢-
أمين الشواربي	إدوارد جرانتيل براون	تاريخ الآب في إيران (ج٢)	٧٠٣-
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومي	فيه ما فيه	٧٠٤-
عبد الحميد منكور	الإمام الغزالي	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	٧٠٥-
عزت عامر	جونسون ف. يان	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	٧٠٦-
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليجل وآخرون	أقدم لك: فالتر بنيامين	٧٠٧-
روح عباس	دونالد مالوكولم ريد	فراغة من؟	٧٠٨-
عادل نجيب يشري	ألفريد أدلر	معنى الحياة	٧٠٩-
دعاء محمد الخطيب	يان هاتشباي وجوموران إليس	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	٧١٠-
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادي رسوا	درة التاج	٧١١-
سليمان البستاني	هوميروس	مراث الترجمة: الإلياذة (ج١)	٧١٢-
سليمان البستاني	هوميروس	مراث الترجمة: الإلياذة (ج٢)	٧١٣-
حنا صاوه	لامتية	مراث الترجمة: حديث القلوب	٧١٤-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج١)	٧١٥-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٦-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٣)	٧١٧-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٤)	٧١٨-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٥)	٧١٩-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٦)	٧٢٠-

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج ١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبیب عبد الغنى
٧٢٢-	الصلیحة وقصص أخرى	یشار کمال	الصفصافی أحمد القلوری
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم تيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدي	بول روبنسون	عبدہ الرئيس
٧٢٥-	الاضطراب النفسي	جون فينكس	می مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون في المغرب	غيزمو غوثا ليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تغيير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية في إيران	صادق زيبا كلام	هویدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتي	عزت عامر
٧٣١-	النوع النكر والتشيز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدری عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتس	سمير جريس
٧٣٣-	ماساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت في الشرق الإسلامي	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة في العربية	مايكل كويرسون	محمود محمد مكي
٧٣٦-	التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (ج ١)	هوارد زن	شعبان مكارى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	باتريك ل. أبوت	توليف على منصور
٧٣٨-	مدى من سحر ما قبل التاريخ إلى الثورة السلوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	مدى من الإمبراطورية الشافعية إلى الثورة الحشرية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات القوة	بارى هندس	مرقت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاکواندا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقي جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدتبلی	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج ١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعمی
٧٤٧-	الاستعارة في لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمي	فرانسیس بویل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفی	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج في تراث الشعر الفارسي	نخبة	علاء السباعی
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عارورى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا ماری شميل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين	أندرو ب. ديكي	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكي خاربيل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	أمال الرويى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روينز	عاطف عبد الحميد

جلال الحفناوى	مولوى سيد محمد	٧٥٩- النشر الأردى
السيد الأسود	السيد الأسود	٧٦٠- الدين والتصوّر الشعبى للكون
فاطمة ناعى	فيرجينيا رولف	٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة ()
عبدالعال صالح	ماريا سوليداد	٧٦٢- المسلم عنوا و صديقاً
نجوى عمر	أثريكو بيا	٧٦٣- الحياة فى مصر
حازم محفوظ	غالب الدهلوى	٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)
حازم محفوظ	خواجة الدهلوى	٧٦٥- ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)
غازى برو و خليل احمد خليل	تيرى منتش	٧٦٦- الشرق المتخيل
غازى برو	نسيب سمير الحسيثى	٧٦٧- الغرب المتخيل

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٩٩٧ / ٢٠٠٥

الرقم الدولي - 977-305-824-7